مذكرات من التراث المغربي

مدير المجموعة : العربي الصقلي
مدير النشر : هنري موراف
الوثائق : كترين المعتمد و محمد ممدوح
التصميم : جوزي مورو
الاعمال التصويرية : أنييس أودول و محمد بوعمري
التصفيف الكهروني وكتابة التحرير : بشرى بنعزوز
المراجعة والتصحيح : عبد السلام حجي





مذكرات من التراث المغربي

مجموعة يشرف عليها **العربي الصقلي**

الجزء الثالث

646 - 1076 هـ / 1248 - 1666 م .

من تـمثين الدولة إلى المـخاطر

هذه المجموعة مكونة من ثمانية مجلدات

الجزء الأول : ... - 40 هـ موافق ... - 660م
ميلاد مركز حضاري

الجزء الثاني : 40هـ - 646 هـ موافق 660 م - 1248 م
الطابع الاسلامـي

الجزء الثالث : 646 - 1076 هـ موافق 1248 - 1666 م
من تمثين الدولة الى المخاطر

الجزء الرابع : 1076 - 1324 هـ موافق 1666 - 1906 م
من العظمة الى المؤامرات والدسائس

الجزء الخامس : 1324 - 1352 هـ موافق 1906 - 1933 م
تجزئة ومقاومـة

الجزء السادس : 1352 - 1374 هـ موافق 1933 - 1955 م
كفاح الملك والشعب

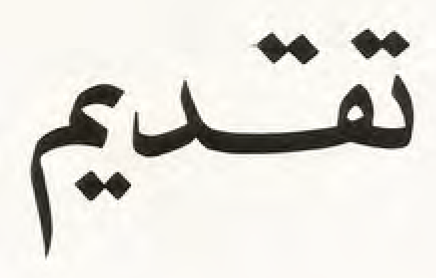
الجزء السابع : 1374 - 1404هـ موافق 1955 - 1983 م
في ركاب الامـم

الجزء الثامن : 1404 هـ - ... موافق 1983 م
المغرب خالد : تراث فاخر .

فهرست

الجزء الاول

الجزء الثاني



تحكي عن التاريخ المغربي ، وعن عصوره القديمة والحديثة والمعاصرة ، وعن ملامحه وأمجاده ، ووقائعه وأحداثه ، كتب ومؤلفات ومدونات كثيرة ومتنوعة ، يمكنها إذا جمعت في قالب واحد أن تشكل هيكلا متكاملا يحمل نظرة شاملة عن هذا التراث الأصيل ، ويكشف عن روح هذه الأمة ذات التاريخ الموغل في البعد والقدم ، والعائد إلى آلاف السنين .

انطلاقا منه ، نبعت فكرة إنجاز مجموعة «مذكرات من التراث المغربي» على غرار ما تم إصداره في العديد من الدول ، وعلى أساس أن تتضمن هذه المجموعة ، المكونة من ثمانية مجلدات ، كتابة حديثة للتاريخ المغربي ، بأسلوب عصري يعتمد البساطة والسلالة واليسر ، ويطرح الأحداث والأخبار التاريخية بلغة بعيدة عن الجمود ، قريبة مما تتداوله الأجهزة الاعلامية المرئية والمقروءة والمسموعة ، حتى تكون في متناول وطوع أمر مختلف الفئات والمستويات التربوية والتعليمية والثقافية .

ولأجل هذه الغاية ، وقع الاختيار على شخصية إعلامية مارست العمل الصحفي والاعلامي طوال حياتها متدرجة من قاعدته عبر مختلف مستوياته ، وتتمثل في الصحفي **العربي الصقلي** ، الذي أسندت إليه مهمة إدارة هذه المجموعة .

وقد تسنى لهذا الرجل بفضل تجربته وإلمامه بهذا المجال الخصب ، أن يستقرئ التاريخ المغربي عن طريق رجالات هذا البلد من المختصين في شتى الجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا والآثار والاناسة وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والديبلوماسية والكتابة ، ممن لبوا الدعوة بتلقائية ، فأسهموا بمعارفهم وعلومهم في إثراء هذه المجموعة من الوجهة الثقافية والاعلامية والتاريخية .

ويمكن للقارئ الكريم من خلال تصفحه لهذه المجموعة تسجيل الملاحظات التالية :

– إن الأصول والمصادر التي استقيت منها الوثائق والمعلومات قد تمت الاشارة اليها بإيجاز تجنبا للاطالة في التعاليق والمفاتيح .

– إن النصوص الأصلية التي وردت على سبيل الاستشهاد والاستئناس وقع اختصارها بدورها ، فجاءت مكملة للصورة الشاملة للنص حاجة إلى مراجع وجداول فهرسية .

– إن المصطلحات العلمية والأسماء المتصلة بالشخصيات والأقطار والمدن والأمصار والقبائل تم الرجوع في ترجمتها الى مؤلفي النصوص الأصلية أو إلى معاجم متخصصة صادرة عن هيئات ومكاتب ومؤسسات خاصة إقليمية ودولية .

وإننا لنود في الختام أن نتوجه بجزيل الشكر إلى كل الذين ساهموا في إصدار هذا المؤلف على مابذلوه من تضحيات وقاموا به من جهود ، متمنين أن يوفق هذا العمل الثقافي الاعلامي التاريخي في إعطاء جيد الصور وجليها عن شخصية وأصالة وحضارة الأمة المغربية .

مذكرات من التراث المغربي

مَدخلٌ إلى

هناك أناس صنعوا التاريخ ... وآخرون عاشوا أحداثه ... بعضهم ترك اسما ، صنع أحداثا ، خلف سمات أو آثارا أو ملحمات ... وبعضهم ترك وراءه ذكريات ، أو أوجد حكايات خرافية ... ومنهم من لعنتهم الكتابات هجرتهم ذاكرة المجتمع إلا أنهم رغم ذلك ، خلقوا ، وابتدعوا ، وشاركوا في تطور حقبهم وأزمنتهم ولو أننا قابلناهم بالرفض في أزمنتنا وحقبنا .

إن الحافظة لايسعها إلا أن تحييهم ، وتبعث ذكرهم جميعا . وإن التعرض لوجودهم على صفحات التاريخ ومعايشة حياتهم ومشاغلهم اليومية وإصدار المؤلفات للحديث عنهم إن هو إلّا هي استعادة للذكريات وانتشال للكلمات والوقائع لأجل صياغتها في كتاب للمذكرات كالذي نقدمه في هذه الصفحات الذهبية من تاريخ المغرب المجيد .

يفتخر المغرب ويعتز بكونه صانع حضارة أصيلة ذات منجزات علمية وثقافية إنسانية ، وهو الذي يملك ثروة تاريخية ، لايجادل فيها ، تشهد بعظمته كأمة موغلة في القدم ترجع إلى آلاف السنين .

وتقترح الموضوعات التي يحفل بها هذا المجلد على القارىء حقبا تستغرق حوالي خمسة قرون ... فكيف إذن يمكن حصر الحديث عن مغرب ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر في هذا العدد القليل من الصفحات ؟ وهل من الممكن أن يتعرض المرء خلالها لحياة زعيم أو مهندس أو مفكر مع التطرق لشخصيات أخرى مشهورة ؟

أو ليس من التعسف أن نحمل هذا الحيز الضيق كل هذا العدد الضخم من الأحداث التاريخية الطافحة بالمجد ؟

إن الأمر لايتعلق هنا بمجرد مؤلف بسيط عن تاريخ **المرينيين والسعديين** ، إذ أن الموضوعات المعالجة والتي تطل من بين سطور هذا المجلد جاءت أيضا لأرهاف حس السواد الأعظم إزاء المراحل القوية والمشوقة من التاريخ المغربي .

والحال أن بعض المقالات إذا كان قد تم تحريره ، عن قصد ، بشفافية الصحفي ، فإن بعضها الآخر عولج بدقة وأناة تشبهان دقة وأناة الصائغ .

في الجزء الأول من هذا المجلد ، يعالج الأستاذ **محمد المنوني** « **فن الهندسة المعمارية عند المرينيين** » ، والسيد **المنوني** يتميز ، فضلا عن درايته كمؤرخ ، بولعه باقتناء الكتب والمخطوطات ، غير أنه على عكس أكثر معاصريه لايتوفر على جذاذات ولا على « أرشيف » ولا يستعمل المذكرة ولا العقل الالكتروني ، لسبب وجيه ألا هو أن في استطاعاته بمحض ذاكرته أن يسرد تاريخ المغرب وأن يذكر نوع الورق والمداد اللذين خط بهما هذا الكتاب أو ذاك في ماضي الوطن .

أما مقال الأستاذ **عبد الهادي التازي** في موضوع « **الساعات المائية** » ، فقد تطلب من هذا الأكاديمي والدبلوماسي والكاتب مجهودا استغرق زهاء ربع قرن من البحث والتقصي . ولذلك فسيجد فيه القارىء نتاج باحث منقب ونص خبير مدقق .

وموضوع « **سبتة** » قدم عنه الأستاذ **محمد العربي الخطابي** دراسة مطولة ومشوقة ، هذا الأديب الأكاديمي ، ورجل السياسة والاعلام ، ومحافظ الخزانة الحسنية .

أما موضوع « **ركب الحج** » و «**وصف فاس ومراكش**» **للحسن**

المجلد الثالث

أو « **ليون الافريقي** » ، فتكون قسما آخر من الجزء الأول المفرد عن المرينيين .

من جهة أخرى ، يتعرض السيد **عبد الغني مغنية** لشخصية **ابن** ، كما يعالج في مجلد آخر خصائص التربية التقليدية انطلاقا من دراسته .

يتضمن هذا القسم بتوقيع السيد **عبد الملك الفيزازي** ، مقالا عن **جديد** » ، وهو عبارة عن دراسات لتاريخ هذه المدينة ومبانيها الأثرية .

ويحكي لنا السيد **محمد بن عزوز حكيم** ، المؤرخ ، حياة سيدة كان عليها اسم « **السيدة الحرة** » طبعت تاريخ الشمال المغربي طوال فترة الوطاسيين ، كما يبين مدى ما كانت تتميز به من خصال جعلتها ترقى إلى الأميرات وتتبوء مكانة مرموقة في المجتمع المغربي خلال تلك الحقبة .

أما الجزء الثاني من هذا المجلد فقد التزم بإبراز الأحداث المثيرة التي حقبة **دولة السعديين** ، حيث كرس الأستاذ **محمد حجي** عميد كلية والعلوم الانسانية بالرباط مقاله لتقديم تلك الحقبة التي ميزها «**التهديد** » وللحديث عن تأسيس الدولة الجديدة .

ويقدم نفس الكاتب مقالا طريفا بعنوان « **الفيل والتبغ** » عن تسرب المغرب من أمريكا عن طريق نهر النيجر .

أما المؤرخ السيد **حميد التريكي** فقد جذبت انتباهه شخصية كانت ذات صيت وشهرة عالميين في نهاية القرن السادس عشر ، هي شخصية **عبد الملك السعدي** الذي رغم قصر مدة حكمه التي لم تستوف ثلاث سنوات ، استطاع بفضل كفاءته الدبلوماسية وحنكته في تسيير أمور دولته أن يقلب الأوراق في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وقد نقل إلينا الاستاذ **التريكي** بمجهود استقصائي مشكور مجموعة من التفاصيل المفيدة .

أما موضوع العلاقات المغربية السودانية في القرن السادس عشر فقد افرد له المؤرخ **محمد مزين** مقالا تطرق فيه للمظاهر السياسية والاقتصادية للعلاقات التي كانت قائمة بين البلدين ؛ وقد استخلصت من هذه الدراسة ، التي أحاطت بموضوعات « **الرحلة إلى السودان** » و « **أحمد بابا** » و « **المغرب في مواجهة التهديد الأجنبي** » ، عدّة مقالات عن « **المغرب والسودان** » .

وكل حديث عن حقبة السعديين يكون ناقصا إذا لم يشر إلى « **معركة الملوك الثلاثة** » . وعنها يتحدث الأستاذ **محمد زنيبر** وقد حمل إلينا هذا المؤرخ ، الذي وضع هذه المعركة في قالبها السياسي والاقتصادي الشامل ، عناصر جديدة لاشك أنها ستستدعي اهتمام القارىء الكريم .

وهكذا ينتهي المجلد بمقال عن المجاهد « **العياشي** » و « **قراصنة سلا** » .

فشكرا جزيلا للسادة الأساتذة الذين أسهموا بعملهم القيم في انجاز هذا السفر فقدّموا بذلك خدمة جليلة لتاريخ المغرب ، الحافل بالمعاني والغني بجلائل الأعمال .

العربي الصقلي



دولة بني مرين

كانت فترة حكم دولة بني مرين من أزهى الفترات ، وقد عملت هذه الاسرة الحاكمة تحت قيادة ملوك بانين ، يتّصفون في أغلب الاحيان بالورع ، على تقوية وتمتين بنيات الدولة التي امتدّ نفوذها عبر المغرب الكبير والاندلس .

وقد وقع الاختيار ، في الجزء الاول من هذا المجلد ، على موضوعات تُبرز مظاهر الحضارة ، والأبّهة ، التي عرفتها البلاد في عهدي السلطانين : أبي الحسن ، وأبي عنان اللذين حكما على التوالي (في فترتي 1331-1348 و 1348-1358).

أما العلوم والفنون والهندسة المعمارية فقد عرفت جميعها أوج الرقي والازدهار في هذه الحقبة نفسها ، كما ساهمت في نشر تقنيات جديدة في ميدان البناء والتعمير .

وقد شهدت هذه الفترة التاريخية أيضا رجالات كابن خلدون وابن بطوطة ، اللذين ميّزا جيلهما وعصرهما بما أضافاه من قيم كونية إلى رصيد العلم والثقافة الانسانية .

لائحة ملوك الدولة المرينـيـة

أبو سعيد عثمان بن عبد الحق	1239 - 1217
أبو معرف محمد بن عبد الحق	1244 - 1239
أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق	1258 - 1244
أبو حفص عمر بن أبي بكر	1259 - 1258
أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق	1286 - 1259
الناصر لدين الله يوسف بن يعقوب	1307 - 1286
أبو ثابت عمرو بن عبد الله بن يوسف	1308 - 1307
أبو ربيع سليمان	1310 - 1308
أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الله	1331 - 1310
المنصور بالله أبو الحسن علي بن عثمان	1351 - 1331
المتوكل على الله أبو عنان	1358 - 1351
السعيد بالله الاول أبو بكر بن أبي عنان	1359 - 1358
المستعين بالله أبو سالم ابراهيم	1361 - 1359
أبو عمر تاشفين بن أبي الحسن	1361
المتوكل على الله أبو زيان محمد	1367 - 1361
أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن	1372 - 1367
السعيد بالله أبو زيان محمد بن عبد العزيز	1374 - 1372
المستنصر بالله أبو العباس أحمد بن سالم (المرة الاولى)	1374 - 1384
المتوكل على الله أبو فارس موسى بن أبي عنان	1384
المنتصر بالله أبو زيان محمد بن أبي العباس	1386 - 1384
الواثق بالله أبو زيان محمد	1387 - 1386
المستنصر بالله أبو العباس (مرة ثانية)	1393 - 1387
المستنصر بالله أبو فارس	1396 - 1393
المستنصر بالله أبو عامر عبد الله بن أبي العباس	1420 - 1396
أبو سعيد عثمان بن أبي العباس	1423 - 1420
أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس	1465 - 1423
الشريف أبو عبد الله الحافظ (بويع بفاس)	1465 - 1464



عبد الحق
أبو يوسف يعقوب
(656 - 685 هـ.)
أبو سعيد عثمان
(709 - 731)
أبو يعقوب يوسف
(685 - 706)
أبو علـي
أبو الحسن
(731 - 752)
أبو عبد الرحمان
أبو عمار
علي
أبو الربيع
(707 - 709)
أبو ثابت
(706 - 707)
أبو عنان
(749 - 760)
أبو عمر
(762)
أبو سليم
(761 - 762)
عبد الرحمان
العزيز
(774 -
مـوسـى
(786 - 788)
المعتمد
سعيد
(760 - 761)
أبو العباس
(776 - 786)
(789 - 796)
أبو زيان
(762 - 768)
الثاني
(776 -
أبو سعيد الثالث
(800 - 823)
عبد الحق
(823 - 869)
شجرة نسب الاسرة المرينية
(أسماء أفراد الاسرة الذين حكموا وضعت داخل اطار)

حضارة بني مرين من خلال منشآتهم المعمارية

محمد المنوني

تتبوأ الحضارة المرينية درجة مرموقة في ميدان البناء والتسيير ، وهي ظاهرة أثارت إكبار مؤلف « **اللسان المعرب...** »، فسجل مأثرة الدولة المرينية كنموذج من تفوقها:

« **ولقد خلفت من ءاثار مدنيتها وشواهد عظمتها ما لم تخلفه دولة من دول المغرب قبلها ولا بعدها ، تشهد لذلك مدارسهم في سائر مدن المغرب الأقصى والأوسط ، ومساجدهم وحصونهم وأبنيتهم الباقية – إلى الآن – دينا على الدول الأخرى** ». [1]

وقد اتجهت مبانيهم وجهات منوعة ، وكان في طليعتها الحاجيات العسكرية والسكنية ، كما اهتموا بالعمائر الدينية والثقافية ، وبرهنوا ببنيات أخرى على عناية – زائدة – بالقطاع الاجتماعي .

وهكذا شيدوا المدن والقصور ، والقلاع والقرى والمراقب ، وابتنوا الجوامع والمدارس ، وأسسوا المستشفيات والملاجىء وديار الضيافة ، وعملوا تجهيز بعض المدن بالدورة المائية .

وكانوا ينفقون بسخاء على إقامة المؤسسات ، حتى إن أحد سلاطينهم امتنع عن مراجعة الحسابات الراجعة لتسيير مدرسة ، ليبرهن على مدى اهتمامه بإتقان العمل مهما



« لابأس بالغالي إذا قيل حسن ».
(كليشه بوعمري).

...ف ذلك من التعويضات ، وردد – في هذه ...سبة – قولة الشاعر العربي :

...س بالغالي إذا قيل : حسن
ليس لما قرت به العين ثمن

ومع هذا : لاينبغي إغفال ظاهرة التوزيع ... المنشآت ، حيث استأثرت المنطقة الشمالية ... نسبة ، بينما حصة مباني الجنوب تميل إلى ...حاض ، وقد لاحظ هذا – بمدينة مراكش – ... في أواسط المائة الهجرية الثامنة:

وأولهما هو ابن بطوطة الذي يسجل عن العاصمة الموحدية استيلاء الخراب عليها .

وبعده – ببضع سنوات – يزورها لسان ...ين بن الخطيب ، ويشاهد ما صار إليه وضع العمارات الموحدية ، فيترجم ارتساماته إلى لغة الشعر ويقول:

... قد عراه صرف الليالي
وأباح المصون منه مبيح
فالذي خر من بناه قتيل
والذي خر منه بعض جريح...

وإلى هذه الظاهرة يلاحظ وجود ركود ...رت فيه عمليات البناء والتشييد خلال العقود ...لى لتأسيس الدولة ، حتى إذا استقر الحكم ...ني استعاد فن العمارة نشاطه في ظل العهد ...ديد ، مارا بثلاثة أدوار رئيسية:

يبتدي الأول من ولاية أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق عام 657 / 1259 ، إلى أن ينتهي عام 710 / 1310 ، وهو تاريخ وفاة أبي الربيع سليمان بن أبي عامر بن يوسف بن يعقوب ، وهذا الدور هو مرحلة البناءات ...ى ، حين كان تأثير الطابع الموحدي لاتزال بعض ملامحه واضحة ، غير أن الفن المريني أخذ في الابتعاد عن هذا التأثير من أوائل المائة الثامنة .

وهي الفترة التي ظهر فيها امتداد الهواية المعمارية إلى نخبة من سكان فاس ، فتنافسوا – حسب ابن خلدون – في البناء ، وغالوا الصروح ، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام ، وزخرفوها بالزليج والنقوش .

تلمسان ، محراب سيدي أبي الحسن .
(كليشه بوعمري).

وسيأتي بعد هذا: الدور الثاني ، انطلاقا من مبدإ ولاية أبي سعيد الأول عام 710 / 1310 ، حتى وفاة أبي عنان عام 759 / 1358 ، فيصل فن العمارة إلى أوج ...

القمة ، ويبلغ الزخرف المريني أوجه.

ومن تاريخ وفاة أبي عنان يبدأ الدور الثالث ، ليمتد إلى نهاية الدولة عام 869 / 1465 ، وفيه انقطعت حركة البناءات العمومية ، وتراجع تشييد المباني الخاصة بالدولة.

وعلى هذا الترتيب تسير العروض التالية للمآثر المرينية :

الدور الأول للمعمار المريني

كان يمثل الدور الأول ثلاثة سلاطين معماريين :

– أبو يوسف في الدرجة الأولى .

– ثم ابنه يوسف .

– وأخيرا : أبو ثابت بن عبد الله بن يوسف .

وقد وضع أبو يوسف الخطوط العريضة لاتجاهات المباني المرينية ، ومن نماذج هذا : أنه ابتنى قصبات جديدة في ضواحي كل من فاس ومكناس والجزيرة الخضراء بالأندلس .

الجارات الناقلة للماء الصالح للشرب من منبع غبولة إلى قصبة الرباط .
(كليشه بوعمري).



وعن المؤسسة الأولى نجتزي بالاحالة على دراسة موسعة بعنوان : « **فاس الجديد مقر الحكم المريني** » ، وهي منشورة .

بينا قصبة مكناس جاء موقعها يتجه – تقريبا – نحو شرق المدينة ، وكانت تغطي البراح – الحالي – لساحة عودة ، ثم تمتد مع الممر المعروف باسم الدريبة – إلى قرب باب الحجر ، وجنوبا : تتصل بموقع المشهد الاسماعيلي .

ويتحدث المصدر المعني بالأمر عن قصر هذه القصبة ، وهذا الأخير هو الذي لايزال يحمل اسم « **جامع عودة** » ، ويوخذ من لسان الدين

قصبة مكناس رائعة ومعظمة وبها قصر ومساحات بديعة .
(كليشه أودون).

ابن الخطيب : أن هذه القلعة كانت تتوفر على مبان فاخرة ، وهكذا يقول عند ذكر مكناس القديمة : « ولقصبتها الأبهة والبهاء ، والمقاصير والأبها » .

وقد اندثرت هذه المدينة الصغيرة من أواخر المائة الهجرية الحادية عشرة ، ونقض بناؤها ضمن التعديلات الاصلاحية التي عرفتها العاصمة العلوية الأولى .

أما قصبة الجزيرة الخضراء فهي التي اشتهرت باسم «البنية » ، ووقع الشروع في

... عام 675 / 1374 ، برسم نزول ... في عبورها إلى الأندلس .

... مشيداتها : قصر ملكي يتصل به ... يطل على البحر ، مع مسجد جامع ... على منبر فاخر ، وكان الذي بادر إلى بناء ... أبو القاسم العزفي أمير سبتة .

... – الآن – هذه البنية مندثرة ، ... أنها هرمت – مع الجزيرة الخضراء – ... السلطان النصري محمد الخامس أعوام 1378 – 79.

... هذه القلاع : نشير إلى منجزات ... المريني في قطاع الأشغال العامة ، ومن ... قنطرة وادي النجا غرب فاس ، مع معبر ... بقنطرة مريز .

كما زود بالدورة المائية كلا من فاس الجديد ... رباط الفتح التي صارت تعرف « بقصبة ... » ، فوصل إليها الماء من عين « غبولة » ... 683 / 1285 .

ومن جهة أخرى : جاء في ترجمة أبي ... أنه بنى المارستانات والمدارس ، وشيد ... الضيافة – بالأرياف – لإرفاق المسافرين ... الحاجات ، وكانت هذه تعرف باسم ... – ، وتعتبر مندثرة هي والمستشفيات .

... المدارس فلا يزال بقيد الوجود ثلاث منها : ... الصفارين بفاس : « الحلفاويين » ... ، ومدرسة ابن يوسف بمراكش ، وأخيرا ... الشهود بمكناس ، وصارت تحمل اسم ... الفيلالية جنوب شرق الجامع الكبير .

... هذه المدارس آخر النماذج للمنشآت التي ... – أساسا – العاهل المريني المنوه به ، ... مبان أخرى أنجزت في عهده ، وتنوعت إلى ... التالية :

– تجديدات لمبان سابقة .
– مباني من طرف الولاة .
– مشيدات للعزفيين بسبتة .

ويأتي في طليعة المآثر التي جددها أبو يوسف : «**دار الصناعة**» بسلا ، وكان مؤسسها الأول هو عبد المومن الموحدي : بناها جنوب المدينة في مواجهة وادي أبي رقراق .

ثم جاء وضعها المريني في بناء حفيل يشتمل على بابين كبيرين : باب غربي يقابل الوادي في مساحته جامع حسان بعدوة الرباط ، والثاني جنوبي وهو العالي المعروف « بباب مريسة » ، وكان الماء يأتيها من أبي رقراق في ترعة عميقة ، حتى يصل إلى الباب الغربي ليخرج – بعد – من الباب الجنوبي ، وذلك بصناعة هندسية ، وطريقة ميكانيكية .

فإذا صنع مركب وأريد إرساله في البحر فتحت ترعة الباب الغربي ، فيدخل الماء وتعوم فيه السفينة ، ثم تخرج من باب المريسة سابحة على وجه الماء إلى أن تصل للوادي ، ولذلك كان قوس هذا الباب صاعدا في الجو ، حتى تستطيع المراكب أن تخرج منشورة القلاع .

وفضلا عن هذه الترسانة : جدد أبو يوسف بناء سلا ، بعد غارة القشتاليين من الاسبان عليها عام 658 / 1260 ، وكانوا خربوا ديارها ومساجدها ، فبادر العاهل المريني إلى بناء السور الغربي للمدينة ، بدءا من دار الصناعة ، وانتهاء عند جهة البحر ، ثم ندب محمدا بن أحمد الفنزاري إلى إصلاح خرائب سلا ، فجدد هذا

انعكاس الثقافة ينطلق من **المدرسات** . مدرسة ابن يوسف بمراكش .
(كليشه بوعمري).





... كانت المراكب تنطلق منها بأشرعتها إلى الخارج عبر باب مريسة إلى غاية البحر.
(كليشه بوعمري).

ورمم ،[1] وبنى وشيد ، حتى عادت إلى المدينة حياتها .

وفي فاس العتيق : جدد المنوه به الجدار الذي يسور قبلي المدينة : من باب زيتون بن عطية إلى باب الفتوح ، ثم شاد هناك برجا ضخما لاتزال أطلاله تتراءى للمارة ، وكان كتب فيه اسمه ، فصار – لذلك – يعرف باسم « البرج المكتوب » .

وقد أنجزت هذه العملية عام 681 / 1283 ، وبعده نفذ الأمر اليعقوبي – من الجزيرة الخضراء – بتجديد باب الحسيمة ، وتم ذلك سنة 684 / 1286 .

ومن فاس ننتقل إلى بادس بالريف المغربي ، حيث تقوم مدينة شاطئية على ساحل المتوسط بمقربة من مدينة الحسيمة ، وقد كانت مرفأ بلاد غمارة للعبور إلى الأندلس ، وهذا ما جعل أبا يوسف يعمل على حياطتها : ببناء سور دائر بها .



من باب الزيتون إلى باب الفتوح .
(كليشه بوعمري) .

ومن حسن الحظ أن نستطيع معرفة اسم المهندس الذي دبر بناء عدد من هذه المآثر المرينية ، وكان هو ابن الحاج الاشبيلي : محمد بن علي بن عبد الله ، فيذكر عنه لسان الدين بن الخطيب : أنه عارف بالحيل الهندسية ، بصير باتخاذ الآلات الحربية العظيمة والعمل بها ، ثم يبرز من أعماله الدولاب الضخم بفاس الجديد ، مع بناء دار الصناعة بسلا .

ويضيف مصدر آخر : أن نفس المهندس هو الذي دبر هندسة جلب الماء إلى رباط الفتح من عين غبولة .

وعبر الدور الأول الذي نتابع عروضه : نشير إلى نموذجين من مشيدات الولاة في عهد أبي يوسف ، انطلاقا من القصبة المرينية الأولى بمكناس ، وكانت من بناء عمر بن أبي يحيى المريني عام 657 / 1259 ، والغالب أن موقع هذه البنية كان في غرب المدينة حيث مكان القصبة الموحدية .



ومن منجزات الولاة في نفس العهد : قصبة مدينة العرائش ، من تأسيس يوسف بن علي المريني عام 657 / 1259 .

وفي سبتة : كان من بناء أميرها أبي القاسم العزفي خان متسع برسم اختزان الزرع ، ويصفه محمد بن أبي القاسم الأنصاري بهذه الفقرة :

«وهذا الفندق من بناء أبي القاسم العزفي ، ومن آثاره الغريبة بسبتة : يحتوي على اثنين وخمسين مخزنا ما بين هري وبيت ، تسع - تلك المخازن - من قفزان الزرع الالاف العديدة التي لا تبلغ الحصر .

ومن ضخامته أن له بابين : باب إلى صحنه ، والآخر إلى الشوارع المحملة الدائرة بالطبقة الثانية ، لكون الأرض مرتفعة من تلك الجهة ، تدخل على البابين الجمال بأحمالها مع الارتفاع والاتساع الكبير...» .

كذلك بنى نفس الأمير - بالمدينة ذاتها - صهريجا فخما لشرب الدواب يعرف « **بسقاية حب الميناء** » ، وهو الذي يقول عنه المصدر المنوه به :

« ومن السقايات المعدة لسقي الدواب من الخيل وغيرها : سقاية حب الميناء »، العظيم الهيكل المشهور ، الذي ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفي المذكور ، وخلده أثرا غريبا بعده رحمه الله تعالى : صهريجان مشتركان يمد أحدهما الآخر ، قد أحكم الأسفل والأعلى منهما - فرشا - بألواح الصخر المنجور أتم إحكام وأكمله .

وإلى هنا يقف عرض هذه المنجزات في عصر أبي يوسف عبر الدور الأول ، وستعزز المآثر المرينية - في الدور ذاته - بمجموعة أخرى تقترن باسم ولده يوسف : تأسيسا أو تجديدا .

مسجد تازة الجامع ، أعيد بناؤه سنة 1291 تحت إمرة يوسف ابن يعقوب .
(كليشه بوعمري).

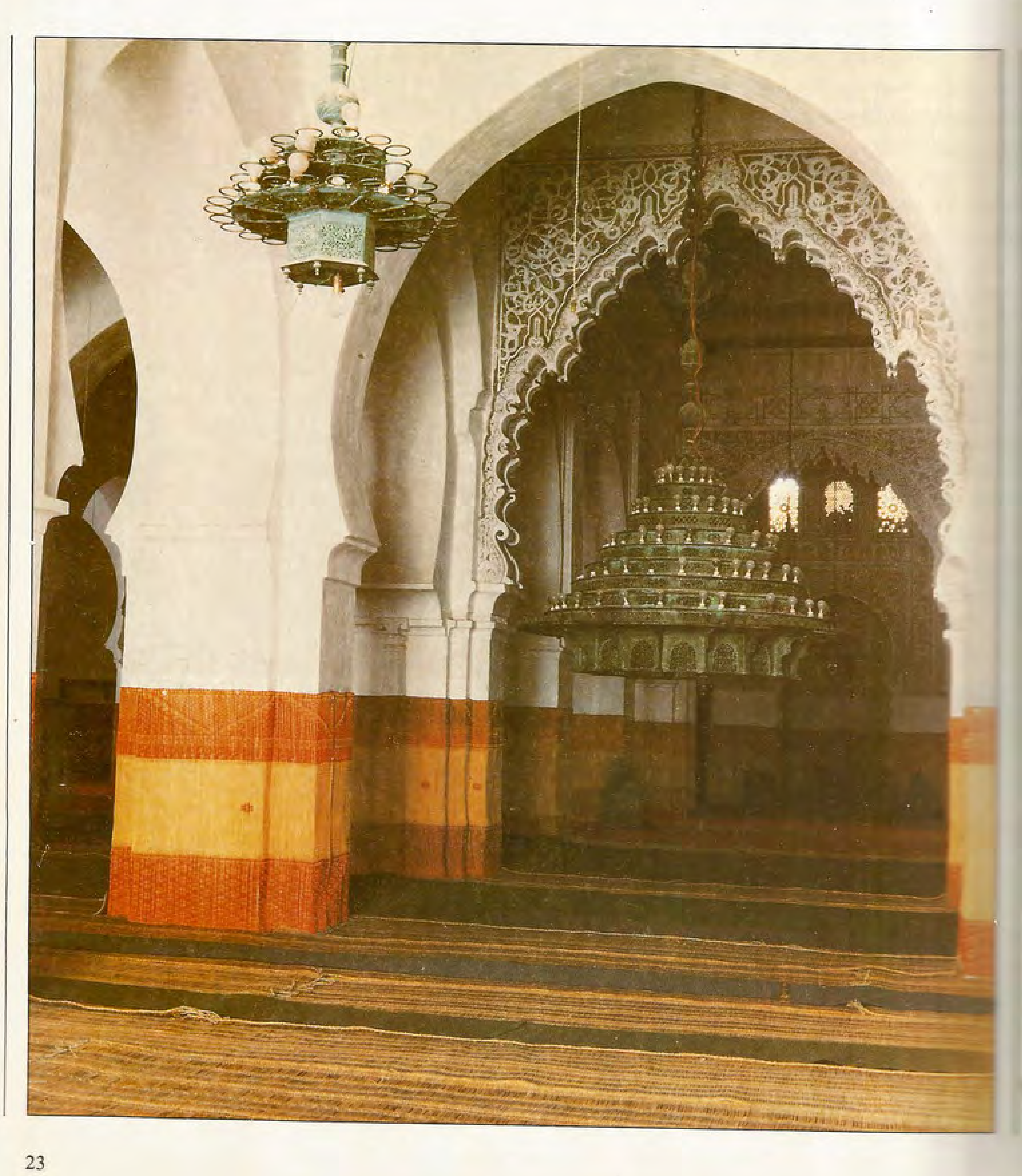
ومنها قصبة تطوان القديمة : عام 685 / 1287 .

وفي شرق المغرب شدد قلعة تاوريرت غرب وجدة : عام 695 / 1296 .

وفي العام التالي : أعاد بناء مدينة وجدة ، بعد أن كان والده هدمها لأهداف عسكرية ، واشتملت البناءات الأولى - بها - على قلعة وقصر ، بالاضافة إلى تحصين أسوارها وتشييد الجامع والحمام .

باب عجيسة (الجيسة)، أعيد ترميمه بأمر من أبي يوسف سنة 1285 ، بينما كان العاهل في الجزيرة الخضراء .







ومن الأشغال الأخرى التي أنجزت أيام نفس العاهل : تسوير مدينة قصر المجاز – على مقربة من القصر الكبير – عام 686 / 1287 .

وبمدينة تازة : جدّد جامعها الكبير ووسعت رقعته ، وتم ذلك عام 691 / 1291 .

وازدان جامع القرويين – في فاس – بالعنزة الجديدة التي نصبت في مؤخرته موالية للصحن ، وعن روعتها يقول الجزنائي : « وفيها من غرابة الصنعة ونفاسة الصنعة وإتقان الإلصاق ودقة الخرط والنقش وحلاوة الإحكام ما يقضي بالعجب ، ويصرح بالإعجاز » .

ومن مباني يوسف بالجزائر : قصبة مدينة المدية عام 704 / 1304 .

غير أن أكبر آثار هذا الملك هي مدينة « **المنصورة** » ، وقد بناها – غربي تلمسان – عام 700 / 1300 .

وبعد يوسف بدأ أبو ثابت بتجديد تطوان القديمة عام 708 / 1308 ، بعد ما تبيلا – وشيكا – بناء قصبتها عام 685 هـ ، قال في « **الاستقصا** » « **وكان بناؤها خفيفا شبه القرية ، عدا قصبتها فإن بناءها كان محكما وثيقا** » .

الدور الثاني للمعمار المريني

كما بينا سلفا : يعتبر هذا الدور عصر ازدهار الفن المريني ، ويمتد من عام 710 حتى 759 هـ ، وسيأتي تصنيف معطياته في خمسة فروع رئيسية :

– منشآت في قطاع الأشغال العامة .
– منشآت دفاعية .
– مآثر ثقافية .
– مآثر دينية .
– مباني خاصة .

وبالنسبة إلى الأشغال العامة : نشير – أولا – إلى « **أعمال الري** » ، حيث تأتي مآثر أبي الحسن في الطليعة :

ففي فاس : جلب الماء إلى مدرسة الأندلس من عين خارج باب الجديد .

وفي سلا : بذل مجهود ضخم لتزويدها بالماء من مسافة تبتدىء من المكان الذي كان يعرف « **بمرج الحمام** » على مقربة من المهدية ، ويعرف – الآن – بعيون البركة – ولهذه الغاية

– عنزة مسجد القرويين بفاس .
(تصوير بوعمري)

– تفاصيل العنزة
(تصوير بوعمري)



بنى أبو الحسن سور الأقواس ، ليتدفق الماء فوقه حتى يصل إلى المدينة ، وقد أثارت هندسة هذا البناء وقفة طويلة من المؤرخ الناصري ، ليستوحي منها الملاحظات التالية :

« واعلم أن هذا السور من المباني العادية والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها ، مثل ما يقال عن حنايا قرطاجنة ونحوها ».

السور مسوق من عيون البركة – خارج مدينة سلا – على أميال كثيرة ، ممتدا – من القبلة إلى الجوف – على أضخم بناء وأحكمه ، موزون سطحه بالميزان الهندسي ، ليأتي جريان الماء فوقه على استواء ، ولذلك ينخفض إلى الأرض متى ارتفعت ، ويعلو عنها إذا انخفضت ، ويجري على متنه من الماء مقدار النهر الصغير في ساقية قد اتخذت له ، ولما شارف البلد عظم ارتفاعه جدا لأجل انخفاض الأرض عنه ، وكلما مر في سيره بطريق مسلوك فتحت له في أقواس ، يسمى –لذلك – «سور الأقواس» ، وبالجملة فهو شاهد لبانيه بضخامة الدولة وعظم الهمة .

وعلى غرار سلا : يبدو أن أبا الحسن عمل على بناء قنوات داخل مدن أخرى ، لاجراء الماء إلى المرافق العامة ، وهذا ما يستنتج من شهادة رحال مشرقي زار المغرب في هذه الحقبة ، وكان هو علي بن فرحون المدني ، فيسجل هذه الارتسامة :

« ما مررت – في بلاد المغرب – بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء فسألت عنها ، إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله » .

ويزكي ابن مرزوق هذه الشهادة قائلا :

« وصدق ، فإن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وشرب الدواب بفاس وبلاد المغرب : معظمها من بنائه ، وكذلك أكثر الميضئات ، وكان له على ذلك شدة حرص ، فالمواضع التي بفاس لا تحصى » .

ويضيف ابن مرزوق لهذا مجهودات نفس العاهل في جلب الماء إلى تلمسان وغيرها ، في مواضع لم يعهد فيها جري الماء والانتفاع به ، وكذلك محاولاته – في هذا الصدد – بمدينة تونس .

وإلى هذه المنجزات : سارت عملية الري في شكل آخر : فقام أبو سعيد الأول بإنشاء مجموعة من المطافي الريفية لاختزان المياه بها ، وارتفاق الواردين بالشرب منها .

كما أن أبا عنان جهز ضواحي القاعدة المرينية بعدد من الدواليب المائية في بستان المصارة وغيره .

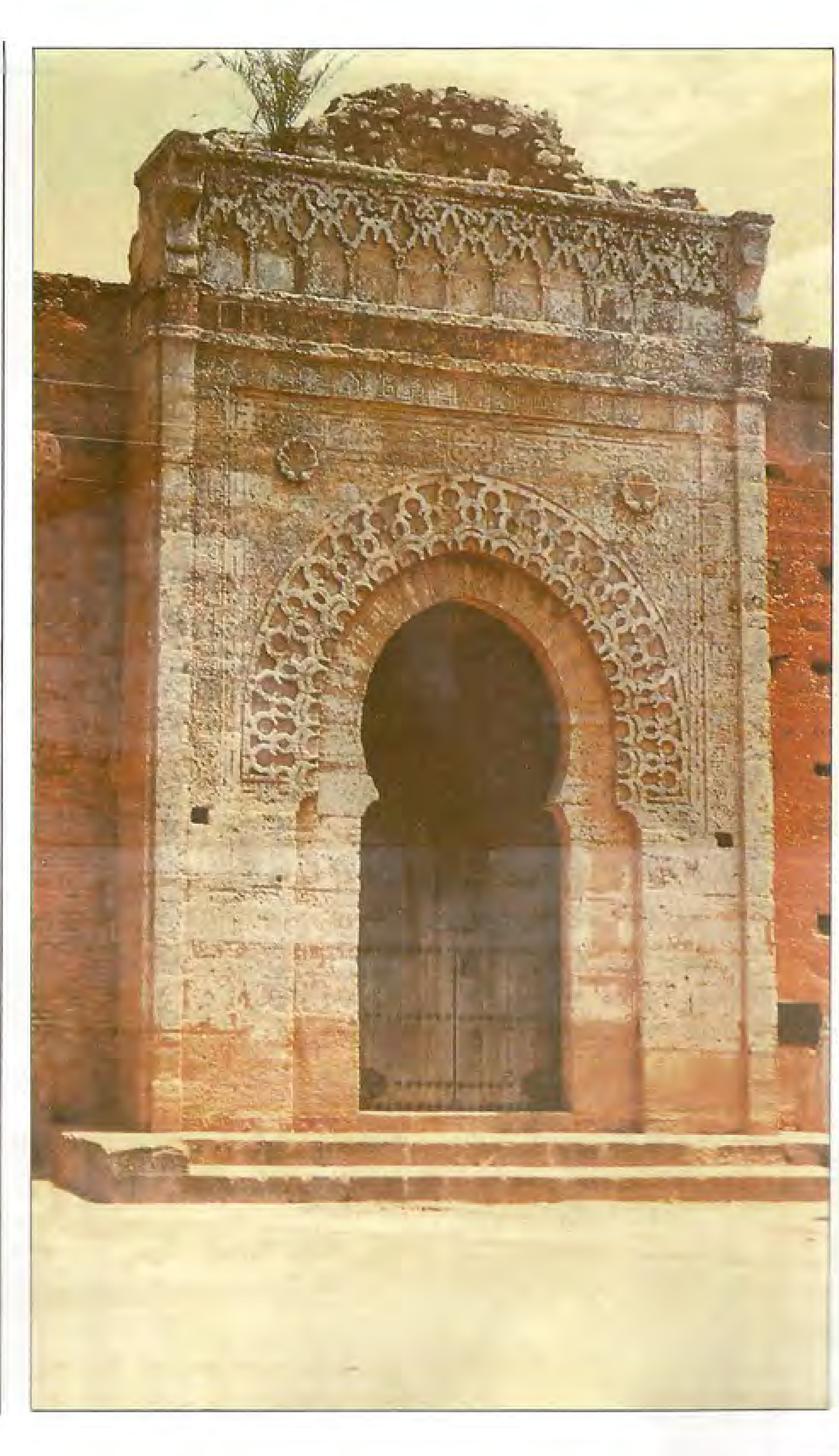
وبعد أبي الحسن يتفوق ابنه أبو عنان في أشغال تشييد المستشفيات ، فيسجل عنه ابن جزي : أنه ابتنى المارستنات في كل بلد من الجهات المرينية ، وقد اندثرت هذه المؤسسات ، باستثناء مارستانَي تازا ومكناس .

ومن المؤسسات الاحسانية في نطاق الأشغال العامة بهذا الدور : بنايات تتشابه – إلى حد – مع شكل المدارس ، غير أن هذه تكون معدة لارفاق المسافرين وذوي الحاجات ، وكما تبين – سلفا – كانت هذه البنايات تعرف الواحدة منها باسم « **الزاوية** » ، وصارت في هذا الدور تبنى بأرباض المدن .

ومن نماذجها أيام أبي سعيد الأول : زاوية شالة : الشهيرة ، حيث لاتزال أطلالها شاخصة مدينة الرباط .

سور الأقواس . (كليشه بوعمري).





ثم ابتنى أبو الحسن بمكناس زاويتين احتفظ لسان الدين بن الخطيب بوصفهما معا .

غير أن ازدهار تشييد هذه المؤسسات كان في عهد أبي عنان ، وقد اندثر أكثر هذه الزوايا العنانية ، وبقي أطلال كل من زاويتي تازا وسلا ، كما بقي لدينا نص يصف دار الضيوف بفاس .

مع لمحة عن زاوية سبتة ، وقد وصفت بأنها مليحة البناء ، كثيرة الزخرفة والتنميق ، متسعة الساحة ، متعددة المساكن ، وصومعتها من أبدع الصوامع – بسبتة – صنعة ، وأتمها إتقانا .

ونتابع معطيات الأشغال العامة ، فنشير إلى ثلاث مدن أسست في هذا الدور ، وقد بنى أبو الحسن اثنتين منها بضواحي كل من سبتة وتلمسان ، وتعتبران مندرستين ، ويقول عنهما ابن مرزوق : **« وبني بلدين مستقلين ، أنشأ جميعهما بما اشتملا عليه من جوامع وحمامات وفنادق ، وهما « المنصورةبسبتة » ، « ومنصورة تلمسان » التي لم ير الراؤون مثلها ، ولا وصف الواصفون مثل وصفها...»** .

وكانت منصورة سبتة يغلب عليها اسم « أفراك » وهكذا يسميها مؤلف «اختصار الأخبار » ، حيث يشير لقصرها المريني ، ولبابها الكبير المشيد على مثال باب السبع بفاس الجديد ، مع مصلاها .

أما المدينة الثالثة : فهي التي تحمل اسم « **القاهرة** »، بدأ اختطاطها أبو عنان عام 754 / 1354 ، وتخير لبنائها سفح جبل سكسيوة ، ثم حال حمامه دون إتمامها ، ومع ذلك نمت عمارتها في هذا الدور ، وصار لها مشرف وقاض اتصل بهما لسان الدين بن الخطيب ، وعرف بهما في رحلته : « **نفاضة الجراب...** ».

ومع توقف بنائها : لاتزال بقايا أسوارها ماثلة في قيادة قم تنوت ، إلى الجنوب الغربي

« لم يبق سوى آثار الزاويتين الاثنتين ». هذه صورة لزاوية سلا .
(كليشه بوعمري).

مراكش ، حيث يوجد – أيضا – ماء باسم « **القيهرة** ».

نماذج الأشغال العامة في هذا الدور أن أبا سعيد الأول جدد سوق العطارين بعد حريق دهمه ، فأعاد بناءه من العطارين ، إلى رأس عقبة الطرافين ، – السوق – الباب العلوي الذي معالمه ماثلة ، وكان عظيما مصفحا ، يعلوه سور به شرفات ، وأنجز هذا عام 1323 ، يعلوها برج للاشارة ، ويرابط موظفون للدفاع عن الشواطىء ضد أي

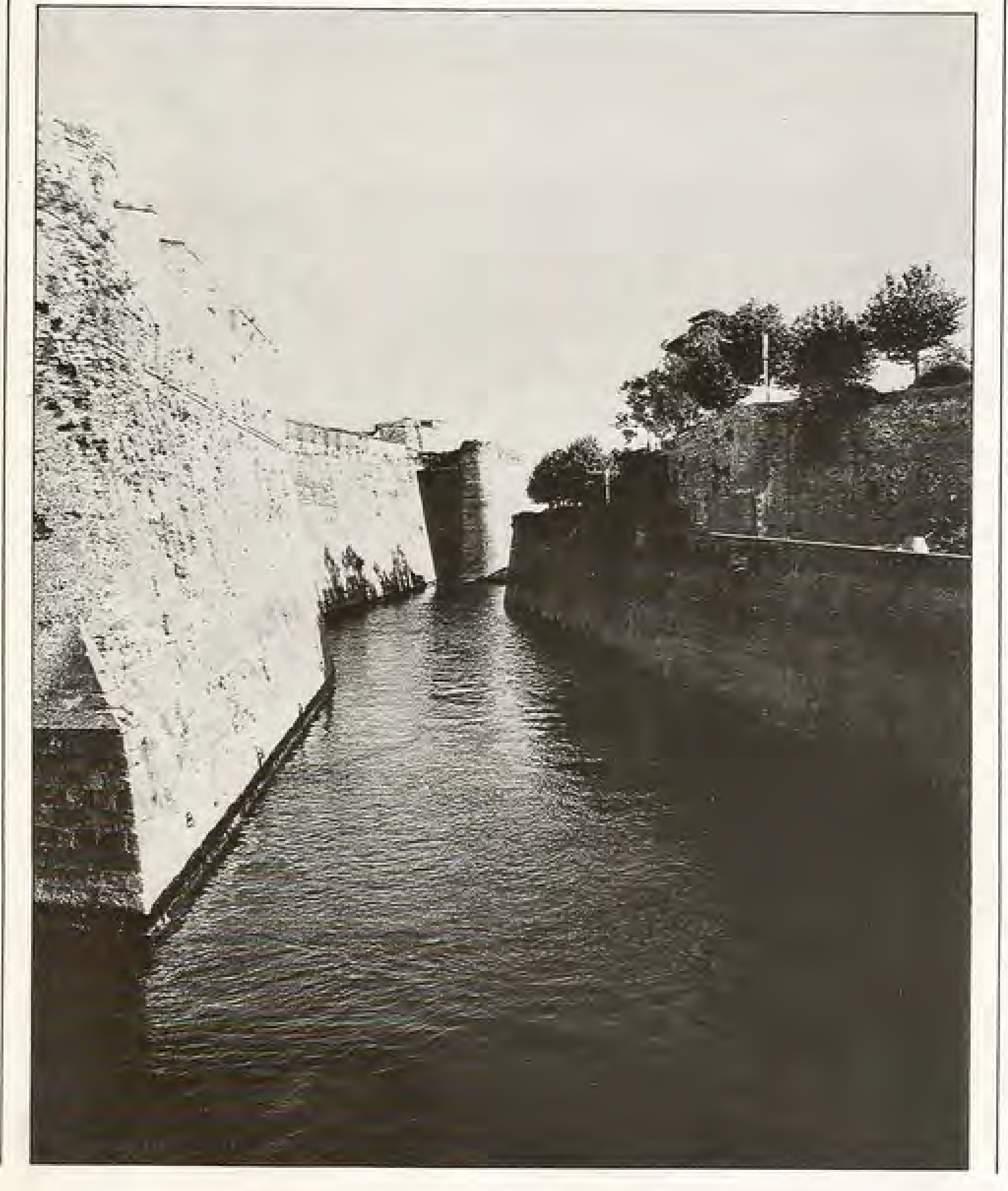
ومن جهة أخرى : كان هؤلاء يقومون في أعلا المعقل المهدد ، وتنتشر في الليلة الواحدة أو بعض ليلة ، حتى بالخطر مجموع المراكز : من أسفي : في مسافة تزيد على ألف

وفي حالة ما إذا صار الخطر يهدد شاطئا المعني بالأمر في برج الاشارة ، ينذر المعتدين – بواسطة بوق حاد : هو – في الغرب الاسلامي – باسم

– الآن – لشاهد عيان يصف الاستحكامات في الفقرة التالية : « **وحسبك مدينة أسفي... إلى بلد الجزائر... محارس إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة أو في بعض ليلة ، وذلك في مسافة تسير فيها من شهرين ، وفي كل محرس منها رجال وطلاع يكشفون البحر ، فلا تظهر في تقصر ساحل بلاد المسلمين ، إلا والتنير يتحذر أهل كل ساحل من السواحل** ».

– الآن – استحكامات سبتة ، هذه المدينة يضعها في مركز دقيق ، العبور عند الجوازات المغربية إلى وهي قاعدة للدفاع عن المغرب ، كما هي مثار أطماع المغامرين ، وذلك ما وجه الاهتمام بتحصينها عبر العصور الاسلامية .

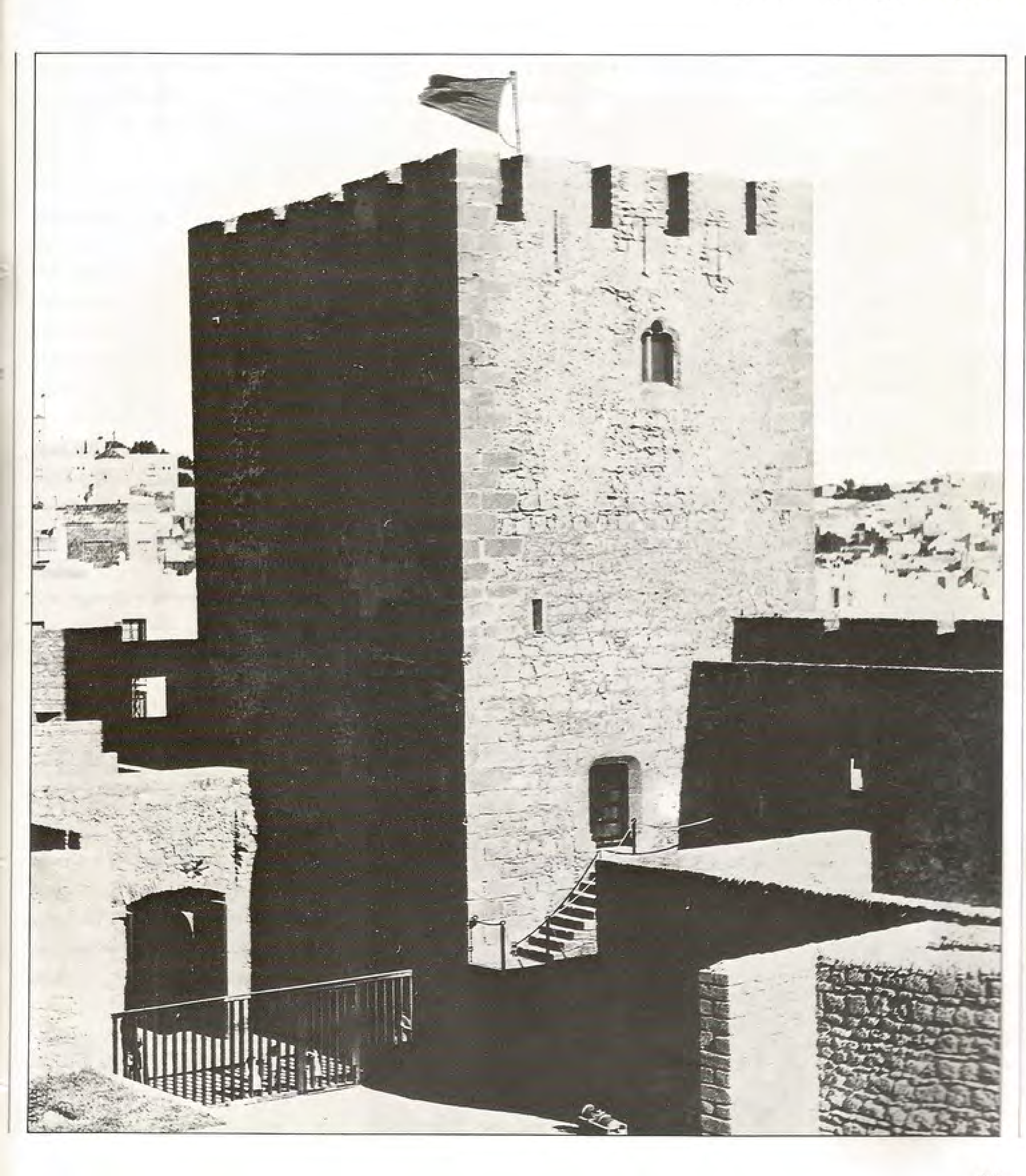
وفي أيام أبي الحسن كان من منشئاته بها أربعة أبراج : إثنان منها جبليان ، وواحد ساحلي ، غير أن أعظمها هو الذي شاده داخل البحر جهة جنوب المدينة ، وكان يعرف باسم « برج الماء » .



حصن سبتة .
(كليشه أودول).

ولما كان هذا الحصن سيبنى وسط الأمواج : وقع التمهيد لتشييده بنقل الصخور الهائلة ، والأحجار العظيمة ، واستخدم في ذلك الأليات الميكانيكية والعجلات ، ثم ألقى بتلك الهياكل في البحر ، وضم إليها أمثالها حتى صارت جزيرة في وسط البحر ، وإذ ذاك أقيم عليها « برج الماء » ، ثم وصل بينه وبين الساحل بجسر ، ويبرز ابن مرزوق أهمية هذه المأثرة قائلا :

« **...صان ذلك البرج جميع المرسى ، فلا يتهيأ لأحد من المراكب الدخول لذلك المرسى إلا أن يكون**



... التحصينات العسكرية من سلا إلى سبتة ، وإلى ما وراء الجزائر ، على ... الأطلسية والمتوسطة » .
... بوعمري).

... ، وإلا فهو يشرف على جميع ما يدخل تحته ، ... من أعاجيب معمورات المعمورة » .

ومن هذه المدينة ننتقل إلى « جبل طارق » ، وكان – بدوره – يتوفر على استحكامات – لنفس السلطان – تربو ... – على تجهيزات سبتة ، فقد شيد ... الجبل حصنا ضخما يتوفر على أبراج ... وآبار ومخازن وجامع .

وبعد هذا : عمد إلى ربوة الجبل فحاطها ... بها من كل جانب ، ويمتد أميالا عديدة ، ... عليه أبراجا تبتدىء من طرف المحيط حتى المتوسط ، ثم جهز الأبراج بمحارس ومساكن ... بها .

هكذا يصف ابن مرزوق تحصينات الجبل ... قد عاصر بناءها ، ثم يثير انتباه ابن جزي ... الربوة العالية ، فيسميها « المأثرة



المدرسة المرينية بسلا .
(كليشه بوعمري).

... » ، وهو يضيف لأعمال أبي الحسن ... دار الصناعة بجبل طارق ولم تكن به من ... ، كما يذكر لأبي عنان تجديده لتحصينات ... ، وزيادة سور محكم بطرفه .

وبعد هذا : فلا يزال بنفس الجبل حصن ... فوق ربوة عالية تقع على مقربة من الطرف ... الغربي للصخرة ، ويعرف بالقصر ... أو المغربي .

ولا يبعد أن يكون من بقايا استحكامات ... العالية التي شادها أبو الحسن ، ومما يؤيد ... أن المنشئات المرينية كانت آخر ما بناه ... في جبل طارق ، وكان بناؤها وثيقا ... يستطيع البقاء طويلا .



المدرسة البوعنانية .
(كليشه بوعمري).

مذكرات من التراث المغربي

ونتنقل – الآن – إلى قطاع المآثر التي تتجه وجهة ثقافية ، والقصد إلى المدارس العلمية القديمة ، حيث نشطت حركة بنائها خلال هذا الدور الثاني .

وقد خلف عصر أبي سعيد الأول أربع مدارس :

– الأولى : مدرسة المدينة البيضاء : فاس الجديد ، بدأ تأسيسها عام 720 / 1320 ، وكملت في ذي القعدة عام 721 / 1321 .

– الثانية : مدرسة الصهريج ، غربي جامع الأندلس ، ويغلب عليها اسم مدرسة الأندلس .

– الثالثة : مدرسة السبعيين المتصلة بشرق التي قبلها ، وكانت لسكنى طلبة القراءات السبع ، ولذلك تسمى في الوثائق القديمة بمدرسة الأساتيذ ، وقد تسمى بالمدرسة الصغرى .

وهذه مع سابقتها من عمل أبي الحسن أيام ولايته العهد ، ويرجع تاريخ الأمر بإنشائهما إلى عام 720 / 1320 .

– الرابعة : مدرسة العطارين ، على مقربة من جامع القرويين ، وكان البدء في تشييدها عند مهل شعبان 723 / 1323 .

وإذا كانت هذه المؤسسات الأربع تحتضنها مدينة واحدة ، فإن عصر أبي الحسن يمتاز بتعميم المدارس في سائر مدن المغرب وبعض مدن الجزائر ، وهكذا شاد أربع عشرة مدرسة موزعة بين ثلاث عشرة مدينة :

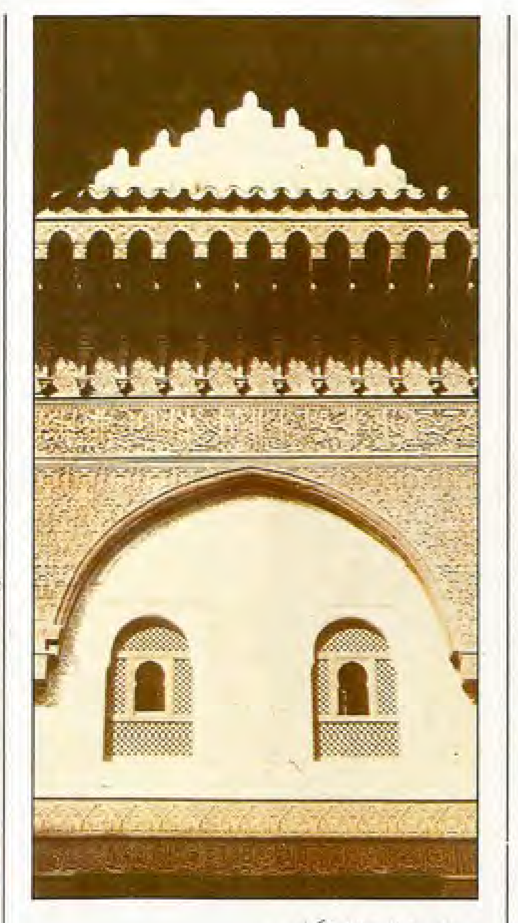
في أغمات ، ومراكش ، وأسفي ، وأزمور ، والدار البيضاء ، وسلا ، ومكناس ، والقصر الكبير ، وطنجة ، وسبتة ، وتازا ، وتلمسان ، ومدينة الجزائر ؛ مع ملاحظة أن تلمسان بنيت بها مدرستان : واحدة بالعباد جوار مشهد أبي مدين ، والأخرى حذاء الجامع الكبير داخل المدينة .

ويبرز ابن مرزوق الجانب الفني في هذه المدارس قائلا :

«...وكلها قد اشتمل على المباني العجيبة ، والصنائع الغريبة ، والمصانع العديدة، والاحتفال في البناء والنقش والجص، والفرش على اختلاف أنواعه : من الزليج البديع ، والرخام المجزع ، والخشب المحكم النقش » .

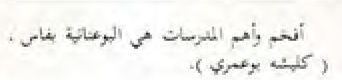
وفي هذا الاتجاه يفاضل نفس المصدر بين

كان العهد المريني متميزًا بإشعاع ثقافي كبير : كانت المدرسات تشيد في جميع المدن الكبيرة .
صورة للمدرسة البوعنانية بمكناس .
(كليشه بوعمري).



المدرسة البوعنانية بمكناس .
(كليشه بوعمري).





أفخم وأهم المدرسات هي البوعنانية بفاس .
(كليشه بوعمري).





الفن المريني

هذه المشيدات ، فيضع ثلاثا منها في الصف الأول ، وهي مدارس سبتة ومراكش ومكناس .

وإلى هذه المدارس 14 : عرف عصر أبي الحسن مدرستين جديدتين بفاس : مدرسة الوادي في حي مصمودة ، ثم المدرسة المصباحية التي وقع الفراغ من بنائها عام 747 / 1347 .

وخلف أبا الحسن ابنه أبو عنان ، وهو الذي شاد ءاخر وأفخر مدرسة مرينية وهي المدرسة العنانية عند حي الطالعة بفاس العتيق ، ابتدأ بناؤها يوم 28 رمضان عام 751 / 1350 ، ووقع الفراغ منها ءاخر شعبان 756 / 1355 .

وستكمل هذه 21 مدرسة مرينية بنيت في هذا الدور الثاني ، وكان توزيعها بنسبة ثمان في العاصمة العلمية ، وواحدة بكل من المدن الأخرى ، عدا تلمسان ففيها مدرستان .

ويمكن أن يضاف لهذا العدد مدرستان من هذا الدور يجهل مؤسسهما ، وهما مدرسة الخصارين بمكناس ، ومدرسة جامع الأندلس هنا .

والآن : ما هي هندسة هذه المؤسسات : في هذا الصدد يلاحظ ابن مرزوق عن المدارس التي شادها أبو الحسن بالمغربين : أنها مختلفة الأوضاع بحسب البلدان ، ومع ذلك هنا تصميم عام تشترك فيه مجموع المدارس المرينية .

وأول ما يواجه الداخل للمدرسة هو صحنها ، فيختلف بالسعة والضيق حسب حجم المؤسسة ، ويتصدر الصحن – في اتجاه القبلة – بيت الصلاة ، وهو – أيضا – قاعة للدروس ، وأمام المصلى يتوسط الصحن بيلة رخامية للوضوء تحتها ، وفي مدرستي الأندلس والعنانية بفاس : استعيض عن البيلة بساقية تشق نفس الساحة .

وفي كل مدرسة يحف بالصحن من ثلاث جهات – غير جهة المصلى – حجرات معدة لسكنى الطلبة ، وتتكون من طابقين : سفلي وعلوي ، بينما تتوفر المدرسة المصباحية – بفاس – على ثلاث طبقات .

وبعض مدارس فاس تتوفر على ميزات خاصة ، ومن ذلك أن مدرستي الصفارين والمصباحية أضيف لمصلاهما السفلي : مسجد في الطابق العلوي يعرف « بجامع الدروج » .

كما أن مدارس الصفارين وفاس الجديد والعنانية : تتوفر – ثلاثهما – على منار للأذان .

ومن الميزات الأخرى للمدرسة العنانية : أن شيد في صحنها – ميمنة وميسرة – إيوانان متوازيان برسم تدريس العلوم .

وجهز مسجدها بمنبر لالقاء خطبة الجمعة .

وفوق الباب الخلفي للمدرسة كانت توجد ساعة مائية دقاقة ، وخلفها بيت قيم الساعة .

وجوار الباب الشمالي شيد مؤسسها كتابا لتلقين القرآن الكريم .

ومن جهة أخرى : فإن مدرسة السبعيين هي الوحيدة التي بنيت دون مسجد ، ومرد ذلك إلى أن هذه ملحقة بمدرسة الأندلس ، وهذه تتوفر على مصلى اعتبر كافيا لكل من الكبرى والصغرى .

ومن نماذج المعمار الديني في الدور الثاني : مجموعة كبرى من المساجد والجوامع معظمها من عمل أبي الحسن ؛ ومن الباقي من إثاره بفاس : جامع الشرابليين ، وقد وقع تجديده من بعد .

كانت هناك مجموعة من المساجد والمساجد الجامعة ، ولم يبق منها سوى مسجد الشرابليين بفاس (كليشه بوعمري).

حول الحوض المائي الذي كان يتوسط الساحة محل النافورة (السقاية). (كليشه بوعمري).

مع المسجد الذي يضاف لاسمه بالطالعة الصغرى ، على مقربة من المدرسة العنانية : عام 742 / 1342 .

وفي المغرب الأوسط : لايزال بقيد الوجود من ءاثار نفس العاهل المئاثر التالية :

ففي مدينة مستغانم : المسجد الجامع عام 742 / 1347 .

وبتلمسان : جامع أبي مدين عام 748 / 1347 .

وفي الجزائر (العاصمة) : أضاف جناحا جديدا إلى الجامع الأعظم .

ومن ءاثار أبي عنان : الجامع المعروف بمسجد سيدي الحلوي بتلمسان : عام 754 / 1353 .

معطيات الفن المريني في الدور الثاني ، وتتمثل – هذه المرة – في المباني السكنية بما فيها من قصور ودبار فاخرة .

وحسب التسلسل التاريخي : يأتي في المقدمة « قصر تازروت » بتازا ، وهومن بناء أبي سعيد الأول ، وكان – حسب « فيض العباب » – معجب البناء ، واسع الفناء ، تحفه أسوار عالية مشرفة ، ويتصل به روض أريض تشقه المياه المطردة ، لتنعكس على صفحاتها أغصان وأزهار الأشجار المنوعة .

وفي تلمسان : ينوه ابن مرزوق بمباني أبي الحسن في هذه المدينة ، فيقول عن قصره « بالمنصورة » : « ... فقد رأيت كثيرا ممن دخله من المتجولين ممن رأى مباني العراق ، ومباني مصر والشام ، والمباني القديمة في الأندلس ومراكش : أجمعوا على أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره ، والحق ما قالوه » .

وإثر هذا يعلق على بنايات أخرى في تلمسان بهذه الفقرة : «أما دار الفتح والبستنة وما اتصل بهما والمشور : فما أظن المعمور إشتمل على مثلها » .

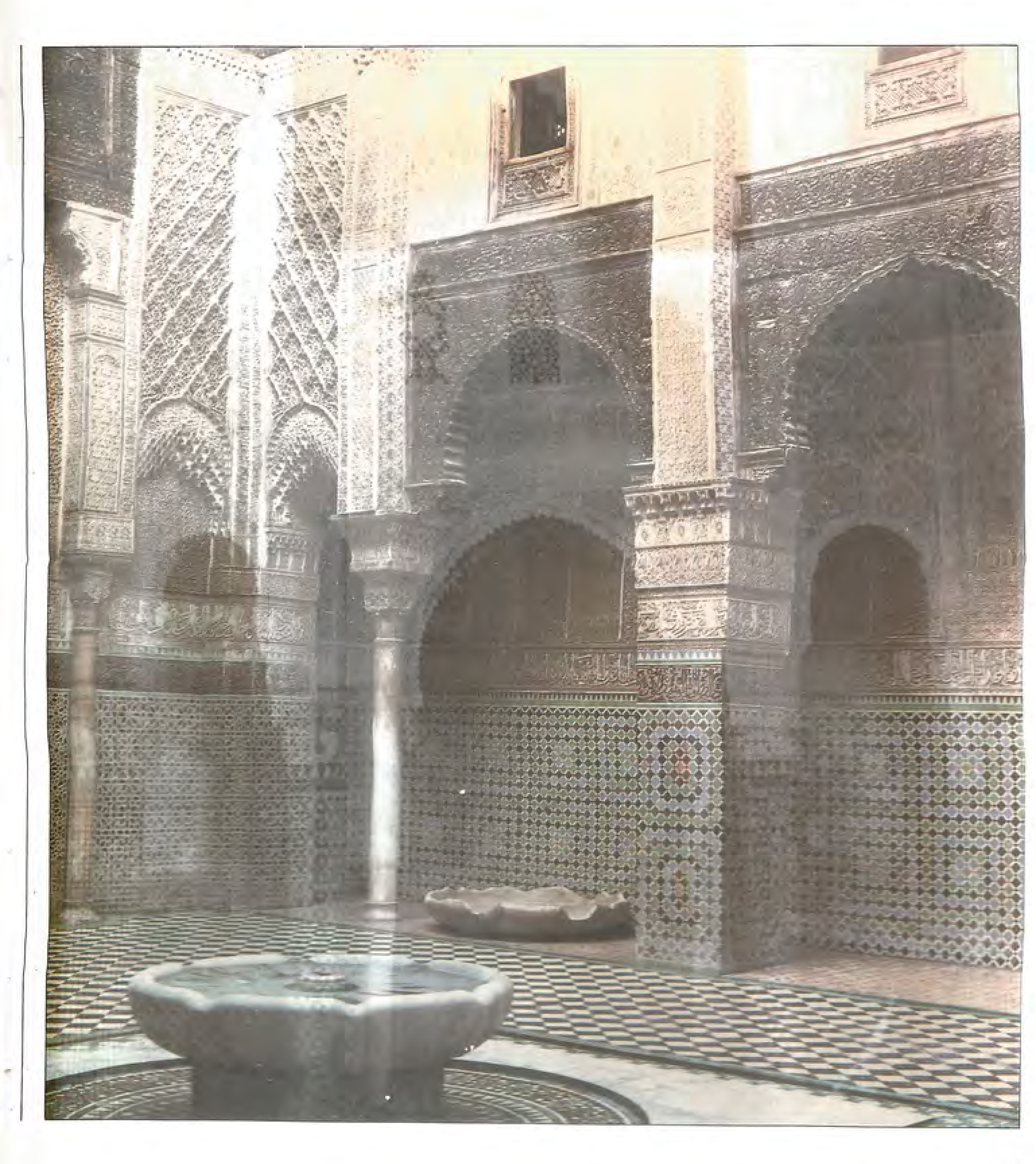
هذا إلى أن المصدر ذاته ينوه ببناء قصر بتلمسان – في ظرف أسبوع واحد – برسم أبي الحسن ووفق اقتراحه ، وكان قد رسم المعمية – خطة تشييده قائلا :

« أريد دارا تشتمل على أربع قباب مختلفة ، ودويرتين تتصلان بها ، منقوشة الجدران بالصناعات المختلفة : بالجبس والزليج والنقش في الأرز المحكم والحجارة والصنعات المشتركة ، ونقش ساحة الدار ، وفرشها : بالزليج والرخام [illegible] من طيافير الرخام والسواري والحجارة في [illegible] مختلفة باختلاف [illegible] والصنعات [illegible] المشتركة مدهونة [illegible] حزين والخوخ [illegible] من النحاس المموه بالذهب [illegible]

بالمنصورة قرب تلمسان ، تم تشييد قصر جمع من الروائع ما لم يجتمع في أي قصر آخر . قمة عمود من أعمدة القصر ، وهو أحد الآثار الباقية .
(متحف تلمسان) .







الفن المريني

زخارف من الزليج الملون بشتى الألوان... الأزرق يميل إلى السواد ويطغى على باقي الألوان. مدرسة العطارين بفاس
(تصوير بوعمري).

ويعقب ابن مرزوق على هذا الاقتراح :
« فما انقضى الأجل وتم الأمد وجاء اليوم المعلوم إلا وهو يتمشى فيها...» .

ومن المباني المذكورة في هذا الدور : القصر المسمى « بمرادة » في نواحي بطوية بملوية ، حصنه الوزير المريني ونزمار ابن عريف بن يحي السويدي ثم الزغبي ، وكانت عاقبته أن هدمه أبو حمو الثاني في غارته على المغرب الشرقي عام 785 / 1383 .

ومن الجدير بالملاحظة أن القصور المرينية قد اندثرت بالمرة ، ولم يبق من بعضها إلا أطلال متهدمة .

وأولا : نعرج على الموضع المعروف « برأس الماء » على بعد ثلاثة عشر كيلو مترا غرب فاس ، وهناك توجد بقايا بناية مشيدة - فوق ربوة - على شكل قصر مربع ، تعلوها أبراج مطلة على منابع وادي فاس ، ومن خلف البناية يوجد باب كبير .

وقد اضطربت التخمينات حول حقيقة هذه الأطلال وعصره ، غير أن ابن الأحمر يذكر عن أبي سعيد الأول : أنه اختط في عين المكان قصرا مشيدا على منابع وادي فاس ، ثم لم يكتمل بناؤه بعد ، فيكون هذا الأثر من بقايا الفترة التي عرفها .

ويؤكد ذلك : قوة التشابه بين مواد بناء هذا الأثر ومواد الأبنية المرينية الأخرى .
ومن الأطلال المرينية بتلمسان :
بقايا « دار الفتح » ، حيث تبينا - سابقا - أنها من مشيدات أبي الحسن بقصبة نفس المدينة .

وفي سنة 1585 م وقع العثور على قصر صغير قرب مشهد أبي مدين بالعباد ، ويتعلق الأمر بدار تتركب من ثلاث بنايات ، يوجد صحن وسط كل منها .

وإلى هذه القصور : نشير إلى هندسة البنايات السكنية في قطاع ديار النخبة بفاس ، وذلك ما يتحدث العمري عن نموذج منه هكذا :
« وأبنية فاس ومتخذاتها : جميعها جليلة مفخمة ، وإن كانت لا تلحق بمراكش فيما كانت عليه من عظم مبانيها ، وفخامة مغانيها...
وبفاس - داخل سورها - جنائن ورياض ذوات أشجار ورياحين : في دور الكبراء ، وبيوت الأعيان...وتفرش ديارهم بالزليج وهو نوع من الآجر كالقاشاني بأنواع الألوان : الأبيض والأسود والأزرق والأصفر والأخضر ، وما تركب من هذه الألوان ، وغالبه بالأزرق الكحلي ، ومنه من يتخذ منه وزرات حيطان الدور...

يقول الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله في كتابه « تاريخ الحضارة المغربية » :

« يتجلى نشاط المرينيين المعماري في شعورهم بالحاجة إلى إقامة المدن الجديدة على أن أبا يوسف صنع المارستانات وبنى المدارس بفاس ومراكش والزوايا في الفلوات ، ولم يفته في كل ذلك الزخرف الفني الرائق الذي يطبع المؤسسات الجديدة...

« ...ولكن ما هي ميزات الفن المريني ؟
إن الجامع الكبير في تازة وكذلك مسجد أبي يعقوب المريني في وجدة يحتفظان أحيانا بتلك الفخامة التي يتسم بها الفن الموحدي ، ولكنهم يضيفان رقة الاشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقربصات والزليجات ، ويلاحظ في المدرسة العنانية بفاس تشابه واضح في الهندسة والترخيم مع مدارس الشرق...

« ومن خواص الفن المريني النقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج ».

ولأهل فاس ولع ببناء القباب ، فلا تخلو دار كبيرة - في الغالب - من قبة أو أزيد ، وصورة تفسير أبنية دورهم : مجالس متقابلة على عمد من حجر أو ءاجر ، ورفارف مطلة على صحن الدار ، وقدامها طيافير يجري الماء إليها ، ثم يخرج بركة في وسط الصحن .
وغالب أغنيائهم يعملون لهم حمامات في بيوتهم...ولهم تأنق في البناء ، وهم لايقصر بهم عن الغاية فيه » .

ومن فاس ننتقل إلى سبتة : في إشارة عابرة إلى مباني الشريف الرئيس أبي طاهر أحمد بن محمد الصقلي الحسيني ، المتوفى عام 776 / 1375 ، فيقول عنه المقري :
« وله بسبتة ءاثار تحكي الأثار الخرفية ، كالرياض الأعظم الذي أمام باب الميناء الأسفل ، الذي تأنق في بنيانه وأبدع صنعته ، وجلبْ إليه الماء بالدواليب حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة . وكالرياض الذي بالصفارين ، حيث كان قعوده مع خاصة الناس وعامتهم » .
وفي قرية بليونش كان له منية العبا ، وجنة الحفة ذات القبة السامية المطلة على البحر .

الدّور الثالث للمعمار المريني

يعتبر هذا الدور فترة تراجع لمباني الدولة ، حيث انقطع تشييد المدارس وقل بناء المؤسسات الدينية والاجتماعية ؛ وزاد في غموض هذه الحقبة ندرة المصادر التي تؤرخ لأحداثها ، وبهذا لايعرف - الآن - من معماريات الدور الثالث سوى بعض القصور ، وقليل من المؤسسات ذات الطابع الديني .
ونشير - أولا - إلى « قصر فخم » شاده أبو سالم بقصبة فاس العتيق ، مع مؤسستين يترجح أنهما من إنشائه بضاحية فاس



باب شالة .
(كليشه بوعمري).

الجديد ، وهما « برج الذهب » و« روض الغزلان » ، وكان موقع هذا الأخير بدار الدبيبغ وراء المطاحن الكبرى ، في مقابلة ثانوية مولاي سليمان .

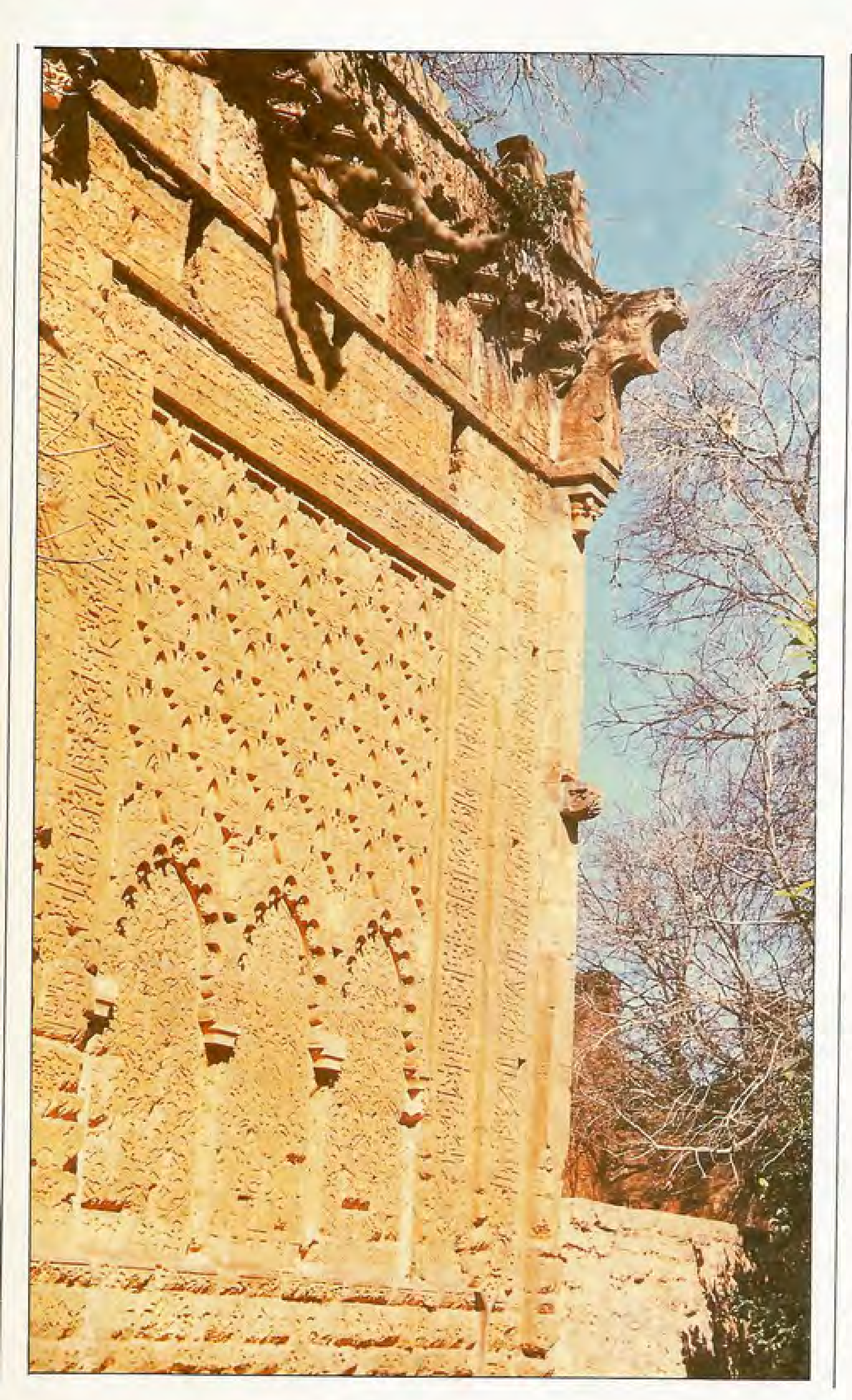
يضاف لهذه قصر الطريفي في فاس العتيق عند حي الزيات ، ويعتبر مندثرا ، غير أن البناء الذي قام على أنقاضه لايزال يحمل إسم منزه الطريفي .

وهذا هو القائد عبد الله الطريفي ، حاجب السلطان المريني أبي سعيد الثاني أوائل المائة الهجرية التاسعة .

والطريفي هو باني مسجد فاس الجديد الذي كان - زمن بنائه - يعرف بمسجد السوق الكبير ، ويعرف - الآن - بجامع العباسيين بدرب لالا غريبة .

مقبرة باب فتوح
(كليشه بوعمري)





مقبرة المرينيين بشالة .
(كليشة بوعمري) .

وإلى هذا الجامع ظهر – في الدور الثالث – مؤسسات جديدة تعرف الواحدة منها باسم « زاوية القراء » ، والمعنى بالأمر مجلس يضاف إلى بعض الجوامع ، ليكون مجتمعا لطائفة من القراء ، يقومون بختم القرءان العزيز مرة كل أسبوع ، حسب تجزئة يومية متعارفة لديهم .

وأول مؤسسة على هذا الشكل أنشأها أبو سالم المريني بجامع القرويين ، حيث أشار لها الجزنائي بهذه الفقرة : « وأما زاوية القراء ، البهية [illegible] ، التي أمر بها مولانا المستعين (يقصد أبا سالم) عن يسار قبلة هذا الجامع... فإنه أقامها على ساباط هناك... ورتب فيها قراء يقرءون [illegible] ، ويختمونه في كل سبعة أيام بطول الزمان... وتم عملها في أواخر شهر رمضان ، سنة اثنتين وستين وسبعمائة (1361)» .

وعلى غرار هذه شيد مجلس للقراء في الجامع الكبير بفاس الجديد ، بمبادرة من السلطان المريني عبد العزيز الثاني عام 798 /1395 .

وقد كان من حكام مكناس أواخر هذا العصر : أبو زكرياء الوطاسي ، وهو وزير عبد الحق المريني فيما يظهر ، فأنشأ – بدوره – مجلسا للقراء شرق الجامع الكبير بهذه المدينة .

بعد هذا تأتي المنشئات المشهدية ، وكان أشهر الضرائح المرينية في هذا الدور هي : المقبرة الملكية بفاس الجديد ، ثم المقبرة المرينية بالقلة خارج باب الجيسة ، وثالثا : مشهدان لأميرتين مرينيتين ، وهو موضوع قد استوعبته دراسة عن « ضريح شالة ومدافن مرينية أخرى » ، سيرد نصه عند الملحق الثاني .

ويختم هذا الدور الثالث بالاشارة إلى « مستشفى الرباط » الذي ينسب تأسيسه إلى السلطان المريني عبد العزيز الأول ، حيث لاتزال بقيته ماثلة عند مدخل باب شالة أمام باب الجامع الكبير .

الرَّكبُ الفاسي للحـ
رَكبُ الحَج

محمد المنوني

من المعروف أنه يفصل المغرب عن الحجاز مسافات شاسعة ، تتخللها مفازات يصعب أو يتعذر فيها سير الحاج بمفرده ، بينما كانت طريق البحر محفوفة بمخاطر أكثر ، ولهذا صار أغلبية الحجاج يسلكون طريق البر ، فيذهبون في قوافل كبرى يتئازر فيها البعض بالبعض .

ومن المؤكد أن هذه القوافل قديمة قدم الاسلام بالمغرب ، غير أن المبادرات الأولى لتنظيمها – حسب المعروف الآن – جاءت من جهة الامام أبي محمد صالح دفين أسفي عام 631 ، فكان من سيرته دعوة أتباعه لأداء شعيرة الحج ، ولا يعذر في ذلك أحدا بالعجز أو الفقر ، ولم يزل هذا – بعد وفاته – شعار من خلفه من أبنائه وأحفاده وشيوخ الرباطات الصالحية .

وكان من نتائج دعوة أبي محمد صالح تأسيس ركب الحجيج المغربي الذي صار يدعى – أول الأمر – « بالركب الصالحي » ، حيث يسير من مدينة أسفي إلى الحجاز ، في طريق لاتزال غير مضبوطة ، وقد تكون هي الطريق التي سلكها العبدري ، بدءا من حاحة ، إلى سوس ،

مكة ، قبلة الصلاة ، [illegible] من أحد تخطيطات الخرائط العربية ، [illegible] الأقطار الاسلامية في دائرة [illegible] كمركز للأشعاع [illegible]

يج المغربي

بلاد القبلة ، فصحراء المغرب الشرقية فتلمسان ، فبجاية... حيث بسطها في رحلته .

ولتنظيم مسيرة الحجاج : أسس أبو محمد صالح « الرباطات » عبر طريقهم حتى مصر والشام ، وبث أبناءه وأصحابه في هذه المراكز .

ومن تلاميذ أبي محمد صالح في بجاية : محمد بن أبي القاسم السجلماسي ، وقد سكن هذه المدينة ، وكان بها - فيما يظهر - « رباط صالحي » .

وفي الاسكندرية : استمر « رباطها » قيد الوجود حتى عام 1074 / 1663 ، فيقف عليه أبو سالم العياشي ، ويقول عنه في رحلته « ومن المزارات بالأسكندرية : « زاوية لأبي محمد صالح » ينزلها المغاربة ، ولهم فيها أوقاف ، وفيها « سلاح معلق » يتبركون به ، يزعمون أنه من سلاح الصحابة الذين فتحوا المدينة ، ولا أصل لذلك » ، وقد يكون من بقايا الأسلحة التي ترافق الركب الصالحي .

على أن تنظيمات ركاب الحجيج - التي استمرت بعد - هي التي ظهرت في العصر المريني الأول ، وأول ركب معروف في هذا العهد : هو الذي نظمه أبو يعقوب يوسف المريني ، بعثه - من تلمسان - إلى الحجاز عام 703 / 1303 ، ثم استمر يذهب من فاس عاصمة هذه الدولة : في أيامها ، ثم في عصر الشرفاء ، ولاستمرار خروجه من هذه المدينة صار يعرف باسم « **الركب الفاسي** » .

وفي هذه الحقب كلها كان يسافر على طريق البر ، عبر مسالك سنشير لها من بعد ، وما انقطع سيره على هذا الطريق إلا أواسط القرن الهجري الثالث عشر ، حيث تعذر المرور بأرض الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي عام 1245 / 1830 .

وكان الركب الفاسي يسير في مجموعات ضخمة من الحجاج ، وفي بعض أيام بني مرين - فقط - سافر في أحد الركاب ما يزيد على العشرين ألفا ، فطرحت هذه الكثرة تدخل الدولة ، لتنظيمه في ذهابه ، وحين مقامه وغيابه .

ومن هنا ظهر منصب رئاسة ركب الحجاج ، فيرشح له السلاطين - كل مرة - شخصية تتوفر فيها المعرفة بالحرمين الشريفين والطريق إليهما ، مع حسن السيرة ، ووفرة الثروة ، حتى يستطيع تجهيز ركب الحجاج ، وإسعاف المحتاجين منهم ذهابا وإيابا .

على أن المعلومات التي تتصل بهذا المنصب إنما تتوافر - أكثر - في العصر العلوي ، بواسطة إشارات من بعض مدونات التاريخ ، وعن طريق قلة من الوثائق الموضوعية الباقية .

وأهم هذه الوثائق ظهير ، صادر عن السلطان العلوي مولاي عبد الله بن إسماعيل ، بإسناد رئاسة الركب الفاسي إلى الحاج أحمد بن

الاسكندرية ، مرحلة هامة في طريق ركب الحج .
(كليشه خ. ع. باريس).



عبد السلام شقشاق عام 1155 / 1742 ، حيث سيرد نصه عند الملحق رقم 2 .

فيذكر اختصاصات شيخ الركب الفاسي هكذا :

« وأسندنا إليه النظر في جميع أموره وأحكامه وتصرفاته ، في يوم ظعنه وإقامته .

« وبسطنا له اليد على جميع من حمله الركب – المبارك – من الناس : شريفا كان أو مشروفا ؛ قويا أو ضعيفا ، دون معارض له ولا منازع ، ولا مشارك ولا مدافع ، على حسب ما جرت به العادة ، وعلى القانون المعروف...

« وعليه بتقوى الله العظيم ، وأداء الأمانة لمن ائتمنه ولمن اؤتمن عليه من أهل ركبه .

« وبذل النصيحة لهم : بتذكيرهم ما يجب عليهم من آداب السفر ، والمحافظة على أداء الصلوات المفروضة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من الأحكام الشرعية التي تجب مراعاتها ، وبتعيين العمل بها في مناسك الحج وأحكامه ، ويحرض الناس على تعلم ما يجب عليهم في ذلك كله » .

تلك اختصاصات شيخ الركب الفاسي في العصر العلوي ، ومنها نتبين أن هذه الشخصية هي الوحيدة التي تحظى بالتعيين في الفترة ذاتها .

غير أنه في العصر المريني كان إلى جانب هذه الخطة يعين – للركب – قاض يفصل في الشرعيات ، مع قائد للحكم في دائرة اختصاصه .

فهي ثلاثة مناصب من أطر تسيير الركب ، يضاف لها خطة « **العلام** » ، وحسب بعض الرحلات : كان يرافق الحجاج علام الركب ، وءاخر : علام أمير الركب .

ومن الأطر الاضافية : الخفير ، حيث يذهب مع الحجاج للسهر على سلامتهم في سفرهم .

ثم المشوق ، ويرافق الركب للدعوة إلى الحج بصوت شجي .

مع حداة الابل : الذين يسوقونها ويغنون لها لتجد في سيرها ، وترد الاشارة لهم في بعض الأشعار المغربية الحجازية ، وفي هذا الاتجاه يقول محمد بن قاسم بن زاكور من قصيدة :

الله حادي الركب في جلدي
الله حادي الركب في أمري

وفي قطعة لمحمد بن عبد الرحمن ابن زكري :

...وترتج أصوات الحداة صبابة
وتنقاد للسبق المطايا بلا رسن

وإلى الاستعداد بالسلاح : يصاحب الركب طبل كبير من النحاس ينقر فيه للاعلام بوقت نهوض الحجاج ووقت جلوسهم ، وكان يوضع – بعد رجوع الحجاج – في مارستان فاس ، بما أنه من الأحباس العامة .

وفي نطاق استعدادات أخرى : كانت العادة ، إذا دنا وقت سفر الركب ، يأخذ خطباء المسجد في الحض على الحج والتشويق لزيارة المعاهد المنورة .

وفي أواخر ربيع الأول : يعلن في فاس – بواسطة المنادي – بتحديد يوم خروج الركب .

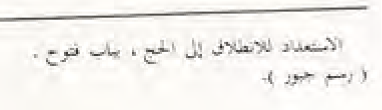
وفي أواخر جمادى الأولى يبرز خباء شيخ الركب ، ويوضع بساحة القليعة داخل باب الفتوح .

ومن توابع هذه الاستعدادات : كان بضاحية فاس أرض محبسة لرعي إبل الركب المغربي ، ولذلك فهي تعرف « **بحاجة** » خارج باب الفتوح على ضفة نهر سبو .

وكان بكل من فاس ومكناس وتازة مساجد برسم تجميع الحجاج بها ، وهم في طريقهم إلى الالتحاق بالركب .

وعلى مستوى استعداد الأفراد : كان الحاجُ – وهو مقبل على رحلته البعيدة – يجهز رحله بسائر ما يتوقف عليه سفره : مطية ولباسا وفراشا ، وما يكنه خباء أو نحوه ، فضلا عن أواني الطبخ ، والتموين : أكلا وشربا ، حتى أدوات




الاستعداد للانطلاق إلى الحج ، بباب فتوح .
(رسم جبور) .

ركب الحج




وكاد يزعزع الجمال الشمر وانشد
ما الحج سيرك تاويبا وادلاجا ولا اعتيامك اجمالا واحداجا

الخياطة ، وآلة الكتابة للقارىء ، وأولا وأخيرا : مصاحبة السلاح ، تحسبا لدفاع ما يعرض في الطريق .

وهذه ارتسامات عدد من المؤلفين عن الركب الفاسي ، فيذكر عبد الكبير بن هاشم الكتاني توافد الحجاج – من كل ناحية – إلى فاس ، واجتماعهم بها إلى حين سفر الركب ، ثم سيرة أميره مع الحجاج في ظعنهم وإقامتهم :

« ...فيجتمع – كل سنة – الحجاج ، ويأتون – من كل ناحية – لأمير ركبهم في كل زمان بفاس ، وينزلون « برأس القليعة » داخل باب الفتوح ، إلى وادي الزيتون ، إلى سيدي بودرهم .

« وكان لصلاتهم الجامع المعروف « بجامع الحجاج » إلى الأن قرب مصمودة وقرب عقبة بن بكار : عدوة فاس الأندلس .

« وينزلون – أيضا – بداخل المدينة ، وكان لصلاتهم الجامع المعروف « بجامع الحجاج » ، أسفل زقاق الحجر : عدوة فاس القرويين .

«ولا يأتي منهم قريب المسافة أو بعيدها ، إلا بقصد زيارة قطب رحاها المولى إدريس...وكذا عند إرادة نهوض الركب ، وعند قدومهم من الحج...

« وكان تربصهم بفاس – في الاجتماع – أكثر من الشهرين ، وأمير الركب يتفقدهم بنفسه ، ويبسط نفسه ، ويأخذ بيدهم في مصالحهم ، وأهل فاس يتبركون بهم ، وبجوارهم .

« وأما في السفر : فأمير الركب لايسير إلا بهينة ، ولا يطول في المشي ، لأن غالب الركب : رجلي (كذا)، والنساء والصبيان والأشياخ الكبار ، يختلف أحوالهم في المشي والنزول ، لأن غالبهم الضعفاء والمساكين ، فيفرق على كل ما يناسبه من الزاد : كل بحسبه ، وكذا الركوب ، والكل ذهابا وإيابا .

« لأن أمير الركب في كل زمان لايكون – عادة – إلا ممن كثرت ثروته ، وحسنت سيرته مع الخلق ومع مولاه ، وكان له ما يقوم به ركب الحاج ذهابا وإيابا

...حجيج في القرن الثالث عشر الميلادي .
... مقامات الحريري . بغداد).

« وحين يجتمع بفاس الركب ، ويعلم بوقت النهوض ، ويصل الوقت المعلوم به : يقع النقر في الطبلين من النحاس المعدين لذلك في سفر الركب عند النهوض ذهابا وإيابا ، وينهض الركب ويتوجه مع أميره في كل زمان ، حتى يحج ويرجع « لرأس القليعة » محل اجتماعه فتقع منه التفرقة ، كل يقصد محله الذي أتى منه ، ويوضع الطبلان بالمارستان ، لأنهما – في الغالب والله أعلم – من أحباسه : إلى العام القابل ».

وإلى هذه الفقرة المطولة نشير إلى ثلاث ارتسامات عن شارة الركاب الفاسية ، فيقول محمد

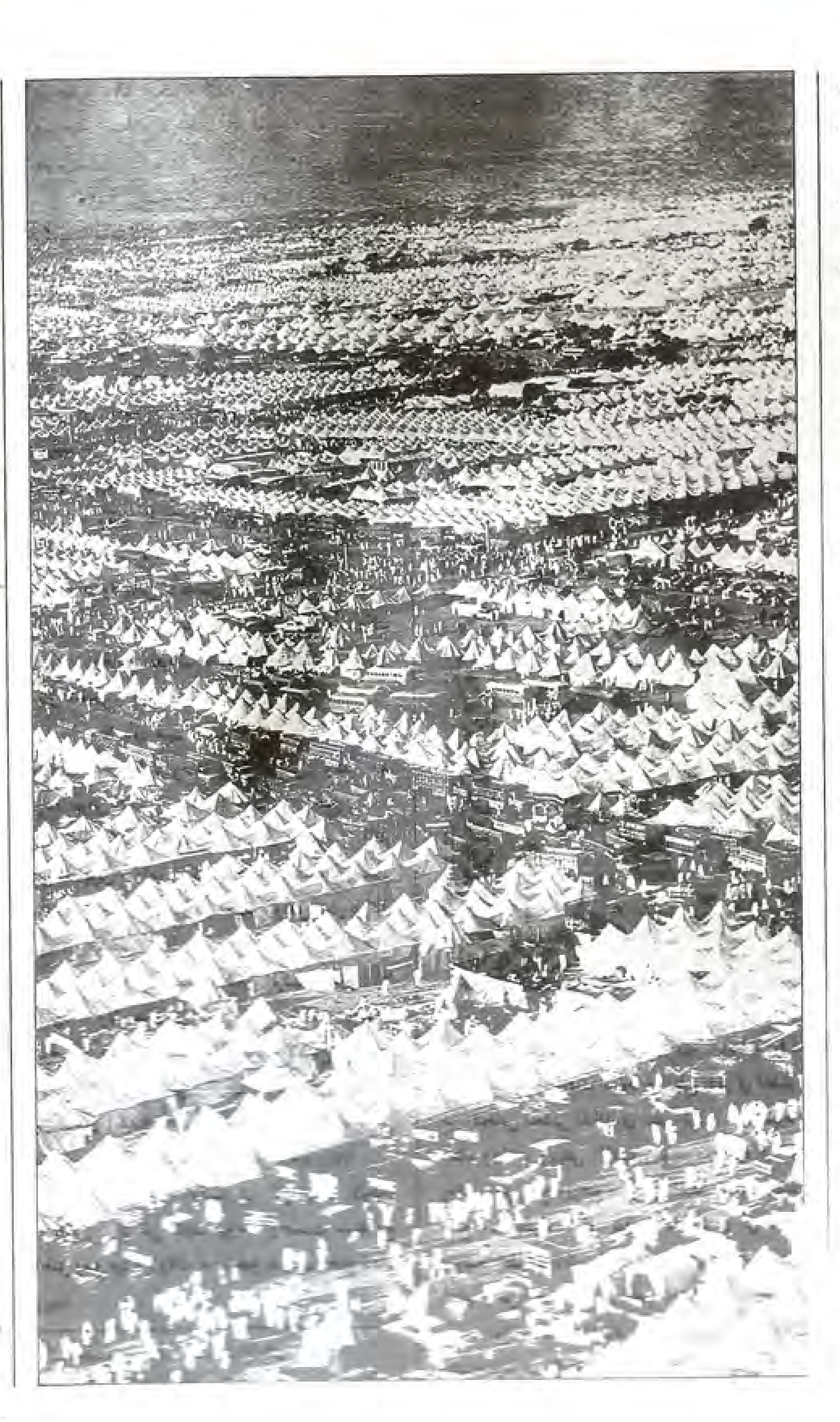
الكعبة (خزف سوري . متحف الفن الاسلامي بالقاهرة).

العربي الفاسي عن ركب من العصر السعدي وهو يتحدث عن أميره :

« وكان يجتمع له ركب عظيم ، في شارة حسنة ، وزي جميل ، يخرج فيه أهل فاس وغيرهم ، في الأخبية المتنوعة : من القوراء والمستطيلة ، والقياطين المثلثة » .

ثم يذكر محمد بن عبد السلام الناصري ركب فاس عام 1211 / 1796 ، فيلم بوصفه

مذكرات من التراث المغربي



هكذا : « ...فاجتمع الجمع بوادي سبو حيال القنطرة ، ماهو الركب في الكثرة . إلا مصري أو شامي في تلك الأخبية » .

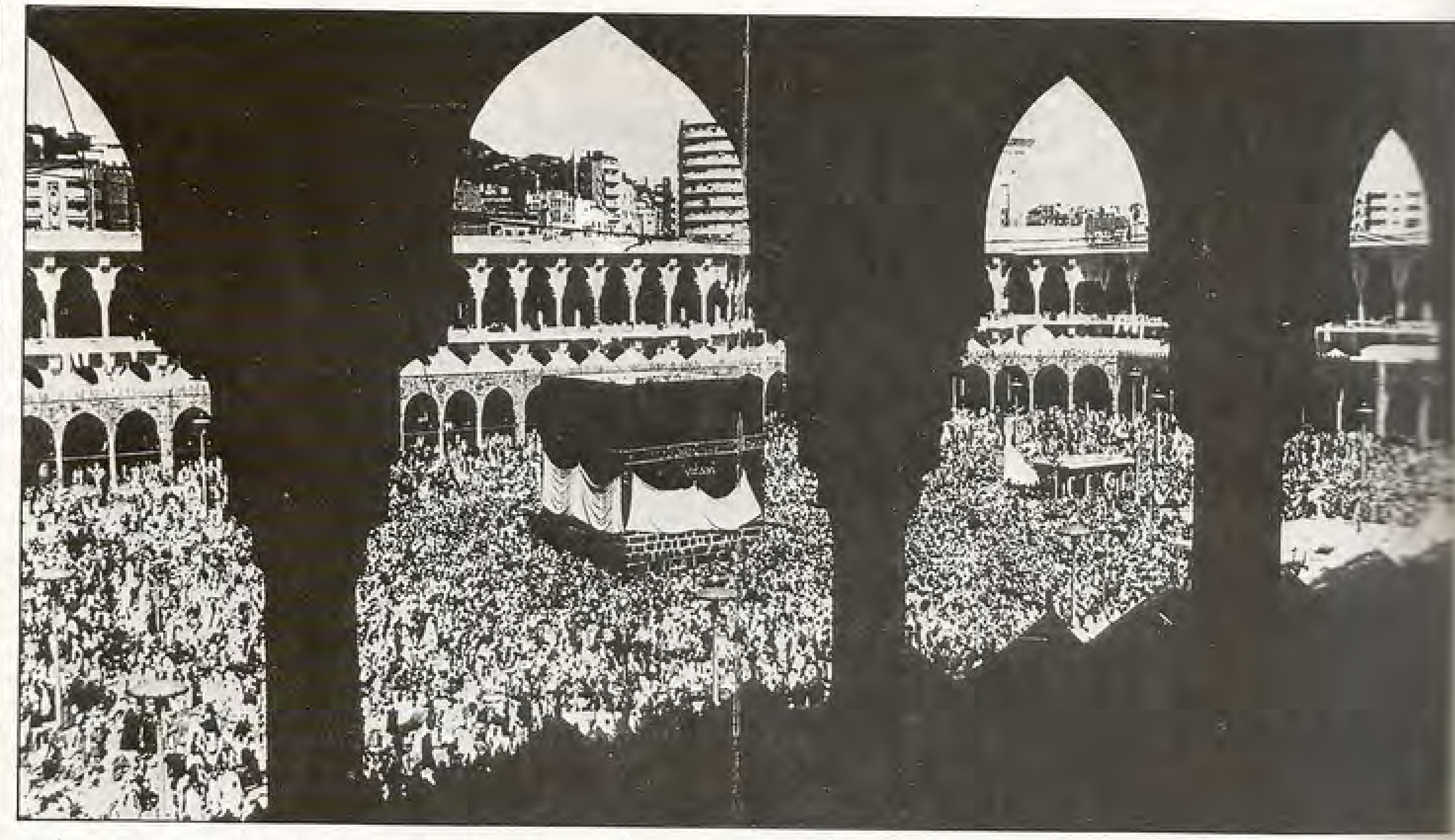
ولما يشير مؤلف الاستقصا إلى ركب فاس عام 1226 / 1811 ، يعقب قائلا : « ...الركب النبوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال ، وإبراز الأخبية لظاهر البلد ، وقرع الطبول ، وإظهار الزينة ، وكانت الملوك تعتني بذلك ، وتختار له أصناف الناس : من العلماء والأعيان والتجار ، والقاضي وشيخ الركب ، وغير ذلك : مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما ».

وهذه ارتسامة تصور مدى مساهمة سكان فاس في توديع الركب يوم خروجه ، ثم في استقباله يوم عودته ، فيذكر الاسحاقي : أن يوم خروج الحجيج من فاس يوم موعود ومشهود ، قل من يبقى بالمدينة إلا خرج ، ودب ودرج : الرجال والولدان ، والأحرار والعبدان ، فما ترى أعجب من ذلك اليوم ، ولا أحسن منه منظرا أو خبرا ، يروق البصر ، ويميل بالفكر ، عادة جميلة استندوا إليها ، وطبيعة جبلوا عليها .

وكذلك الشأن يوم عودة الركب إلى فاس بعد قضاء نسكه .

وقد كانت العادة أن يخرج ركاب فاس يوم سابع وعشري جمادى الثانية أو الثامن والعشرين منه ، بحيث يستهل عليه رجب في مدينة تازا أو فوقها ، وكان يخرج من باب الفتوح ، وينزل في الموضع المعروف « بولجة الغسال » : عند الضفة الشرقية لوادي سبو .

ومن تازا يسافر عبر الصحراء الشرقية ، حتى ليبيا ، حتى مصر ... في مسالك حددتها الرحلات المغربية التي ترافق هذا الركب وهي متعددة . ولمحمد بن منصور الحضري قصيدة حجازية مطولة ، استوعب فيها ذكر عدد مراحل [illegible] واحدة واحدة ، انطلاقا من [illegible] [illegible] حتى مصر ، حتى مكة [illegible] [illegible] إلى المدينة المنورة ، ومن عدد [illegible] [illegible] القصيدة [illegible] [illegible]



... الحج في العصر الحاضر .

... من الجدير بالذكر أن الركب الفاسي هو ... يحمل « الصرة المغربية » أيام المرينيين ... . ويقصد بها الهدايا – نقودا وغيرها – ... يبعث بها سلاطين المغرب برسم مجموعات ... الحرمين الشريفين وما إليهما ، وأيضا : ... بعض الشخصيات الرسمية .

... اعتبارا بطول الطريق ، وما يتخلل السفر ... الصعوبات : كانت غيبة الركب تطول ، وتبلغ ... – إلى نحو عام ونصف ، حتى إذا عاد ... مدينة فاس ونزل بنحو تازا ، يبعث شيخ ... « بالبشير » ، ويعرف باسم « رقاص ... » ، فيدخل فاسا حاملا راية الحجاج ، ... بعودة الركب وسلامته .

... الحظ حافظت المصادر على جملة ... أمراء الركب الفاسي وبعض الحاملين ... ونحفظ دراسة منشورة بسبعة وعشرين من هؤلاء الأمراء ، ونضيف – الآن – لذلك المجموعة التالية :

1 – الحاج علي بن محمد الذيب اللمطي: عام 1100 / 1689 .

2 – الحاج علي بن الحاج حمدون بن الحاج علال جسوس : عام 1119 / 1707 .

3 – الحاج أحمد بن علي بن زاكور : عامي 1175-1178 / 1761، 1764 .

4 – الحاج التاودي مكوار : عام 1177 / 1763 .

5 – الحاج علي بن زاكور : عام 1180 / 1766 .

6 – الحاج بوجيدة الزرهوني الأندلسي : عام 1182 / 1768.

7 – الحاج بوجيدة ين محمد بن الحاج علي برادة : نحو منتصف القرن الثالث عشر .

8 – الحاج التاودي بن الحاج أحمد بن الحاج علي برادة : نحو منتصف القرن الثالث عشر .

9 – وهذه لائحة بما وقعت عليه من أسماء حملة راية الركب الفاسي ، بدءا من الحاج محمد بن الخطيب القصري ، فيذكره محمد العربي الفاسي بأنه حامل علم الركب المغربي إلى الحرمين الشريفين مرات عديدة ، وكان يعيش في العصر السعدي .

10 – الحاج الخطيب ، علام أمير الركب عام 1100 / 1689 .

11 – الحاج أحمد السلوي الأندلسي ، علام الركب عام 1100 / 1689 .

12 – الحاج أحمد بن حمدون الدكروج : عام 1124 / 1712 .

الملحق الثاني

ظهير من السلطان العلوي مولاي عبد الله بن اسماعيل بإسناد رئاسة الركب الفاسي إلى الحاج أحمد بن عبد السلام شقشاق .

مذكرات من التراث المغربي



كانت تمنح بمكة والمدينة شهادات تثبت أن الحاج قد قام فعلا بهذا السفر الشاق .
(جزء من شهادة ترجع إلى القرن السادس للهجرة).

الحمد لله وحده ، صلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وءاله ، وسلم تسليما .

من عبد الله تعالى ، المتوكل على الله ، المفوض أمره إلى الله ، أمير المؤمنين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الشريف الحسني :

عبد الله بن أمير المؤمنين
إسماعيل الحسني الله وليه

أيد الله بعزيز نصره أوامره ، وظفر جنوده وعساكره ، وخلد في الصالحات مئاثره ، وجمع له بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة .

يستقر — بعون الله تعالى — هذا الظهير المبارك بيد حامله ، المتمسك بالله ثم به : خديمنا الأرضى ، الأثير الأحظى ، **الحاج أحمد بن عبد السلام شقشاق الأندلسي** ، يتعرف منه أننا وليناه شياخة الركب الحجازي المبارك ، المتوجه إلى الحرمين الشريفين — برسم الحج والزيارة النبوية — من المغرب حماه الله وأمنه .

وأسندنا إليه النظر في جميع أموره وأحكامه وتصرفاته : في يوم ظعنه ويوم إقامته .

وبسطنا له اليد على جميع من شمله الركب — المبارك — من الناس : شريفا كان أو مشروفا ، قويا أو ضعيفا ، دون معارض له ولا منازع ، ولا مشارك ولامدافع ، على حسب ما جرت به العادة المباركة ، وعلى القانون المعروف ، والسنن المألوف : في الكلام مع الخاص والعام : في سائر المنافع والمصالح التي لابد للحجاج منها ، ولا محيد لهم عنها .

تولية ، تامة ، مطلقة عامة ، وعليه — فيها — بتقوى الله العظيم ، وأداء الأمانة لمن إئتمنه ولمن أؤتمن عليه : من أهل ركبه .

وبذل النصيحة لهم : بتذكيرهم ما يجب عليهم من ءاداب السفر ، والمحافظة على أداء الصلوات المفروضة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من الأحكام الشرعية التي تجب مراعاتها ، ويتعين العمل بها : في مناسك الحج وأحكامه .

ويحرض الناس على تعلم ما يجب عليهم في ذلك كله ، ويذكرهم بقول الله تعالى :

« **فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون** » ، وبقوله تعالى : « **الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج** » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « **من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه** » ، إلى غير ذلك مما ورد في هذا الشأن في الكتاب والسنة .

وكل من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فلابد أن يجتهد في نصحهم ، وأن يسعى في مصالحهم .

والله يصل توفيقه ويجعل الهداية طريقه ، آمين والسلام .

وفي فاتح رجب الفرد الحرام ، عام خمسة وخمسين ومائة وألف .

أبو الحسن السلطان الأكحل

محمد المنوني

هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي ، بن أمير المؤمنين أبي سعيد عثمان ، بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني الزناتي .

مولده عام 697 / 1297 ، وبويع عام 731 / 1331 ، ثم توفي عام 752 / 1351 ، بعد ما استمرت دولته عشرين سنة وثلاثة أشهر ويومين .

كان طويل القامة ، عظيم الهيكل ، ضخم العضدين ، معتدل اللحية ، حسن الوجه ، ولسمرة لونه صار يعرف – عند العامة – بالسلطان الأكحل ، قال في « الاستقصا » : والعامة تسمي الأسمر والأسود أكحل ، وإنما الأكحل في لسان العرب أكحل العينين فقط .

وهو – حسب نفس المصدر – أفخم ملوك بني مرين دولة ، وأضخمهم ملكا ، وأبعدهم صيتا ، وأعظمهم أبهة ، وأكثرهم ءاثارا بالمغربين والأندلس .

وفي بعض أيامه توحد المغرب العربي تحت ولايته : بدءا من السوس الأقصى وما وراءه ، وانتهاء عند مسراتة قريبا من الحدود المصرية ، فضلا عن انفساح هذه المملكة بالأندلس حتى مدينة روندة .

يتوفر « أبو الحسن » على ثقافة إسلامية ، وله إجازات كتبها له شيوخ المحدثين







كان أبو الحسن مشهورا بعلمه وورعه ، مدّ سلطاني .
(ب. باسكون . مجلة هيسبريس – تامودا – 1975).

بمصر والشام والحرمين الشريفين ، ومن طريق هؤلاء – وعددهم أربعون – خرج له ابن مرزوق « الخطيب » أربعين حديثا نبويا ، وتخيرها من الصحيحين للبخاري ومسلم ، مع جامع الترمذي والموطأ ، ثم دونها في جزء كتبه – بخطه – أبو عنان ، وصار – بعينه – إلى الخزانة العامة بالرباط ، حيث يحفظ بها تحت رقم 3582 د .

عدد أوراقه 28 ورقة ، في مسطرة 13 ، مقياس 250 / 193 ميلمتر .

من طريق اهتمام أبي الحسن بالقرآن الكريم : اعتناؤه بكتابة ثلاثة مصاحف شريفة بخط يمينه ، حيث بعث بواحد منها وقفا على المسجد النبوي الكريم بالمدينة المنورة عام 738 / 1838 .

ثم أوقف الثاني على المسجد الحرام بمكة المكرمة عام 740 / 1340. والثالث أوقفه على المسجد الأقصى بالقدس الشريف أعاده الله – سبحانه – دار إسلام ، وذلك عام 747 / 1346 .

ولحسن الحظ فإن هذا المصحف الثالث لايزال معظمه بقيد الوجود ، حيث يحفظ في دار كتب المسجد الأقصى بالقدس الشريف .

يصف العمري لباس أبي الحسن ولباس النخبة في هذه الفقرة : « **وأما زي هذا السلطان وزي الأشياخ وعامة الجند : فهي عمائم طوال رقاق قليلة العرض : من كتان ، ويعمل فوقها إحرامات يلفونها على أكتافهم من الحباب ، ويتقلدون بالسيوف تقليدا بدويا ، والاخفاف في أرجلهم وتسمى عندهم الأنْقة ، ويشدون المهاميز فوقها ، ويتخذون المناطق ويعبرون عنها بالمضمات ، ولا يشدونها إلا في يوم الحرب أو العرض ، وتعمل من فضة أو ذهب ، ومنها ما يبلغ ألف مثقال ، ويختص سلطانهم بلبس البرنس الأبيض الرفيع .**

فأما العلماء ، وأهل الصلاح واسمهم عندهم المرابطون : فإنه لاحرج عليهم في لبسه ، هذا في البرانس البيض ، فأما سائر الألوان فلا حرج على أحد في لبسها كائنا من كان » .

من أجل حبيبته

بعدما انهزم أبو الحسن في معركة ضارية التحم فيها جيشه بجيش النصارى في الاندلس ، هجم العدو على حرم السلطان وقتل نساءه وكل من كان فيه من الحشم والخدم وكان من بين الضحايا زوجته بنت ملك تونس الحفصي . فلما عاد إلى المغرب أقر العزم على مصاهرة الحفصي من جديد وبعث الرسل لخطبة بنته أخت الشهيدة .

ولما جهز الاب العروس وبعث بها في وفد إلى زوجها ، قرر أبو الحسن بناء دار فاخرة ليسكنها فيها ، فبعث إلى المهندسين والبنائين والفعلة وأمرهم ببناء قصر ذي أربع غرف ورواقين محاديين للغرف ، وأمر بتزيين الجدران بخطوط ورسوم هندسية جميلة من الجص والزليج . واستعمل خشب الارز المخروط والمزين بأشكال فاخرة من الزهور والرسوم ونحتت جوانب وسط الدار وغطيت بالرخام والزليج وزينت بالاعمدة الرخامية .

وكانت هندسة السقوف مختلفة عن بعضها في كل من الغرفات التي صبغت بالالوان ، وكانت الابواب ملبسة بالخشب وكذلك الدواليب والخزائن والبوبيات ، أما الاقفال وما شابهها فقد صنعت من النحاس المصقول والمذهب أو من الحديد المبيض بالقصدير .

قال أبو الحسن للمقيم على البناء قبل الشروع فيه :

« أريد أن تكون الدار جاهزة بعد سبعة أيام ، اكثر من ذلك ».

فكان الامر كما قال .

« فإذا عزمت فتوكل على الله ».

أما ترتيبات صلاة العيدين أيام نفس السلطان : فيقول عنها القلقشندي :

« **وفي ليلة العيدين ينادي والي البلد في أهلها بالمسير ، ويخرج أهل كل سوق ناحية ، ومع كل واحد منهم قوس أو ءالة سلاح ، متجملين بأحسن الثياب ، ويبيت الناس تلك الليلة : أهل كل سوق بذاتهم خارج البلد ، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم ، عليه رنك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم .**

فإذا ركب السلطان – بكرة – اصطفوا صفوفا يمشون قدامه ، ويركب السلطان ويركب العسكر معه ميمنة وميسرة ، والعلوج خلفه ملتفون به ، وللأعلام منشورة وراءه ، والطبول خلفها ، حتى يصلي ثم يعود ، فينصرف أرباب الأسواق إلى بيوتهم ، ويحضر طعام السلطان خواصه وأشياخه ».

وإلى هذه الفقرة : فإن العمري يصف نظام خروج أبي الحسن إلى السفر هكذا :

« وإذا سافر السلطان وخرج من قصره ونزل بظاهر بلده وارتحل من هناك ضرب له طبل كبير قبيل الصبح إشعارا بالسفر ، فيتأهب الناس له ، ويشتغل كل واحد بالاستعداد للرحيل ، فإذا صليت الصبح ركب الناس في قبائلهم وطبقاتهم ومنازلهم المعلومة ، ووقفوا في طريق سلطانهم صفا بجانب صف .

فإذا ركب تقدم أمامه « العلم الأبيض » الذي هو سعد الدولة ، ويقال له « العلم المنصور » ، وبين يديه رجاله بالسلاح ، والخيل المجنوبة ببراق الوشي – والبراق هي نياب السروج .

وعندما يضع السلطان رجله في الركاب :

... في طبل كبير ثلاث ضربات – يقال له ... – إشعارا بركوبه ، ثم يسير السلطان بين ... الخيل ، ويسلم كل صنف عليه بأعلى ... « سلام عليكم » ، ويكتنفانه يمينا ... ، وحينئذ تضرب جميع الطبول التي تحت ... الكبار الملونة خلف الوزير على بعد من ...

... ولا يتقدم راكب – إلا على بعد كبير – ... العلم الأبيض ، إلا من يكون من خلاص ... ، وربما يأمرهم بالجولان : بعضهم على ... ، ثم ينقطع ضرب الطبول إلى أن يقرب من ...

وإذا نزل ضربت له شقة من الكتان في ... جلود ، يقوم بها عصي وحبال من القنب ، ... هذه الشقة كالمدينة ، لها أربعة أبواب ، ... بها عبيده وعلوجه ووصفانه .

وهؤلاء بنو مرين أكثر ميلهم إلى بيوت ... الشعر ...

ويضرب للسلطان قبة كبيرة مرتفعة من ... تسمى « قبة الساقة » ، لجلوس الناس ...

وإذا ركب هذا السلطان لايسايره إلا ... الأشياخ الكبار من بني مرين ، أو بعض ... العرب ، وكثيرا ما إذا استدعى أحدا ... إليه إلا ماشيا ، فربما حدثه وهو سائر ... ، وربما أكرمه فأمره أن يركب .

وإذا عاد السلطان إلى حضرة ملكه : ... البشائر له سبعة أيام ، وأطعم الناس ... شاملا في موضع يسع الجماهير » .

وقد أشار هذا النص إلى العلم المريني ، ... – الآن – إلى أن أحد أعلام أبي الحسن ... بقيد الوجود ، ضمن ذخائر كنيسة ... بإسبانيا ، وقد علق – مع علم مريني ... – على جدران قاعة الثياب المقدسة ... الكنيسة ذاتها .

وعلم أبي الحسن عبارة عن سجادة كبيرة ... الجوانب ، طولها 3،70 أمتارا ، وعرضها

من خشبة النجاة

كان أبو الحسن مقيما في تونس عندما علم بأن ابنه أبا عنان اغتصب ملكه بفاس . فساءه هذا العقوق وأحزنه ولكنه لم ينل من عزمه وشكيمته فقرر العودة إلى المغرب الاقصى لاسترجاع ملكه .

أبحر أبو الحسن في أواسط فصل الشتاء من سنة 750 هـ / 1349 م. وكان البحر هائجا وأمواجه مضطربة . وبعدما أقلع أسطوله وتوسط اللجج البحرية ، هبت عاصفة هوجاء وأخذت الامواج تلعب بالسفن والرياح تجري بما لا تشتهيه حتى أتت عليها وأغرقت المياه أصحاب أبي الحسن ومرافقيه ، وذهبت بأبي الحسن إلى صخرة قرب شاطىء زواوة حيث ألقت به عريان منهكا مهددا بالموت وهو يشاهد عاجزا موت جميع من رافقوه .

ومضى الليل وكأنه في جحيم من مصابه . ولما أقبل الصباح أقبلت معه السفينة الوحيدة التي نجت من اليم وأنقذت أبا الحسن من موت محقق كان سيدركه لولا لطف الله به .

ويذكر المقري في « **نفح الطيب** » أن أسطول السلطان أبي الحسن كان يتوفر على ست مائة سفينة ومركب كلها ابتلعتها مياه البحر الهائج وأن السلطان وحده أنقذ نفسه على أثر العاصفة بعد أن تمسك بلوح انفصل من مركب شتتت العاصفة أجزاءه .

متران و20 سم ، ذات لون أصفر ، وقد نقشت في شريطيها : الأعلى والأسفل –بحروف بيضاء– هذه العبارة : « النصر والتمكين ، والفتح المبين ، لمولانا أبو (كذا) الحسن أمير المؤمنين ».

ونقش في باطنها – في عدد من الدوائر بلغت ستة عشرة – العبارات الآتية بحروف سوداء : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »، « الحمد لله على نعمه »، « الملك الدائم »، « العز القائم »، « اليمن الدائم »، « العز القائم ».

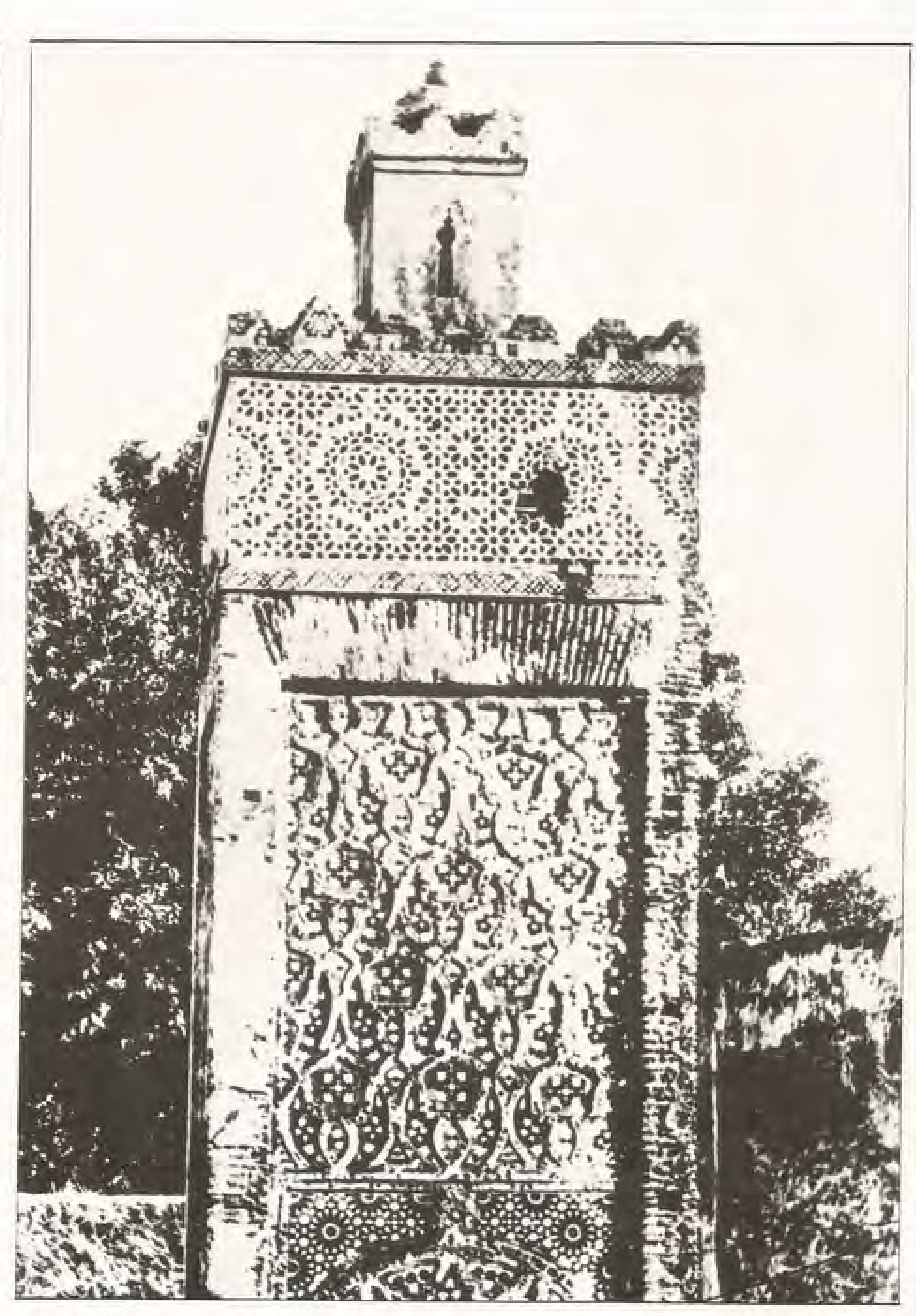
وفي ذيلها أنها صنعت – للسلطان – في المدينة البيضاء ، في شهر جمادى الأخر ، عام أربعين وسبعمائة .

ومن ءاثار أبي الحسن الباقية إلى عصرنا : عياران اثنان من الصفر ، يسع كل واحد منهما مقدار المد الشرعي النبوي ، وهما – معا – في متحف البطحاء بفاس :

أحدهما : مؤرخ في جمادى الأخرة عام 734 / 1333 .

والثاني صنع في شهر رجب من نفس السنة .

وبعد عظمة أبي الحسن ، شاءت الأقدار أن يموت غريبا مقهورا مسلوب الملك والسلطان ، وذلك بعد انتفاضة أبي عنان ضد والده ، فينتهي المطاف « بالسلطان الأكحل » إلى بادية مراكش عند جبل هنتاتة (جبل طبقال) ، وهناك تنتهي حياته ، فيتوفى في دار كبيرة ولكنها



ـ كان السلطان أيضا بانيا عظيما . جامع أبي الحسن بفاس .
(كليشي بوعمري).

خاملة ، ومنها نقل جدثه إلى حيث قبور الأشراف السعديين بمراكش ، إلى أن نقل لمرقده الأخير بشالة ، حيث مشهده لايزال معروفا بين قبور المرينيين بقصبة شالة شرق مدينة الرباط .

وكان جميع ما ولد له يبلغ 1862 نسمة : بين ذكر وأنثى وسقط وغيره .

نعقب – الآن – بموقف كريم للسلطان الأكحل : لما أنجزت أشغال مدرسة أبي الحسن بمكناس زارها ليقف على عملها وتحسيناتها ، فجلس على كرسي من كراسي الوضوء حول بيلتها ، ولما قدمت إليه وثائق نفقات البناء غرقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها ، وأنشد أنذاك :

لابأس بالغالي إذا قيل حسن
ليس لما قرت به العين ثمن

ونختم هذه العروض بالاشارة إلى قصيدة « **زجلية** » نظّمها شاعر شعبي من المائة الهجرية الثامنة ، ويعرف بالكفيف الزرهوني ، وهي في رحلة أبي الحسن وبني مرين إلى تونس ابتداء من عام 748 / 1347 .

والقصيدة طويلة تشتمل على 491 بيتا ، ومنها مخطوطة فريدة في مكتبة ابن يوسف بمراكش ، آخر مجموع يحمل رقم 184 .

على أن ابن خلدون – عند أواخر المقدمة – اقتبس من القصيدة الزجلية 39 بيتا .

من شعر أبي علي إلى أخيه أبي الحسن ، بعدما أيقن بزوال أمره وهو محاصر بسجلماسة من أبي الحسن السلطان الاكحل :

فلا يغرنك الدهر الخؤون فكم
أباد من كان قبلي يا أبا الحسن
الدهر من كان لا يبقي على صفة
لا بد من فرح فيه ومن حزن
أين الملوك التي كانت تهابهم
أسد العرين ثووا في اللحد والكفن
بعد الاسرة والتيجان قد محيت
رسومها وعفت عن كل ذي حسن
فاعمل لاخرى وكن بالله موتمرا
واستغن بالله في سر وفي علن
واختر لنفسك أمرا انت آمره
كأنني لم أكن يوما ولم تكن

الساعات المائية بالمغرب

عبد الهادي التازي

عندما كانت بعض العواصم في العالم الأوروبي تعيش ظروفها الصعبة مع العصور الوسطى ، كانت ديار الاسلام تعيش أيام نهضتها في ميدان العلم والتيكنولوجيا ، في ميدان التحكم في الماء واستغلال طاقته في عدد من المنشآت الحضارية .

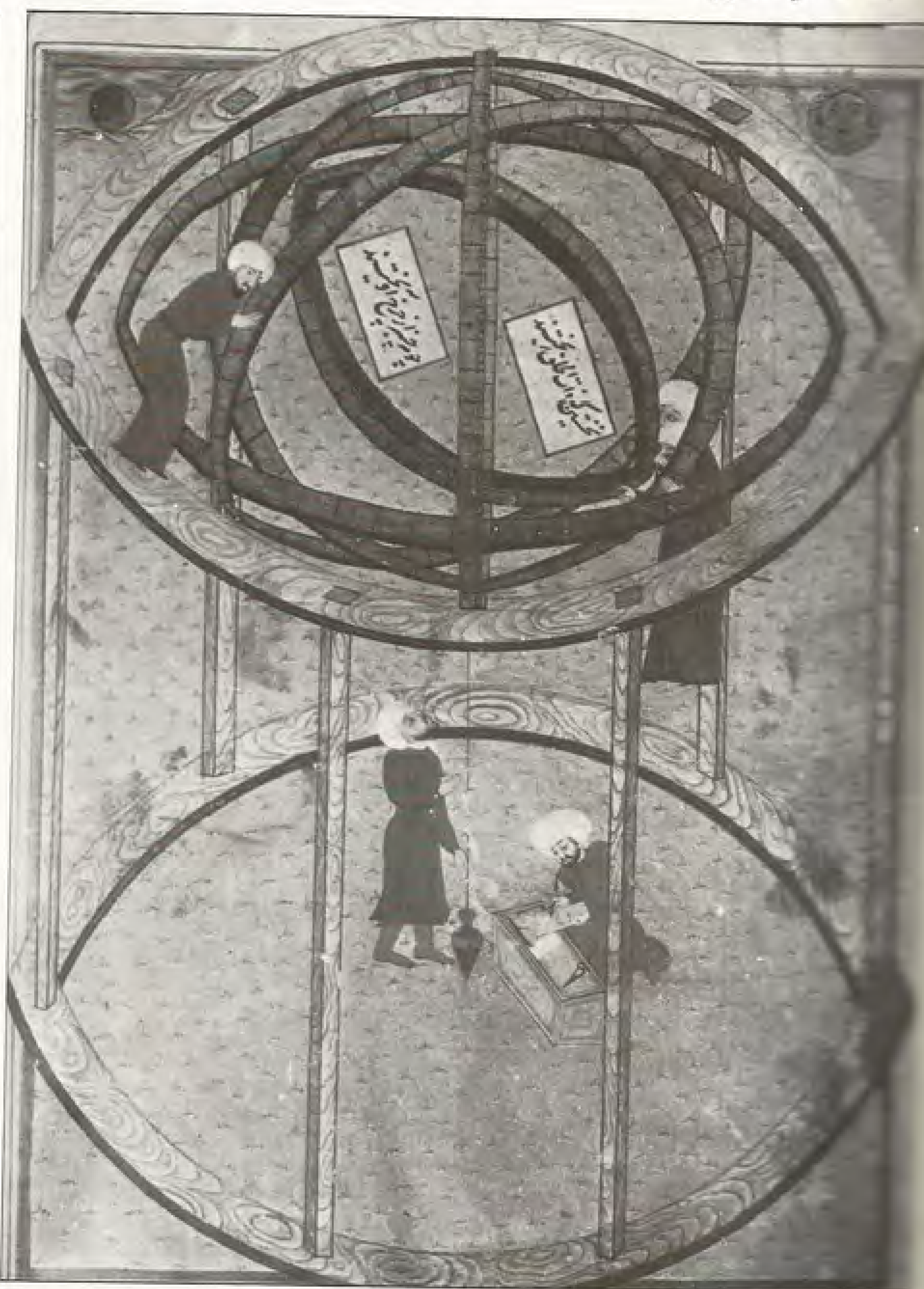
ويكون تاريخ المغرب على ذلك العهد عنصرا هاما في تاريخ العلوم العربية والاسلامية ، كما يعبر عن ارتباط العلم والتيكنولوجيا بالحياة اليومية للمسلمين في شتى الميادين .

وهكذا ففي نطاق الاستفادة من الماء كطاقة هامة وجدنا المهندسين المغاربة المتخصصين في شؤون الري يقومون بنصب عدد من النواعير والدواليب الكبرى على مقربة من الأودية ، لرفع الماء بالغرافات إلى مستويات عليا .

إلى جانب ذلك ، نجد عددا من الساعات المائية التي تعددت بمختلف الأحجام وشتى الأشكال والتي كانت تعتبر في عصرها مخترعات رائدة لاتبعد روح تصميمها عما وصل إليه العالم الاغريقي (هيرون HERON وما خلفه المهندس الروماني (فيتروفيسون VITRAVIUS) وما خلفه لنا الفلكي المعروف ابن الساعاتي والجزري .

ليس فقط في المدن الكبرى ولكن كذلك في المدن الصغرى بل وفي الأقاليم الصحراوية حيث نجد عددا من الساعات المائية تستعمل لضبط توزيع المياه على الواحات .

وإذا كانت ديار المشرق عرفت هي



تطور علمي وتقني بالغ التقدم .
(شاهنشاه - ناما : مخطوط عثماني) .

مذكرات من التراث المغربي

الأخرى عددا من الساعات المائية سواء في بغداد أو في دمشق ، أو في غزة كذلك ، فإنها أي تلك الساعات لم يبق لها أثر يذكر هناك ، على العكس مما كان عليه الحال بالمملكة المغربية .

ولقد كان المغاربة – كمسلمين متشبثين بالعقيدة – يتحمسون لكل ما من شأنه أن يضمن لهم أداء العبادات في أوقاتها المضبوطة .

إن اليوم يحتوي على خمس مواقيت للصلاة ، ولابد لكي يحقق المسلم ما يصبو إليه أن يؤدي فريضته في الوقت المعين .

ومن هنا فتح باب الاجتهاد على مصراعيه للذين يتوسلون للوصول إلى معرفة الأوقات . سواء بالساعات الرملية أو الساعات الشمسية أو كذلك – وهذا موضوع حديثنا – بالساعات المائية .

ولقد تحدث ابن فضل الله العمري (ت 749 / 1349) في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار عن ساعات كانت منتصبة بباب جامع الكتبية « ارتفاعها في الهواء خمسون ذراعا ، تنزل عند انقضاء كل ساعة ضجة وزنها مائة درهم فتحدث رنة ، ولها أجراس يسمع وقعها من بعد وتسمى عندهم المنجانة وهي الآن بطالة لاتدور » .

فهل كانت هذه الافادة الهامة من العمري مروية أيضا – كما هي عادته – عن ابن سعيد المتوفى سنة 673 / 1826 (؟) إذا كان الأمر كذلك فإن ساعة مراكش تعتبر من المخترعات التي واكبت ظهور الساعات المائية في المشرق إن لم تكن قد سبقتها .

إن مراكش لم تكن بعيدة عن دمشق وبغداد اللتين عادتا تتوفران على ساعة مائية... وبالرغم من طول المسافة بين الجانبين فقد ظلت الصلات بين جناح المشرق وجناح المغرب منذ أن وجه السلطان يوسف بن تاشفين سفارته إلى البلاط العباسي برئاسة الامام ابن العربي...

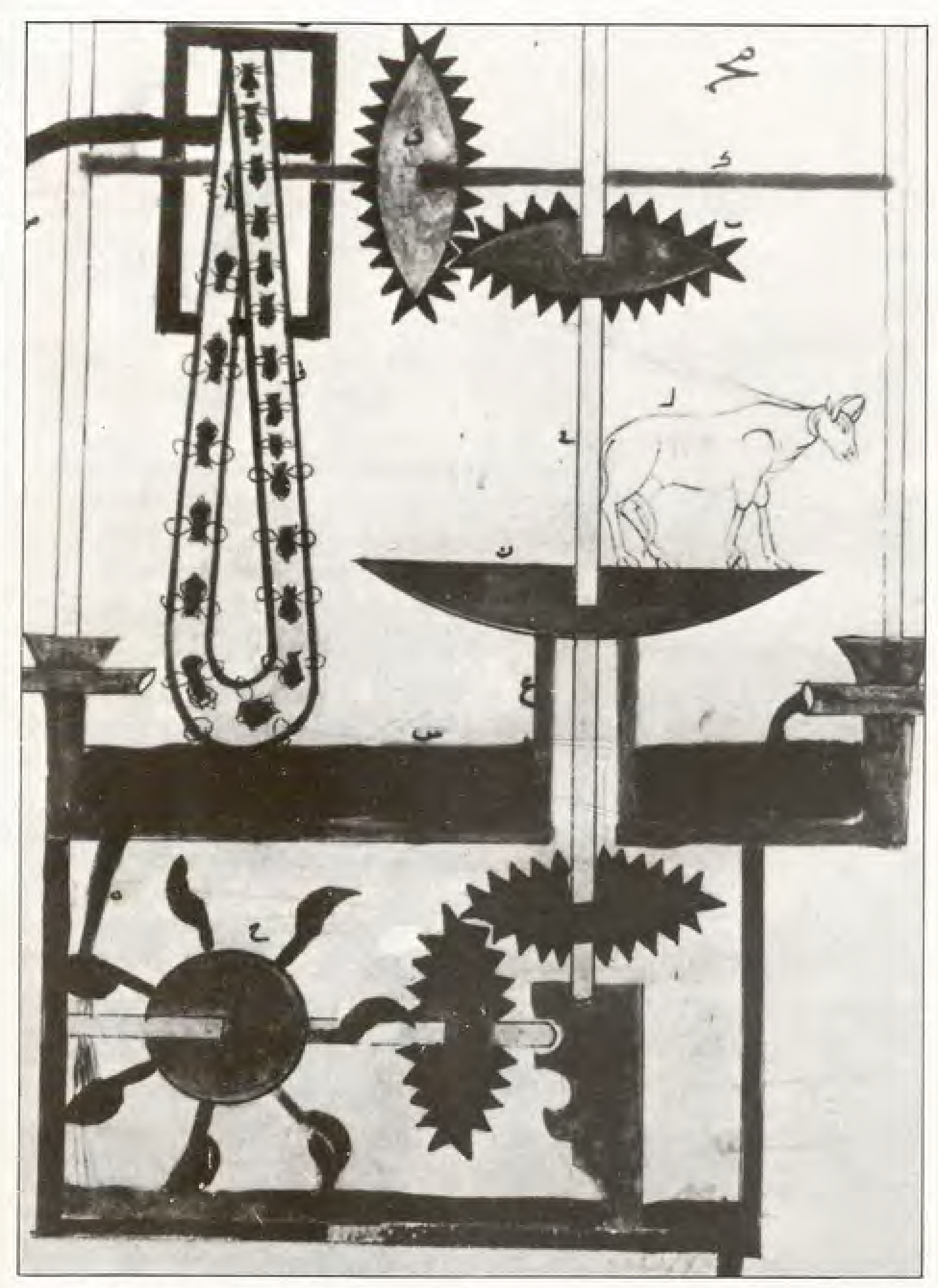
ومن ثم يسهل علينا – بعد وصول أخبار الساعة المائية التي شيدت بظاهر الجامع الأموي بدمشق أواسط القرن السادس ، وبظاهر المدرسة المستنصرية ببغداد أيام الرشيد بن المامون ابن يعقوب المنصور (630-640 / 1232-1240) – يسهل علينا أن نتصور حجم الساعة المائية للكتبية بمراكش ! سيما ونحن نعلم أن البلاطين المشرقي والمغربي عاشا ظروف تنافس فيما بينهما وبخاصة في عهد الدولة الموحدية التي كانت تتخذ من مدينة مراكش عاصمة سياسية لها...

أما عن مدينة فاس العاصمة الأولى للاسلام بديار المغرب فإنها عرفت سلسلة من الساعات المائية كانت تتطور بمرور الزمن من أبسطها إلى أكثرها تعقيدا .

وفي قلب العاصمة ، وبالذات في القبة العليا من منار الجامع الأعظم الذي يقع شرقي المدينة في الضفة التي تحمل اسم « عدوة القرويين » نسبة إلى السادة المهاجرين الذين وردوا

كان المغاربة يبدعون في أنظمة الري ، وصناعة الناعورات (النوريات) .
(كليشه بوعمري) .





استغلال الطاقة المائية .
يظهر في الصورة تصميم مضخة مائية لاسماعيل الجزري . (القرن الثالث عشر).
(كليشه بوعمري).

من مدينة القيروان كلاجئين سياسيين على مدينة فاس ...

في تلك القبة من المنار نصبت الساعة المائية الأولى التي عرفتها مدينة فاس .

ساعة ابن الحباك 685هـ / 1286

ورد على سفارة المغرب بالولايات المتحدة الأمريكية (واشنطن) منذ مايو 1957 الدكتور ديريك ج . دوصولا برايس (DEREK J. DE SOLLA PRICE) المستشار في تاريخ التنجيم والطبيعيات ، يطلب مده بمعلومات عن ساعة مائية قال : إنها موجودة في جامعة القرويين بفاس صنعت سنة 685 هـ وانه يريد أن ينشر صورا عن تلكّ الساعة التي قال عنها إنها أقدم ساعة مائية في العالم .

وهكذا وجدنا الأستاذ محمد الورزازي يكتب ، باسم السفارة ، طالبا إلى وزارة التعليم والفنون الجميلة تزويده بمعلومات إضافية « لما في ذلك من دعاية طيبة لتاريخنا المغربي المجيد على حد تعبير الرسالة...

وقد عهد إلي وقتها بالنظر في الجواب لما كان يعلمه السيد الوزير من انشغالي بتاريخ جامعة القرويين ...

ولما كانت مدينة فاس تتأهب لاحتضان المؤتمر الاقليمي الأول للجان الوطنية العربية لليونيسكو ، طلبت إلي جريدة (العلم) أن أقتبس من كتابي بعض الفصول التي تبحث جوانب الحضارية في تاريخ جامعة فاس : القرويين .

وقد وقع اختياري منذ ذلك التاريخ (27-1-1958)، أي قبل ربع قرن ، على مجموع الساعات المائية وعلى رأسها تلك التي سأل عنها الدكتور دو صولا برايس.

وترجع ساعة الموقت أبي عبد اللّه محمد ابن الحباك لبداية حكم دولة بني مرين في منتصف القرن السابع الهجري أواسط القرن الثالث عشر حيث تولى الأستاذ الخطيب أبو محمد بن أبي الصبر أيوب بن يكتنول وظيفة القضاء بالمدينة ، فهنا اقترح القاضي المذكور سر المؤقت ابن الحباك نصب ساعة مائية تعرف الناس بأوقات الليل والنهار .

ذلك أن الساعات الشمسية والساعات الرملية التي يتوفر عليها الجامع ، لم تعد كافية ! إنّ جميع صوامع فاس بدون استثناء تقتدي بإشارة منار جامع القرويين منذ التاريخ الذي أسس فيه

مذكرات من التراث المغربي

العلم والتكنولوجيا مرتبطان بالحياة اليومية . في الصورة ، مغسل أوتوماتيكي (ذاتي الحركة) ينسكب فيه الماء من الخزان العلوي في الابريق التي تقبض عليه دمية اصطناعية تقوم مقام الخادم ، تمد حسب الطلب بالمنديل أو المشط .
(كليشه بوعمري).



الجامع ، فلابد إذن من الاعتناء بناحية التوقيت فيه...

لقد كان ابن الحباك قد برهن على مقدرته العلمية الفائقة عندما نصب – على أحسن وجه – محراب المدرسة الأولى في حياة بني مرين : مدرسة الصفارين المجاورة للقرويين ، ومن ثمت أصبح مرشحا للقيام بنصب الساعة التي اقترحها عليه القاضي ابن يكنول .

وهكذا وجدناه يصنع صحنا من الفخار بالقبة العليا من منار الجامع ...« ملأه بالماء وجعل على مستوى الماء مجرى من نحاس فيه خطوط وثقب يتسرب منها الماء بقدر معلوم فتعرف الساعات سواء بالليل أو النهار وفي أوقات الغيم على مقتضى ما تغطيه تلك الخطوط المرسومة من إشارات » .

وحتى نتصوّر آلية « **ميكانيزم** » هذه الساعة ، ينبغي أن ننتقل إلى حديث شاهد عيان للساعات المائية في مدينة فجيج (جنوب شرقي المغرب) .

لقد كانت فجيج إلى عهد قريب تتوفر على اثنتين وثلاثين ساعة مائية تتكون تقريبا – على نحو ساعة ابن الحباك – من حوض مليء بالماء يطفو على سطحه إناء من النحاس في شكل نصف كرة على حجم معين ، يوجد في أسفله ثقب يتسرب إليها الماء قليلا قليلا حتى إذا امتلأ نزل في الحوض ..وحينئذ يعلن حلول الساعة ...

ومن الملاحظ أن الوصف الذي أعطاه المؤرخون لساعة ابن الحباك يفيد أنها كانت تمتاز عن سائر الساعات المائية الأخرى بأنها أصغر حجما وأبسط تركيبا ... لقد كانت – بالنسبة إلى الساعات اللاحقة – كما لو كانت ساعة متنقلة إذ كان في المستطاع تحويل الصحن من جهة إلى أخرى ! فكانت تشبه – والحالة هذه – الساعة الخامسة التي تحدث عنها الجزري في كتابه (معرفة الحيل الهندسية).

لكن نصب الساعة المذكورة في القبة العـ
من المنار بعيدة عن الماء كان مما شجع على إهمالـ
وإغفالها ! لقد كان على المشرفين على الساعة أ
يصعدوا مائة درجة ودرجة...



الانسان الآلي في خدمة العلوم : آلة لحساب الدم المسحوب من مريض أثناء عملية الفصد الجزري .
(كليشه بوعمري) .

الغريفة تعوض القبة العليا

ولما أصبحت القبة العليا من منار جامعة القرويين غير صالحة لاحتضان ساعة مائية تحتاج باستمرار لمن يزودها بالماء اللازم ، وجدنا السلطان يوسف بن يعقوب يدشن أيامه بناء ما يسمى إلى الآن بالغريفة (تصغير غرفة بمعنى حجرة) خصصها للموقتين والمؤذنين ، وهي تطل على صحن الجامع ولها باب ينفذ إلى سطح المسجد الأعظم...

لم تلبث « الغريفة » أن غدت متحفا علميا رائعا يفوت التصور بما احتوت عليه من ساعات مائية علاوة على الساعات الشمسية والرملية والاسطرلابات قبل أن تحتضن عددا مهما من الساعات العصرية فور ظهورها في أروبا ...

وكان مما ضاعف من اهتمامنا بها أنها (أي الغريفة) بقيت بعيدة عن الباحثين والمنقبين ...فأصبحت – بسبب ذلك – جديرة بالتشجيع المناسب والرعاية اللازمة سيما بعد أن استهدفت لبعض التساهل غير المقصود .

ساعة الصنهاجي القرسطوني 717 / 1317

وفي نفس التاريخ الذي ألف فيه ابن أبي زرع كتابه (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) وبالذات في عهد السلطان المريني أبي سعيد عثمان ، وجدنا الغريفة تزدان بالساعة المائية الأولى ...إنها الساعة المائية التي تضافرت عليها جهود عدد من المعدلين والموقتين واحتلت مكانا بارزا من وصف المؤرخين المغاربة .

وبتعلق الأمر بالمنجانة أو المنقانة أي الساعة التي صنعها الشيخ المعدل أبو عبد الله محمد الصنهاجي ...

وقد وضع تصميمها ورسم خطوطها أبو



أنجز ابن العربي جهازا هو مزيج بين الاسطرلاب والساعة المائية . اسطرلاب من النحاس مزخرف بالفضة . (القرن الثالث عشر) . (الخطوط الملكية المغربية) .

عبد الله محمد بن الصدينية القرسطوني بعد أن تطوع بعض المؤمنين بالانفاق على المشروع من ماله الخاص ...

وهكذا جعل في أقصى الغريفة ، في ركنها عن يسار المستقبل لجهة المشرق ، جنحا من خشب الأرز ، وجعل في داخله بدنين كبيرين من فخار أحدهما أعلى من الآخر ، وجعل الماء في الأعلى منهما وبأسفله أنبوب من نحاس مموه بالذهب محكم العمل يهبط منه الماء في البدن الأسفل بقدر معلوم ، وجعل في طرف الجنح (Cuvette) ورسم في جانبي التفطيسة بروج الأفلاك والأشهر العجمية والساعات ودقائقها ، وجعل في الوسط مسطرة رسم فيها أيضا الساعات والدقائق وأوقات الليل والنهار ، وجعل في وسط مسطرة (عمودية) معلقة في خارج من الجنح ، يجري الماء في حفر التفطيسة المذكورة صاعدا وهابطا ، وجعل على وجه الماء الذي يجتمع في البدن الأسفل جسما مجوفا من نحاس على هيئة ... معلقا في الطرف الذي يلي من الغلور ، ... طلع الجسم بطلوع الماء الذي يجتمع في البدن الأسفل طلع طرف الغلور الخارج من التفطيسة وطلعت بطلوعه المسطرة ، وكلما ... طول الازمان ظهر فيها الوقت المطلوب ، ... النهار والليلة المقبلة له ، رد الماء من البدن الأسفل إلى البدن الأعلى وعلقت المسطرة كما كانت ...

ساعة ابن العربي 747 / 1346

... الزمن أهملت صيانة ساعة ... القرسطوني ، إلى أن عين السلطان ... علي بن أبي سعيد مؤقتا جديدا بفاس كان هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن العربي الذي قام بتجديد « المكانة » على وجه متقن يفوق الترتيب الأول ، ولم يزل يجتهد في تطويرها إلى أن بويع السلطان أبو عنان عام 749 / 1348 ، فهنا فكر المؤقت ابن العربي في أن ينصب على واجهة المجن المذكور تجاه المستقبل له ، دائرة في شكل الاسطرلاب ، ورسومه تدور متى طلعت المسطرة المذكورة ، ويعرف بها أيضا أوقات الليل والنهار علاوة على ما جهز به « الغريفة » من ساعات ملية لاختبار الأوقات ، ومن اسطرلابات جعلها رهن إشارة من يستعملها وينظر فيها أجزاء الليل والنهار . وهكذا ربط ابن العربي بحكمته وعلمه بين الاسطرلابات وسير الساعة المائية ...

وبالرغم من سكوت كتب التاريخ عن مصير هذا الاسطرلاب ...إلا أننا نعتقد أن الحديث عنه لايختلف عن الحديث حول الاسطرلاب الذي تحدث التاريخ عن نصبه من لدن اللجائي إن لم يكن هو على ما سنرى ...

لقد حرك اختراع الساعة المائية من همة الشعراء المغاربة فقال أحدهم :

روح من الماء في جسم من الصفر
مولد بلطيف الحسن والنظر
مستعبر لم يغب عن عينه أبدا
ولم يبت من ذوي ضعف على حذر
وفي أعاليه حسبان يفصله
للناظرين بلا ذهن ولا فكر
إذا بكى دار في أحشائه فلك
خافي المسير ، وإن لم يبك لم يدر
مترجم عن مواقيت يخبرنا
بها ، فيوجد فيها صادق الخبر
تقضي به الخمس في وقت الوجوب ، وإن
غطى على الشمس ستر الغيم والمطر
وإن سهرت لاوقات تؤرقني
عرفت مقدار وقت السهد والسهر
محدد كل ميقات تخبره
ذوو التميز للاسفار والحضر
مخرج لك بالاجزاء ألطفها
من النهار وقوت الليل والسحر
نتيجة العلم والافكار صوره
يا حبذا بدع الافكار في الصور !

السلطان أبو عنان يقف على ساعة ابن العربي

كان الحديث عن هذه الساعة قد دوى في أرجاء المدينة ولذلك نجد السلطان أبا عنان يقوم – بعد مبايعته عام 749 / 1348 – بصعود صومعة الجامع الأعظم للوقوف في « الغريفة » على المنجانة وما اتصل بها قبل أن يلقي نظرة على العاصمة العلمية من أعلى المنار ...

ساعة ابن الفحام 758 هـ / 1357 م

إن الذين يعرفون عن السلطان أبي عنان وعن مؤسساته العلمية ومنشآته الحضارية في مختلف المدن والقواعد التي شملها حكمه ، سوف لايستغربون بناءه لساعة مائية رائعة كانت حديث المجالس على عهد بني مرين .

ونحن نعرف أن السلطان أبا عنان – تعبيرا منه على الاهتمام بأمر العمران أمر ببناء تصميم (ماكيط) لجبل طارق يشبه شكل الجبل ، وقد



الساعات المائية

برزت فيه أسوار الجبل وأبراجه وحصونه وأبوابه ، وبجار صنعته ، ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه ، وما اتصل به... حيث ظل هذا التصميم معروضا بأجنحة القصر الملكي بفاس ردحا من الزمان...

وإن السلطان أبا عنان هو الذي زود عام 756 / 1355 مدينة فاس بمدرسة علمية بناها – على شرف قاضي حضرته ومنشىء بيعته أبي عبد الله محمد المقري التلمساني – بين شارعين رئيسيين من أهم شوارع العاصمة : الطالعة الكبرى (المعروفة قديما بسوق القصر) والطالعة الصغرى (المعروفة قديما بزقاق الحجر) ...

كانت المدرسة تحفة رائعة ، لا فقط بما تضمه من عدد الغرف التي كانت تختص الطلبة من شتى الجهات ولكن بما اشتملت عليه من تجهيزات فاقت بها سائر المدارس العلمية الأخرى حيث اشتملت بالاضافة إلى القاعتين المتقابلتين، لالقاء الدروس ، على صومعة تربط الصلة بين المدينتين : فاس القديم وفاس الجديد ... كما اشتملت على قاعة للصلاة ازدانت بمنبر ثمين بديع ... وعلى « خلوة » تحمل في الاصطلاح المغربي اسم« الأسبوع » لأن القراء الذين ينقطعون فيها يختمون القرآن بها كل أسبوع .

ولابد أن نذكر في هذا الصدد ما قاله ابن بطوطة عن هذه المدرسة : « **إنه لم ير لا في سوريا ولا في مصر ولا في العراق ، ولا خرسان كذلك مدرسة تحاكيها** » .

ويروي المؤرخون أن السلطان أبا عنان لما اطلع بعد انتهاء بناء المدرسة على دفتر الحسابات ووقف على ما يبهر من المصاريف مزق تلك الدفاتر ورمى بها في الوادي الذي يشق المدرسة ، مستشهدا بهذه الحكمة : « **لا بأسَ بالغالي إذا قيل حسن !** ».

ولكن لسلطان أبا عنان لم يقنع بكل تلك المرافق ، فوجدناه أثناء حكمه في تلمسان عام 758 / 1357 يصدر أمرا لموقته العلامة المعدل الفيلسوف أبي الحسن علي بن أحمد التلمساني الملقب بابن الفحام بأن يشيد بفاس ساعة مائية على مقربة من مدرسته العظيمة غير بعيدة عن دار الوضوء التي كانت بدورها تحفة العصر ! وبجوار خلوة الأسبوع التي تشرف على شارع الطالعة ...كان قصده تعزيز ناحية المدرسة بما عرفته جامعة القرويين سلفا من ساعة ابن الحباك وساعة الصنهاجي وساعة ابن العربي ...

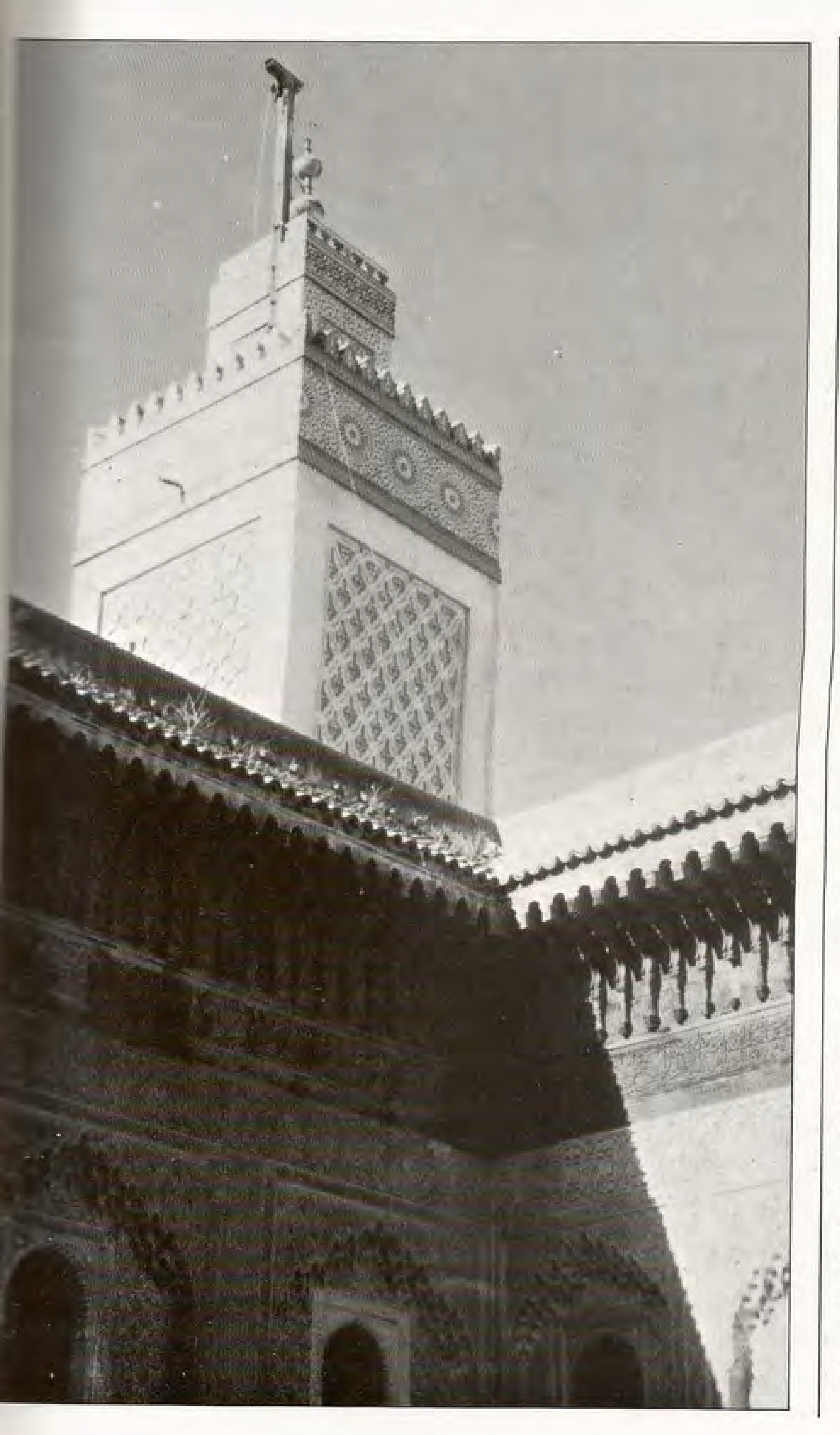
ظلت منجانة ابن الفحام المائية تحفة فنية رائعةً يزدان بها سوق القصر ردحا من الزمان ؛ وكانت ، على مايقوله(كودفروا ديمومبين) نسخة طبق الأصل من ساعة الكتبية التي تحدث عنها ابن فضل الله العمري ... لكن الأسرار الميكانيكية اختفت باختفاء المشرفين على تسييرها ...

وقد أسعدنا الحظ بوجود نصين معاصرين للفترة التي شيدت فيها الساعة : كلاهما يعطي فكرة أولى عن ساعة ابن الفحام .

ويتعلق الأمر أولا بفقرات من كتاب « جني زهرة الآس » لأبي لحسن علي الجزنائي المتوفى عام 767 / 1366 ، تتحدث عن « أن السلطان أبا عنان رحمه الله صنع « منجانة »

ابن عبد المناف يقدم لنا هذه القصيدة الجميلة حول الساعة المائية البديعة :

وآلة للمواقيت استقل بها
صنع تفوت النهى لطفا صنائعه
أبياتها عد أبراج السماء ، ولا
قطب ولا فلك تدرى مواضعه
يجرى الهلال عليها جريها أبدا
على المنازل ، صنع فاق بارعه
وفي البيوت جوار : كل واحدة
منهن خصت بميقات تطالعه
حتى إذا جد إسراعا لوجهته
وحم منه فراق خاف واقعه
وأذن الطير من أعلى مراقبه
ببينه معربا عن ذاك قارعه
ثارت هنالك توديعا له ، ودنت
إلى الغناء على ذعر تشايعه
وفي اليمين كتاب باسم موقتها
إلى الامام وقد أومت تبايعه
وشامخ المرتقى آوى لافرخه
بالوكر ، وهو أمين السرب وادعه
أتيح عمدا له مستشفع سبط
رحب القذال صقيل الطرف لامعه
أحوى الاديم يجاري دونما قدم
هوج الرياح حديد الناب قاطعه
جم التقلب لم تؤمن غوائله
غدرا وتحذر من ختل خدائعه
يسعى له الحين بعد الحين يرزاءه
ثكلا فيصفر خوفا أو يقارعه
كذلك الليل لا ينفك مختلفا
إليه وهو عن الافراخ دافعه
ومثله لاخيه ينتحيه ، وما
إن منهما ليله إلا مقارعه
كأنما الصل أمسى ممسكا ، فإذا
ما ساعة ذهبت ثارت مطالعه
وظنها آخر الساعة قد أذنت
بفطره فسما للفرخ لا سعه
رياض حسن بدا ، لولا سعودك لم
تستجل – يا مليك الدنيا – بدائعه



بطيقان وطسوس من نحاس مقابلة لباب المدرسة الجديدة التي أحدثها بسوق القصر من فاس ، وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة في طاس وتنفتح طاق ، وذلك في أيام آخرها الرابع عشر لجمادى الأولى عام ثمانية وخمسين وسبعمائة على يد موقته أبي الحسن على بن أحمد التلمساني المعدل » .

أما النص الثاني المعاصر ، فإنه عبارة عن قصيدة شعرية مدح بها كاتب الدولة المرينية أبو العباس أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المنان الأنصاري الخزرجي من أهل مكناس ، مدح بها السلطان أبا عنان ...

لقد عرف عن ابن عبد المنان أن له موهبة في إتقان الوصف، بطريق الشعر ... كيف لا وهو الذي قدم صورة مدققة لما كان يجري من مصارعة الأسود بمحضر العاهل وعلية رجال الدولة...

وهكذا نجد ابن عبد المنان يقدم لنا هذه القصيدة الجميلة حول تلك الساعة البديعة : وبالاضافة إلى هذه النصوص النثرية والشعرية ... توجد مخطوطة حول هذه الساعة ، تحمل في خزانة القصر الملكي رقم 170 بعنوان : « زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ » لأبي عبد الله محمد بن محمد (فتحا) ابن الأعراج السليماني الحسني المتوفى سنة 1344 / 1925 .

لقد قدم المؤرخ السليماني معلومات مفيدة ودقيقة عن ساعة ابن الفحام وكأنها شرح لما ورد في قصيدة ابن عبد المنان .

ونظرا لأهمية النص من جهة وشبه الساعة القوي بزميلتها ساعة تلمسان التي شيدها نفس المؤقت سنة 760 / 1359 ولكن برسم السلطان أبي حمو الثاني الذي أمسى حاكما على تلمسان ، فإني أنقله هنا إشادة بهذه الساعة التي تحدث عن نظيرتها في تلمسان عدد من المؤرخين في صدرهم أبو زكرياء يحيى بن خلدون في كتابه

مدرسة أبي عنان التي أمرت بصنع أكبر وأجمل الساعات المائية . (كليشه بوعمري).

« بغية الرواد في ذكر بني عبد الواد » وأبو عبد الله التنسي في كتابه « نظم الضرر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان » وكذا أبو عبد الله المقري في كتابه نفح الطيب...

يقول التلمساني :

« ومنجانة المدرسة العنانية هي رئيسة بابها ، وأعظم ما يستوقف المار بها ، ذات أبواب على عدد ساعات الليل الزمانية ذات تماثيل محكمة الصنعة ، مركبة في قمر يسير على خط الاستواء سير نظيره في فلكه . ومهما سامت بابا من تلك الأبواب أول ساعة ، ينقض من البابين المقابلين عقابان في يد كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها على طست من الصفر ، فينهش الأرقم المتصل بالقمر فرخ العقاب نهشة أو أكثر بعدد الساعة في الطست بحسبها ويسمع من بعيد ، ويصفر العقاب كذلك ، وعلى هذا المثال يكون سير الساعة بعد الأخرى إلى الصباح ، ثم يبتدىء دور النهار كذلك ... ويحرك مجموع ذلك آلات متصلة بعضها تحرك بقوة الماء الجاري أسفل بيت المنجانة ، وبقيت إلى الآن منها أي الساعة آثار تدل على بديع صنعها وعلو همة منشئها... »

ويقول : « وأما منجانة تلمسان فلم يبق من أثرها إلا برجها الماثل على باب مشورها وبه الآن صنجة كبيرة إفرنجية على الطراز الحديث ».

ويقدم المؤرخون وصفا لساعة تلمسان على نحو الأسلوب الذي يكاد يتفق عليه ابن خلدون والتنسي والمقري :

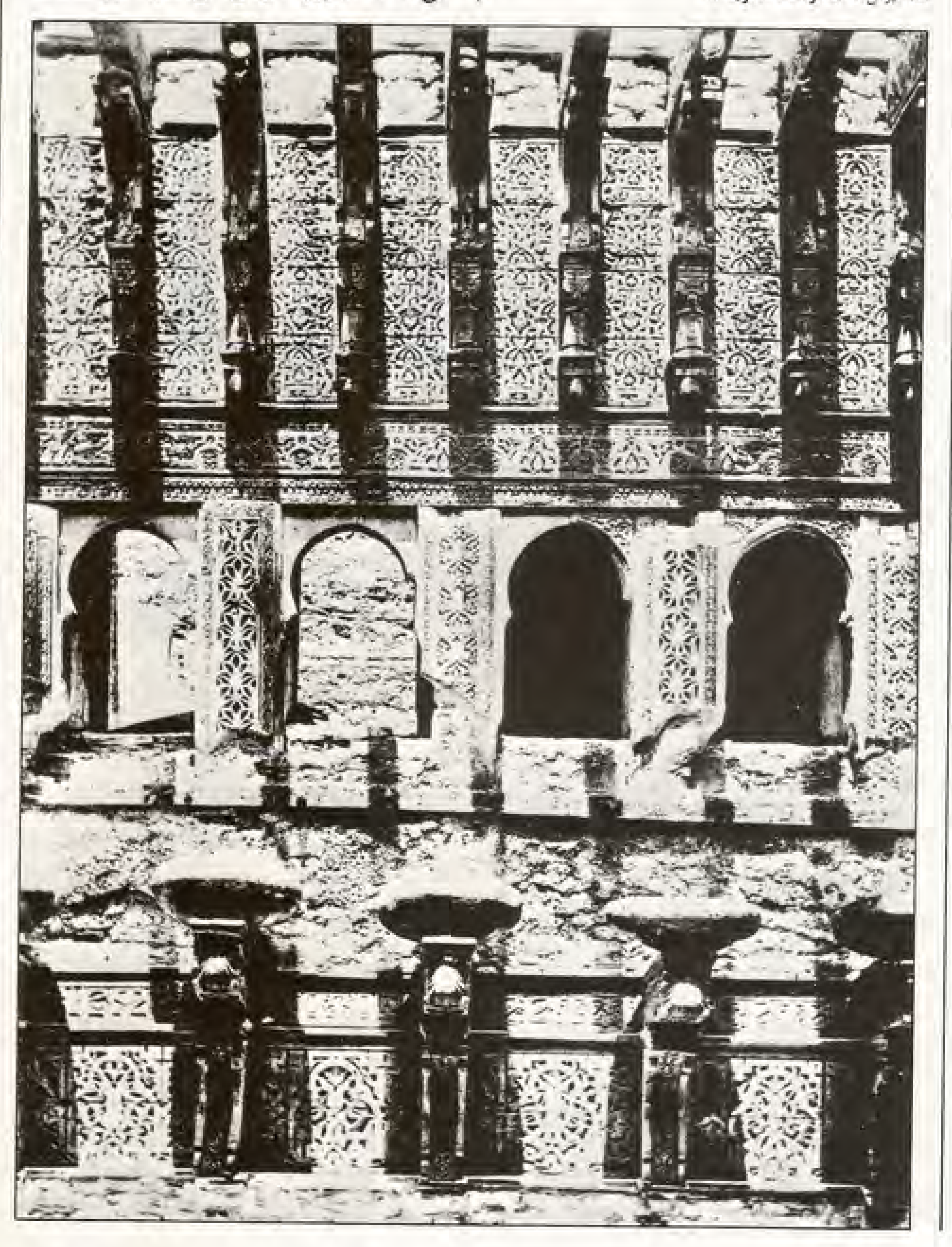
« وخزانة المنجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة أعلاها أيكة تحمل طائرا ، فرخاه تحت جناحيه ، ويختله بقية الرواد فيها أرقم خارج من كوة على أيكة علا ، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية (بل يقول : عشرة) ، يصاقب طرفيها بابان كبيران وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان ، بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها في طست من الصفر مجوف بواسطة ثقب ، فيصير إلى داخل الخزانة ، فيرن وينهش الأرقم أحد

الفرخين فيصفر له أبوه ، فهنالك يفتح باب الساعة الذاهبة ، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء ، يمناها إضبارة فيها إسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة ...« حيل»

أحكمت يد الهندسة وضعها ، وراض تدبير الخلافة شماسها ». هكذا يختم ابن خلدون .

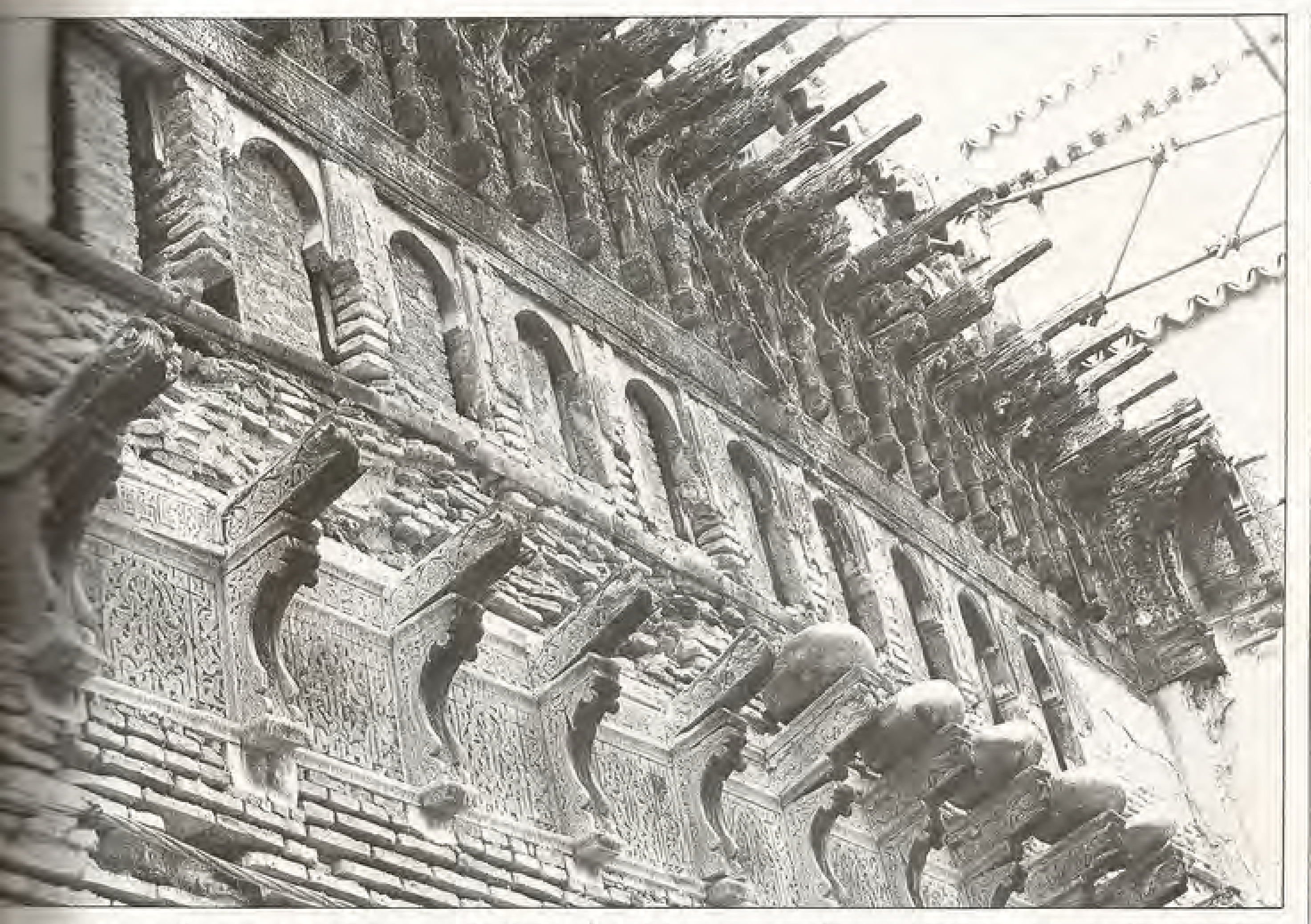
بين ساعات المشرق وساعات المغرب

وربما سيكون من الطريف أن نلقي نظرة على ساعة الجزري ، ونحن على مقربة من ساعات



ساعة أبي عنان المائية . بناها ابن الفحام الموقت والعالم والفيلسوف والفلكي سنة 1357 م.
هـ. تيراس : «مدرسات المغرب ».

مذكرات من التراث المغربي



هذه النوافذ التي هي على شكل محراب يبلغ عددها ... وتعلوها اثنتا عشرة نافذة أخرى مستطيلة أصغر حجما ...
(كليشه أودول).

ابن الفحام :إن ذلك سيساعدنا على استحضار الصورة سيما ونحن نجد أنفسنا أمام آليات متقاربة وتعبيرات متشابهة باستثناء ظاهرة واحدة هي أن الضجة بالنسبة لساعة المشارقة تنطلق ، عند كل ساعة ، من جهة واحدة لتقع على طاسة واحدة بينما الضجات في الساعة المغربية تتعدد من حيث مكان انطلاقها ومن حيث مكان وقوعها فعندنا اثنتا عشر طاسة وعندنا اثنتا عشرة ضجة ...

لقد كان ميناء الساعة رقم 1 من ساعات الجزري يتكون من النحاس والخشب ، عرضه حوالي 1.35 م على طول يصل إلى 2.25 م ثم أضيف لعلوه 75 سانتيما ركبت اسطوانة يظهر للعيان نصفها ، كانت عبارة عن دائرة البروج وهي تحمل فعلا علامات الاثنى عشر برجا في الواجهة ، بينما يلاحظ في أسفل هذه الدائرة قرصان ملونان يمثلان الشمس والقمر : القرص الأول أصفر وهو من الزجاج والثاني أبيض ... وقد وضعا على شكل دوراني كي يضبط موقعهما المناسب في دائرة البروج خلال يوم معين ، وتختلف أوضاعهما بالنسبة لوسط دائرة البروج...

ويوجد تحت دائرة البروج صف يتكون من اثنى عشر بابا يحتوي كل واحد منها على دفتين ، وتوجد تحتها مجموعة اثنى عشر بابا من دفة واحدة رسمت عليها « له الملك » ، ويوجد تحت هذه الأبواب إفريز يخرج منه قضيب وعليه هلال صغير يتساوى علوه مع علو المجموعة الثانية من للأبواب وتوجد تحت الافريز في وسط الميناء نصف دائرة تتكون من اثنى عش... زجاجية ويوجد في كل من جانبي الدائرة ... يقف على وكر ، وهو المجثم الذي يجد... الصقر عادة للراحة ... وتحته زهرية يحتوي ... على ضجة ... وهناك أخيرا خمسة موسيقي... الجانب الأسفل من الساعة : نفاري... وطبالين وصاحب الضجات .

يتحرك الهلال أول النهار أمام الأ... وبعد ساعة يكون قد تحرك بين الباب الأول ... ثم يفتح الباب العالي فيشاهد تمثال ... الوقت المحدد تميل الصقور وأجنحتها ...

ترمي بضجة في اتجاه الزهرية (الطست) ثم تعيد لموقعها الأصلي ...

قصدت بإيراد هذا الوصف أن نتصور ميناء ساعة المدرسة البوعنانية بطالعة فاس ونحن نقرأ عن سقوط الضجات في طاساتها وانفتاح أبوابها التي كانت بعدد أبراج السماء ... وسريان القمر على خط الاستواء والتماثيل في البيوت ... وصور الصقر والطيور ... علاوة على رسم الثعبان الذي نجد لها ذكرا أيضا في الساعة الرابعة من ساعات الجزري ...

إنها كانت أعجوبة على واجهة الشارع العام تستوقف المارة طويلا أكثر مما تستوقفهم اليوم *...

وحتى أيام ابن القاضي صاحب الجذوة (ت 1025 / 1616) الذي تحدث عنه هذه الساعة باقتضاب ، فإن أحدا – على ما يبدو – لم يتعرض لتعطيلها ولو أننا نعرف سلفا عن المصير الذي يمكن أن ينتظر آلة إنما تتحرك بواسطة ضغط الماء علاوة على ما تحتاج إليه باستمرار من صيانة وعناية وما تحتاج إليه من التقنيين المتخصصين وهم قلة في كل زمان ، وخاصة في الظروف العصيبة التي مرت بها العاصمة سيما أيام انتقال الحكم من دولة بني مرين إلى دولة السعديين وانتقاله كذلك من هؤلاء إلى الدولة العلوية ...

ولابد للمؤرخ أن لاينسى ، بهذه المناسبة ، الزلزال المهول الذي ضرب ديار المغرب بتاريخ 26 محرم 1169 / 1 نونبر 1755 ، هذا الزلزال الذي تأثرت منه بصفة مباشرة مدينة فاس حيث كان يقيم السلطان مولاي عبد الله .

لقد قرأنا كثيرا عن آثار الزلزال الذي اشتهر باسم زلزال ليشبونة ..ولكنا لم نكلف نفسنا عناء تتبع آثار الدمار الذي خلفه ذكر الزلزال في بلادنا ..

فباستثناء الفقرات القصيرة التي أوردها أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري في نشر المثاني ... والتي ردد صداها – باختصار – بعض المؤرخين المغاربة من أمثال المسناوي الذي نقل عنه ابن زيدان مؤرخ الدولة ... لم نقف على جرد يقدم لنا إحصاء تقريبيا للخسائر العمرانية



* .. كل افريز من الافريزات الثلاثة عشر يحيل على أحد النواقيس ، وهو مثقوب في نهاية حاشيته الداخلية...
(مستندات الكاتب) .

مذكرات من التراث المغربي

والبشرية التي كانت جسيمة ، الأمر الذي يفسره ما تحدث به الشيخ التاودي في نوازله عن « الاذن » الذي صدر عن ملك المغرب محمد الثالث ببيع الرباع والأوقاف من أجل إصلاح مساجد مكناس الذي تأثر بفعل الزلزال ...

ومن حسن الحظ أن نعثر على ثلاث إفادات معاصرة حررها بعض الأجانب ممن كانوا يقيمون بالمملكة المغربية كدبلوماسيين أو كتجار أو كأسرى كذلك ، كلهم صوروا بأقلامهم وخاصة الأسير السويدي بيرك ماركوس (Berg Marcus) الذي عرف كيف يصوغ هول الكارثة القاسية التي حلت بالعاصمة العلمية فرجت معها الأرض وانهارت المباني وخرت الصوامع ... وابتلعت الفجوات التي أحدثها الزلزال مئات البشر .

لقد كان حجم الكارثة أكبر بكثير من إمكانيات الدولة حتى تعيد الحياة إلى المدينة ... ولهذا لاحظنا حركات الترميم تتابع في سائر الجهات ...

وهكذا وجدنا السلطان مولاي سليمان يقوم ، بعد نحو من أربعين سنة من الزلزال ، بتجديد بناء مدرسة أبي عنان إلا أن ساعتها كانت قد تعطلت وانتهى الحديث عنها منذ زمان الأمر الذي ذهب بمعظم ملامحها حيث وجدنا أن الدار التي كانت تحتوي على الأجهزة التي تسيرها أصبحت متاجر للخضارين والجزارين واختفت معالمها من جهة الدرب المجاور كذلك ...

ولم تظهر – على ما يبدو – محاولة ما لاعادة الحياة لساعة أبي عنان بعد اختل جهازها وضاعت أدواتها ...

ومع كل هذا فان ما صمد من واجهة الساعة إلى مطلع القرن العشرين كان يعبر عن جهاز رائع ...

ولنقف أمام صورة فوتوغرافية رائعة أخذها لهذه الساعة الأستاذ ألفريد بيل حوالي عام 1716 عندما عمدت مصلحة الآثار إلى ترميم المدرسة العنانية ... كانت الصورة ، بالرغم من عدم وضوحها ، تعطي فكرة عما بقى من الساعة ... ربما تساعد – مع ما توفر من صور أخرى على معرفة أكثر ...

إن أول ما يتراءى للمتجول هذا الصف الذي يكون ثلاث عشر طاسة من النحاس على شكل كفة الميزان – على طول أحد عشر مترا تقريبا – أواني مجوفة ، نصبت كل طاسة منها على دعامة منقوشة من خشب الأرز ، وتقع تحت مساند خشبية مسامتة منقوشة أيضا ترتفع عن الطاسات ببعض الأمتار ، وكانت تلك المساند تؤلف جميعها – وعددها 26 مسندا – إفريزا (Auvant) عريضا اندثر اليوم .

فويق كل طاسة وغير بعيد عنها ، خلفها تماما ، توجد نوافذ مفتوحة على شكل محراب صغير عددها اثنتا عشرة نافذة ، وفوق هذه النوافذ – وبعد أن نتجاوز المساند الخشبية المنقوشة المسامتة للطاسات والتي كانت ... الافريز المندثر – فتحت نوافذ أخرى عددها ... عشرة أيضا ولكن على شكل مستطيل و... النوافذ التحتية وهذه النوافذ الأخرى كان ... بدورها إفريز صغير من القرمود الأخضر ... الأمطار والشمس وقد فتحت فوقه أيضا ... ثالثة من النوافذ المستطيلة ...

وبالرغم من تعقيد « الآلية » التي ... الساعة ، قرأنا عن محاولة من الأستاذ بيل ... سير المنجانة على الأقل في خطوطها ... ويقول بيل :

« ومن الراجح استنادا إلى ما تبقى من ... البناية أن كل طاسة كانت تقرع بواسطة صنجة ... تنزل عليها وقد ربطت بطرف خيط (Fil) كان ...



... درس في علم الفلك .
(من مقامة ترجع إلى القرن الثالث عشر للميلاد) .



...في الركن الغربي لهذه الخلوة لا تزال توجد بعض الأدوات الدقيقة .
(مستندات الكاتب) .

خلال أحد المساند الطويلة للافريز العريض » . وبالفعل فإن من الملاحظ أنه يوجد ثقب في الطرف الأمامي لكل مسند طويل من المساند الثلاثة عشر التي تسامت الطاسات الثلاث عشر ، بينما يتعدم ذلك الثقب في المساند القصيرة الباقية .

وقد كان الخيط أو السلك الذي يحمل الضجة يحرك بواسطة آلة ساعاتيه كانت توجد بالجانب الخلفي للساعة وراء الجدار ، فيما كان يحمل اسم دار المكانة أو بيت المكانة وقد كان هناك أنبوب خشبي ، شبه قناة في سمك الجدار ، يحمي الخيط عند مروره في المنطقة ما بين النوافذ السفلى والنوافذ الوسطى ، ويؤكد هذا وجود آثار لهذه القنوات سواء بقاعدة هذه النوافذ او بجوانبها .

وهكذا ، في الوقت المناسب إذن ، يصعد « الخيط » داخل الجدار عبر الجبهة الخشبية المستطيلة الشكل ، العمودية ، من بين النوافذ ، ثم يمر الحبل من غير شك بواسطة بكرة وينزل ثانية من خلال الثقب الموجود في مسند الافريز ليقسط الضجة التي يحملها فوق الطاسة المسامتة التي تناسب ...

ويلاحظ في نهاية صف الطاسات ، في واجهة الجدار ، أثر لنافذة غرفة يسميها د . برايس (بيت المكانة Clepsydra Room) .

لقد كان هناك متخصصون دائمون يقومون طيلة الوقت بمراقبة سير الضجات وانفتاح الأبواب ، مضمون لهم قوتهم ومسكنهم ...

إن بعض حجج الوقت القديمة تنص على أنه توجد منازل محبسة على الذين يتعهدون هذه الساعات على قرب منها ، وتعرف هذه المنازل في حجج الوقف تلك ، بدار المكانة ...

ينبغي أن نتصور أن واجهة ساعة تلمسان كانت على نحو واجهة ساعة فاس وأن الميناء فيهما كان متقاربا إن لم يكن متحدا ...

ساعة الجاي 763 / 1361

وإذا كانت الساعات المائية التي كانت تحتضنها صومعة جامع القرويين قد اختفت معالمها وانطمست ملامحها ، فإن هناك أثرا مهما ما تزال تتوفر عليه « الغريفة » إلى الآن ، ونعني بها الساعة المائية اللطيفة التي يوجد أثرها إلى اليوم في « الغريفة » حيث يجتمع الموقتون في صومعة القرويين . وعن يمين المستقبل للقبلة ، عكس ساعة الصنهاجي التي كانت يسار المستقبل ...

وقد صنعت بأمر من السلطان أبي سالم بن السلطان أبي الحسن المتوفى عام 762 / 1361 .

لقد وجدت في الغريفة ورقة عادية علقت تحت الساعة المذكورة وتشتمل على هذه العبارات :

« الحمد لله ، صنعت هذه المنجانة مع أسطرلابها الذي هو من تمامها عن أمر مولانا السلطان

أبي سالم بن مولانا أبي الحسن بن مولانا أبي سعيد بن مولانا أبي يوسف بن عبد الحق المريني ، وكان تمام صنعها وتركيبها في الواحد والعشرين من محرم الحرام فاتح 763 هجرية / 20 نونبر 1361 ».

ويلاحظ أن العاهل المريني الذي أمر بصنعها اغتيل قبل أن يتم تركيبها بنحو شهرين ... ونستغرب عدم تعرض الجزنائي صاحب كتاب جني زهرة الآس لساعة السلطان أبي سالم مع أنه كان يتحدث عنه قائلا : رحمه الله !

«لقد كان السلطان أبو سالم من أولئك الذين يحملون ثقافة واسعة سيما فيما يرجع لعلم النجوم والفلك ، ولما هنأه ابن الخطيب باسترجاع تلمسان يوم الخميس 17 شعبان 761 / 31 غشت 1360 ألم في نونيته الطويلة بشيء من علم الأحكام النجومية لأن السلطان كان يميل إلى ذلك ».

قال في القصيدة التي مطلعها :

أطاع لساني في مديحك إحساني
وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

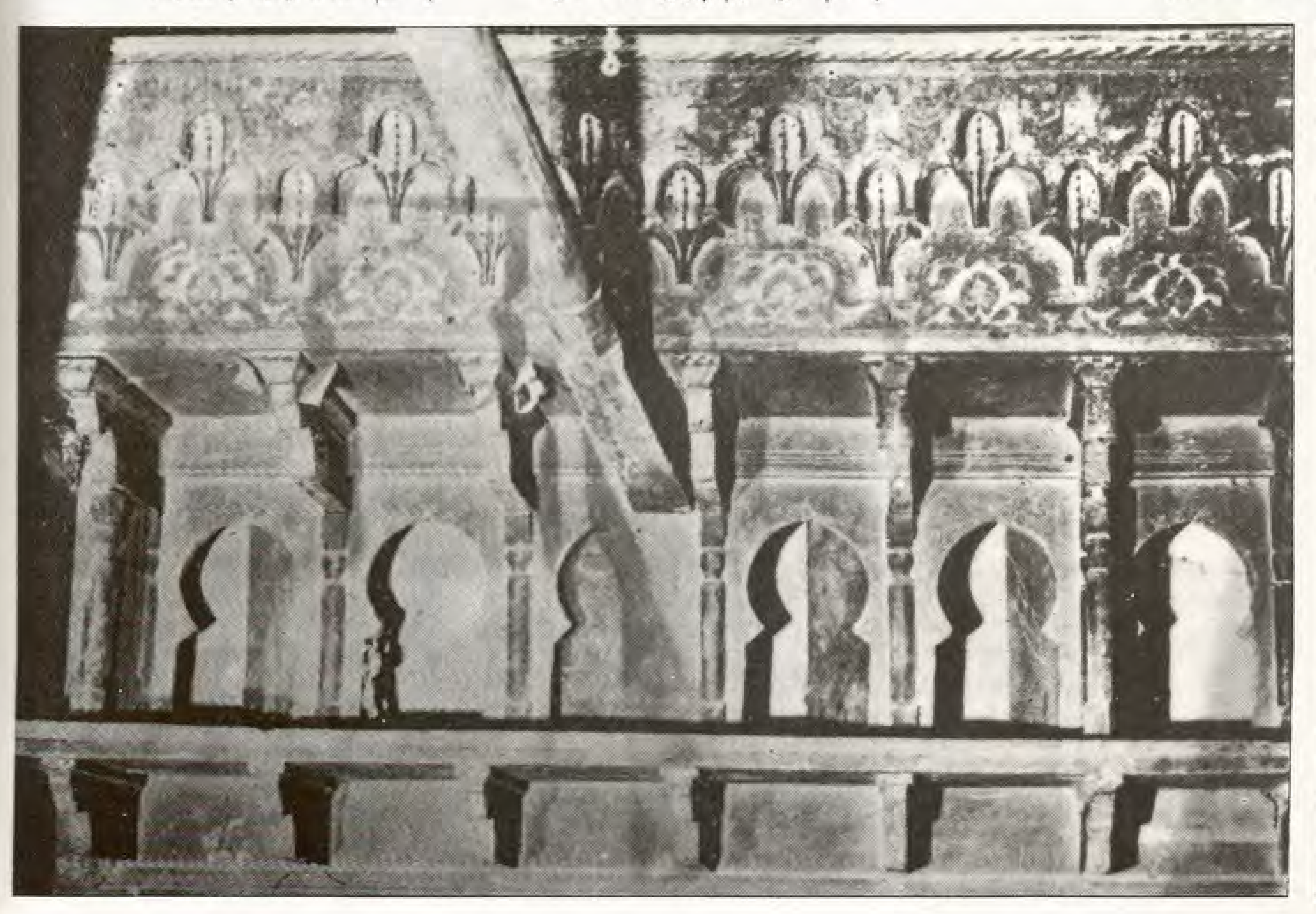
قال :

ولله من ملك سعيد [ونصبه]
قضى (المشتري) فيها بعزلة كيوان
وسجل حكم العدل [بين بيوتها]
وقوفا مع المشهور من رأى يونان !
فلم تخش سهم القوس صفحة بدرها
ولم تشك فيها الشمس من نحس ميزان
ولم يعرض (مبتزها) قطع قاطع
ولا نازعت (نوبهرها) كف عدوان
تولى اختيار الله حسن اختيارها
فلم يحتج (الفرغان) فيها لفرغاني

وقد كان الموقت الذي عهد إليه السلطان أبو سالم بالمهمة حسبما وقفت عليه في مخطوطة حول تاريخ مدينة فاس لشيخنا القاضي محمد السائح هو أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي المتوفى عام 771 / 1370.

ومن المعروف في ترجمة أبي زيد هذا أنه كان عالما رياضيا كبيرا وكان يستوعب أجزاء من علم الهندسة والهيئة والحساب .

...يظهر على مستوى العينين عمود خشبي مقوّم لآلة مكوّنة من أربعة وعشرين بابا...
(مستندات الكاتب) .



الساعات المائية

كان من فقهاء فاس المرموقين . وقد رأى ذات يوم في منامه كأنه صعد إلى السماء وأخذ يقلب نجومها واحدا بعد واحد فقص رؤياه على أبيه فقال له والده : اقصد ابن البناء وخذ عنه علومه ! وابن البناء هذا عالم رياضي فلكي كان يعطي دروسه العلمية بمدرسة العطارين على مقربة من جامعة القرويين : (ت723 / 1323) ومن كتبه تأليف في الاسطرلاب وكتاب تلخيص أعمال الحساب .

ويحكي تلميذه أبو العباس أحمد ابن قنفذ : « **أن من بعض أعماله أنه اخترع اسطرلابا ملصوقا في جدار والماء يدير شبكته على الصفيحة فيأتي الناظر لينظر إلى ارتفاع الشمس كم هو ، وكم مضى من النهار . وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل** » ... ومن المعلوم أن لابن قنفذ نفسه مؤلفات في هذا الفن ، منها شرح الثقات في علم الأوقات ، وتيسير المطالب في تعديل الكواكب ، و« القنفذية » في إبطال الدلالة الفلكية وحط النقاب عن وجوه الحساب ...

مهما يكن فإن ساعة اللجائي في شكلها الحالي تتألف من حجرة صغيرة في علو 242 سانتيم وتربيع 120 سانتيم ، أعدت في الركن الجنوبي الغربي من (الغريفة) ... ويمكن الدخول لهذه الحجرة الصغيرة (الفارغة الآن) من باب صغير في الجهة الجنوبية .

وفي الواجهة الغربية للحجرة توجد صفيحة اسطرلاب أنيقة ، في تربيع 71 سانتيما ، وتحتوي على شبكة تدور على محور ، يبلغ قطرها 42 سانتيما وترتبط الصفيحة بالساعة عن طريق قضيب معدني أغلق طرفه بإسفين (Wedge) وقد ظهر الطرف الثاني من القضيب داخل الحجرة الصغيرة وقد كان في وقت ما يتصل بدولاب ، ويكون شك بيكرة ، ينطلق عبرها حبل (String) يربط بين عالم الساعة المائية وبين تقالاتها .

وفي الركن الغربي الجنوبي من تلك الحجرة الصغيرة وعلى حاشية دقيقة مائلة منحرفة توجد بقايا تدل على كثير من المؤشرات البسيطة واللازمة لنظام سير الساعة ، ومن المحتمل أن تكونت لهذه البقايا صلة أيضا بساعة الصنهاجي السالفة الذكر ... وهي تكون مسطرة من نحاس عمودية كقوس الميزان من عرض أربع سانتيمات على طول 67 وقد قسمت ورقمت من الأسفل إلى الأعلى على 24 قسما متساوية (بعدد الساعات) ، وكل واحدة من تلك الأقسام جزء ، علاوة على ذلك ، خمسة عشر جزء .

وأن صفيحة هذا الاسطرلاب التي تعيد إلى الذاكرة خطوط الاسطرلاب لمحمد ابن فتوح والاشبيلي (القرن الثالث عشر) أحيطت بأربع وعشرين نصف كرة فضية محدبة ، وحددت من فوق وتحت بأربع وعشرين بابا صغيرا 12 ثم 12 ... بيد أن آلية الأكر والأبواب مفقودة تماما ...

وانطلاقا من تلك الحجرة الصغيرة في الركن الجنوبي الغربي وعلى طول الجدار الجنوبي للغريفة ، على مستوى رؤية العين ، تظهر عارضة خشبية ، عبارة عن جهاز يستوعب صفا من 24 بابا صغيرا ، ولهذه الأبواب مفاصل من عود ، وأمام كل باب كانت توجد طاسات من النحاس (الآن مفقودة) تشبه تلك التي توجد في ساعة ابن الفحام قبالة باب مدرسة أبي عنان ، وفوق كل طاسة مسامتا لها ، مشرفا عليها ، كانت توجد جعبة خفية مغلقة بإتقان وضعت على شكل بحيث يمكن لضجة (أو بندقية) أن تتدحرج منها وتنزل على الطاسة عند كل ساعة ساعة ، ومن المهم جدا أن نعرف أنه في استطاعة المرء إلى اليوم أن يقف على أثر بعض هذه الأشياء بين الشقوق وفي الجعاب كذلك ، هنا عدد من هذه الكرات أمكن التعرف على شكلها الغير التام التكوير ، وعلى أنها مصنوعة من حجر ناري ، كل واحدة منها نجد في قطرها حوالي خمسة مليمترات ...

وفي أعلى العارضة الخشبية التي تتوارى عن البصر وراء إفريز مزخرف يكتشف لحسن الحظ ، القسم الأكبر من سر الآلية (Mécanisme) الذي ينتج عنه دحرجة الكرات وانفتاح الأبواب ، إن العنصر الرئيسي عبارة عن قناة طويلة ذات أجزاء متعادلة ، وزعت باتقان ودقة عبر امتداد العارضة كلها ، وهناك (قطعة من خشب الأرز) تنطلق في هذا الأخدود : (الشق) ، تسحب من طرف إلى آخر بواسطة حبل (String) ينطلق من عالم الساعة المائية أو من بكرة متصلة به مارا عبر طول القناة ، عائدا بواسطة بكرة إلى نهاية القناة ، ثم يجري مرة أخرى نحو الثقل الموازي داخل ركن الحجرة الصغيرة ، وعندما تقوم (قطعة خشب الأرز) باجتياز طريقها العادية طول القناة تحرك عند كل مدخل ، رافعة مستورة حبلا يفتح الباب وتمكن في نقطة مضبوطة ، كرة واحدة من العبور في جعبة خفية مجاورة ، منها تنزلق الضجة نحو الطاسة لتعلن الساعة ، ومن هنا تأخذ المنجة طريقها عبر ثقب يوجد أسفل الطاسة حيث تمر عبر جعبة خفية أخرى نحو منحدر يرجع بها إلى مستودع الأكر الموجود في الحجرة الصغيرة ...

وإن هناك عددا من الاشارات تدل على وجود ساعات أخرى في العاصمة العليمة

وهكذا فبمناسبة الحديث عن استقبال السلطان أحمد المنصور الذهبي للمجاهدين المغاربة في أعقاب غارة ناجحة على ثغر سبتة المحتل قرأنا في (مناهل الصفا) أن أمير المؤمنين جلس بمجلس (المنكانة) المطل على الايوان حيث استمع إلى تهاني الشعراء :

هذه سبتة تزف عروسا
نحونا ديك في شباب وشيب
وهي بشرى وأنت كفء اللواتي
كلفت بعدها بفتح قريب

فهل هذا كل ما عرفته مدينة فاس من ساعات مائية ؟

إن هناك عددا من الاشارات تدل على وجود ساعة أخرى على الأقل في قلب المدينة

وبالذات على مقربة من المسجد الأعظم : جامع القرويين ...

فمن خلال تتبع الحديث في مختلف الحوالات الحبسية (حجج الوقف) التي صمدت إلى أواخر دولة بني مرين ودولة الوطاسيين 869 / 1464 نجد أنه كانت هناك ساعة مائية في بداية سوق الشماعين من جهة باب المسجد الذي يحمل إسم باب الشماعين .

لقد تردد ذكر « درب المنجانة » أو زنقة المنجانة ، وتردد قول رجال التوثيق « يسار أو يمين المنعطف من المنجانة أو المنعطف للمنجانة »

وربما قالوا : « المنجانة التي فيها برج جامع القرويين » ويعنون بالبرج المنارة التي تقوم على مقربة صومعة القرويين والتي مايزال النفارون إلى اليوم يصحون الناس من أعلاها بأبواقهم أيام شهر رمضان ليتناولوا سحورهم .

فهل على غرار منجانة ابن الفحام التي شيدت بجوار مدرسة أبي عنان كانت تنتصب ساعة مماثلة قرب جامع القرويين ؟

لم لا وقد قرأنا في « مسالك الأبصار » عن ساعة مائية بمراكش منذ العهد الموحدي ؟

ولابد أن نذكر هنا أن بعض المؤرخين لمدينة فاس تحدث في بداية هذا القرن إلى الاستاذ ألفريد بيل عن ساعة مدفونة في جدار قرب برج القرويين

وقد تحدث أحد المصادر عن مخطوطة باللغة العبرية عن تاريخ فاس (Yahas Fès) كتبت عام 1879 وهي تذكر أن الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون (Maimonide) سكن ، أثناء مقامه بالعاصمة العلمية ، قبل أن يلتحق بمصر ويدركه أجله بها عام 601 / 1205 ، بدار معروفة كان يوجد تحت كل نافذة من نوافذها الثلاث عشر جرس ، وأن هذه الدار تسمى على ما تقوله المخطوطة اليهودية « الدار ذات النوافذ الثلاث عشر » .

ويتابع بعض المعلقين على (دار المكانة) قائلين : لقد اعتاد النسوان اليهوديات أن يقمن بالحج إلى هذه الدار تبركا بها فقد أثر عن اليهود قولهم « **من موسى إلى موسى لم يخلق مثل موسى** »

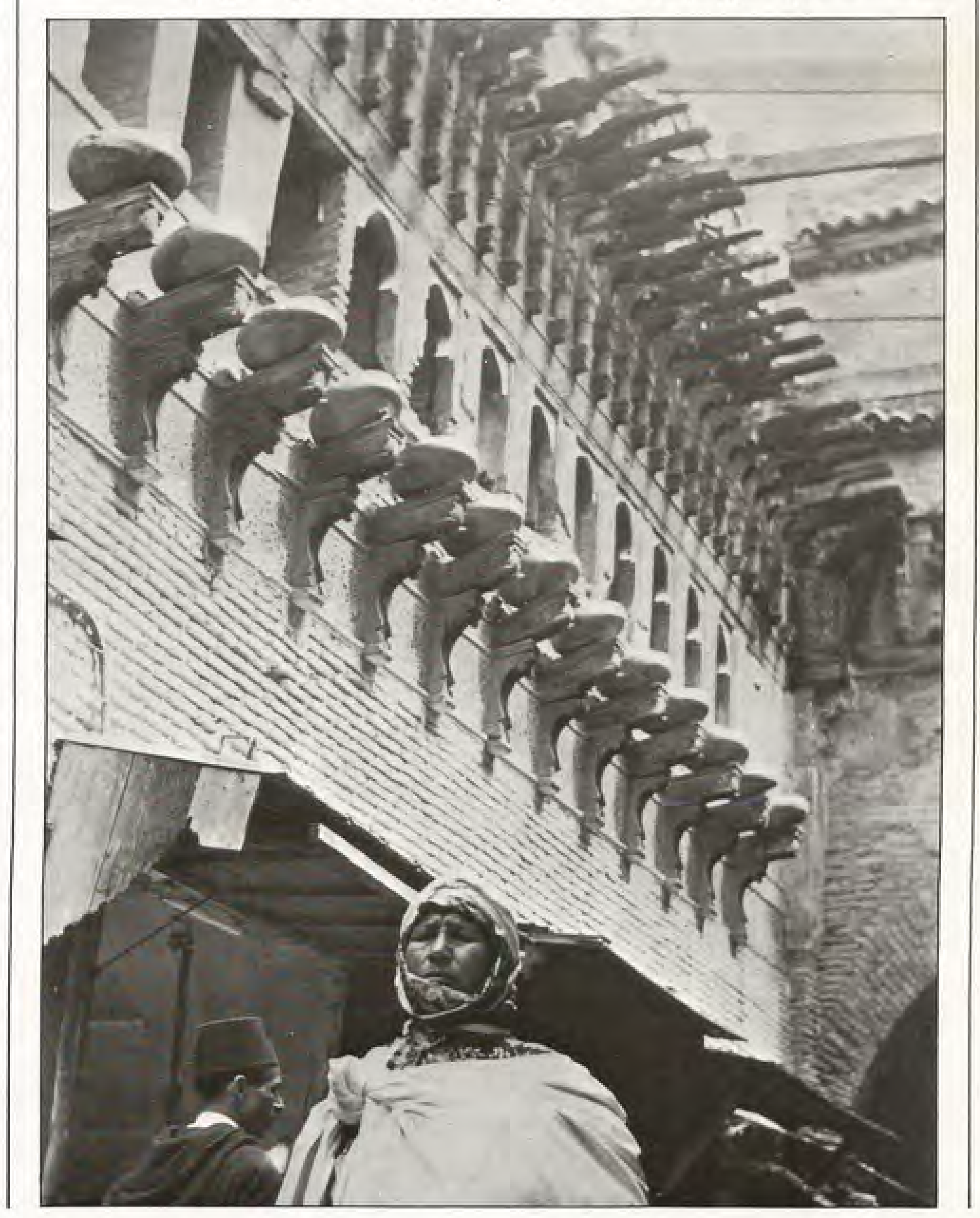
ويفهم من بعض الذين كتبوا عن « دار المكانة » التي تشير إليها المخطوطة أن القصد إلى منجانة ابن الفحام التي توجد قبالة المدرسة العنانية ...

ولا شك أن هذا التقدير خاطىء :

أولا : لأن مقام ابن ميمون بفاس كان قبل أن تكون منجانة ابن الفحام

ثانيا : أن المخطوطة اليهودية تتحدث عن ثلاث عشرة نافذة بينما ساعة ابن الفحام تحتوي فقط على إثني عشر بابا على عدد البروج

ولابد في ختام هذا العرض أن نذكر زائرا



تؤكد مئات الآلات المائية التي كانت تصنع بالمغرب المستوى الرفيع الذي بلغته العلوم بهذا البلد .
(مستندات الكاتب) .

من الجدير بنا ألا ننسى الزلزال الذي ضرب المغرب في 26 محرم 1169 (فاتح نونبر 1755) والذي تأثرت به مدينة فاس بصفة خاصة ، وقد كانت البلاد آنذاك تحت حكم السلطان مولاي عبد الله سليل الاسرة العلوية .

وقد قرأنا الكثير عن هذه الكارثة التي عرفت تحت اسم «زلزال لشبونة ». والحال اننا لا نعرف سوى القليل عن الخسائر التي خلفها هذا الزلزال في المغرب .

ولا يوجد لدينا أي تقييم عن تلك الخسائر ما عدا بعض التلميحات النادرة التي جاء بها القادري في كتابه « نشر المثاني » والتي أوردها بعده بإيجاز المؤرخون المغاربة الذين تعاقبوا بعده .

وقد ذكر « الطودي » في هذا الصدد الاذن الذي صدر عن الملك محمد الثالث بشأن بيع عدد من العمارات والاملاك من أجل سد تكاليف ترميم مساجد مكناس التي تضررت بفعل الزلزال المذكور .

ومع ذلك ، فقد استطعنا أن نتعرف على ثلاث وثائق معاصرة لتلك الحقبة ، قام بتحريرها شهود عيان أجانب من دبلوماسيين ، وسجناء ، وتجار كانوا يعيشون بالمغرب . فقد أفادوا كلهم بمعلومات عن هذا الحدث وعلى الخصوص منهم بيرغ ماركوس (Berg Marcus) الذي وصف الكارثة التي حلت بمدينة فاس من جرائه .

وقد أدت الهزة الارضية إلى هلاك مئات عديدة من الاشخاص ، كما أن نتائجها ومخلفاتها الهائلة فاجأت الحكام بالنظر للامكانيات المحدودة التي كانت لديهم .

ولذلك فإن عمليات الترميم لم يتم إنجازها الا بعد مرور سنوات عدة . إذ بعد انقضاء أربعين سنة على الزلزال قام السلطان مولاي سليمان بإعادة بناء مدرسة أبي عنان . أما الساعة المائية فكان قد أصابها التلف وآلت إلى النسيان ، كما أن معظم أجزائها وملحقاتها اختفت ، كما أن الاماكن التي كانت تضم تجهيزاتها تحولت إلى دكاكين لسوق اللحوم والخضر . واختفت أيضا باقي الملحقات التي كانت موجودة في آخر الزقاق الذي توجد به الساعة المائية المذكورة ، وبدا وكأن أحدا لم يحاول قط العمل على ترميم وتصليح هذه الساعة العملاقة .

حينما ورد على المملكة المغربية عام 1218 / 1803 تحت إسم علي باي الشريف العباسي الشامي الحلبي ! وكان في الحقيقة هو الجاسوس دومينكو باديا إلوبليش (Domingo Badia y Leblich) ! لقد استطاع علي باي أن يكسب صداقة عدد من الناس وينال عطف السلطان مولاي سليمان الذي عهد إليه بالنظر في أمر « المواكن » التي تحتضنها غريفة جامعة القرويين ...

وهنا نعلم ، من خلال ما كتبه عن رحلته ، أنه قام بإصلاح عدد من الساعات، ونعلم كذلك من خلال الرسائل الديبلوماسية المتبادلة بين البلاط الاسباني والبلاط المغربي أنه أي علي باي الذي وصف مدينة فاس على عهده بأنها كانت في إفريقيا بمثابة « أثينة » في أوروبا ...

وجدناه هو الذي وضع ترجمة حصة الشمس بجامع القرويين ، وقد ألف في علم التنجيم ما لازال بالمسجد الأعظم وبغيره ، وقد أخبر بما سيقع في السنين المستقبلة من أوقات الكسوف والخسوف وغير ذلك على حد تعبير الرسالة التي أرخت يوم 24 جمادى الأولى 1303 / 28 يبراير 1886

إن الذين يعرفون عن المائات من المنشآت الهيدروليكية ويعرفون عن العشرات من الدواليب المائية التي كانت تزدان بها عواصم المغرب ، يمكنهم أن يتصوروا ازدهار الدراسات الرياضية والتنافس المستمر بين العلماء والمتخصصين من أجل إثراء الرأي وتطوير الفكر ... ويكفي أن نضرب المثل بما بدأنا به حديثنا ... فمن ساعة مائية تقتصر على قطعة واحدة إلى أخرى تتجاوزها إلى جهازين اثنين ، إلى ثالثة تميزت باشتغالها سوية مع صفحة اسطرلاب ...ثم إلى ساعات كبرى تنصب في الشوارع العامة ...فيها ما كان يحتوي على ميناء طويل عريض غني بمركباته ومرافقه حتى ليتمثل معلمة من المعالم الأثرية الدولية ... وفيها ما شيد داخل « الغريفة » على شكل أصغر حجما وأكثر دقة وأجمل هنداما ...

لعلنا نرى الحياة تبعث - يوما من الأيام - في هذه المنشآت الحضارية الكبرى ... أملنا كبير في ذلك بعد أن شاهدنا إعادة بناء ساعات ثلاث من ساعات الجزري بمناسبة المهرجان الاسلامي العالمي بالمملكة المتحدة

وأن مما يبعث على السرور ونحن نعتز بذلك الماضي أن نذكر أن الأبرار من أبناء المغرب جادون اليوم في إعادة الحياة لهذه الساعات ...

مؤسسات خيرية وإ

محمد المنوني

عاش المغرب في عصر بني مرين مع مبرات اجتماعية تبلورت في مؤسسات خيرية متعددة، فضلا عن إسعافات مادية منوعة، فاستفاد من هذه المبادرات - بالدرجة الأولى - طبقات من الفقراء والمعوقين، وساهم في نفقاتها الجهات الحاكمة، وفئات من المحسنين.

ولتحليل هذه المعطيات تأتي عروضها مرتبة في محورين اثنين:

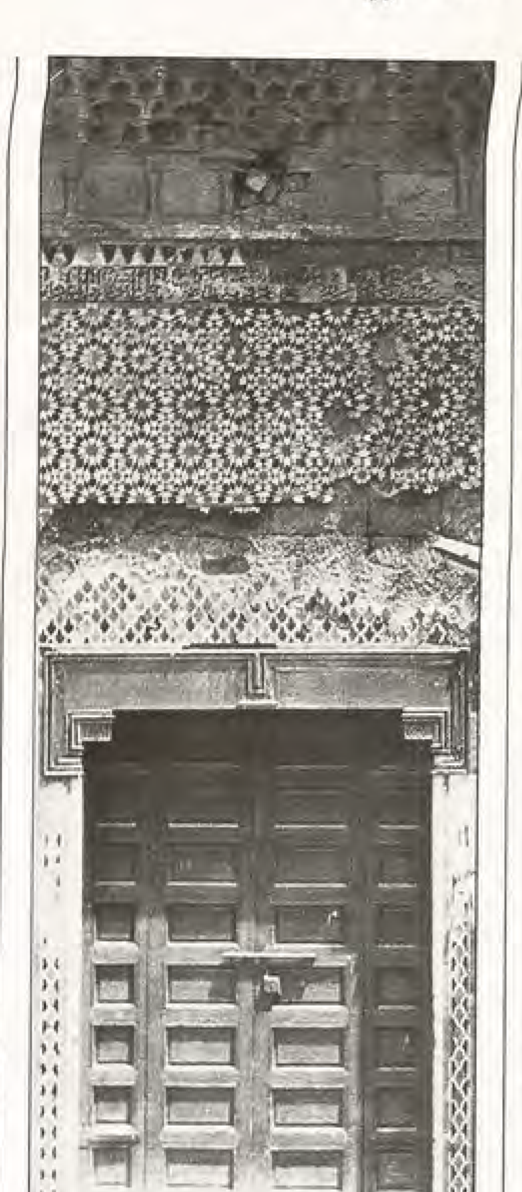
1 - مؤسسات اجتماعية: وتتفرع إلى مستشفيات، ومباني وعقارات إحسانية، وسقايات عمومية.

2 - مبرات مادية: وتتفرع - بدورها - إلى جرايات وهبات للفقراء والمعوقين وإعذار اليتامى وقضاء الديون ومبادرات شعبية خيرية، مع ملحق عن مبادرات إسعاف بعض الحيوانات.

مؤسسات اجتماعية: المستشفيات

من المتوقع أن تصميم هذه المصحات المغربية يكون على غرار نظيراتها المشرقية، فتتوفر على قسمين: واحد للعمليات الطبية، والثاني برسم إقامة المعتوهين.

وكان المهتمون الرئيسيون بهذه المبرة ثلاثة من عظماء بني مرين، بدءا من ماهد الدولة أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وهو الذي بنى المارستانات للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية



باب بيمارستان سلا. فندق حاليا. باب احساين.
(كليشي أودول)

والأشربة، وما يشتهونه من الفواكه والطرف ووظف الأطباء لتفقد أحوالهم مرتين كل يو[م] بالغداة والعشي.

وقد جدد أبو الحسن رسم المارستان[ات] بفاس وغيرها، وكان له بهذا أعظم اعتناء.

ثم أحيا سبيله في ذلك ولده أبو عنا[ن]

ويؤكد هذا ابن جزى لما يذكر عنه أنه [...] المارستانات في كل بلد من إيالته، [...] الأوقاف الكثيرة لمئون المرضى، وعين [...] لمعالجتهم والتصرف في مطالبهم.

فيقول الوزان الفاسي عن مارستان[ات] عاصمة المرينيين: توجد - بفاس - مستشفيا[ت] عديدة، لاتقل حسنا عن المدارس، [...] الغرباء - قديما - لهم أن يقيموا بها لمدة [...] أيام.

ويوجد عدد كبير من البيمارستانات خارج المدينة، لاتقل - جمالا - عن [...] بداخلها.

والمعـــروف - الآن - من [...] المؤسسات: هو مستشفى فاس المشهور [...] «سيدي فرج»، وكان موقعه بالعطارين [...] سوق الحناء، ومع مر الزمن تقلص حجمه [...] بناية صغيرة مقسمة إلى حجرات تحف [...] رمزية، فضلا عن مسجد، ثم يدور [...] جدار أبيض ينفتح به باب حديدي مرتفع [...] حيث صار هذا الملجأ يستخدم - فقط - [...] المعتوهين، الموزعين بين حجراته المفصولة - [...] الساحة - بأبواب ذات قضبان حديدية.

وأخيرا: عرفت سنة 1364 / 1944 نهاية مستشفى سيدي فرج، فانهارت بنايته [...]

...مانات مَاديَّة

وحولت إلى قيصارية مع الاحتفاظ بالمسجد ، ونقل المعتوهون إلى مكان آخر من نفس المدينة .

وننتقل – الآن – إلى المؤسس الأول لهذه البيمارستانات ، فيعزو البعض إنشاءه إلى العاهل المريني يوسف بن يعقوب عام 685 / 1286 ، وقد عهد بإدارته إلى أشهر الأطباء ، وأوقف عليه عقارات كثيرة برسم النفقة عليه وحفظه ، ولما عظم شأن المستشفى وانجبعت أعماله : أدخل عليه السلطان أبو عنان زيادات عظيمة .

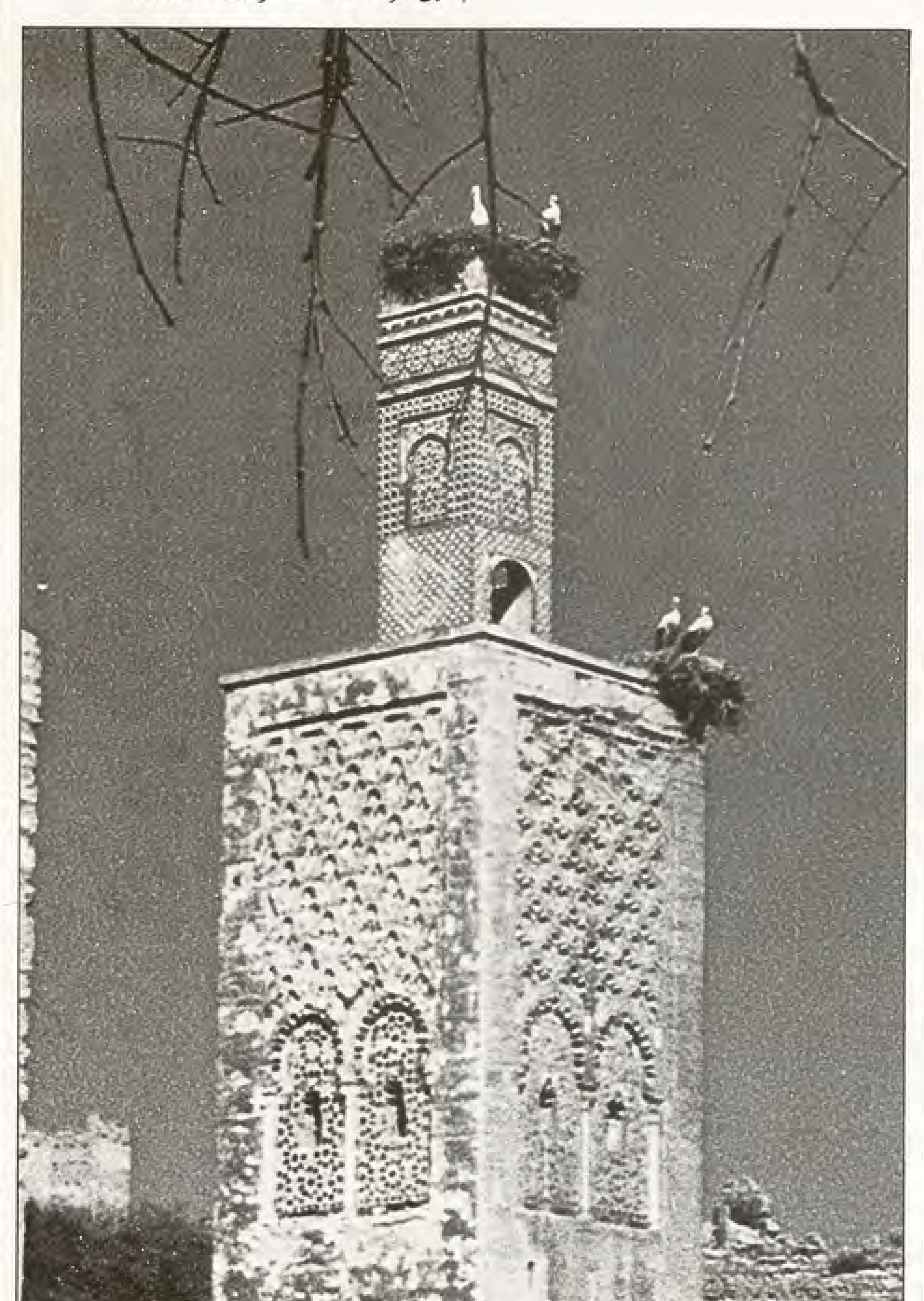
وإلى ذلك : يشير الوزان الفاسي إلى إطارات الموظفين بهذا المستشفى ، وفيهم كتاب وممرضون وحراس وطباخون وغيرهم ، ويتقاضى كل واحد منهم أجرا حسنا .

ويعرف – الآن – من هؤلاء الموظفين إثنان من نظاره خلال العصر المريني : أبو فارس عبد العزيز بن محمد القروي ، من مشايخ أعلام فاس وصلحائها ، وتوفي عام 750 / 1350 .

ثم محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي ثم الغرناطي نزيل فاس ، والمتوفى عام 757 / 1356 ، بعد ما كانت ولايته لنظارة بيمارستان فاس في ربيع الثاني من عام 754 / 1353 .

وإضافة إلى المهمة الانسانية لهذه المؤسسة : كانت تعتبر ملجأ للطير المعروف باسم اللقلاق « بلارج » ، حتى إذا انكسر أو أصيب بأي أذى ، فإنه يحمل إلى مستشفى فرج ، وتصرف جرايات لمن يضمده ويداويه ويطعمه .

هذا إلى أنه كان له وقف برسم الموسيقيين- الذين يزورونه أسبوعيا-: مرة أو مرتين ، ليقدموا إلى نزلائه نغمات موسيقية مناسبة .



كان البيمارستان مأوى لطيور اللقلاق
وكان كل من أتى بأحد هذه الطيور جريحة وعالجها به ينال لقاء ذلك مكافأة . (شالة)
(كليشي بوعمري)

مذكرات من التراث المغربي

وفضلا عن المهمة الصحية لنفس المؤسسة : كان ينفق من أوقافها على غسل وتكفين الغرباء من الموتى .

وأخيرا عند مطالع القرن الهجري التاسع : حلت النهاية المؤسفة لهذا المستشفى ونظائره بفاس ، فاستسلف العاهل المريني أبو سعيد الثاني أوقاف هذه الملاجىء وباعها ليسدد بها نفقات حروبه ، ثم مات قبل أن يستطيع قضاء السلف ، وبذلك لم تعد مستشفيات فاس إلى ما كانت عليه ، وهي التي عرفنا واحدا منها متمثلا في بيمارستان فرج .

ومن ملحقات هذا العرض : دكاكين الصيادلة بفاس المرينية ، وكان مكانها عند سوق العطارين حيث لايزال يحمل هذا الاسم ، فتباع فيه المواد المتعلقة بالعطارة والطب ، ومعظم صيدليات الأطباء مجاورة لدكاكين العطارين ، فيعد الأطباء الأدوية في منازلهم ، ويهيئونها : أشربة ، ومراهم ، ومعاجين ، ثم يرسلونها إلى دكاكينهم ، فيسلمها مستخدموهم مقابل وصفة طبية .

وبعد فاس : تتوزع المنشآت الصحية بين خمس مدن مغربية : انطلاقا من تازة ، فكان بداخلها « مستشفى مريني » ، حسب اللوحة الرخامية لوقف أبي عنان عليه ، فضلا عن أحد أجزاء الحوالة الحبسية لنفس المدينة ، وهي تحتفظ بفقرة صغيرة تذكر « نصيف أشجار عرصة المارستان » .

الثالث : مارستان مكناس من تأسيس أبي عنان ؛ ولاتزال بنايته قائمة في حي الحمام الجديد ، يميزها باب لطيف ، تتوجه لوحة خشبية مستطيلة ، تنتقش بها كتابة بخط الثلث ، فيقرأ فيها اسم المؤسسة وبانيها .

ويشتمل المستشفى – في وضعه الحالي – على قسمين : الأول : كان –فيما يظهر– مخصصا لعلاج المرضى ، ويتكون من طابقين تدور – بكل منهما – حجرات صغيرة تتناسق من ثلاث جهات ، ويتوسط ساحة الطابق الأسفل مربع داخله غراسات مناسبة تحف بصهريج صغير .

أما القسم الثاني : فكان موقعه شرق البناية الأولى ، في طابق واحد مقسم إلى بيوت مخصصة لاقامة المعتوهين ، وبعد نقل هؤلاء إلى مكان آخر داخل المدينة : تحول مستقرهم الأول إلى بناية متسعة تستخدم – الآن – معملا للنجارة ، وقد اقتطع القسم الثاني من المستشفى العناني خلال الستينيات الهجرية الأخيرة .

ومن حديث هذا المارستان : أن أديب مكناس ابن عبد المنان سكن به في زيارته لهذه المدينة صحبة مخدومه السلطان أحمد بن [illegible] سالم ، فكانت هذه السكنى مثار حوار [illegible] بين العاهل المريني والشاعر المكناسي [illegible] نستفيد منها تأكيد مرينية هذا المستشفى



عقد تحبيس لفائدة مستشفى تازة .
(ماسلو : مساجد فاس وشمال المغرب)

الرابع : **المستشفى العناني بسلا** [illegible] موقعه بالبناية المعروفة بفندق عاسكور في [illegible] باب حساين ، في بناء حفيل يشتمل على [illegible] كثيرة : بعضها لاستقرار المرضى ، [illegible] للمعتوهين ، وبقي منه – الآن – بابه [illegible] لحسن بنائه ، تعلوه كتابة تشتمل على اسم [illegible] أبي عنان ، وعلى تسميته بالمارستان ، [illegible] ذلك في زليج أسود ملصق على تاج الباب

وقد تردد ذكر هذا المستشفى في [illegible] بنائه ، فيشير له لسان الدين بن الخطيب [illegible] ينوه به النميري ، ويبرز نسبة بنائه لأبي عنان [illegible] زاره عام 758 / 1357 ، ثم يشيد بوثاقة [illegible] وما يقابل به العليل من رفق وتأنيس ، [illegible] وعلاج ، وهكذا يقول في « فيض العباب [illegible] « ...فمبناه صحيح...فما شئت من رفق [illegible] أكنافه ، وتأنيس تتجرد ألطافه ، وعلاج تتورد نطافه وتدبير يحسن مرتفعه ومصطافه ... فلا سقيم [illegible] وحديث برءه ليس بالسقيم ... بعد أخذ [illegible] والمدارك لكن عن الحكيم ، فالمقيم به كالمسافر [illegible] ويغتنم ، وباقتبال الأجر والعافية ينعم ، وبما [illegible] – من الخير – يخبر مدى العمر ...» .

ومن إفادات هذه الفقرة : الاشارة للحكيم المشرف على المستشفى ، وقد حافظت المصادر على اسمين من الذين عملوا به خلال النصف الثاني من المائة الهجرية الثامنة :

الأول : أبو حفص عمر بن غيات السلاوي ، صاحب المشهد بطلعة سلا قرب الجامع الأعظم ، حيث يعرف بسيدي مغيث ؛ وقد نوه لسان الدين بن الخطيب بخدمته للمرضى : في قصيدته العينية التي بعث بها من غرناطة إلى سلا ، وأشار إلى جملة من أصدقائه بها ، فيقول عن المترجم :

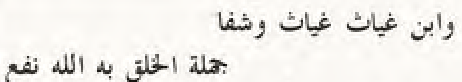
مؤسسات خيرية وإحسانات مادّية



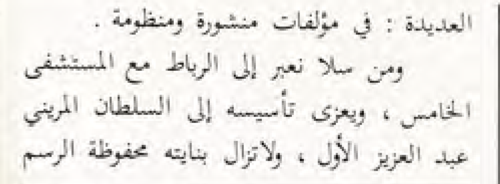


بيمارستان مكناس، اللوحة التأسيسية.
(كليشي بوعمري)

وابن غياث غياث وشفا
جملة الخلق به الله نفع



الثاني : أبو الفضل محمد بن قاسم العجلاني السلاوي، صاحب الأثار الطبية



العديدة : في مؤلفات منشورة ومنظومة.

ومن سلا نعبر إلى الرباط مع المستشفى الخامس، ويعزى تأسيسه إلى السلطان المريني عبد العزيز الأول، ولاتزال بنايته محفوظة الرسم

بيمارستان مكناس، حي حمام جديد.
(كليشي أودول)



كتابات بمارستان سلا المنقوشة ، وتحمل اسم مؤسسة
عنان .
(كليشي بوعمري)

والاسم : في مقابلة باب الجامع الكبير من الناحية الغربية جوار مدارس محمد الخامس ، وقد صار – أخيرا – مقرا لمدرسة دار القرآن .

السادس : مستشفى أسفي ، أشار له لسان الدين بن الخطيب خلال حديثه عن هذه المدينة ، وقال عن ناظره : « **وتردد بها إلى صاحب السوق ومقيم رسم المارستان : الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري** ».

وقد كانت زيارة ابن الخطيب لأسفي عا
761 / 1360، حيث وجد المارستان قائما
دون أن يذكر مؤسسه ، على أن البعض يرجح أن
يكون من تأسيس أبي عنان .

وعلى خلاف المستشفيات السابقة : فإن
هذا هو الوحيد الذي لم يبق له أي أثر ، حيث
دثر ضمن معالم أسفي التي دمرها الغزو
البرتغالي .

وإلى هنا تنتهي عروض المستشفيات
المرينية ، لنذيل عليها بمبادرة صحية حققها أبو
الحسن ، وهو الذي غطى مغطس حمة خولان :
(حمة سيدي حرازم) ببناء محكم يستر
المستحمين ، حيث لايزال محتفظا به في قبو
ينفصل فيه مغتسل الرجال عن النساء .

المؤسسات الاجتماعية عند بني مرين

ذكر ابن مرزوق في مسنده :

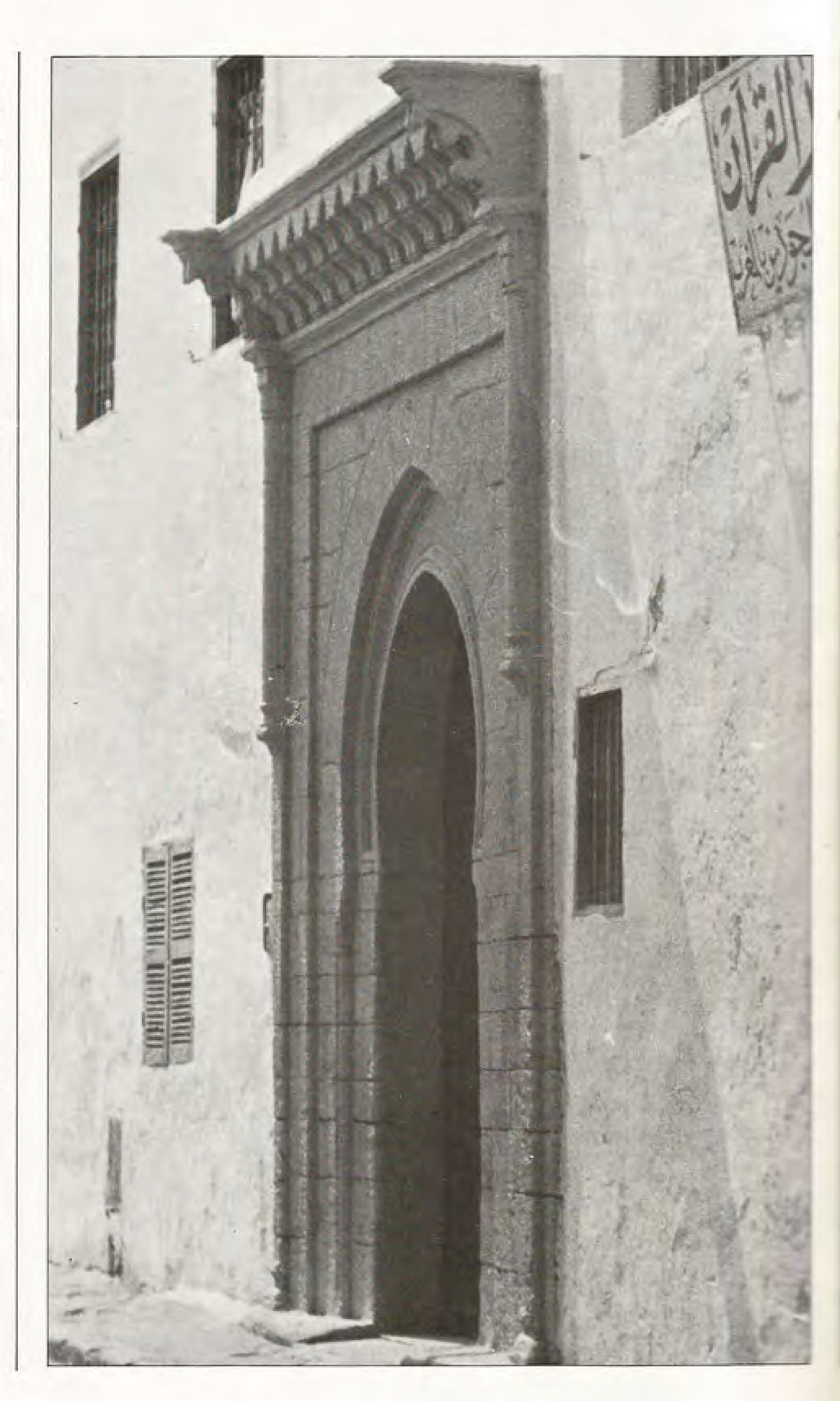
« أن إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشئت مدرسة الحلفائيين (وهي الآن مدرسة الصفارين) عام 670 هـ. ثم مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء ثم مدرسة الصهريج ثم مدرسة الوادي ثم مدرسة مصباح .

...ثم أنشأ أبو الحسن في كل بلد من بلاد المغرب الاقصى والمغرب الاوسط مدرسة ».

وكانت هذه المدارس وما انشىء بعدها مخصصة لايواء الطلبة في تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وأنفا وأزمور وآسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان والجزائر .

وقد أقام بنو مرين كذلك من أسفي إلى الجزائر (بني مزغانة) وأول افريقية (تونس) محارس ومنائر التي ظهرت النيران في أعلاها متصل المراسلات بينها في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة .

مؤسسات خيرية وإحسانات مادّية



بيمارستان الرباط . حاليا مدرسة قرآنية (كتّاب) .
بقرب الجامع الكبير .
(كليشي بوعمري)

مباني وعقارات إحسانية

وهي مبرات تضافرت فيها الجهود الحاكمة مع مبادرات المحسنين ، فنعرض منها النماذج الآتية :

كان أبو الحسن بنى دورا شبيهة بالربط ، برسم سكنى من دخل مرحلة الشيخوخة من الضعفاء الملازمين للخير .

وقد ورد في لوحة الأوقاف على مدرسة الأندلس بفاس هذه الفقرة :

« وأمر (أبو الحسن) مع ذلك ببناء دار أبي حباسة للشيوخ الملازمين للصلوات بجامع الأندلس » .

والغالب أن هذه البنية هي نفس الفندق المواجه لدار الوضوء التابعة لمدرسة الأندلس ، وقد كان – حينا – مسكنا للمكفوفين .

وبفاس قصر يحمل اسم « دار الشيوخ » : عند زقاق رياض جحا بين الصاغة ورحبة قيس ، وكانت نعدة لتعريس المكفوفين الذين لا سكنى لهم ، فكلما اقترن كفيف بنظريته أقاما بهذه الدار مراسيم الزفاف .

ومن المؤسسات الاحسانية الأخرى بالمدينة ذاتها : أربع ديار وقفية تبتدي من دار بدرب السعود في حي الجزيرة ، فيسكن بها الضعفة والمساكين ، وكانت من أكبر ديار فاس ضخامة وسعة رحاب ووفرة مياه .

مع ثلاثة ديار برسم تعريس الضعفاء والمتوسطين الذين لايتوفرون على سكن يتسع لهذه المناسبة ، وقد جهزت كل واحدة منها بالفرش والأثاث اللائقة بوليمة التزويج .

كما أن مواقعها توزعت بين الأقسام القديمة لمدينة فاس : فواحدة منها بالعدوة ، وأخرى بالدرب الطويل ، والثالثة في حي العيون .

وكانت الدار الأخيرة خاصة بتعريس

الأشراف المقلين ، وهي ذات مرافق ومنظر وبهاء .

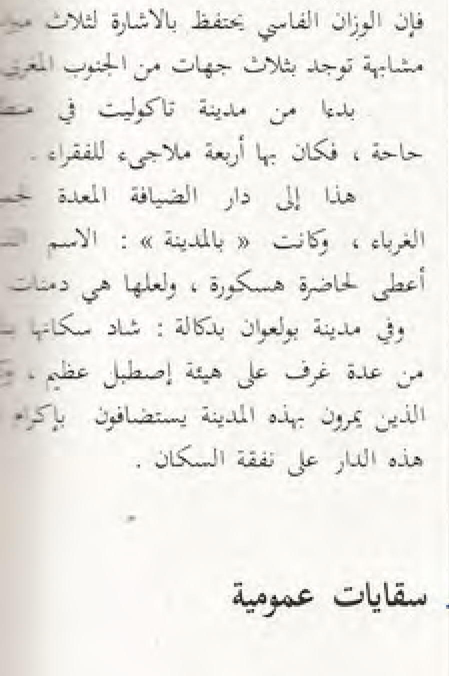
وإلى فاس : فإن مدينة تازة تشير حوالتها الحبسية إلى « دار الزمنى » قديما بدرب ابن بطاش جوفي بابها .

وكان بمكناس دار الشيوخ وهي – بالضبط – فندق الجزارين داخل باب الجديد .

وفي نطاق الهبات العقارية : سنذكر عن أبي الحسن أنه منح الأيتام من سائر القبائل ما يسع حرث زوجين من الأرض .

وجاء عن أبي عنان أنه أسعف الزمنى والضعفة بأزواج الحرث يقيمون بها أودهم .

دار الشيوخ . زقاق رياض جحا . فاس .
(كليشي بوعمري)



وكان قرب باب بني مسافر من
عرصة موقوفة على الفقراء والمساكين ،
يستغلوها بالغراسة فيها .

ومن الجدير بالملاحظة أن أغلب
المبرات تركزت في شمال المغرب ، ولحسن
فإن الوزان الفاسي يحتفظ بالاشارة لثلاث
مشابهة توجد بثلاث جهات من الجنوب المغر
بدءا من مدينة تاكوليت في منط
حاحة ، فكان بها أربعة ملاجىء للفقراء .

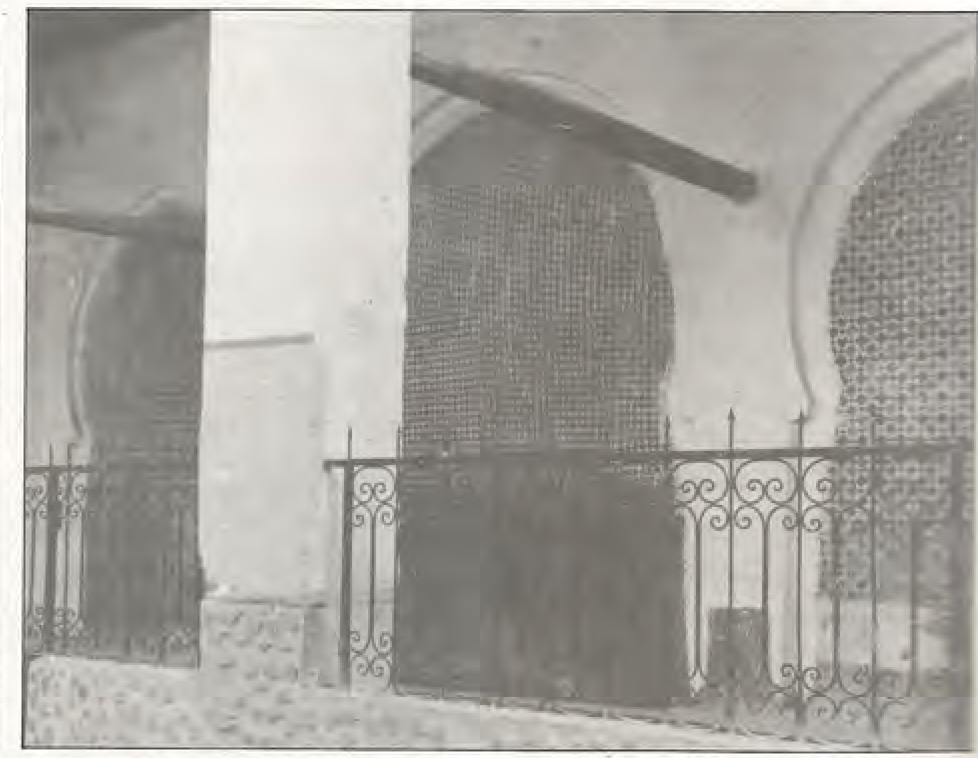
هذا إلى دار الضيافة المعدة
الغرباء ، وكانت « بالمدينة » : الاسم
أعطى لحاضرة هسكورة ، ولعلها هي دمنات

وفي مدينة بولعوان بدكالة : شاد سكانها
من عدة غرف على هيئة إصطبل عظيم ،
الذين يمرون بهذه المدينة يستضافون بإكرام
هذه الدار على نفقة السكان .

سقايات عمومية

تحتفظ السقايات المرينية بهندسة خاصة
تميزها عن نظيراتها المرابطية والموحدية ، فتبنى
شكل صهاريج صغيرة نسبيا : مستطيلة وق
العرض ، وتزين واجهتها بالفسيفساء الدقيقة
فضلا عن زخرفتها – ومعها سقفها – بالنق
المحفور أحيانا في الجص والخشب ، ولحسن الح
حافظت بعض المدن على بقايا من ه
السقايات حسب النماذج الآتية :

ففي فاس : سقاية ابن حيون أول ح
المخفية ، ثم سقاية سوق العطارين ، جوار موض
مستشفى فرج ، وهذه تتوجها كتابة تذكر
الآمر بإنشائها هو عبد الحق آخر سلاطين ب
مرين ، على يد وزيره أبي زكرياء يحيى بن زي
الوطاسي ، وكمل تشييدها وفجر ماؤها أو
جمادى الأولى عام 840 / 1436 ، ثم تلاش
وجدت سنة 1090 / 1680 .



سقاية سبع حنفيات . حي السويقة . مكناس .
(كليشي وعمري)

هذا ويوجد في حوالة فاس السليمانية ترجمة بتوصية السقايات ، فترد التفاصيل هكذا
- وصية سقاية رحبة صفاح العودة .
- وصية سقاية حارة قيس .
- وصية سقاية **تغر** (كذا) بالفخارين .
- فيض نقير الصباغين .
- فيض ماء سقاية البليدة .
- فيض سقاية غدير الجوزاء .

وفي مكناس : نشير إلى سقاية المستشفى الحسني عن يسار مدخله في حي حمام الجديد ، ويرجح أنها من آثار أبي عنان باني المستشفى .

ثم سيل حي السويقة ، ويعرف – الآن – سقاية سبع عنانب ، تلميحا لعدد أنابيبها ، كانت تعرف – قديما – بالسقاية الكبرى ، وسقاية الجمعة .

وهي مبنية في قاعة عريضة مستطيلة ، يغطيها سقف عال محمول على ثلاثة أساطين ، ولا تزال تحتفظ بأثر الفن المريني : في زليج واجهتها ، وفي زخرفة سقفها الخشبي بالنقش الغائر .

وقد خصصت لأوقافها ترجمة – على حدة – ضمن الحوالة الحبسية للمساجد الصغار بمكناس .

وفي الرباط : سقاية المارستان العزيزي بالسويقة ، وقد اندرجت بقعتها ضمن بناية كبرى حديثة ، تعتمرها – الآن – مكتبة المعارف ، وذلك خلال الثمانيات الهجرية الأخيرة .

وقد أثبت مرينية هذه السقاية الدكتور كايه في كتابه « **مدينة الرباط إلى الحماية الفرنسية** ».

وبعد هذا : فإن أبا الحسن ضرب الرقم القياسي في تجهيز المغرب بالسقايات ، وذلك ما يلاحظه علي بن فرحون المدني حين زار المغرب ، فيسجل هذه الارتسامة : « **ما مررت في بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء فسألت عنها ، الا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله** ».

ويزكي ابن مرزوق هذه الشهادة قائلا : « وصدق ، فإن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وشرب الدواب بفاس وبلاد المغرب : معظمها من بنائه... ».

مبرات مادية : جرايات وهبات للفقراء والمعوقين

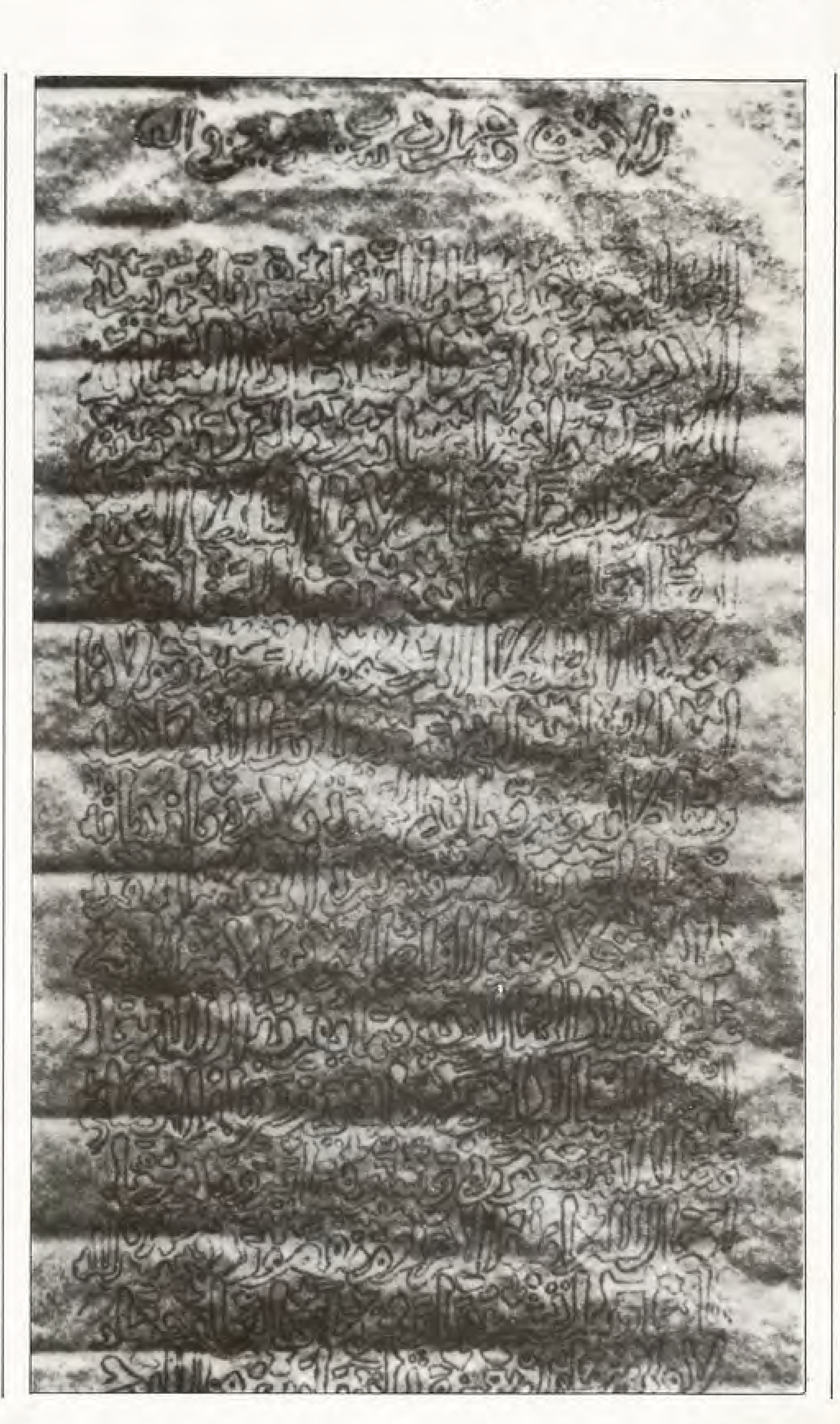
كان السابق لهذه المبادرة هو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، فأجرى على الجذمى والفقراء مرتبات منتظمة عند كل شهر .

وجاء في روض القرطاس عن أبي سعيد الأول : « **ولم يزل من يوم ولايته إلى الآن (726 / 1326) يامر بالجباب والأكسية في زمن الشتاء والقر للضعفاء والمساكين ، وأمر لمن مات من الغرباء أن يجهز ويكفن في الثياب الجديدة ، ويقام بحق دفنهم أحسن قيام** ».

وقد اهتم أبو الحسن بمرحلة الشيخوخة ، واعتنى بمن بلغ هذا السن من الضعفاء الملازمين للخير ، فأجرى عليهم رواتب كافية ، وبنى لهم

سقاية سيدي فرج . فاس .
(كليشي أ.بل)





نقوش إهدائية بسيدي فرج .
(أ. بل. النقوش العربية بفاس)

– كما تبينا سلفا – دورا لسكناهم ، ورتب
– كل عام – كساوي تكفيهم .

هذا : إلى أن ابن جزي يذكر
إسعافات أبي عنان : إجراء الصدقات
المساكين بكل بلد من بلاد المغرب المريني
الدوام .

وكسوة المساكين والضعفاء والمشايخ الملازمين للمساجد : بجميع الحو
المرينية .

وتعيين الضحايا لهذه الاصناف في
الاضحى .

والتصدق – يوم سبعة وعشرين
رمضان – بما يجتمع في مجابي الأبواب .

ومن جهة أخرى : يقول ابن مرزوق
أبي الحسن : **« إنه أجرى لسائر الأيتام من
القبائل ماتمشى به أحوالهم ، ويستغنون به عن التك
والعالة : فسوغ لهم** – فيما علمت كما قال
**مرزوق – محرث زوجين ومجباهما في كل وطن تحت
خراجه وجبايته ، وفيه كفاية ، حتى إذا بلغ حد ا
الحق بمن عداه ، فلا يكاد يقع بصرك على يتيم في
المغرب إلّا وهو مكفول ».**

إعذار اليتامى

تابع المرينيون عادة ختان اليتامى
الأطفال في كل سنة ، وهي مبرة عرفت بالمغ
من العصر الموحدي ، وبالضبط أيام يعقو
المنصور ، حيث يسجل ابن عذاري أنه عم
يسبقه إليه أحد من الملوك المتقدمين .
المعجب أنه كان يأخذ في الاستعداد لذلك
دخول السنة الهجرية .

وفي العصر المريني – الذي نعرض
استمر هذا التقليد ، واستقر يوم عاشوراء م

مؤسسات خيرية وإحسانات مادّية

له ، فكان من عمل أبي يوسف ماهد الدولة : أن قرر القيام – في كل عاشوراء – بتطهير الايتام وكسوتهم ، والاحسان إليهم بالدراهم والطعام .

ثم تابع هذا العمل السلطان أبو الحسن ، فيقول عنه ابن مرزوق : « **ومن صدقاته الجارية ، وحسناته المستمرة التي سنها : هو أنه في كل عاشوراء من سائر بلاده ، يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان ، فيختن كل واحد ، ويكسوه قميصا وإحراما ويعطي عشرة دراهم وما يكتفي به من اللحم ، فيجتمع في كل عاشوراء من الأيتام – من سائر البلاد – ما لا يحصى** ».

ويعلق نفس المصدر إثر هذا : « **وهو عمل مستمر في بلاده ، وسنة جارية قام بها الخلفاء من أولاده** ».

وقد أكّد هذا الاستمرار – بالنسبة لأبي عنان – كاتب معاصر هو ابن جزي ، فيذكر من مكارم مخدومه : إعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء .

قضاء الديون

وهي مبرة لمعت أيام أبي عنان ، فكان له ... قضاء الديون التي تركب الطبقات ... ، وفي هذا الصدد اتخذ قرارا بالتزامه الأداء من ماله الخاص ، لديون المعسكرين المسجونين بسائر الجهات المغربية ، ويطلق سراحهم

ويكتب – مع هذا – لجميع الأقاليم المرينية بأن جميع من توفي وعليه دين من الديون ، أو حق من الحقوق المدركة ولو بالظنون : فيؤدى عنه ... من بيت المال .

ولم أن تستمر هذه المبادرة وسابقتها على ...

وقد يشير لاستدامة هذا العمل بعد عصر أبي عنان : ترجمة تحتفظ بها حوالة فاس الحبسية حسب هذه الفقرة : « **الوصية** الصحيحة لقضاء الديون والمساكين ».

مبادرات خيرية

ومن الأكيد أنها كانت جد متوافرة ، وتنوعت بتعدد أصناف البر والاحسان ، حتى تجاوزت الانسان إلى الحيوان ، غير أن المصادر الباقية لم تذكر من ذلك سوى أقل القليل .

وسنعرض – أولا – ملامح من قطاع إسعاف الانسان ، وننتزعها من إشارات بعض حوالات فاس الحبسية ، وهي تذكر أعيان الموقوفات ، بعدما تعنون لها بذكر اتجاه الوقف وصاحبه ، فنورد منها العناوين التالية :

– وصية الفقيه الشيخ عبد الملك بن حيون الأندلسي : الثلثان للأسارى ، والثلث الباقي للمساكين ، وفي غلاء السعر يفرق ثلثا الأسارى على المساكين .

– وصية السلطان أبي فارس عبد العزيز على الأسارى .

– وصية على الأسارى مجهول صاحبها .

– وصية مساجن سجن القلعة .

– وصية ابن كسية على المساكين .

– وصية ابن عطو على المساكين .

– وصية الحاج عبابو على المساكين .

– وصية الحكيم على المساكين .

– وصية يوسف بن عميرة على المساكين .

– وصية الديناري على المساكين .

– وصية القبائلي على المساكين .

– وصية الكناني على المساكين .

– وصية ابن جشار على المساكين .

– وصية الجينارية على المساكين .

– وصية ابن أبي الصبر على المساكين .

– وصية القفاز على المساكين .

– وصية الحرة صفية على المساكين .

– وصية الميساوي على المساكين .

– وصية العريف على المساكين .

– وصية التازدغري على المساكين .

– وصية البانوخي على المساكين .

– وصية طلوقة على المساكين .

– وصية المزوار على المساكين .

– وصية الحجيج .

– وصية على المساكين مجهول صاحبها .

– وصية المرابط على المساكين .

– أوقاف المرضى الجذمى القاطنين بحارة برج الكوكب خارج باب الجيسة .

يضاف لهذه اللائحة وصية الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن ختّوسة ، وأمه فاطمة بنت الشيخ أبي الفضل الزرهوني : بتاريخ عشي يوم الثلاثاء 5 رجب 791 / 1389، وفيها أن مرجع الوصية بعد انقراض الموصى لهم : تحبيس ذلك على جامع الصابرين بحي أوزقور داخل باب الفتوح ، ليشترى من غلة الوصية زيت لاستصباح المسجد مع نفقة حُصُره وإصلاحه ، وما فضل من ذلك يشترى به **طعام** ، **ويطعم للواردين** بهذا الجامع : الملتزمين به من الفقراء ، والمرابطين به...

الآن ينتهي بنا المطاف إلى إشارات جد قليلة تبقت عن إسعاف الحيوان ، فنلتقي – أولا – مع محمد موسى الحلفاوي الاشبيلي نزيل فاس ، والمتوفى بها عام 758 / 1357، وقد جاء في ترجمته : أنه دفع به الرفق بالحيوانات : المتخذة والأليفة إلى أن يعد دارا يجمعهم فيها ، ويسهر على إطعامهم بيده .

ويتحدث ابن السكاك عن جمع من القطط شاهدهم مجتمعين على موزع يفرق عليهم لحما ، ويعدل في قسمته بينهم .

وابن السكاك توفي عام 818 / 1416، وهو محمد بن محمد بن أبي غالب بن أحمد المكناسي القبيل ، ثم العياضي ، الفاسي البلدة .

هذا : إلى أنه كان في حوز مدينة فاس : بلاد موقوفة على شراء الحبوب برسم الطيور ، حتى يلتقطونها – كل يوم – من المرتفع المعروف بكُدْية البراطيل ، عند باب الحمراء داخل باب الفتوح ، وأيضا : عند **كدية البراطيل** خارج باب الجيسة .

سَبتة : رجَالها ومَكانتها

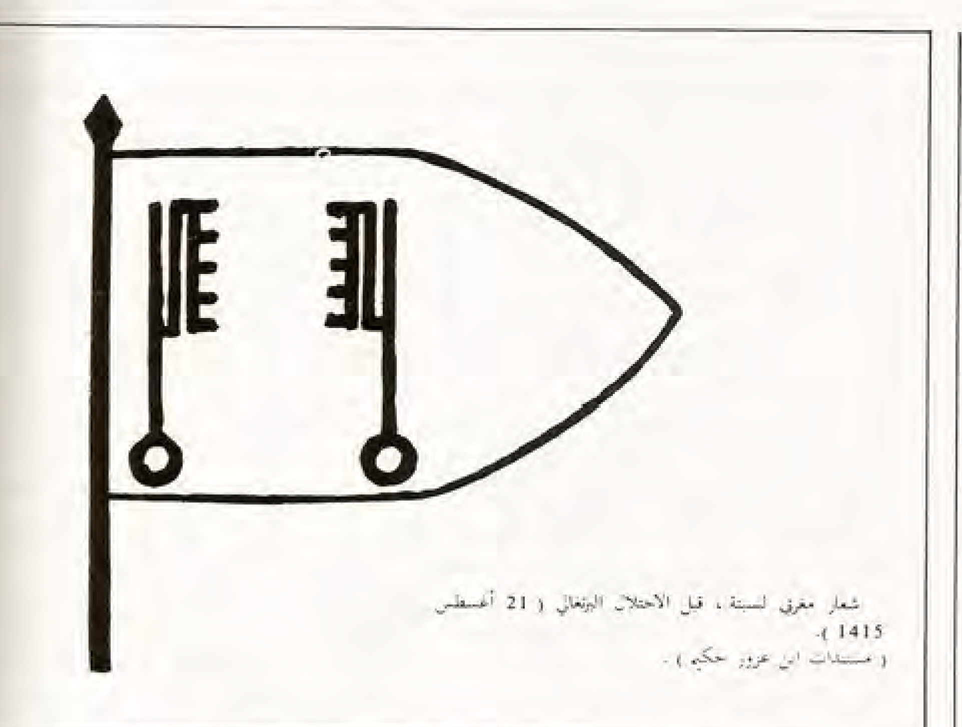
محمد العربي الخطابي

يجمع المؤرخون على أن سبتة دخلت في حوزة الاسلام طواعية وبمحض اختيار سكانها ورؤسائها . وكان يليان الغماري – واليها – واسطة الادارة السبتية ومنفذها .

وكانت سبتة ، منذ أن اعتمرها سكانها وحملت هذا الاسم إلى الأبد ، مرتعا لغمارة ، القبيلة المغربية المصمودية التي عمرت « جبال الريف بساحل البحر الرومي من عن يمين بسائط المغرب من لدن غساسة ، فنكور ، فبادس ، فتيكيساس ، فتطاوين ، فسبتة ، فالقصر (أي قصر مصمودة ويسمى اليوم بالقصر الصغير) إلى طنجة : خمس مراحل أو أزيد » كما قال عبد الرحمن بن خلدون في « العبر » .

وإذا كانت سبتة قد ذاقت الحلو والمر من طعم اللقاء الحضاري بالفينيقيين الكنعانيين وفرعهم القرطاجي ، ثم بالرومانيين والبيزنطيين فأذعنت لهم على كره منها – كما أذعن عدد من الثغور الواقعة على ساحلي البحر الأبيض المتوسط شمالا وجنوبا – فإنها قد احتفظت بطابعها المغربي الذي أهّلها لاعتناق دين الاسلام والامتزاج بثقافته وحضارته ، وخول لها أن تحمل رسالة العلم طوال تسعة قرون من حياتها في ظل الاسلام .

وقد عرفت سبتة ، منذ الفتح الاسلامي للمغرب في القرن الأول من الهجرة ، تقلبات سياسية كانت تعكس تطور الأحوال في العدوتين : المغرب والأندلس ، إلا أنها ظلت مدينة علم وثقافة ، فتلك كانت ميزتها البارزة وشعارها الدائم بين مدن العالم الاسلامي ، وبذلك وصفها المؤرخون والجغرافيون وكتاب السير .



شعار مغربي لسبتة ، قبل الاحتلال البرتغالي (21 أغسطس 1415).
(مستندات ابن عزوز حكيم) .

وحينما ضعفت الدولة الاسلامية بجناحيها الشرقي والغربي ، اغتصب النصارى سبتة في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) فلم تقم لها منذ ذلك الحين قائمة في ميدان العلم والفكر ، وغدت مجرد مرفأ لصيد السمك و « محلة عسكرية اسبانية وميناء حر على ساحل المغرب الشمالي » كما وصفتها الموسوعة البريطانية .

ولم تعرف سبتة ، قديما وحديثا ، إلا بكونها جزءا من بلاد المغرب كما ورد ذكرها في الموسوعات الجغرافية والعامة .

فهذا الياقوت الحموي (ت سنة 626 هـ /1228 م) يقول عنها في معجم البلدان :

« وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر » .

وتقول دائرة المعارف الاسلامية في طبعتها الأولى : « **سبتة بلدة بحرية من أعمال مراكش عل مضيق جبل طارق** » .

فكيف اكتسبت سبتة ميزتها العلمية هذه ، وماذا كانت مكانتها بين الحواضر الاسلامية الشهيرة ، وما مدى إسهام رجالها الأفذاذ في إثراء التراث الثقافي الاسلامي والعالمي ؟

ذلك ما سأحاول الكشف عن بعض ملامحه في هذه الدراسة الموجزة ، ولست أدعي أني وفيت الموضوع حقه ، وإنما هي محاو

... الوفاء لمدينة مغربية مازالت تعاني الأسر ... تحررت أخواتها الكبيرات والصغيرات ، مدينة ... قدمت للثقافة والحضارة أجل الخدمات .

...ـات البشرية والجغرافية ...لاقتصادية

وصف أبو عبد الله محمد الشريف ... الحسني (ت سنة 560 هـ / ... م) مسقط رأسه سبتة في موسوعته ... المشتاق » وصفا جغرافيا مقتضبا ... قال : « **فأما سبتة فهي تقابل الجزيرة ... وهي سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ... معمورة ... ويتصل بها من جهة الغرب وعلى ... جبل موسى ، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر وأترج يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها ؛ وسمي هذا المكان الذي جمع هذا كله بليونش ، وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مضطردة وخصب زائد ...** » إلى أن يقول : « **وبمدينة سبتة مصايد للحوت ، ولا يعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه ... ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار ، وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكمه وصنعه خرزا وثقبه وتنظيمه ، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد ، وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان ، لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيرا** » .

فما الذي نستنتجه من هذا الوصف الدقيق الذي زودنا به جغرافي عالمي ثقة في علمه وفي معرفته ببلده ؟

نستنتج عدة أشياء ، منها :

– أن سبتة كانت ، في ظل الحكم المغربي الاسلامي ، مركزا تجاريا وصناعيا نشيطا مفتوحا على العالم الخارجي من جهة المبادلات الاقتصادية التي تؤدي إلى انتقال الرجال والأفكار وبالتالي إلى تلاقي الثقافات والحضارات .

– أن سبتة لاتذكر إلا مع جناحها الغربي « **بليونش** » ، هذه البلدة المنيعة ذات الأراضي الخصبة والمناظر الخلابة التي خاطبها الأمير الرئيس أبو العباس الينشتي بقوله متشوقا إليها حال وجوده في بغداد :

وأذكر أوطانا أفأت بظلها
معاهد أحباب ومغنى حبائب
أبليونش لا جف نبت رياضها
وجاد على مغناها صوب السحائب

وقال فيها ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب السلماني :



سبتة بعد 165 سنة من الاحتلال البرتغالي .
(مستندات ابن عزوز حكيم) .

مذكرات من التراث المغربي

هي جنة الدنيا التي من حلها
نال الرضى والروح والريحانا

ولم تكن بليونش مجرد منتزه يرتاده السبتيون للمتعة والاستجمام ، بل كانت موردا زراعيا عظيم الشأن في حياة سبتة الاجتماعية والاقتصادية ، إذ من بليونش كان يصدر « إلى ما جاور سبتة من البلاد » قصب السكر والأترج – أي البرتقال – وكل ما يفضل عن حاجة السكان من فاكهة وغيرها . وكان البرتغاليون – ومن بعدهم الاسبان – على علم بأهمية بليونش الاقتصادية والاستراتيجية فحاولوا السيطرة عليها إلا أنها امتنعت عليهم بفضل حمية أهل قبيلة انجرة وقوة شكيمتهم وصلابتهم في الدفاع عن أرضهم . وما زالت بعض أدلة ارتباط سبتة بقرية بليونش قائمة إذ أن المياه العذبة التي يشربها سكان سبتة اليوم تتدفق إليها من عيون بليونش الزاخرة .

– أن شواطىء سبتة كانت تزخر بالمضارب ومصايد السمك ، ومنه التن الكبير ، وكان يبحرها أجود أصناف المرجان ، وقد أصبحت هذه المادة النفيسة مصدر عيش الكثير من البحارة والصيادين والصناع وتجار « التصدير والتوريد » حتى إن المرجان فتح طريق التجارة طويلا عريضا بين ثغر سبتة وسائر البلاد في حوض البحر الأبيض المتوسط « وفي غانة وجميع بلاد السودان » أي أقطار القارة الافريقية .

وقد تعرض الحسن الوزان (ت سنة 944 هـ) في كتابه « وصف افريقيا » لذكر سبتة فقال :

« **وكان فيها كثير من الجوامع والمدارس والعديد من الصناع ورجال الأدب والفكر . وكان فيها نحاسون مهرة يصنعون الشمعدانات والأطباق والمحابر وغيرها . وكانت هذه المصنوعات تباع كما لو كانت من فضة ، وقد رأيت منها في إيطاليا ، وكان كثير من الطاليان يعتقدون أنها صنعت في دمشق** » .

وكان في سبتة ، فضلا عن ذلك ، مصانع الحرير والكتان .

ولا شك أن كل هذه المزايا البشرية والجغرافية والاقتصادية قد أهلت سبتة لتكون ملتقى التجار الواردين عليها من كل مكان ولتصبح مركز علم وحضارة ، شأنها في ذلك شأن جنوه والبندقية والمهدية وباليرمو وغيرها من المرافىء المحظوظة التي هيأ لها موقعها الجغرافي ، ونشاط سكانها ، خصبا ثقافيا مرموقا في عالم العصر الوسيط وعصر النهضة .

وقد أبدع الوزير الأديب ابن الخطيب السلماني فيما قاله عن سبتة مكملا الصورة الجغرافية التي رسمها لها الشريف الادريسي وغيره قال ذو الوزارتين ، بأسلوبه المنمق ، يصف سبتة :

« **كرسي الأمراء والأشراف ، بصرة علوم اللسان ، وصنعاء الحلل الحسناء ، وثمرة امتثال قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان ، الأمينة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل المصيد والحرير والكتان ، وكفاها السكنى بليونش في فصول الزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان ، والمدفن المرحوم غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم** » .

ونلاحظ أن ابن الخطيب قد أضاف إلى عناصر الجغرافية البشرية والاقتصادية – التي وقف عندها الادريسي – مزايا خلقية واجتماعية وسياسية ؛ فهي مدينة إمارة وجاه ، وموطن علم وحضارة ، وهي خزانة علوم ، ومركز صناعة ، وملتقى تجارة ومبادلات ، يسودها العدل والأمانة والرخاء والاحسان .

وقد لخص بعد المؤرخين والرحالة – ومنهم ابن عذارى المراكشي – مزايا سبتة في عبارة جامعة فحواها : « **ولم تزل دار علم** » وهي عبارة تفيد العراقة والاستمرار ، ولم تزل سبتة كذلك حتى آخر عهدها المغربي الاسلامي ؛ فهذا محمد بن القاسم الأنصاري – شاهد العصر البصير النابه – يتبنا في رسالته « **اختصار الأخبار** » بما كان في سبتة ، قبيل الغزو البرتغالي ، من معالم الحضارة والعمران ، ومعاهد الثقافة والعلم ، ومقامات الرجال الأعيان ... كان بها ألف مسجد ومن بينها مدرسة ... المحدث أبي الحسن الشاري الغافقي السبتي ... عام 649 هـ) والمدرسة الجديدة « **العظيمة ... المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة التي ابتناها ... المغرب أبو الحسن المريني ، كما كان بها اثنتان و... خزانة علمية منها خزانة بني العجوز الكتاميين . و... بني الحضرمي وبني ابن أبي حجة ، وكان من ... الخزانات العلمية ثمان موقفة على طلاب العلم ... الشيخ أبي الحسن الشاري – وهي أول خزانة و... بالمغرب على أهل العلم – وخزانة الجامع العتيق و... من الكثرة بحيث لم يشذ منها فن** » .

لقد ترك لنا الأنصاري – رحمه ... جردا ، وأكاد أقول إحصاء دقيقا ، لما كان ... قبل سقوطها في يد النصارى من معالم عم... وممتلكات دينية وعلمية واقتصادية ، وكأنه أر... يقيم البينة على الغاصبين بما نهبوه حتى إ... عدنا إلى بلدتنا الحبيبة – ولطالما حاولنا بالسي... أحيانا وبالحرب أخرى – طالبنا بممتلكاتنا في... كانت يوم أجبرنا على مغادرتها .

تمثال العذراء في المسجد الجامع

ومن حقنا اليوم أن نتساءل : أين ذه... تلك المعالم والمؤسسات وماذا بقي منها ؟

نعلم من مصادر اسبانية وبرتغالية ومغر... كما نعرف بالمشاهدة أن معظمها طمس ومسخ ...

فهذه « موسوعة الأندلس » تشير إشا... عابرة ، لكنها ذات دلالة ، إلى ما حل ببعض ... المؤسسات الدينية فتقول ما ترجمته :

« **في القرن الخامس عشر الميلادي أعد البلا... الملكي البرتغالي بعوثا عسكرية عدة إلى افريقيا بعد ... وضع سبتة نصب عينيه طامعا في جعلها من الأحجار الكريمة التي ترصع تاجه . وفي 14 أغسطس من سنة 1415 نزل الشيخ البرتغالي ، بقيادة ملكه جوا... الأول ، في شاطىء المدينة وتمكن من غزوها حساب...**



[illegible] 1415، حول البرتغاليون مسجد سبتة الجامع [illegible] حيث أقيم بها أول احتفال ديني مسيحي . [illegible]) .

[illegible] حسب شهادة كوربادي فرانكا ، وبعد إقرار [illegible] في البلدة أقيم فيها أول محفل كاثوليكي في اليوم [illegible] احتلالها ، وذلك بمناسبة عيد المعارج ، وقد [illegible] المسجد الاسلامي الجامع فوضعوا فيه [illegible] ... وما تزال هذه الكنيسة قائمة إلى اليوم [illegible] « NUESTRA SENRA DEL [illegible] » .

[illegible] تحولت المساجد إلى كنائس [illegible] معسكرات واصطبلات ، وديست [illegible] ، وأتلفت كتب العلم كما وقع في غرناطة [illegible] الحكومة الاسلامية فيها حيث أشرف [illegible] على إحراق مئات الآلاف من [illegible]

[illegible] ساحة افريقيا

[illegible] ويحكي المستعرب الاسباني إيميليو [illegible] الذي رافق بتكليف من حكومته ، [illegible] في زحفه من سبتة إلى مدينة تطوان عام 1859 ، هذه الوقائع والمشاهدات :

في القسم الجنوبي الغربي من مدينة سبتة تقع ساحة افريقيا وجزء من السور العتيق مع برج مرتفع يحكى أن سيدة مغربية قذفت من أعلاء حجرة أصابت القائد البرتغالي فاسكودي أتايدي فأردته قتيلا حينما كان يهم باقتحام الساحة . وما تزال تلك الحجرة مثبتة في جدار ساحة افريقيا وقد كتب عليها باللغة اللاتينية ما وقع للقائد البرتغالي . وفي نفس الساحة بناء تعلوه مئذنة ما تزال بها أقواس مبنية بالآجر على الطراز المعماري المغربي ، وفي صحن البناء ساريتان شبيهتان بسواري حوش السباع في قصر الحمراء بغرناطة ، وكلاهما من الطراز المعماري العربي المتأخر ، من القرن الرابع عشر أو أوائل الخامس عشر ، وقد كتب على أحد تلك الأقواس هذه الآيات من القرآن الكريم :

« الحمد لله ، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ، يُخرج الحيّ من الميت ويُخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون » 16 – 17 – 18 / 30 .

وفي باب ذلك الصحن ، الذي يؤدي إلى الساحة ، قوسان تحليهما زخارف عربية من كلس ومرمر ، وعليهما كتابة تتعقر قراءتها . وفي هذا المكان بئر يحيط بها سياج من رخام أبيض مكتوب عليه بالخط الكوفي كلام لم يبق منه سوى هذه العبارة :

نعمة شاملة وغبطة كاملة ويمن ...

ولا شك أن هذا البناء كان مسجدا في زمن الغزو البرتغالي لهذه المدينة فحول إلى كنيسة نصرانية ثم أصبح فيما بعد ديرا ، ولم يبق من هيأته القديمة سوى الصحن والنصف الأسفل من المئذنة .

ولعل هذا البناء الذي أشار إليه المستعرب « القنطرة » هو الذي ذكره أحمد بن المهدي الغزال ، سفير السلطان سيدي محمد بن عبد الله الحسني إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث عام 1178 هـ / 1754 .

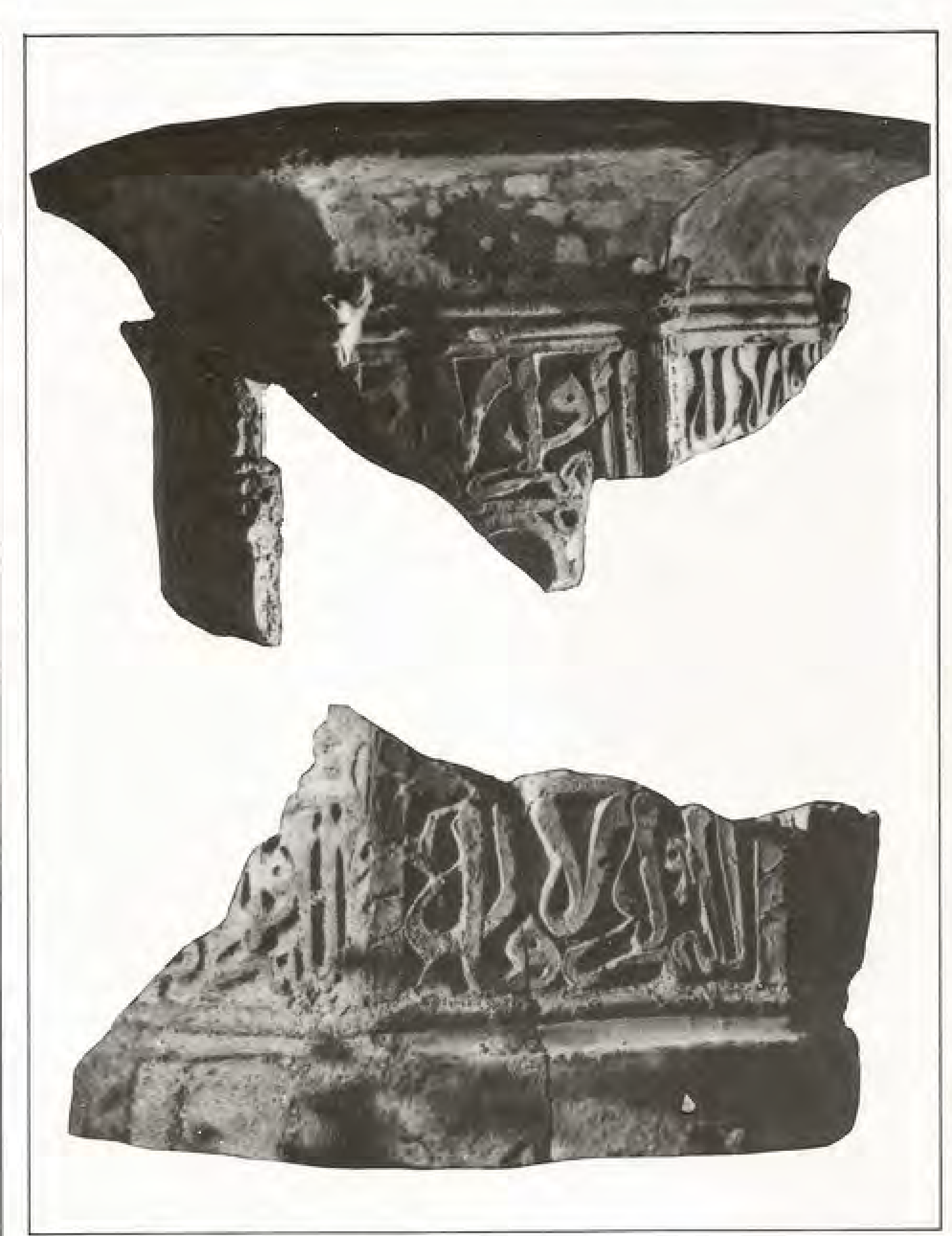
لقد سجل هذا السفير النابه بعض مشاهداته في سبتة المحتلة وهو في طريقه إلى اسبانيا ، فقال :

« ومن الجهتين الأخريين كنائس صاعدات منها ديور حاملة للنواقيس ، منها المسجد الذي كان للمسلمين أبقوا بابه على حامله ، وصومعته مبنية على قوس الباب ، وجعل أعداء الله بها ناقوسا ؛ وفي أحد



يحكي هذا الحجر وفاة الحاكم البرتغالي فاسكو أطاي الذي قتل على يد مجاهدة مغربية مجهولة .
(كليشه جبّور) .

مذكرات من التراث المغربي



مأثرة حجرية نقشت عليها كلمات للتبرك .
(كليشه جنور).

وجوه الصومعة المقابل القبلة آجرة مكتوب عليها : بركة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبداخل الباب خط مشرقي من عمل الجباس ، متلاش ، وفوقه خط آخر محفور في اللوح (الخشب) في غاية الاتقان لم يحدث فيه تغيير ، مكتوب فيه:

النعمة الشاملة والعظمة الكاملة ...

والخط مستدير بالموضع الذي يدور فيه الباب ، وعن يمين الداخل أقواس دائرة بالصحن شدت بالبنيان ، وهي الآن بيوت يسكنها بعض ضعفاء الفرايلية (أي الرهابنة وأصلها من الاسبانية FRAILE وبالصحن ساريتان من الرخام المرقوم ، وقد علاهما خط مشرقي أبلاه القدم وانسلخت بعض مواضع الكتابة ولم يبق إلا لفظ أمير المسلمين أبي سعيد بن أحمد فقط » .

لكل شيء بداية

إذا كان من المتعذر علينا أن نحدد بدقة تاريخ انطلاق الحركة العلمية في سبتة فإننا نعرف تقريبا متى بدأت تزدهر وتعطي أكلها .

إن مصادر التاريخ والتراجم التي بين أيدينا تجعلنا نميل إلى الظن أن سبتة لم تكن تذكر من بين حواضر العلم الشهيرة في العالم الاسلامي قبل القرن الخامس الهجري ، إلا أن الروابط العلمية بينها وبين العديد من تلك الحواضر كانت سابقة لهذا القرن إذ أنها استحكمت وأخذت في الاتساع منذ القرن الرابع . ولدينا في هذا الصدد معلومات مفيدة عن التبادل العلمي بين سبتة وبعض المدن المغربية الأخرى ، وبين تلك ومدن الأندلس والمشرق .

إننا نعرف أن هذا الثغر المغربي قد مر منذ الفتح الاسلامي ، بحقب من الاضطراب السياسي فلم يتمكن سكانه والطارئون عليه من التفرغ لاحداث الازدهار الفكري والعلمي الذي عرفته سبتة في القرن الخامس وما بعده ، أي منذ قيام دولة المرابطين ، وربما كان هذا هو حال المغرب عموما في عصر أمراء الخلافة الأموية ثم العباسية ، بل حتى في عصر الدولة الادريسية المستقلة عن الخلافة المشرقية . وعلة ذلك واضحة ، فقد كان على الحاكمين أن يعنوا ، أولا ، بنشر الدعوة الاسلامية وترسيخ دعائمها ، وتعليم السكان الأصليين القراءة والكتابة ومبادئ الدين الجديد ، ثم إن الأندلس نفسها لم تعرف الازدهار العلمي بمعناه الحقيقي إلا في عهد الخلافة المروانية ، ولا سيما في عصر عبد الرحمن الناصر (300–350 هـ / 912–961 م) .

وإذا كان لكل شيء بداية ، فإن أول ما دخل سبتة وسائر بلاد المغرب من العلوم الاسلامية كتاب الله العزيز الذي لا شك أن تعلمه كان مسبوقا بنشر القراءة والكتابة ومصحوبا بتلقين السنة النبوية ، وهذه مهمة تولاها قادة

...تح الاسلامي بتوجيه من الخلفاء ، فقد كانوا ... علم يصطحبون معهم معلمين وفقهاء لهذه الغاية .

لقد أخبرنا عالم ثقة من أهل سبتة هو أبو ... أحمد العزفي اللخمي (ت 633 هـ) أن ... رعة هو الذي أدخل القرآن الكريم إلى ... ؛ وقد سجل هذه الرواية سبتي آخر من ... هو محمد بن عبيد الله الحجري (ت ... 591 هـ) وهو أيضا من العلماء الثقات ... . وربما يكونان قد ذكرا المصدر الذي نقل ... الأنصاري مع معلومات أخرى عن أبي ... . فضاع المصدر كما ضاعت مؤلفات أخرى ... الشأن ككتاب « **العيون الستة في أخبار سبتة** » للحافظ القاضي أبي الفضل عياض ... السبتي (ت عام 544 هـ) وهو من ... في بلده ، ومعرفة بالرجال والأخبار ، ... في الرواية والنقل : ومن يدري فلربما كنا نجد ... هذه المصادر ما يشفي الغليل ويمكن من معرفة ... ذات بال عن بداية الحركة العلمية ورجالها ... في سبتة أكثر مما نعرف الآن .

... سبتة وشقيقاتها المغربيات

... نعرف من أسماء الأعلام السبتيين أفرادا ... إلى أسر عريقة المحتد موصولة الذكر ... مدينة البوغاز منذ أقدم عصورها ... ؛ فمن الأسر المغربية : اللواتيون ... والصنهاجيون والمجكسيون والحموديون ... وهم ينتسبون إلى أسرة من آل البيت ... قديما بالمصاهرة وطول المقام ، ومن ... المشرقية : الأمويون والأزديون واللخميون ... بالمحاصبة . وقد نبغ من هذه الأسر ... أعلام مرموقون في دنيا العلوم ... .

... أول الروابط العلمية التي نعرفها فقد ... بين سبتة وشقيقاتها المغربيات قبل أن تتسع لتشمل حواضر الأندلس والمشرق ، ولعل الغريب في أمر هذه الروابط أن مدينة البوغاز كانت في بداية عهدها بالعلوم والآداب مثابة رجال ينتسبون إلى مدن مغربية لاتعد من حواضر العلم الشهيرة كأصيلا وكتامة وبصرة المغرب والنكور ، والمدينتان الأخيرتان قد اندثرتا الآن واصبحتا أثرا بعد عين .

كانت للشريف الادريسي ، بفضل ملك صقلية المسلمة روجي الثاني ، إمكانية ربط اتصال مباشر مع أوروبا ، الشيء الذي أفسح له المجال للمساهمة في تطوير علم الجغرافيا ، وعلم الخرائط ، والطب ، والصيدلة . وقد تعدّى نفوذه وأثره وصيته العالم الاسلامي ، ولمع اسمه في سماء أوروبا المسيحية التي اعتبرته أستاذا وباعثا للعلوم .

وقد ألف « **نزهة المشتاق** » و « **روض الانس ونزهة النفس** »، في الجغرافيا .

كما وضع الشريف الادريسي مؤلفا يحمل عنوان « **الجامع لاشتات النبات** » الذي اعتمد عليه وأخذ به عالم النبات المشهور ابن البيطر . ولذلك فقد ترجم عدد كبير من أعماله إلى اللغات الاوروبية ، وقد اعتبر من أكبر وأشهر العلماء في المعمور .

فمن بصرة المغرب نذكر عالما جليلا هو أبو زكرياء يحيى بن خلف الصدفي الذي قال عنه ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس ، إنه رحل إلى المشرق فسمع بمكة أبا سعيد الأعرابي كثيرا ، وتوفي بسبتة ولم يذكر ابن الفرضي تاريخ وفاته مع أنه أفادنا أن أبا زكرياء الصدفي من أهل سبتة ، وأصله من بصرة المغرب » .

ومن الأعلام الآخرين الذين أوقدوا شعلة العلوم والآداب في سبتة وبقي ذكرهم موصولا :

– أبو الأصبغ عيسى بن العلاء بن نذير بن أيمن ؛

– أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله ابن الشيخ الأموي ؛

– أبو محمد خلف بن علي بن ناصر بن منصور البلوي السبتي ؛

– أبو الحجاج يوسف بن حمود بن خلف بن أبي مسلم الصدفي ؛

– أبو محمد بن عبد الله بن غالب بن تمام بن محمد الهمداني ؛

– أبو اسحق ابراهيم بن أبي العيش بن يربوع القيسي السبتي ؛

– أبوا محمد عبد الله بن ابراهيم بن جماح الكتامي السبتي ؛

حقيقتان

إن هذا القدر من التراجم التي ذكرناها كاف لاعطائنا صورة عن الحركة العلمية بسبتة في القرن الرابع خاصة ، وهي حركة تبرز حقيقتين اثنتين :

أولاهما : أن الصلات العلمية بين سبتة والحواضر الاسلامية الأخرى في الأندلس وافريقيا والمشرق بدأت تستوثق في وقت مبكر ، وهي صلات يطبعها الأخذ والعطاء بمعنى أن رجالا من سبتة يرحلون إلى قرطبة أو القيروان أو مصر أو مكة أو بغداد لتلقي العلم ومصاحبة رجاله والرواية عنهم ، أو للتدريس والاقراء وإفادة أهل تلك البلاد ، وهذه الظاهرة بقيت مستمرة إلى القرن الثامن الهجري كما سنرى .

وثانيهما : أن أفذاذ رجال سبتة قد وردوا العلم من مصادره الأصلية وامتازوا بعلو الاسناد

وصحة الرواية ونقلوا ذلك إلى بلدتهم بعد أن أخذوا عن أعلام وقتهم كأبي ذر الهروي وأبي محمد الأصيلي وابن أبي زيد القيرواني وقاسم بن أصبغ وأبي الوليد الباجي ، وغيرهم ؛ كما أن من أهل سبتة من برز في التدريس في غير بلده فكان من تلامذه أعلام مرموقون كأبي عمر الطلمنكي وأبي عبد الله الخلواني ، وفي اعتقادي أن هذه الانطلاقة السليمة للحركة العلمية في سبتة كانت من أسباب الازدهار الذي عرفته هذه المدينة في حقل العلوم والآداب في القرن الخامس الهجري حيث نشطت معاهدها العلمية واتسعت خزانات الكتب بها ، وقويت حركة التأليف واشتدت رغبة رجالها إلى الترحال لطلب العلم كما ورد على سبتة العديد من العلماء والأدباء من الأندلس والمشرق وافريقيا ، ومنهم من قدم عليها للقاء رجالها والافادة منهم والأخذ عنهم .

بوادر الازدهار

يمكن القول أن بوادر الازدهار العلمي في سبتة بدأت تظهر في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، أي مع ظهور الدولة المرابطية التي وحدت المغرب والأندلس وساهمت في توسيع الصلات العلمية بين العدوتين المغربيتين .

وعلى أن حقائق التاريخ تثبت أن سبتة أصبحت بالفعل منارة علوم وآداب في القرنين الخامس والسادس ، فنشطت معهدها العلمية ، ونبه ذكر العديد من أعيانها وطار صيتهم في جميع أنحاء العالم الاسلامي .

فيمدّنا القاضي عياض بقائمة طويلة ينتسب أصحابها إلى العديد من بلدان الاسلام في الشرق والغرب .

ويمكن تقسيم هؤلاء المشايخ الأعلام إلى ثلاث فئات .

فالفئة الأولى تتألف من علماء ينتسبون إلى الأندلس وافريقيا والمشرق لم يدخلوا سبتة ولم يقيموا فيها للتعليم ، وإنما شدت إليهم الرحال وقصدهم لطلاب لمكانتهم العلمية وكان لهم على سبتة ورجالها المشاهير فضل وأي فضل .

أما الفئة الثاني فتضم طائفة من الشيوخ ليسوا من أهل سبتة أصلا إلا أنهم أقاموا بها مدة قصيرة أو طويلة وجلسوا فيها للتدريس وأخذ عنهم الطلاب وأفاد منهم الناس ، ومن هؤلاء :

– أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الاشبيلي دفين فاس (ت 543 هـ).

– أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الأزدي الريوطي الطليطلي (ت 503 هـ).

– أبو عبد الله محمد بن عمر بن قطري الزبيدي (ت 501 هـ) أصله من اشبيلية .

– أبو العباس أحمد بن محمد الأنصاري الشارقي (ت 500 هـ) سكن سبتة كثيرا وتكرر عليها .

– أحمد بن طاهر بن علي بن شبرين الأنصاري الداني (ت في نحو 520 هـ).

– أبو علي الحسن بن عبد الأعلى الكلاعي دفين أغمات (ت 505 هـ) ، أصله من صفاقس .

وننتقل الآن إلى الكلام عن الفئة الثالثة ، وتتألف – حسب التقسيم الذي اصطنعناه – من أعلام سبتيين ، أصلا ، وكانت لهم اليد الطولى في ازدهار الحركة العلمية بسبتة وفي توسيع روابطها بالحواضر الاسلامية الشهيرة في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من الهجرة . فمن هؤلاء

– القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي المتوفى بسبتة سنة 505 هـ.

– القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأموي المتوفى عام 517 هـ.

– أبو بكر محمد بن البراء الجزيري (كان حيا سنة 493 هـ).

– محمد بن عبد الله المورروري . الشيخ المقرىء . توفي في حدود سنة خمسمائة بسبتة .

– أبو اسحق بن جعفر بن أحمد اللواتي المعروف بابن الفاسي ، توفي سنة 513 هـ بسبتة .

وما دمنا بصدد الكلام عن القرنين الخامس والسادس فإننا لا بد من أن نذكر رجلين جليلين من أعلام سبتة هما أبو عبد الله محمد الشريف الادريسي الحسني المتوفى سنة 560 هـ وأبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المتوفى سنة 601 هـ.

الثبات والاستمرار

تواصل سبتة على امتداد القرنين السابع والثامن مسيرتها الفكرية فلا تهن ولا تتعثر وتتسع روابطها بحواضر العلم الاخرى في المشرق والمغرب وتلمع في سمائها أسماء أعلام ذوي شهرة وجاه عريضين كلهم من أقطاب العلم أو فرسان الآداب ومنهم من تبوأ مكانة رفيعة في حلقات التدريس بأشهر الجامعات الاسلامية . ومنهم من رفعه علمه وأدبه إلى أعلى الدرجات في حقل الحكم والسياسة والقضاء ، ومنهم من شدّ الرحال إلى أقطار الأرض يجوبها متعلما ومعلما ويسجل ملاحظاته ومشاهداته ومراحل مسيرته العلمية .

لقد أسهمت سبتة في تقديم العلوم

> «... أبو عباس السبتي ، دفين مراكش وأحد أقطابها غزا بإنسانيته وسلوكه علمه الفكر الصوفي في العالمين الاسلامي والمسيحي . فوهب ذلك عمله وجهده وكان المؤسس الاول للمواساة الاجتماعية التطبيقية مسترشدا بالكتاب والسنة . كما كان يرى أن الوجود ينفعل مع الجود . كما قال عنه ابن رشد ...»



... الكواكب الثابتة ، ألفه الصوفي بسبتة سنة ... 1224 م. يشتمل على معارف تلك الحقبة في علوم ... والحيوان والنبات... محفوظ بالخزانة الانجليزية بالفاتكان. ... رسم لراقص وضع خصيصا للاشارة إلى مجموعة من ...

... إسهاما مرموقا ، وعمل رجالها الأبرار على ... أطراف العالم الاسلامي والمشاركة في الحفاظ على وحدته الروحية والفكرية بما تحمله من وصل ... العلم ، وضبط طرقه ، وإحكام وسائل ... ، مع حسن التصرف في أصوله وفروعه فبلغت عندهم علوم القرآن والحديث والفقه والاصول والنحو واللغة والادب من إتقان السماع والرواية ، وتجويد أساليب النظر والبحث والشرح والنقد . مبلغا يجعلها تتبوأ مكانة سامية مرموقة بين حواضر العالم الاسلامي .

لقد عرف رجال سبتة كيف يستثمرون موقع بلدهم الجغرافي الممتاز فجعلوا منه مجازا حقيقيا يصل الاطراف المتنائية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ولم يقفلوا أبواب بلدهم في وجه أحد حتى أنهم في إبان المحل الذي أصاب سكان قلشانة رحبوا بالمهاجرين منها ومكنوهم من شراء الأراضي في سبتة أعداد من ذوي الجاه والمكانة في الأندلس وافريقيا ، فرحب بهم أهلها وأحلوهم على الرحب والسعة . وقد ذكرنا أفرادا من هؤلاء منهم من هاجر إلى سبتة بعد سقوط مسقط رأسه في وجه العدو ، ومنهم من جاء بمحض اختياره مفتونا بمكانة سبتة وشهرة معاهدها وجاه الكثير من أعلامها . وقد وجد السبتيون في الدول

الحاكمة ، ولا سيما في المرابطين والموحدين والمرينيين ، خير مشجع لهم على الانفتاح والتبادل فاختاروا ميدان العلم لتوثيق صلات بلدهم بمختلف أنحاء العالم الاسلامي . ولم تعجزهم البحار والبراري عن شد الرحال إلى كل مكان تعتقد فيه حلقة للعلم ، أو يبزغ نجم عالم . أو يخطّ كتاب ، وبذلك نقلوا المعارف إلى بلدهم بعد أن اغترفوا من منابعها ، ثم فتحوا ديارهم للطارئين النجباء يأخذون بأيديهم إلى مجالس العلم ، ويحلقون حولهم سامعين وقارئين ولم يتردد أعلام سبتة – وكان منهم المحدثون والفقهاء والنحويون واللغويون والجغرافيون والقضاة

كتاب الغنية لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي ، يثير موضوع أهمية العلاقات الثقافية لسبتة مع باقي مراكز الحضارة الاسلامية .
(كليشه بوعمري).

والمفتون – في إعطاء ما عندهم من علم وأدب فمنهم من شدت إليه الرحال في بلده . ومنهم من ارتحل بنفسه وتصدر للتعليم أو القضاء في قرطبة أو فاس أو القاهرة أو غرناطة أو القيروان أو تونس أو مكة وغيرها ، منهم من سجل مشاهداته وتفاصيل رحلته العلمية والروحية . وقد لمسنا كل ذلك من خلال ما قدمناه من تراجم الرجال ومشاهد الصلات العلمية ، على أننا لمسنا أيضا أن ما ضاع من تراث هذه المدينة العلمي أكثر بكثير مما بقي منه وهذا النزر القليل الباقي لم يتح له من أسباب النشر والتحقيق والدراسة ما هو جدير به .

رحم الله الشريف الادريسي الذي قال :

لم أدع للعين ما تشتاق في بر وبحر
وخبرت الناس والأرض لدى خير وشر
لم أجد جارا ولا دارا كما في طيّه صدري
فكأني لم أسر إلا بميت أو بفقر

إنه في ذلك يحكي عن حاله في لحظة قلق وتأمل باطني ، غير أن ما قاله يعرب بشكل [illegible] عن حال سبتة وقت ضياعها ، لو كان لها لسان ينطق ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ابن خلدون

عبد الغني مغنية

يعتبر العلامة ابن خلدون (القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي) من أكبر المؤرخين العرب على العموم ، بل هو أكبرهم بالفعل في كل زمان ومكان بما جمعه وألفه من وقائع العالم وأخبار الدنيا في تاريخه الشهير الذي طبق الآفاق : « **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر** » الذي خلفه ميراثا للاجيال المتعاقبة من بعده .

وقد يكتفي المطلعون الغربيون بتصنيفه في عداد المؤرخين والكتاب من درجة مونتيسكيو وديلثي وماكس فيبير وجاسبير وسلنجر ، ولكن طونيبي وهو المؤرخ المرموق والمتخصص في الحضارات الانسانية وصفه في كلمة بقيت مأثورة على مر الايام ومدى الزمان بأنه : « **صانع أكبر عمل في هذا المضمار لم يصنعه من قبله أي فكر من الافكار في أي زمن من الأزمنة أو في أي مكان** ».

لقد أشاد العلماء بابن خلدون بصفته أبا العصرانية الحديثة بفضل تطلعه الغريب وفكره النقاذ الناقب ومنهجيته الفريدة الاصيلة في تناول علم التاريخ ، وكذلك بسبب تصوره للتاريخ كعلم من العلوم ومدى تأثير عمله الجليل بالنسبة لتناول بعض المظاهر الحديثة - كالتخلف مثلا - بالدرس والتحليل مناولة تاريخية عصرية .

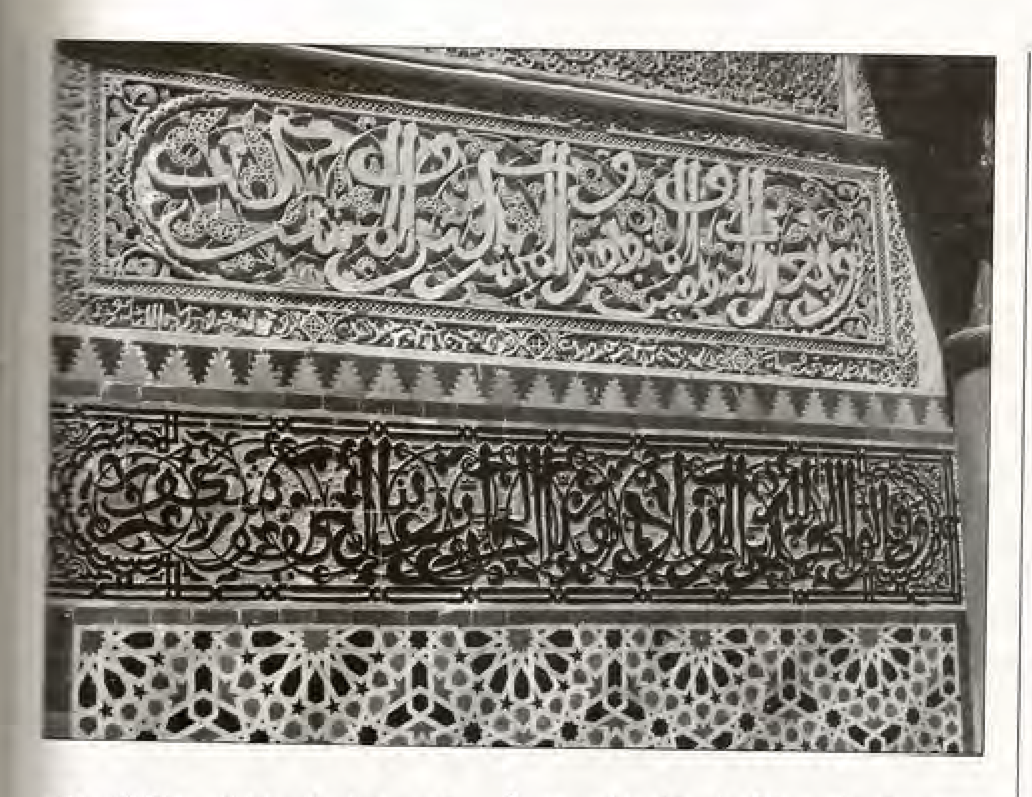
ولذلك ، فإن اكتشاف الغرب وعلمائه لشخصية هذا المؤرخ منذ المستشرق سيلفيستي دي ساسي ومنذ العصر الموضوعي للعمل التاريخي كان حدثا من أهم الاحداث وأبرزها على الاطلاق .

ومن خلال التعريف باسمه وهويته نلاحظ أن نسبه يرجع إلى خلدون أحد مشاهير الثوار الاندلسيين . فهو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمان ابن محمد بن خلدون الحضرمي الاشبيلي من ولد وائل بن حجر ، صاحب كتاب العبر ، العالم الطلعة والمؤرخ والبحاثة والفقيه المتضلع والاديب الالمعي الذي لا يشق غباره .

وإن كان أصله من اشبيلية ، فإن مسقط رأسه ومنشأه في تونس حيث ولد في مستهل شهر رمضان الابرك سنة 732 هـ في دار كانت تسكنها أسرته التي هاجرت من الاندلس إلى إفريقية ، وهي من أشهر البيوتات الاندلسية إذ ذاك .

وقد عرف عن والده أنه قضى حياته في الصلاة والقنوت والاعتكاف والدرس والتحصيل

صحن صومعة القرويين بفاس .
(كليشه بوعمري).



والتجرد للعلم ، وعن جدّه أنه خاب في تطلعه إلى الحكم وفشل في محاولته الاستيلاء عليه .

تلقى الفتى عبد الرحمان تربيته الاولى وتمرس على العلوم والفنون الاساسية . فبعد أن استظهر القرآن الكريم ، درس علوم الحديث وأصول الدين والفقه على المذهب المالكي ، ثم تعلم اللغة والنحو والأدب والشعر وأجازه مشاهير علماء تونس بالاجازة العامة والخاصة . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن عددا من فطاحل شيوخ العلم كانوا موجودين في موكب أبي الحسن عند محاولته إرساء الحكم المريني بافريقية سنة 748 هـ ، فجلس إليهم ابن خلدون للاستفادة والدرس ، والتحصيل من أمثال محمد بن علي بن سليمان السطّي ، وابن عبد الله عمر بن ابراهيم الآبلي الذي تأثر به ابن خلدون أيما تأثر وأعجب به أيما إعجاب . فمن كلام ابن خلدون في كتابه **اللّباب** أن الآبلي هذا « **ألقت العلوم زمامها بيده ، وملّكته ما ضاهى به كثيرا ممن قبله، وقل أن يكون لأحد من بعده** ».

كما وصفه في كتابه **التعريف** بأنه شيخ العلوم العقلية ، وكان يعلم هذه العلوم ويبثها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها ، كما درس ابن خلدون على أساتذة آخرين غير هذين من أمثال أبي القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان وأبي محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي صاحب القلم الاعلى بفاس ولقد جرف الطاعون الذي اجتاح المغرب أفراد أسرة ابن خلدون وعددا من أساتذته ، الشيء الذي كان له أكبر الاثر في نفسه .

عاش ابن خلدون في تلك الحقبة من محاولة أبي الحسن المريني وفشله في إعادة صرح بناء المغرب الكبير كما سبق أن كان في عهد الدولة الموحّدية . ولكن المغرب والاندلس انقسما للاسف إلى أربع دول مستقلة بذاتها فقامت دولة بني نصر في غرناطة ، واستتب الامر لدولة بني مرين في المغرب الاقصى فأقاموا عاصمة ملكهم بفاس ، وانتظم الامر لدولة بني عبد الواد بتلمسان في المغرب الأوسط وتولى الحفصيون الامر في تونس .

كان ابن خلدون وهو فتى معجبا بدولة بني مرين فلم يتأخر في اللحاق بفاس لخدمتهم . ولا شك أنه كان يعتبر بني مرين هم أحق من غيرهم من الممالك المغربية الأخرى على التربع على عرش الموحدين الشاغر واستخلافهم في ملكهم وعظمتهم .

ولكن مدينة فاس كانت تجلبه إليها على الخصوص بفضل إشعاعها العلمي والحضاري أكثر من أي شيء آخر ، لا سيماوأنها كانت محفل كبار علماء الغرب الاسلامي ومن بينهم أولائك العلماء الذي أسعده الحظ بتلقي دروسهم حين وفدوا على تونس . وعندما وصل إلى فاس للاستقرار بها ، أتيح له أن يكشف بحصافة رأيه البعد التاريخي والدنيوي لعصره الذي كان على رجل علم وعقل مثله أن يكتشفه ويستقصيه .

لقد كان ذلك العصر عصر أزمات واضطرابات ، فقد شهد حوض الابيض المتوسط

كانت مدينة فاس تجلب إليها الناس بتفوقها العلمي وشهرتها الفائقة وإشعاعها .
(مدرسة العطارين - كليشه معنية).

منذ بداية القرن حالة من التدهور نتيجة تكاثر السكان والانهيار الاقتصادي ، وطبعته المواجهات الاجتماعية والسياسية وأثّرت فيه وحوّلت مجراه وتوالت الحروب والأوبئة هناك وجسّدت صورة مخزية للحضارة البشرية .

وإزاء هذا الوضع المزري في الغرب الاسلامي ، شهد الشرق نهاية الخلافة الاسلامية منذ اكتسح المغول بغداد في القرن السالف ، فاجتاحوا المراكز الحضارية وحطموا معالمها ليحلوا محلها قانون الرعاة وسنتهم البدوية . أما في الجنوب الكبير ، الذي اكتسحته قبائل العرب الأعراب ، فقد عمت فيه الفوضى وتضعضعت أركان الحكم المركزي بسبب ماجنت يدها البدوية من ويلات وتحطيم وفتك وتهديم .

وكان على ابن خلدون ، ذلك الفتى الذي تميز بموهبته الوقادة وسعة فكره وأفقه ، أن يدلو بدلوه هو أيضا لتثبيت دعائم الحكم المركزي عند

ابن خلدون

الحفصيين بتونس ثم عند بني مرين بفاس . وأثناء أكبر قسم من حياته السياسة التي قضاها بفاس بعد تونس وضع نفسه في خدمة بني نصر ملوك غرناطة ، حيث تعرف على ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب وربط معه صداقة متينة وصلات مستمرة ثمينة رغم ما يكون قد اعتراها في بعض الأحيان من وهن أو قطيعة بسبب ما يكون قد جرى بينهما من وشايات . وضع لقبه في خدمة بني عبد الواد بتلمسان ، وفي نفس الوقت ربط اتصالات وثيقة مع قبائل البدو العرب المناوئة للحكم المركزي المعادية لكل نظام .

تقلب ابن خلدون في مراكز الحكم والسلطان فتقلد الكتابة والتوقيع والحجابة وبعثته الدولة في مهام دبلوماسية إلى الخارج ، وانتصب للتدريس والقضاء ، وألف وكتب في شتى فنون العلم والأدب ، وعرف بحكم مناصبه المتعاقبة المجد والشهرة ، واستفاد من الحكم والتقرب من البلاط المريني . كما عانى من الخيبة والسخط عليه وابتلي بالسجن والنفي والتشريد وذاق مرارة الأغتراب . وفي آخر أيامه ارتحل إلى القاهرة مهاجرا إليها ، هاربا بنفسه للحفاظ على القيم التي تربى في أحضانها وعمل من أجلها طيلة حياته وخصوصا العدل الذي هو في نظره أساس كل عمران ، كما أنه عمل ، وهو في المغرب يتقلد المناصب العليا ، على تحقيق فكرته ورأيه في الحكم والسلطان كرجل سياسة ورجل دولة مع استخلاص الدرس من كون السلطان نفسه إنما هو ظل زائل وبرق وسراب مهما بلغت درجات نفوذه .

وبما أن الصدفة سنحت له ليلتقي برجل من أصناف لسان الدين بن الخطيب ، فقد هيأته لملاقاة الملوك والرؤساء من أمثال تيمور ملك قشتالة ولاون .

ويمكن تصور ابن خلدون ، في عزلته ونفيه وابتعاده عن الحكم بسبب فشل مني به في سياسته أو بسبب آخر غيره ، يحاول استخراج العبرة في تجربته السياسية من الأوضاع التي سادت هذا الجزء من العالم الاسلامي والكشف عن صورة الانسان وحقيقته ومصيره الغامض المجهول الذي لاتمسك له حقيقة ثابتة إلا كما يمسك الماء بين الأصابع .

وهكذا خلف للأجيال اللاحقة من بعده عملا عظيما شامخا يتمثل في تأليفه الضخم « **كتاب العبر** » وخصوصا في مقدمته الرائعة الذائعة الصيت .

لقد عرف كتاب العبر شهرة واسعة في الغرب ، وهاهو الآن يعرف شهرة جديدة في العالم العربي خصوصا بعد إعادة قراءته من العلماء الغربيين .

على أن قيمة ابن خلدون وقيمة عمله تكمن في كونه وجد نفسه ملقى في مواجهة



التاريخ والسياسة عمليا ونظريا (راجع عبد السلام الشدادي الذي ترجم له أخيرا كتاب بعنوان التعريف بابن خلدون – مؤلف هذا الكتاب يعني العبر – ورحلته شرقا وغربا). فقد ألقى ابن خلدون بنفسه في خضم التاريخ في مفهومه ومضمونه ، في جوهره وحرفه ، في مبتدئه وخبره . وهكذا قدم لنا هذا الرجل الفذ – رجل العلم والعمل ، ورجل المعرفة والسياسة – نظريتين إيجابيتين من خلال كتابته ، وليس سوى علم التاريخ يكون قادرا على تسلية وسحر هذا الرجل المتضلع في الفقه الاسلامي .



كرسي كان يتبوأه العالم لتلقين دروسه في جامعة القرويين . (كليشه مغنية).

كتاب العبر

كان على هذا الفقيه العالم والشيخ الجليل أن يتخلص للتاريخ ويتجرد للبحث التاريخي جاعلا همه الأساسي في تحليل أحداث العصر بكل استبصار ، والوقوف عند البعد اللازم بالنسبة للحياة السياسية عندما يخلو لنفسه متأملا مفكرا ، واقفا وقته وصارفا همته لدراسة الأحداث التاريخية والسياسية بما يلزم من إمعان وتدبير ، وبيان أسبابها ومسبباتها ومصادرها ومواردها ، ومحاولة استنباط نوع من المنطق المتصل بتكوين هذا الواقع السياسي الاساسي وهذا النظام الذي تعبر عنه الدولة ، ودراسة سلطة هذه الدولة ومختلف بناياتها والمعطيات الرئيسية لنشأتها ونموها وتأخرها وانقراضها ، سواء كان ذلك في المغرب الكبير بلده الأصلي أو في المشرق البعيد حيث فضل أن يعيش آخر أيامه ويقضي بقية حياته المليئة بالتجارب والأحداث .

وهكذا نرى كتاب **العبر** يسير على نسق ذي ثلاث حركات أساسية :

– الحركة المنعكسة في المقدمة والتي تعالج العمران والانسان وعلاقات أحدهما بالآخر ،

– والحركة المنجلية في تاريخ العرب والعجم في مبتدئهم وخبرهم ،

– والحركة البارزة في تاريخ الشمال الافريقي والدول البربرية التي تعاقبت عليه .

ولقد عالجت **المقدمة** عمل المؤلف من أساسه : أعني كتابة التاريخ :

وهكذا كان المنهج الأول الذي سار عليه تفكير ابن خلدون هو إقامة قاعدة منهجية لمعالجة التاريخ قصد تحديد منطق ممكن للواقع التاريخي يتلخص في دراسة هذا الواقع حسبما تهيأ له أن يتكون ويتطور في تسلسله المحتوم .

إن طموح هذا المؤرخ العبقري يتجلى في إبراز معقولية أكبر لما يقدمه هذا الواقع التاريخي ليس فقط من غرابة وطرافة ، بل لما يفرضه من علاقة متماسكة وشمولية في أمر تطوره :

وهكذا ، وبالنسبة للمدارس السائدة آنذاك في علم التاريخ (عند الطبري والمسعودي مثلا) نرى ابن خلدون يقدم لنا نموذجا علميا أصيلا قائما – زيادة على ذلك – على إدراك أكثر ما يمكن من الدقة لنقد المصادر ، ومرتكزا أكثر ما يكون الارتكاز على تحليل تماسك الأحداث والواقع وتسلسلها تحليلا متبصرا .

وبفضل هذه المنهجية وهذا التوجيه المنهجي القائم على الفحص العلمي والعقلي شاهدنا ميلاد تطور جديد للتاريخ بقيادة وتحت تأثير العلامة ابن خلدون الذي كان عليه أن ينصرف بكليته إلى تحقيق هدف معين، ألا وهو التعريف بالعمران البشري أو بما يمكن أن يترجم في لغة عصرنا بحالة الانسان الاجتماعية أو بعبارة أخرى بالحضارة الانسانية، مما يجعلنا ندرك إدراكا مدى عقلية هذا الانسان الموهوب وعمله الجليل.

يقول ابن خلدون في مقدمته: **« أعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال ...»**

وإذا كان ابن خلدون في هذا المفهوم بقي حبيسا تكوينه المدرسي والفقهي (والفقه هو معرفة القوانين المنظمة لمجموع مظاهر الحياة الفردية والعامة وكذا مجموع المعاملات) فإن فضل هذا التصور الشمولي للواقع التاريخي يكمن في فتح باب الاجتهاد على مصراعيه على الواقع الملموس، وليس حصره في التفكير على النطاق الفكري المحض.

وهكذا يظهر من خلال التفكير الخلدوني أن صاحبه يقدم إلينا الواقع البشري في بعده الاجتماعي والتاريخي المتأصل فيه ولا يقتصر على التوجيه المدرسي.

إن الحادث التاريخي بصفته حدثا سياسيا بمعنى الواسع، أي بصفته حدثا اجتماعيا، يهم المعطيات الملموسة لحياة الجماعة انطلاقا من المعطيات الخاصة لمناخ الأرض وصورتها، ومرورا بمعطيات المجال الحيوي أو المعيشي التي تلتجىء لأصناف الجغرافية الانسانية، والمتصلة بتزايد السكان، والاقتصاد السياسي، وانتهاء بمعطيات الأخلاق والعادات أو ما يتعلق منها بالتنظيمات الاجتماعية أو الحركة الاجتماعية أو غيرها مما يهم صناعة السياسية وعلم الاجتماع وتحليل البنيات التنظيمية.

لقد هيأت العبقرية الخلدونية داخل البحث التاريخي علما مرتبطا به لا نعلم أن أي مؤرخ سبق أن عالجه قبله: ألا وهو علم العمران. ولكن النقطة المركزية للمشكل الخلدوني تمحورت بالخصوص حول هذا الواقع التاريخي المتشعب الذي يعني ميلاد الدولة ونشوءها في الشكل الذي قامت عليه إذ ذاك، والمراحل الأساسية لتطورها ومختلف أعمارها، والتسلسل الذي سار عليه نضوجها أو تدهورها.

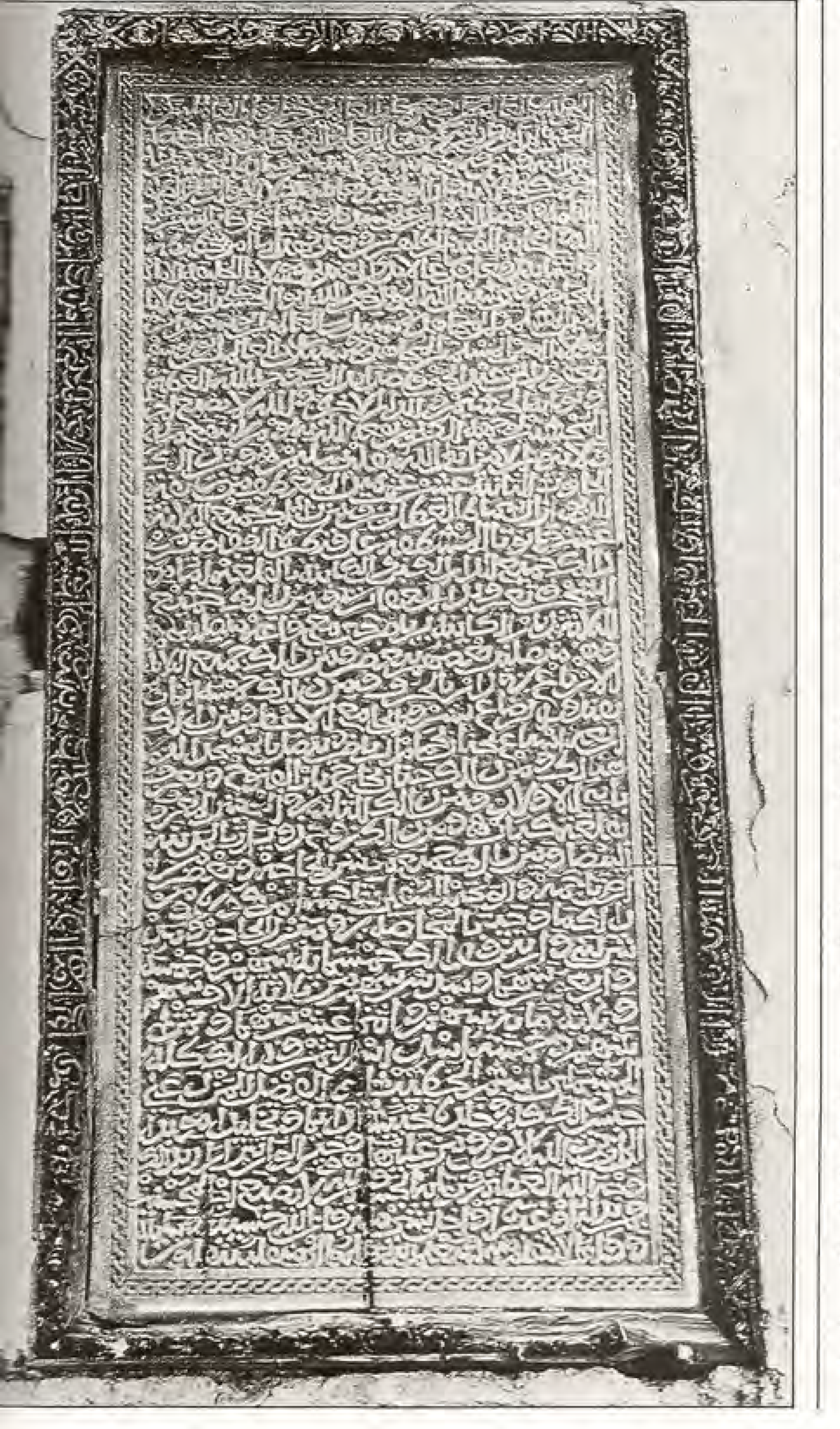
إن هذا العمل التمهيدي المنجز عن طريق استعمال علم تشكيلي اجتماعي تنظيمي نجد ابن خلدون يتصوره تصورا مطابقا لمنهجية جدلية أكثر مما يتصوره من حيث البنية أو المزامنة. ويمكن أن نرى هذا العمل كمعالجة حازمة تهم على الخصوص بالعنصر التصوري للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية والسياسية، في آن واحد.

يقول ابن خلدون في مقدمته إن من أخطر الهفوات والأخطاء في كتابة التاريخ إهمال التغيرات الطارئة على الأمم والأجيال على مر الأيام. كما يؤكد أن أحوال الأمم وعاداتها وتقاليدها لاتستقر على حال ولا تتبع خطا مستقيما، بل إنما تكون

مخطوط مصوّر من مقدمة ابن خلدون. مقدمة كتاب **العبر**. (الخزانة الحسنية).



فصل في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة



سلسلة من التغيرات المستمرة على مر الزمان وتستحيل من حال إلى حال .

نوع المعالجة السوسيولوجية أو الاجتماعية

يمكن لنا أن نستعرض ثلاث نقط أساسية لتلخيص المعطيات التي قام عليها إسهام ابن خلدون التاريخي .

1- من الناحية المنهجية ودراسة العلوم تحرير قاعدة نظرية عملية ونقدية معا تصنف التاريخ كعلم من العلوم .

2- من ناحية إبراز قواعد البحث والاكتشاف : تطوير البحث في موضوع الدولة كنظام أساسي ، وهكذا ترتبط السلطة وتظمها المختلفة بكيفية ازدواجية بالتاريخ والسياسة .

3- فتح في التاريخ على الأفق العلمي للعمل السياسي في مداه الواسع : العمران ونوع خاص من الصناعات يعالج هذا العمران ويمكن أن نطلق عليه اسم علم العمران .

إن هذه المستويات الثلاثة لمعالجة شؤون التاريخ تجعل من صناعة هذا الفن عند ابن خلدون حقلا متقدما للعلوم السياسية من حيث الأخلاق وفي نفس الوقت مكانا ممتازا لاقامة هذا النوع من العلوم الذي يسمى علم العمران .

وهكذا نرى ابن خلدون يطور علما حقيقيا للاجتماع السياسي في البحث عن العناصر « الديناميكية » الأكثر حيوية والتي يمكن قدرتها أن تنشأ وتتسع ؛ ويمكن هذا العلم أيضا أن ينكب على اكتشاف الاتجاهات الأساسية الصادرة عن العلل التي يعاني منها الحكم السياسي ويتدهور ثم ينقرض وينتهي بسببها .

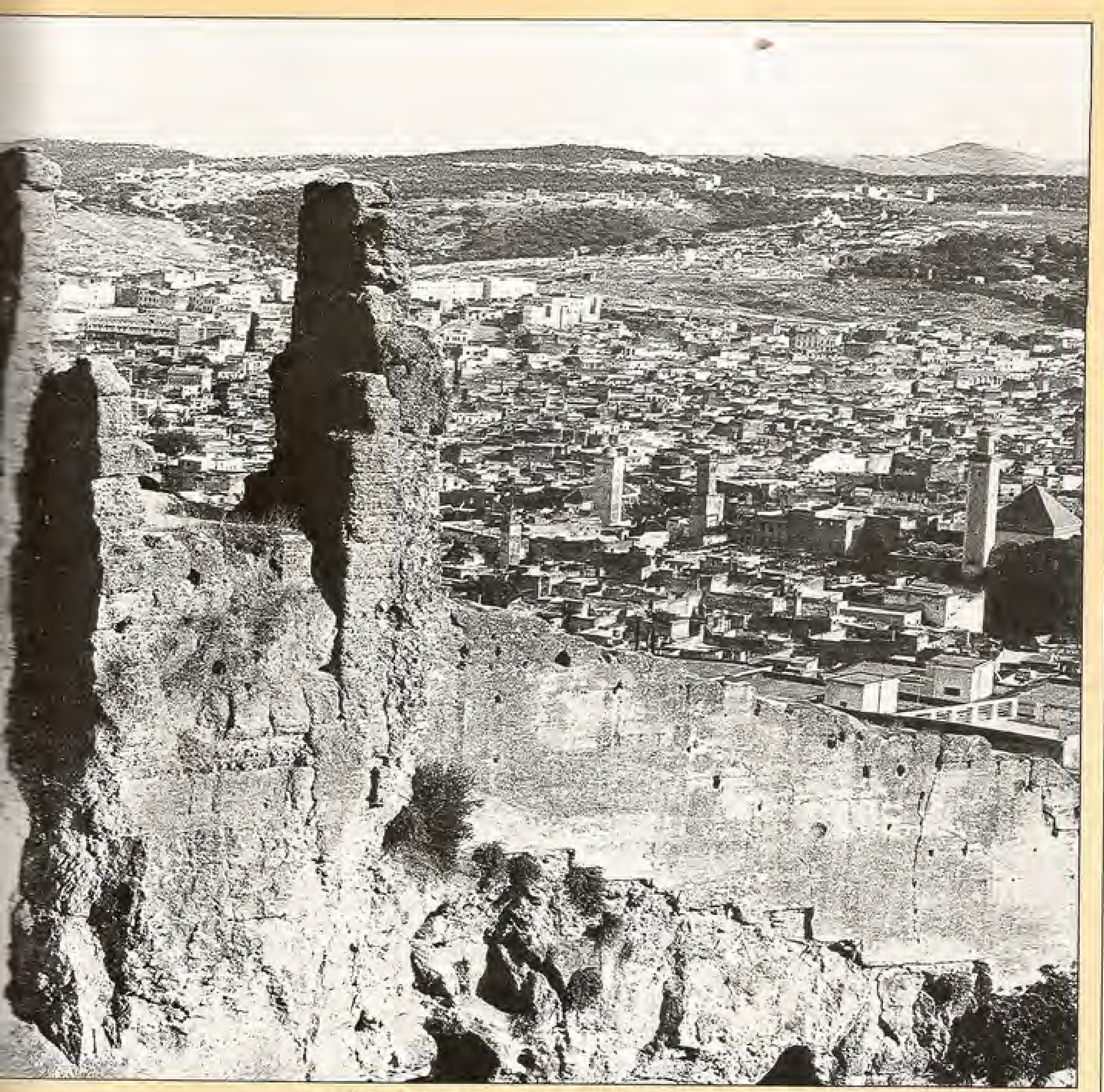
نصب تذكاري للمدرسة المصباحية ، مصنوع من الرخام وينص على أن أبا الحسن المريني هو منشيء هذه المدرسة .
(كليشه أودول) .

ابن خلدون ينتصب للقضاء بالقاهرة

ولما عزل هذا القاضي المالكي سنة 786، اختصني السلطان بهذه الولاية تأهيلا لمكاني، وتنويها بذكري، وشافهته بالتفادي من ذلك، فأبى إلا إمضاءه، وخلع على اسمي إيوانه، وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية، فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يزعني عند جاه ولا سطوة، مسويا في ذلك بين الخصمين، آخذا بحق الضعيف من الحكمين، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحا إلى التثبت في سماع البينات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات، فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر، والطيب ملتبسا بالخبيث والحكام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة، فإن غالبهم مختلطون بالامراء، معلمين للقرآن وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنون لهم الخير، ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاة، والتوسل لهم، فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم، ووقفت على بعضها فعاتبت فيه بموجع العقاب، ومؤلم النكال، وتأدى إلي العلم بالجرح في طائفة منهم، فمنعتهم من تحمل الشهادة، وكان منهم كتاب لدواوين القضاة، والتوقيع في مجالسهم، قد دربوا على إملاء الدعاوى وتسجيل الحكومات، واستخدموا الامراء فيما يعرض لهم من العقود، بأحكام كتابتها وتوثيق شروطها، فصار لهم بذلك شفوف على أهل طبقتهم، وتمويه على القضاة بجاههم، يدرعون به مما يتوقعونه من عتبهم، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم، وقد يسلط بعض منهم قلمه على العقود المحكمة، فيوجد السبيل إلى حلها بوجه فقهي أو كتابي، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاه أو منحة، وخصوصا في الاوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر، بكثرة غوالمه، فأصبحت خافية الشهرة، مجهولة الاعيان، عرضة للبطلان، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكام بالبلد، فمن اختار فيها بيعا أو تمليكا، شارطوه وأجابوه، مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا دونه سد الحظر والمنع حماية من التلاعب، وفشا في ذلك الضرر في الاوقاف، وطرق الغرر في العقود والاملاك، فعاملت الله في حسم ذلك بما آسفهم علي وأحقدهم، ثم التفت إلى الفتيا في المذهب...

فكثر الشعب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابي بالاهل والولد، وصاروا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج من المنصب.

ابن خلدون : التعريف



مشهد لمدينة فاس من مقبرة المرينيين ، تظهر القرويين في الوسط . (كليشة أودول)

جبايتها بينهم على تفاضل البأس والرجولة والكثرة في العصابة أو القلة ، وهم على حالهم من الخشونة لمعاناة البأس والاقلال من العيش لاستصحاب حال البداوة وعدم الثروة من قبل . ثم تنمو الثروة فيهم بنمو الجباية التي ملكوها ، ويرين حب الشهوات للاقتدار عليها ، فيعظم الترف في الملابس والمطاعم والمساكن والمراكب والممالك وسائر الأحوال ، ويتزايد شيئا فشيئا بتزايد النعم ، وتتسع الأحوال أوسع ما تكون . ويقصر الدخل عن الخرج ، وتضيق الجباية عن أرزاق ... وأحوالهم ، ويحصل ذلك لكل أحد من تحت أيديهم لأن الناس تبع لملوكه ودولتهم ، ويراجع كل واحد ... فيما هو فيه من ذلك فيرجع وراءه ويطلب كفاء ...



من دخله . ثم أن البأس يقل من أهل الدولة بما ذهب عنهم من الخشونة ، وما صاروا إليه من رقة الحاشية والنعم ، فيتطاول من بقي من رؤساء . الدولة الى الاستبداد بها غيرة عليها من الخلل الواقع بها ويستعد لذلك بما بقي له من الخشونة ويحملهم على الاقلاع على الترف . ويستأنف لذلك العصابة بعشيرة أو بمن يدعوه لذلك ، فيستولي على الدولة ، ويأخذ في دوائها من الخلل الواقع ، وهو أحق الناس به وأقربهم إليه ، فيصير الملك له وفي عشيرته ، وتصير كأنها دولة أخرى تمر عليها الأوقات ، ويقع فيها ما وقع في الأولى ، فيستولي آخر منهم كذلك إلى أن تنقرض الدولة بأسرها ، وتخرج من القوم الأولين أجمع ، وتأتي دولة أخرى مباينة لعصابة حيلاء في النسب أو الولاء ، سنة الله في عباده ... »

إنها صفحة في علم الاجتماع السياسي مليئة بالعمق والاستبصار ، إنها صفحة من علم الظواهر تتجلى فيها قوة التحام تسلسل « الديناميكية » الاجتماعية في صورة عضوية حية .

فجميع أبعاد حياة الجماعة مشار إليها هنا ، وكلها مرتبة وقائمة البنية ابتداء من مركز الثقل : هيئة الدولة ومؤسسات السلطة ، ومصير هذه الهيئة ومصيرها يكمن في قوة الالتحام الجماعي أو ما يسميه ابن خلدون بالعصبية التي تحوي البأس والقوة والغلبة والمنعة في صاحبها والتي يستحوذ أصحابها على الأعمال التي كانت بأيدي الدولة الأولى . ويشير ابن خلدون في هذا الصدد إلى أن التدهور يطغى على الدولة بسبب من السادة الجدد الذين يتهيأون بفعل العصبية للاستيلاء على مقاليد الحكم . وبضعف هذه العصبية يجري الانحلال في جسم المستحوذين على السلطة فيحمل في طياته بذور هدم الحضارة المشيدة ونهاية الدولة القائمة .

فالجماعة إذن تمر من طريقة عمران إلى طريقة عمران أخرى عن طريق العصبية .

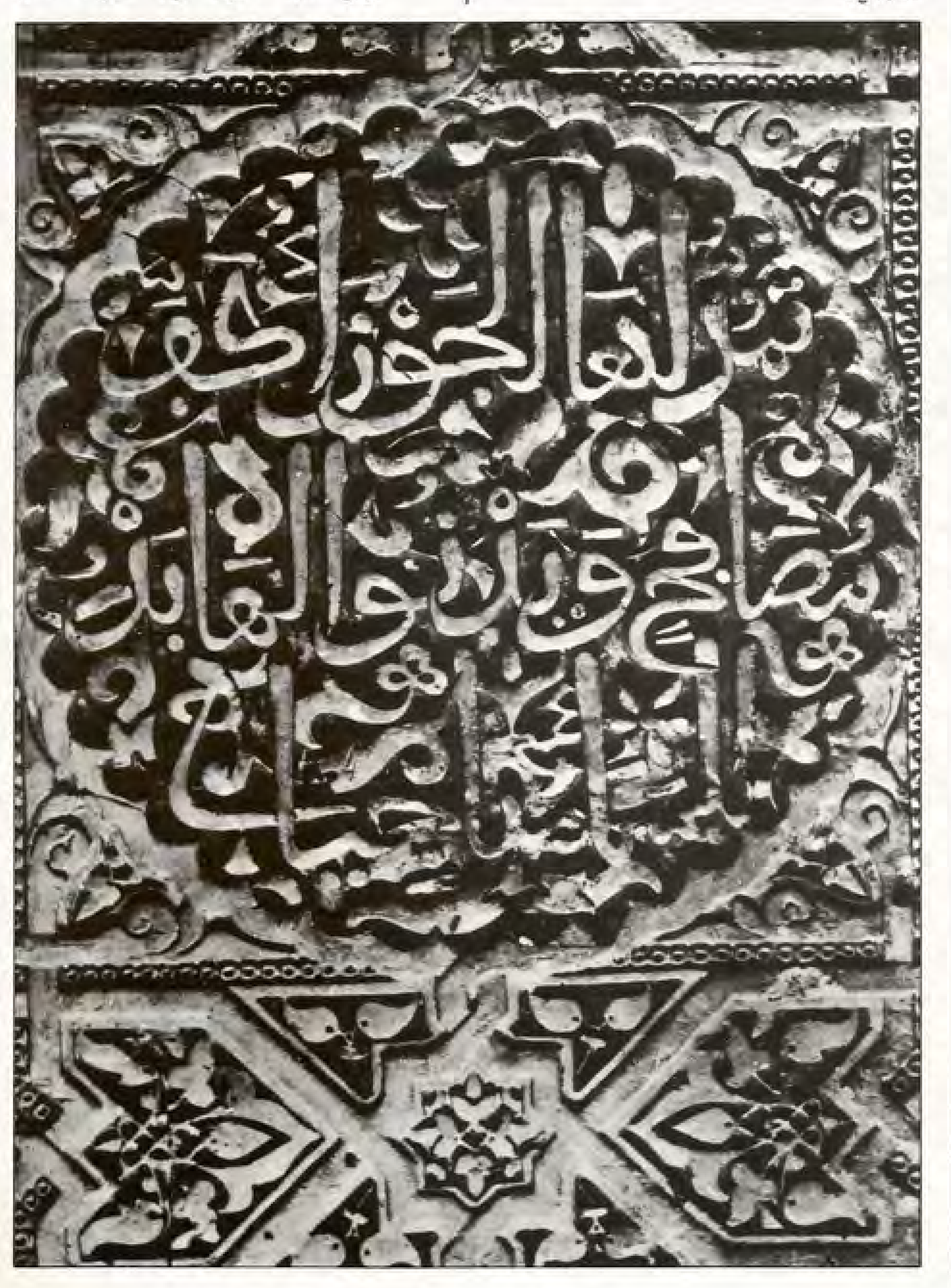
... مدرسة الصهريج بفاس من جملة ما كتب عليه أن أبا ... الحسن الأكحل هو باني هذه المدرسة لفائدة طلاب العلم ...

فمن جهة ، نشاهد العمران البدوي وما يناسب طريقة الحياة البدوية التي تمتاز على الخصوص باستيلاء النظام القبلي على مستوى المجتمع ، وطريقة العيش هذه توجد بصفة عامة

نقش بقصر الحمراء بغرناطة يحوي بيتا من شعر ابن زمرك جاء فيه تمدّها الجوزاء كفّ مصافح . ويدنوها بدر السما بالتراحب . ابن زمرك هذا شاعر ووزير تولّى منصب ابن الخطيب بعد أن ساهم في قتله بفاس .

بضواحي المراكز المزدهرة للحضارة كتونس وتلمسان وفاس وغرناطة . وهي أيضا في أغلب الأحيان على الهامش بالنسبة للتنظيمات المركزية التي كثيرا ما تعجز عن السيطرة على التطور الاجتماعي والقضائي ، وبذلك تفقد في آخر عمرها كل مراقبة على هذه الضواحي .

ومن جهة أخرى فإن الطريقة الثانية





صومعة القرويين بفاس .
(كليشه مغنية).

« صاحبك في الصنعة عدوك »

« ثم لم يلبث الاعداء وأهل السعايات أن خبلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان (ابن الاحمر) واشتماله علي ، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر ، وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة وتحكمه في سائر أحوالها ، وجاءتني كتب السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية . بأنه استولى عليها في رمضان خمس وستين ، واستدعاني إليه ، فاستأذنت السلطان ابن الاحمر في الارتحال إليه ، وعميت عليه شان ابن الخطيب إبقاء لمودته ، فارتمض لذلك ولم يسعه سوى الاسعاف فرود ورود . وكتب لي مرسوم بالتشييع من املاء الوزير ابن الخطيب... ».

التعريف لابن خلدون

للعمران ، العمران الحضري . المتميز بنوع من الاستقرار .

وبهذين النموذجين من الحياة الاجتماعية نحصل على القطبين اللذين يدور حولها المجتمع الخلدوني واللذين يربط كل منهما بتصور أساسي خاص به للجغرافيا الاجتماعية عند ابن خلدون .

ويشكل المرور من النموذج الأول إلى الثاني أهم المعطيات التي تميز التغير الذي يطرأ على الحياة والعلاقات البشرية : فهذا التحول أو المرور من حال إلى حال يدخل تغييرا عميقا في الحياة الاقتصادية وفي أوجه النشاط الخاص بعيش الانسان من مطعم ومشرب وملبس . وتبرز طريقة هذه النشاطات البسيطة في بدايتها في صورة اقتصاد بدائي نسبيا ، ثم تتطور تدريجيا إلى اقتصاد أكثر تشعبا ونموا فتظهر نماذج جديدة للنشاط الحيوي في الحاضرة وبجانبها من الأعمال الحرفية والصناعات والفنون الجديدة ، ويوازي هذا النشاط ويسايره نظام جديد من القيم مرتبط بحياة الرغد والترف ورقة الحاشية والتنعم والتفنن في العيش ، وتنشأ أخلاق أخرى تضفي على الحياة الحضرية تلك الصورة النفسانية التي تبتعد كل البعد عن البأس والمنعة والاقدام على الحرب ومواجهة العدو .

ويظهر ابن خلدون وكأنه يشعر بمرارة قد يكون مني بها من جراء هذه الظاهرة فهو

يتحدث فيها عن فنون العيش الحضري الذي لايعمر طويلا حتى يصبح كأن لم يغن بالأمس . وتكون هذه النهاية الحتمية سريعة بقدر ما يكون ذلك العيش متميزا بالرفاه والرغد ورقة الحاشية ، وتكون ظاهرة انكسار شوكة الجماعة وانهيار تلاحمها سريعة بقدر ما تكون تلك الرفاهية رقيقة الحاشية .

وهكذا نرى ابن خلدون يصل إلى استنباط نموذج من التحليل استنباطا متقنا ، ولا غرابة في ذلك فقد كان سريع الانتباه لمختلف مظاهر التغير التي تطرأ على العمران . لقد كان داهية في تفكيره وملاحظاته وتحليلاته للمعارضات والمواجهات والتمزقات ، التي طبعت الحياة السياسية التي خاض هو نفسه غمارها ، وكان يشعر شعورا عميقا بتلك التناقضات العنيفة التي كانت تغذي الحدث التاريخي ولحمته المأساتية في عصره .

وإذا كان من شأن نموذج العمران أن يتطور من حياة البداوة عند الرحل والرعاة إلى حياة الحضر عند سكان المدن والقرى ، فإن من شأنه أيضا أن يتطور في الخط المعاكس : وهكذا يمكن الأحداث المسايرة لهذه التغيرات أن تسير حتمية مع خطوط التطور العام . وتتحقق هذه الظاهرة أساسا حسب قوة العصبية وتأثير نفوذها .

إن هذا النموذج من التحليل ، الذي أثار شتى التعاليق والشروح بفضل ما استند عليه من الأبحاث المحض ومن دقيق الملاحظة الواقعية وواسع التجربة السياسية التي توفرت لدى ابن خلدون ، يقرب في نظرنا إلى مذهب الحيوية منه إلى مذهب المادية التاريخية .

إن العصبية قد تكون صادرة عن الاندفاع الحيوي أو عن حب السيطرة كما هو في مفهوم برغسون أو نيتشه ، مثلا ، أكثر مما تكون صادرة عن صراع الطبقات كما هو في المفهوم الماركسي .

إن التصور الخلدوني لايندرج بيسر في أنماط الفكر الغربي ، بل يمكن بالعكس أن نتصور جميع ما يتعلق بهذا المفهوم من روابط ومعان تذكر به بالرجوع إلى مصدر ثقافي خاص ألا وهو عصر الجاهلية وكذا النظام القبلي الذي كان يسود قبل مجيء الأسلام ، مع ما له من قيم خاصة به . فهذا النظام هو المرجع من حيث المعنى المعطي لمفهوم العصبية . ولهذا التعبير في مفهومه صلات متشعبة تعبر عن قوة تلاحم الغيرة وكذا عن عاطفة التضامن التي تجمع ليس أفراد سلالة واحدة ، هذه العاطفة القائمة على روابط الدم والعرق والتي تحمل معها نظاما مكتملا من القيم : بحيث نرى مثلا أن الشرف الأصيل يلتحم في نفس الشعور بالا نتماء لنفس السلالة ، مع روح الفروسية ، كما هو الامر عند عنترة بن شداد العبسي ، وأن روح الكرم يتجلى في النموذج الحاتمي ، وأن روح الغزل والتسبب والبكاء على الحبيب يتجلى في شخص امرىء القيس .

هذه هي منظومة القيم التي أشاد بها الشعر الجاهلي ومجد فضائلها وتغنى بمحاسنها . ففي هذا السياق وفي هذا المضمار تتجلى العصبية في الغيرة ، في الحمية التي تحرك القبيلة والعشيرة في تصرفاتها وأعمالها .

إن ابن خلدون يحلل هذا الموضوع وكأنه يقوم بتحليل « أركيولوجي » (أثري) وذلك بإعادة أيام العرب وغزواتها وحروبها في الجاهلية ، وكذلك المواجهات العنيفة من أجل الخلافة ، في

جانب من مدرسة العطارين بفاس . نقوش لآيات قرآنية .
(كليشه مغنية) .



إطار الجو الثقافي والاجتماعي التاريخي الذي يطبع « الانتروبولوجيا » السياسية العربية .

اما الشذوذ الذي يؤكد القاعدة فهو نظام النبي الذي نزل به الوحي ، ولكن سرعان ما أعادت قضية السيطرة على الحكم – بعد موت الرسول ﷺ – وكذا المنازعات والخلافات من أجل الخلافة ، المجتمع الاسلامي إلى جذوره المتأصلة فيه وإلى حتمية عصبيته ، سواء كان ذلك في الشرق مع بني أمية وبني العباس ومن أتى بعدهم من الدول ، أو في الغرب الاسلامي منذ الادارسة مع المرابطين والموحدين ومن أتى بعدهم من الدول .

يمكن أن نلاحظ من هذا المنظار مدى أثر العصبية على التغيرات الطارئة على الدولة وكذا فائدة وضرورة دراسة علم الانساب .

أما بخصوص الاهتمام الذي أولاه ابن خلدون لدراسة هذا العلم فانه أولاه إياه على ما يظهر على حساب المنهجية المخططة في **المقدمة** ، ولقد يلوح لأول وهلة أن صاحب المقدمة لم يكن موفقا في منطقه كل التوفيق بخصوص كتابته التاريخية ، فقد يعيب عليه البعض أنه لم يستطع تحقيق مشروعه المنهجي الخاص وهو يحرر تاريخ البشر في كتابه **العبر** على الطريقة الجاري بها العمل في عصره . ونحن نعتقد أن هذا الرأي حيف في حق المؤلف وحق العلاقة التي كانت له مع عصره وفي حق نظريته التاريخية عن مفهوم العصبية ، ذلك أن الطريقة الجاري بها العمل إذ ذاك للكتابة التاريخية كانت تؤكد كما عند المسعودي وابن إسحاق والواقدي والطبري على المعطيات السلالية ، ولكن دون أن تعتبرها من منظار نظرية العصبية كما تعمق ابن خلدون في شرحها وتشريحها .

إن الاتجاه الذي كان يكتفي بسرد الاعمال المجيدة للملوك والسلاطين وبالتذكير بأيامهم وبأهم الأحداث الواقعة في عهدهم لم يكن ليهتم بانتاج طريقة أساسية للتحليل كما اهتم ابن خلدون بذلك حين قدم مقدمته إلى جيله .

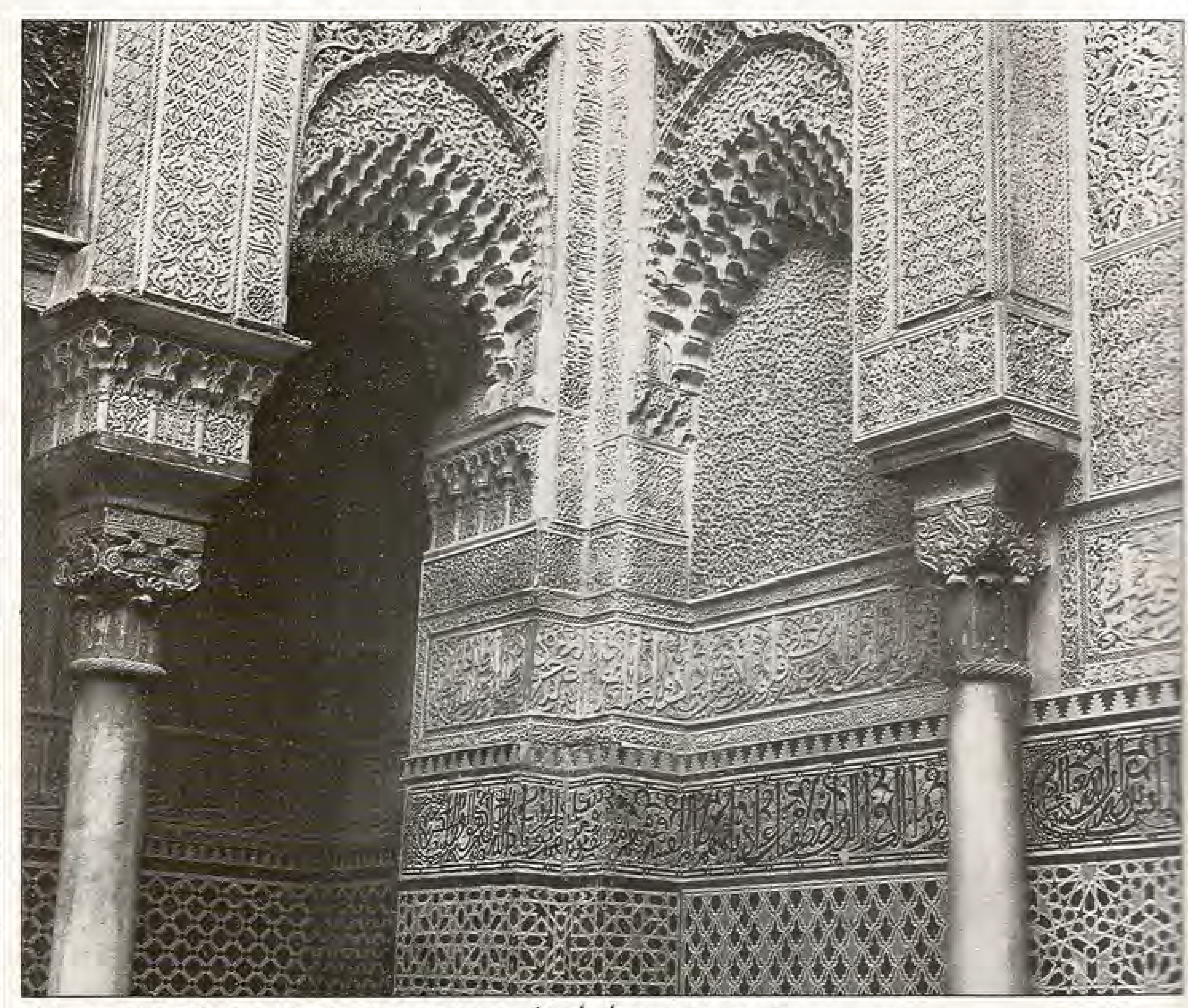
ما قبل وما بعد التاريخية : تاريخانيه أم تاريخ يعيد نفسه ؟

لقد قام ابن خلدون بمجهود جبار وبعمل معمق في تفكيره التاريخي ليقدم لنا ذلك النموذج الذي بنى عليه صرح تحليله . فالدولة القائمة على العصبية العرفية تكون محور هذا النموذج . ...

صحن مدرسة الصفارين .
(كليشه مغنية).



ابن خلدون



مدرسة العطارين بفاس .
مشهد من الفن الزخرفي الرائع الذي يشهد على براعة أهل المغرب في نحت الخشب . وعلى ذوقهم الرفيع .
(كليشه بوعمري).

سرد ابن خلدون للوقائع والأحداث يحكي قصة ميلاد وتكوين الدولة القائمة على العصبية العرقية طبقا لتحليل حركة البنية العرقية . ولتكون هذه الحكاية عمليا ظواهرية فإنها تبني التسلسل التنظيمي لتطور الدولة طبقا لحيوية العصبيات المتواجدة ، أي أنها تحكي قصة القتال القائم بلا جدال بين سادة ممكنين غدا وعبيد ممكنين غدا ، مما يؤدي إلى فكرة ظواهرية المؤسسات وسرد وقائع ميلاد وتكوين الدولة السلالية والعرقية .

ويمكن أيضا أن نعتبر أن هذا السياق الذي يطبع تكوين بنيات الدولة هذه يقتضي نوعا من مجاراة المادية الماركسية من حيث أن ميلاد وتكوين هذه الدولة ناتج عن حركة البنيات التحتية (الاجتماعية والاقتصادية) وعن نموذج العمران (حضري – بدوي) .

الواقع أن ابن خلدون ، بفضل عبقريته ، قدم لنا بنموذجه للتحليل التاريخي تصورا خالصا للغاية للوضع التاريخي الخاص الذي عاشه وتقلب في أضعافه.

إن التاريخية التي يمكن أن نكتشفها في هذا النوع من النموذج لاتدخل في إطار تطور يتبع خطا مستقيما معينا ، بل يمكن أن نرى العصبية

مذكرة عن ابن خلدون مستخرجة من كتاب **الاحاطة في أخبار غرناطة** لابن الخطيب .
(خزانة العامة بالرباط . كليشه بوعمري) .

تبلغ أعلى مستواها في الضغط من خلال نظام معين من الأهوسة يمكن أن يقوي نفوذ الحكم المسيطر أو يضعفه ليدفع بنظام آخر يقوم مقامه .

والحاصل أن هناك دائما معركة قائمة بين المسيطرين على الحكم ومن تشرئب أعناقهم نحوه ويتطلعون إلى اقتلاعه منهم : مما يؤدي إلى استحالة إمكانية أي تطور في المطلق ، بل إلى استحالة نهاية ممكنة للتاريخ أو إلغاء الدولة القائمة على العصبية في إطار التفكير الخلدوني . فإذا كان لا بد للدولة من المرور عبر أعمار عديدة وإذا كانت تتحول من يد إلى يد في مستوى مراكز النفوذ والسلطة ، فإن هذا النظام على العكس من ذلك يستمر كما يستمر تاريخه .

إن المؤرخ في عمله التاريخي لايدخل في حسابه مسألة نهاية العالم وفناء الدنيا ، إذ لا نهاية عنده للتاريخ . فهناك لا محالة دولة تسير دفة سياسية أو بعبارة أخرى القرية في معناها القرآني (وكم من **قرية أهلكناها** ...) وهناك مقابل هذه الدولة جماعة تشعر بالاستلاب من طرحها وتنتظر حلول الضعف والوهن بها فتسطو عليها لتقتلع من يدها مقاليد الحكم ، وبعبارة أخرى إن هناك معركة مستمرة قائمة بين مركز (حضر) الحكم وضواحيه (بدو) ، بين الممسكين على مقاليده ومن يتطلعون إليه وينسبون شرعيته لهم بفضل انتسابهم لعصبية ما .

يظهر أن ابن خلدون – وهو لم يتجاوز الوقائع التي بلغت أحداثها إليه أوعاشها بنفسه – وصل إلى تصور شبه مداري لحركات التاريخ ، على أنه في هذه الرؤية يثبت بقدر ما ينفي حدوث تطور ممكن ، هذا التطور الذي يؤكده تحليله وفي نفسه الوقت يرفضه . فهذه الرؤية تأخذ بعين الاعتبار نوعا من الحركة التواترية ذات شكل حلزوني أكثر مما هو مداري . (أي أنها تعود إلى نقطة الابتداء لتستأنف مدارها من جديد) .

فإذا كان يظهر للمرء أحيانا أن ابن خلدون قد يعلن في رؤيته هذه « نهاية الحضارة الاسلامية نهاية لا يتطرق إليها الشك » كما قال الطالبي ، فإننا في نفس الوقت نظن أنه بالعكس من هذه الرؤية المتشائمة يدافع عن فكرة أن التاريخ – بصفته حركة مستمرة في الزمن – إن هو إلّا « حركة خلاقة أصيلة » كما جاء في مقولة للشاعر الفيلسوف الهندي محمد إقبال .

ويصعب على المرء عدم الانتباه إلى أن التصور الخلدوني للتاريخ يندرج في الاطار الثقافي الذي تكون فيه والمتمثل في التقليد الاسلامي الأصيل . ويقوم هذا التصور على قواعد الوحي (راجع سورة الروح مثلا) وعلى بدء الخليقة ومعادها . وإذا كان يظهر أنّ التاريخ الخلدوني يتجنب في مساره عمليا فكرة التدخل الالهي المباشر في شؤون البشر فإنه في نفس الوقت يؤكد بصفة قاطعة خلقا للتاريخ وإعادة مستمرة له .

إننا نعتقد أن هذا التصور ليس بالتصور المطبوع بالفلسفة الأنسية في صورتها الحرفية ، حيث أنه لايجعل الانسان بالضرورة يسيطر على تاريخ العالم أو يمتلكه في يده .

ويظهر الفكر الخلدوني واضحا في انتقاده للميتافيزيقية الأرسطوطالية ولعلم الكلام . ويلتزم هذا الموقف بالتعلق بالسنة .

لقد سبق للثورة الصوفية أن زعزعت أركان محاولات عقلانية إسلامية ممكنة في ميدان اللاهوت ووضعت حدا للمغامرة اليونانية المتمثلة في الاله الأسطوري بروميثيوس الخالق لأول حضارة إنسانية كمغامرة تاريخ إنساني مطلق . فالتاريخ في نظر الغرب قد يكون ، معا ، ما قبل وما بعد النظريات الخلدونية ، وذلك منذ هيجل وكارل ماركس . وقد يكون أكثر من قبيل ما بعد التاريخ ويكون إذ ذاك على أبناء آدم أن يعتبروا أو يرجعوا إلى سنة الله في خلقه ، وهذا ما جعل المؤرخ يستعمل المفهوم القرآني لكلمة « العبر » .

إن صورة الشخصية الخلدونية التي نالت مكانة مرموقة عند الأجيال التي جاءت بعد ابن خلدون والفلسفة التاريخية لهذا المؤرخ تطرحان أسئلة تهم مؤرخي العصر الحديث .

لقد كان أكبر شاغل شغل ابن خلدون في عزلته هو استنتاج الدرس من تجربته ومما ارتكب من أخطاء في الحكم في شبابه حين خاض غمار السياسة .

لقد كان من السهل على كثير من النقاد أن يعملوا على تشويه سمعة هذا « العميل الخطير » وهذا المتآمر الداهية والدساس الماهر إلى آخر الأوصاف التي نبزوه بها .

ألا يكون من العدل والانصاف أن نعيده – كما يرى ذلك عبد السلام الشدادي مترجم كتاب **التعريف** – إلى ذلك الظلام السائد الذي كان يخيم عليه بكثافته والذي كان ظلام كونه .

لقد لقي القاضي المغربي ابن خلدون تيموز فأعمل دهاءه الدبلوماسي ليرفض بحكمة ولباقة أن يصبح في خدمته كما تصرف من قبل ، حين كان مقيما بإشبيلية ، مع ملك قشتالة ولاون .

استأثر الله بهذا الشيخ الجليل الذي انتصب للدرس وممارسة القضاء بالقاهرة بعد مغادرته المغرب ، فتوفي بها يوم 26 رمضان من سنة 808 محاطا بالمحبة ، محفوفا بالتقدير والاجلال بفضل ما أسداه من حسنات أثناء ممارسته شؤون القضاء وما نشره من علم ومعرفة حوله أثناء مباشرته التعليم ، ولقد ساعده كتابه العبر على استيعاب تصور نظري لمدلول العبرة في علم ما وراء الطبيعة بعد أن مضى من الزمن ما يكفي على الاحداث والوقائع التي تمكنه من تحقيق هذا التصور وكأنما قطع محجة التاريخ قطعا وعبرها عبورا في جملة مداها وطلق مسافتها .

ويلوح لنا ابن خلدون اليوم وقد عرض علينا تاريخ الانسان المسلم المؤمن بمشيئة لله في خلقه تحقيقا لسعادة ابن آدم في دنياه وأخراه .

إن أصل كلمة عبر مشتقة من فعل عبر الشيء يعبره كالطريق وغيره ، فيكون بذلك

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله

• منهم الشيخ [illegible] الإمام الشهير أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه
الله كتب إليه إجازته له بما نصه الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين رسول الأميين صلى الله عليه وعلى
آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين وبعد فبعد سلام يمنح
التحية الغراء والزهر الأزهر وإعلام أن نعمة التيسير أبا الثبت الكريم والملك
الأتم ومعرف الفضل الكبير وأطلع النعيم الفقيه الفاضل المحصل الأديب العا
رف ثمر الرتبة أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الفاضل الخير المكمل أبي العبا
س أحمد ابن سيد العلماء وسليل الأولياء والصلحاء نجم العلم المفرد ومعلم
المشيخة من أهل المغرب والمشرق أبي عبد الله محمد بن مرزوق حفظه الله
على سلفه وأعاد عليه وعلينا من بركة سلفه الإجازة وهو جامع
أشتات العلوم والرواية وأنتم ممن أهلا لحمل هذه الراية والناظرين على [illegible]
الفضلاء في الاهتمام بأنواع الفضائل والعناية ولم أر وجها لمنع سؤاله
ولا خيبة مناله وإن كان مثلي ممن يعرف أمثاله فأجزته بجميع ما حملته وأرويه
وما صدر عني من نظم أو نثر وإن كان الحياء يخفيه وما أمليته من تأليف أو تصنيف
أو أمليه إجازة تامة مطلقة عامة على شروطها المعتبرة عند أشياخنا
رضوان الله عليهم الذين منهم شيخنا المعظم جدكم أبو عبد الله رحمه الله ونور
ثنائهم وعنوان كتابهم والله تعالى ينفعه بقصده ويوم جزاء الخير من عنده
ويلحقه بمراتب المصطفين الأخيار من قبله وبعده وكتب له بذلك على عجلة وسقم
يوم الأربعاء سادس عيد الفطر عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة رحمه الله عليه
كرم وسعة في النعيم • مما روي عنه في تاريخ ابن خلكان وشرح فيه شرح الحد المتقرر
• الإجازة من أيمة عن ناقلة رحمها الله وطهرها بمنه وكرمه ونفعنا به كان
ممن أخرجنا المسلمين وتركهم بالصحة الجميلة جماعة من فقهاء الشيخ
الفقيه الإمام المحدث المسند الشهيم النجيب أبو عبد الله محمد بن [illegible] محمد

ابن خلدون

شهادة إجازة من ابن خلدون لأحد تلامذته .
مأخوذة من فهرست ابراهيم بن هلال .
(خزانة العامة بالرباط ، كليشه بوعمري)

للتاريخ معنى عبوره وقطع مسافته في خطه اللامتناهي .

إن النص الخلدوني يظهر وكأنه يدعونا إلى قراءة متعددة الجوانب لفكرة العبور هذه المستوحاة من العبرة . وهذه الفكرة قد تكون نوعا من معالجة أمر التاريخ وكأن الانسان يعبر عبور طريقه المظلمة الكثيفة الظلام في أحداثها ووقائعها ، الواضحة المعالم في نفس الوقت في تلك الأحداث والوقائع ، الشيء الذي يطرح أمامنا مشكل الحادث التاريخي العويص بصفته تصورا يكتسي طابعا غيبيا تجهل أسراره ولكنه في نفس الوقت مصدر لانبعاث نور الحقائق الربانية في قلب العبد ليفتح بصره وتهيأ بصيرته لتقبل الحقائق الروحية .

(1) البيت الذي يُعتقد أنه لابن خلدون (2) بيت ابن الخطيب في الطالعة (3) المدرسة البوعنانية .
(المصالح الطوبوغرافية بالرباط) .

إن تصور هذا العبور الذي يقع في امتداد الوحي القرآني يكشف عن حقيقة الواقع التاريخي ويسبر سره المكنون ألا وهو ضعف المخلوق أمام الله الذي خلقه وسخره لمشيئته التي لا يعلمها إلا هو .

إن لعملنا هذا ، في معالجة فلسفة ابن خلدون التاريخية وآرائه وتصوراته ، حدودا متواضعة تفرضها عظمة وسعة الحقل الخلدوني وأعماقه وأبعاده ، وإن عدد الدراسات المتخصصة لعمل هذا المؤرخ الجليل لتعكس كلها ثروة الفكر الخلدوني وإثراءه لعلم التاريخ كما تعكس عمق الرسالة التي حملها في ميدان المعرفة البشرية . فهذه الدراسات تساعدنا بجد على وضع المشكلة المتمثلة في قيمة النموذج الذي نهجه ابن خلدون في تحليل التاريخ وتصوره . ففي إطار نظرية العبور التي اقترحناها في هذا المقال ، وإذا نحن لم نلغ مفهوم (التاريخية – L'Historicité) إلا في بعض الحدود المعينة ، تلك الحدود التي وضعها موضوع عودة الشيء نفسه . إن عودة العمران الخلدوني الذي هو مركز العصبيات المتوقدة ونقطة دائرتها لا يمكن أن تفهم كمجتمع بدون تاريخ . وقد يكون الأمر كذلك إذا نحن نظرنا إليه بمنظار يصور التاريخ الخلدوني كحادث « عابر »، ولكن ابن خلدون ، هذا الرجل المتوقد الفكر الحصيف الرأي الحاد المزاج في بصره وبميزته يبني الظاهرة التاريخية ويقومها على أساسين : على ماتكتسيه من جدية ومتانة من جهة ومن جهة أخرى على ما يطبعها من تفاهة وعرض حقير بالنسبة لعظمة الخالق وأسراره في خلقه . هذا المسلم المستسلم لمشيئة الله تعالى ينهي فصول كلامه بهذه العبارة « الله أعلم » .

ابن بطوطة

محمد بن عزوز حكيم



الرحالة الشهير ابن بطوطة .

قد يمتطي الزائر الذي يجتاز للمرة الأولى مضيق جبل طارق لاكتشاف المغرب متن باخرة تحمل اسم شخصية فذة : **الرحالة ابن بطوطة** .

لعل عوادي الزمان محت من الذاكرة المعاصرة هوية رجل كثيرون هم الذين يومنون بعالميته ، وحياته الزاخرة بالمغامرات والملاحم . هذا الرجل له أهمية هي بأقل تقدير في حجم أهمية الرحالة العالمي الشهير **ماركو بولو** .

ومع ذلك فطوال قرون ، كانت تجربة ابن بطوطة ورحلاته تدرس في الجامعات الشرقية والغربية .

وربما لايعرف ذلك الزائر أن اسمه أبو عبد الله محمد وأنه ولد بطنجة يوم 24 يبراير 1304 / 17 رجب 703 وأقام بمدينة البوغاز حتى بلوغه العشرين من العمر . كان ابن بطوطة يتأمل في الأفق بتلك المدينة ويحلم بأن يبحر يوما لاكتشاف العالم وسبر غور الحياة . لقد أضرم في نفسه لهيبا لم ينطفىء عالم أولئك البحارة الراسين بطنجة مدينته وما كانوا يقصونه من مغامراتهم .

ففي السن التي كان فيها أترابه لايفكرون إلا في حياة رتيبة مستقرة ، كان هو يستعد للقيام بأولى رحلاته إلى الأراضي الأجنبية . غادر طنجة سنة 725 (1325 م) . للحج إلى بيت الله الحرام . ولم يعد إليها إلا سنة 750 (1349) . دامت رحلته إذن أربعة وعشرين عاما ، زار خلالها الجزائر وتونس وطرابلس ومصر (وترك لنا عن هذا البلد وصفا قديما للأسكندرية ومنارتها الشهير والقاهرة ومساجدها الفاخرة والنيل والأهرام وقال عن هاته إن بناءها استغرق أكثر من ستين سنة) وفلسطين ولبنان وسوريا وجزيرة العرب (وقد زار فيها بخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة) والعراق وفارس ، ثم عاد إلى جزيرة العرب ومنها توجه إلى اليمن فافريقيا الشرقية ثم عمان والبحرين ، فجزيرة العرب ثالثة ، ومصر ثانية ، وكذلك فلسطين ولبنان ، ثم ذهب إلى آسيا الصغرى والقوقاز والقسطنطينية وجنوبي روسيا وتركستان وافغانستان والهند والتيبت والصين .

ولم يكن ابن بطوطة ، ولاشك ، أول مغربي زار الصين ذلك الوقت ، فهو يفيدنا أنه حينما زار احدى مدنها لقي هناك أخا الفقيه أبي محمد البشري قاضي مدينة سجلماسة [illegible] بالجنوب المغربي .

وفي طريق العودة ، زار ابن بطوطة [illegible] وفارس والعراق وسوريا ومصر وتونس والجزائر

وعاد إلى فاس سنة 750 (1349) واستقبله بها السلطان أبو عنان المريني [illegible] حارا . ووضع الملك المذكور رهن إشارة [illegible] أحد كتابه وهو محمد بن جَذي الكلبي [illegible] مغامراته وعبر رحلاته ، المدونة في :

« **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** » .

ابن بطوطة

« ...وعزمت على السفر إلى ذيبة المهل فكنت أسمع بأخبارها فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل وذيبة على لفظ مؤنث الذيب والمهل بفتح الميم والهاء وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا وهي نحو الفي جزيرة ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب الا منه واذا وصل المركب إلى احداها فلابد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي باحداها عند الخروج من الاخرى فان أخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذووا ديانة وصلاح وهي منقسمة . إلى أقاليم على كل إقليم وال يسمونه الكردوبي ومن أقاليمها إقليم بالبور وهو بباءين معقودتين وكسر اللام واخره راء ومنها كنلوس بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهمل ومنها اقليم المهل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها ومنها اقليم تلاديب بفتح التاء المعلوة والام والف ودال مهملة وياء مد وباء موحدة ومها اقليم كرايدو بفتح الكاف والراء وسكون الياء المسفولة وضم الدال المهمل وواو ومنها اقليم التيم بفتح التاء المعلوة وسكون الياء المسفولة ومنها اقليم تلدمتى بفتح التاء المعلوة الاولى واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء الاخرى وياء ومنها اقليم هلدمتى وهو مثل لفظ الذي قبله الا ان الهاء أوله ومنها اقليم بريدو بفتح الباء الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل وواو ومنها اقليم ملوك بضم الميم ومنها اقليم السويد بالسين المهمل وهو اقصاها وهذه الجزائر كلها لا زرع بها الا أن في اقليم السويد منها زرعا يشبه انلى ويجلب منه إلى المهل وانما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس بضم القاف ولحمه أحمر ولا زفر له انما ريحه كريح لحم الانعام واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوها يسيرا ثم جعلوه في مكاتيل من زعف النخل وعلقوه للدخان فاذا استحكم يبسه أكلوه ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن ويسمونه قلب الماس بضم القاف ، ذكر أشجارها ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل وهو من أقواته مع السمك وقد تقدم ذكره وأشجار النارجيل شأنها عجيب وتثمر النخل منها اثنى عشر عذقا في السنة يخرج في كل شهر عذق فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها يابسا وبعضها أخضر هكذا ابدا ويصنعون منه الحليب والزيت والعسل حسبما ذكرنا ذلك في السفر الاول ويصنعون من عسله الحلواء فياكلونها مع الجوز اليابس منه ولذلك كله وللسمك الذي يغتذون به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها ولاهل هذه الجزائر عجب في ذلك ولقد كان لى بها أربع نسوة وجوار سواهن فكنت أطوف على جميعهن كل يوم وأبيت عند من تكون ليلتها واقمت بها سنة ونصف اخرى على ذلك ومن أشجارها الجموն والاترج والليمون والقلقاص وهم يصنعون من أصوله دقيقا يعملون منه شبه الاطرية ويطبخونها بحليب النارجيل وهي من أطيب الطعام كنت استحسنها كثيرا واكلها .

ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم

وأهل هذه الجزائر اهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة اكلهم حلال ودعاؤهم مجاب واذا رءا الانسان احدهم قال له الله ربي ومحمد نبيي وانا امي ة مسكين وابدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ولقد امرت مرة بقطع يد سارق بها فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لانهم جربوا ان من أخذ لهم شيئا أصابته مصيبة عاجلة واذا أتت أجفان العدو الى ناحيتهم اخذوا من وجدوا من غيرهم ولم يعرضوا لاحد منهم بسوء وإن اخذ احد الكفار ولو ليمونة عاقبه امير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك ولولا هذا لكانوا اهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة واكثر عمارتهم بالخشب وهم أهل نظافة وتنزه عن الاقذار واكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق ويكثرون من الادهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو ومن عادتهم انهم اذا صلوا الصبح اتت كل امراة إلى زوجها او ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على اوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان بكسر الواو وسكون اللام وياء اخر الحروف وهي شبه الاحاريم وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا منها واذا لقى أحدهم القاضي أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل إلى منزله ومن عوائدهم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه الى البيت وشماله وتكون المراة واقفة عند باب البيت تنتظره فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوبا ياخذه خدامه وان كانت المراة هي تاتى الى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المراة عند الوصول إليه الثوب على رجليه... »

« رحلة ابن بطوطة »
الجزء الرابع

مذكرات من التراث المغربي



القدس ، كما رآها ابن بطوطة ، في طريقه إلى قبرص وأثناء عودته منها

حياة مستكشف .

ولم يمكث ابن بطوطة في المغرب سوى عام . ثم توجه إلى اسبانيا (في 751 – 1350) ، وزار جبل طارق ، ورندة ، ومالقة ، وغرناطة ، ومدنا أندلسية عديدة .

وعاد إلى المغرب سنة 1351 . وفي مراكش تقابل مع أبي عنان ورافقه إلى الرباط ومكناس وفاس .

وفي العام الموالي ، قام بالرحلة الثالثة وزار خلالها افريقيا السوداء : النيجر ، وتمبوكتو ، وغينيا ، وامبراطورية المالي . وعاد إلى فاس سنة 1354 .

وبعد ثلاثين عاما صرفها في الرحلات شرع في تدوين مشاهداته . ومات سنة 1377 عن ثلاث وسبعين سنة .

إنه إذا أراد المرء بعث مغامرات ورحلات ابن بطوطة وإضفاء العالمية عليها فلا مناص له من العمل على نقل **الرحلة** إلى العديد من الألسن ساعتها يعلم العالم آثار ابن بطوطة ، وهي تفوق آثار ماركو بولو بما قدمته من معارف جغرافية وتاريخية وأثرت به علوم الانسان وأصوله .

أوكرانيا
أوروبا
غرناطة
طنجة
الرباط
فاس
مراكش
تونس
تواتا
الهوغار
تمبوكتو
ولاتة
كاو
افريقيا
القاهرة
دمشق
حلب
القدس
المدينة
مكة
عدن
زيلا
موغاديشيو
مونباسا
كيلدة
سمرقند
آسيا
دلهي
الهند
كوا
جزر المالديف
المحيط الهندي
الصين
بكين
زيتون
كانطون
جاوة

الرحلة الاولى
الرحلة الثانية
الرحلة الثالثة
الرحلة الرابعة

فاس الجديد

عبد المالك الفيزازي

مدينة فاس ، التي كان يطلق عليها في العصر الوسيط اسم « المدينة الجديدة » أو « البلاد الجديدة » أو « المدينة البيضاء » ، قال ابن خلدون إنها أكبر مآثر المرينيين .

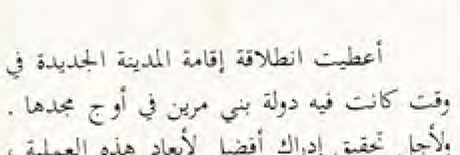
ويرتبط بهذا البناء اسم ملك مجاهد ورع ، كان أيضا يهوى البناء والتشييد ، هو أبو يوسف يعقوب (658-685 هـ) ، ولماذا إذن لفظ « المدينة الجديدة » بل لماذا هذه الازدواجية الحضرية في حين كانت فاس تعاني من ثنائية قطبيها إلى غاية مقدم المرابطي يوسف بن تاشفين ؟

في الواقع ، كان هذا العاهل قد جمع العدوتين داخل سور واحد بعد فتحه مدينة فاس . وقد غدت هذه المدينة منذ ذلك الحين مثالا للحضارة ، ومركزا لنشاط حضري حقيقي ، وحضارة عمرانية متميزة بالرقة والشفافية .

فهل كان « فاس الجديد » قد أسس ليحل محل « فاس القديم » أو لينافسه ؟ وهل كان تصور أبي يوسف يعقوب يرمي إلى إنشاء مدينة جديدة بالفعل ؟

هناك أسئلة كثيرة نحاول هنا أن نأتي ببعض العناصر المجيبة عنها ، بعد إلقاء نظرة تاريخية على ظروف تأسيس هذه المدينة ، وعلى مراحل تطورها ، وبعد اختبار بنيتها ومكوناتها .

ظروف تاريخية مواتية

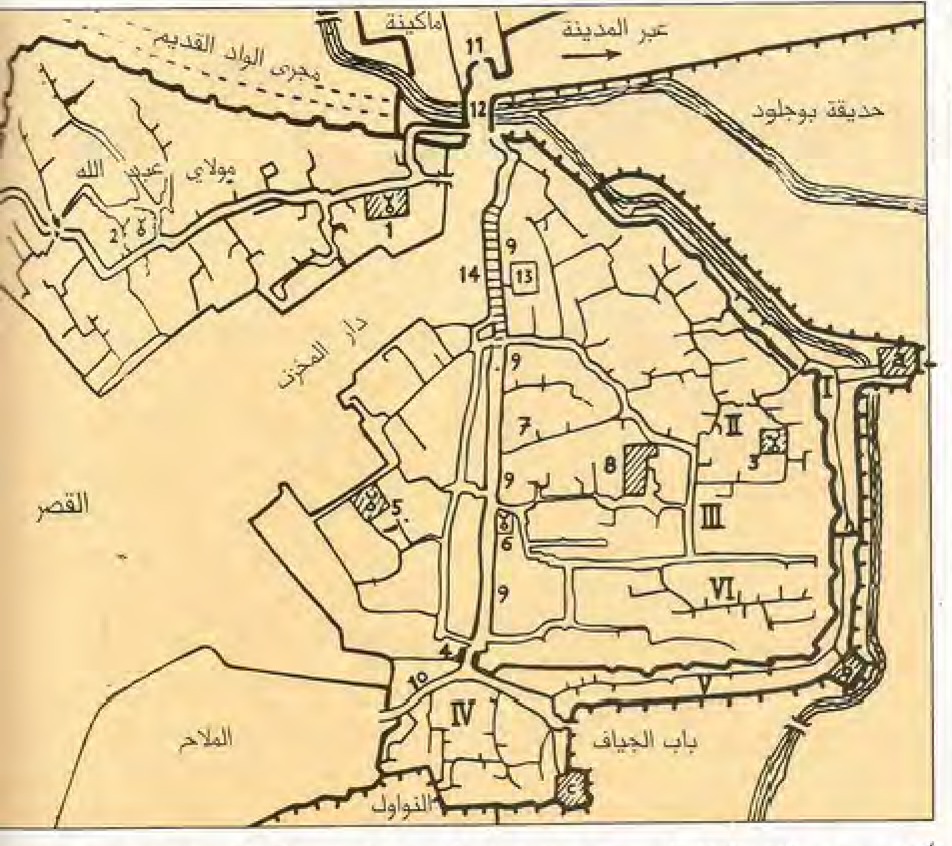


أعطيت انطلاقة إقامة المدينة الجديدة في وقت كانت فيه دولة بني مرين في أوج مجدها . ولأجل تحقيق إدراك أفضل لأبعاد هذه العملية ، من المناسب التذكير بإيجاز بالمراحل والأشواط التي قطعتها هذه الدولة خلال فترة توليها الحكم . ففي سنة 1248م . عند استيلائها على مدينة فاس كانت قد غزت ، فعلا ، مجموع تراب الشمال المغربي ، بمدنه الرئيسية آنذاك ، تازة ومكناس وسلا وسهول الأطلسي . وبالنسبة للمراقبة الاقتصادية للبلاد ، فقد تمكنت منها هذه



« فاس الجديد » .
(كليشه أودول) .

مذكرات من التراث المغربي



ضواحي « فاس الجديد ».
(تصميم ر. لوتورنو – فاس قبل الحماية).

الدولة فيما بين سنتي 1250 و 1253 باستيلائها على مدينة تادلة ، وخصوصا على سجلماسة التي كانت بمثابة بوابة للتجارة عبر الصحراوية ، ومرفأ القوافل الحاملة للذهب من السودان ثم ضواحي درعة في الجنوب . أما مراكش فقد تركها المرينيون إلى وقت لاحق (في شتنبر 1269) .

وبعد هذه الهيمنة السياسية والاقتصادية على المغرب الأقصى ، ركز المرينيون اهتمامهم على أبناء عمومتهم آل عبد الوليد بتلمسان ، حيث تمكنوا من الهيمنة على مجموع أراضيهم . ثم انتهوا إلى محاصرتهم في قلب عاصمتهم سنة 1270م .

بالاضافة إلى ذلك ، وأمام الحملات الاسبانية الفتاكة ، وإزاء مملكة أراغون التي كانت مطامعها تزداد وتتسع على ضفتي البحر الأبيض المتوسط ، كان أبو يوسف يعقوب ، الذي آل إليه أمر استكمال آخر مراحل تثبيت حكم المرينيين ، يصر على أن يحيط نفسه بهالة « الجهاد » ، حيث قاد حملة 674 هـ . التي عاد بعدها ليقرر بناء فاس الجديد . وفي الحديث عن هذه الحملة الثانية لأبي يوسف على الأندلس وعودته منها بعد ستة أشهر من المعارك ، أفاد مؤلف « **القرطاس** » ابن أبي زرع بأن أمير المسلمين أبا يوسف أمر ببناء فاس الجديد في اليوم الثالث من شوال 674 هـ / 22 مارس 1276 م .

وكدليل على ما وصلت إليه هذه الدولة من سلطان في عهد هذا العاهل ، بعد أن آلت البلاد إلى السلم والاستقرار ، وأصبحت المبادلات التجارية عادية والنشاط الاقتصادي مزدهرا ، وامتلأت الخزائن بالمال من جراء الضرائب وكذا من غنائم الحرب الوفيرة ، كان أبو يوسف يفكر في عمليات جديدة للبناء يمجد بها ذكره ويخلد صورة دولته القوية .

ويذكر نص ابن أبي زرع بملاحظة أخرى ، هي تلك الدقة التي حدد بها تاريخ انطلاقا بناء فاس الجديد ، خصوصا بالنسبة لتاريخ بناء فاس القديم الذي ظل مجرد تخمين .

عملية التأسيس

يضيف ابن أبي زرع في حديثه عن هذا التشييد أن المدينة الجديدة بنيت بواد فاس ، وأن أعمال بناء المدينة وإقامة سورها انطلقت في نفس اليوم ، وأن أمير المسلمين كان يشرف على هذه العملية إلى أن حددت معالم المدينة وحفرت أسسها . ويذكر أيضا استكشاف طالع هذه العملية كان قد أخرجه الفقيه الفلكي علي بن القطان والفقيه محمد ابن مبارك . وقد أشار ذلك إلى أن تأسيس هذه المدينة كان يصادف طالعا حسنا وتوقيتا ملائما ومباركا ... وهكذا كانت

حتى السماء والكواكب تلائم وتبارك هذا الميلاد
وقد كتب ابن أبي زرع نصه الذي يشير فيه
هذه العملية سنة 726 هـ ، أي بعد مرو
نصف قرن على هذه الأحداث .

وقد أوضح لنا هذه العملية وكذا ظروف
انطلاقها وبشكل أكثر تفصيلا كاتب مجهو
– يعتقد البعض أنه ابن أبي زرع نفسه – وق
عايش أيضا فترة حكم أبي سعيد عثمان الأو
(710 هـ) ، الذي ألف له (هذا الكاتب
« الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية » .

وقد قدمت لنا نصوص هذا المؤلف مدي
فاس كمقر ملكي ومعقل للحكومة ، إذ جاء ف
أن أمير المسلمين يعقوب عندما قرر بناء مدي
لجعلها مركزا لحكومته وملكه ، ومسكنا
ولأقربائه وحاشيته وخادميه ، اعتلى صهوة جواد
في الثالث من شوال واصطحب معه مهندسي
وبنائين وخبراء في شؤون الصناعة التقليدي
فاختاروا إقامتها على واد فاس (الأبيض) ثم أخذ

فاس الجديد

في حفر أسسها ... وقد أضاف الكاتب بأن سور هذه المدينة الجديدة « فاس الجديد » عندما تم بناؤه سنة 676 هـ . (؟) أمر أبو يوسف ببناء المسجد الأكبر لأداء صلاة الجمعة . وتم تشييد هذا المسجد الجامع تحت إشراف أبي عبد الله بن عبد الكريم وابن علي ابن الأزرق عامل مكناس . ويشير المؤلف إلى أنه جانب الصناع التقليديين لم يستعمل سوى الأسرى المسيحيين المستقدمين من الأندلس . وفي شهر رمضان من سنة 677 هـ . اكتمل بناء المسجد الجامع وأقيمت فيه الصلاة . وفي نفس السنة بدأت أعمال إقامة المنبر ، الذي كان من صنع الصانع الماهر الفرناتشي ، والمرصع الآبانوسي (...) وفي الثالث من رمضان 678 هـ . كان قد انتهي من إنجاز هذا المنبر ، واستعمل لالقاء خطبة الجمعة . وفي 17 ربيع الأول 679 ، علقت الثريا الكبرى للمسجد ، ويبلغ وزن هذه الثريا 9 قناطير و 15 رطلا ، وتحمل 787 مصباحا . وكانت من صنع المعلم الحجازي ، أما المال الذي صرف في صنعها فكان يجلب من الجزية المجتباة من أهل الذمة من اليهود . وخلال رمضان من سنة 679 أقيمت المقصورة بالمسجد ، وفي نفس السنة أقيمت الأسواق من باب القنطرة (قرب باب السبع) إلى غاية باب أوعيون صنهاجة (باب السمارين حاليا) . وقد أقام الأمير هناك أيضا حماما كبيرا وأمر وزراءه وقواده العسكريين ببناء دور في عين المكان .

ويشير نص هذا الكاتب الذي عاصر مولد « فاس الجديد » إلى المشاريع الحضرية التي كانت محددة آنذاك كما يلي :

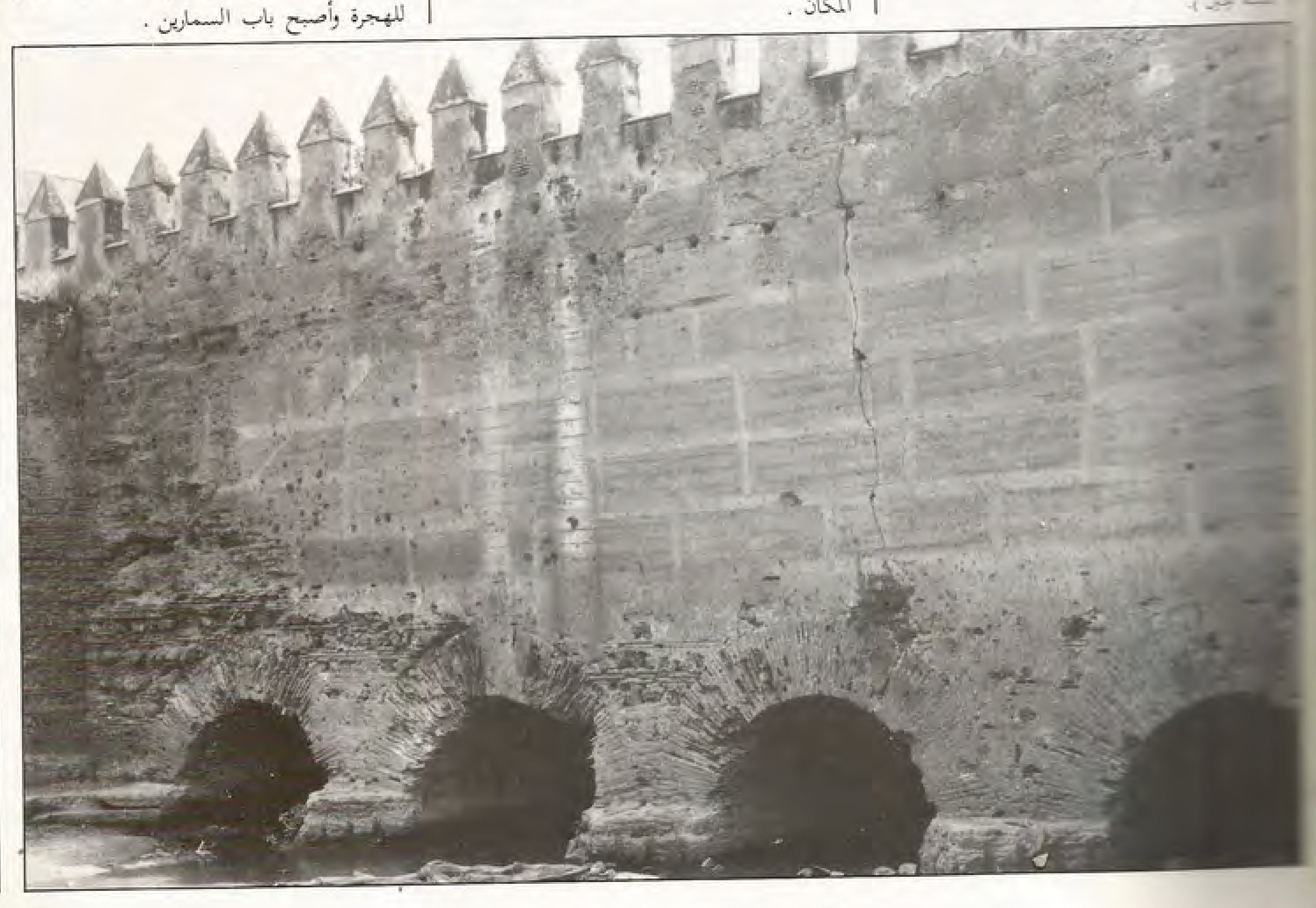
– سكنى ملكية ، بقصرها وملحقاتها المخصصة لايواء الحاشية والخدم والحرس الملكي .

– سكنى الشخصيات الرسمية في الحكومة المرينية .

– مدينة ومسجد جامع وصفه المؤلف بإفاضة ، حيث تحدث عن منبره المرصع وثرياه الهائلة الجذابة ومقصورته الملكية المزخرفة .

– أسواق مقامة على شكل صفوف تمتد من باب القنطرة (باب الواد قديما ، قرب باب الداكن الحالية) وقد اختفت اليوم ، إلى باب أعيون صنهاجة التي تغير اسمها منذ القرن الثامن للهجرة وأصبح باب السمارين .

... واد فاس ، بفاس الجديد .



وصف جامع القرويين

« في مدينة فاس جامع كبير يسمى « جامع القرويين » ، وهو كبير للغاية إذ يبلغ محيطه ميلا ونصف وله واحد وثلاثون بابا ، وكلها كبيرة وعالية ، وتبلغ المساحة المسقوفة فيه حوالي 150 ذراعا توسكانيا طولا ، وأقل بقليل من ثمانين ذراعا عرضا . ومنارته ، التي يؤذن فيها للصلاة ، عالية جدا بدورها . ويدعم السقف ثمان وثلاثون قنطرة في الطول وعشرون قنطرة في العرض . وتوجد حول بناء الجامع ، أي على الواجهات الشرقية والغربية والشمالية ، رواقات عرض الواحد منها ثلاثون ذراعا وطوله أربعون ذراعا . ونجد تحت هذه الاروقة المخازن التي يحفظ فيها الزيت والاشياء الاخرى الضرورية لحاجات الجامع . ويوقد فيه كل ليلة ستمائة سراج . ولكل قنطرة مصباحها . ويتجهز صف أقواس الوسط ، وخاصة تلك التي تؤدي للمحراب ، يتجهز هذا الصف وحده بمائة وخمسين مصباحا . وقد صنعت الثريات من برونز مأخوذ من أجراس بعض المدن النصرانية التي فتحها ملوك فاس . وتظهر في داخل الجامع ، وعلى طول الجدران ، كراسي من مختلف الانواع وهي التي يلقي منها بضعة أساتذة دروسا على الشعب في أمور دينه وفي شريعته الروحية ، وتبدأ هذه الدروس بعد الفجر بقليل وتنتهي بعد شروق الشمس بساعة . أما في الصيف فلا تلقى الدروس إلا ابتداء من منتصف الليل حتى الساعة الواحدة والنصف صباحا . ويكون التدريس في مواد تتعلق بالعلوم الاخلاقية والروحية المتصلة بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم . ويلقي الدروس الصيفية



الثريا الكبرى بالمسجد الجامع بفاس الجديد . (كليشه بوعمري).

أشخاص عاديون . أما الدروس الاخرى فلا يعهد بها إلا لرجال أكفاء في هذه المواد . ويتقاضى كل منهم عن دروسه مرتبا طيبا ، وتقدم له الكتب والاضاءة . أما إمام الجامع فليس له من مهمة سوى إقامة الصلاة والامامة بالمصلين . وهو يمسك حسابا دقيقا ومتقنا عن الاموال والاملاك التي تقدم للجامع لحساب الاولاد القاصرين ، كما يعتبر موزع الايرادات المخصصة للفقراء سواء أكانت من الدراهم أم من الحبوب ، كي يوزعها في كل عيد على فقراء المدينة ، بصورة تتفاوت حسب أعبائهم العائلية... »

« وصف افريقيا »
الحسن الوزان

فاس الجديد



المسجد الكبير بفاس الجديد .
(كليشه أودول) .

– وأخيرا نجد أنفسنا في موقع يوجد على ضفاف سهل سايس حيث نشأت مدينة متميزة عن فاس الأدارسة ، إذ أنها توجد على بعد نحو 2000 متر شرق فاس القديمة ، فضلا عن كونها تبعد عن مرمى الرماة بسبب سورها وتحصيناتها .

ويفيدنا كتاب آخرون عن النظام التوبوغرافي لفاس الجديد ، ويحدثوننا عن تطور هذه المدينة أيام المرينيين حيث كانت تنتظم حول ثلاث مجمعات كبيرة هي :

– القصور وملحقاتها ،
– فالأحياء العسكرية ،
– ثم المدينة والملاح .

القصــور

ينقل لنا العمري (القرن الثامن) في كتابه « مسالك الأبصار في ممالك الأنصار » معلومات عديدة عن هذه القصور الهائلة الرائعة ، بأبراجها وبناياتها العالية . ويذكر على وجه الخصوص « قبة الرضى » المشيدة بين حوضين واسعين وكانت تستخدم في استقبال المراكب التي كانت تحمل على ظهرها أسباب المتعة والترفيه .

وهذا الانجاز الهائل الذي لم يتبق لنا منه اليوم شيء لم يكن ليتم تشييده قبل إنجاز أعمال مائية هائلة .

وقد أقيم بعض هذه الأعمال وتم تهييئه خلال أولى سنوات حكم أبي يعقوب يوسف (685–706) . ويتعلق الأمر بقناة تنطلق من « رأس الماء » ترفع الماء بفضل ناعورة مائية كبيرة (نورية) لتغذي الأحواض بالماء وتسقي البساتين والحدائق .

ويذكر ابن الخطيب في كتابه « نفدات الجراب » اسم قصر آخر كان يملكه « أبو

فهر » يعتقد أن النيران كانت قد التهمته . وقد وجد نفس هذا الاسم لدى الأسر الأخرى الحاكمة المعاصرة (بنوعبد الوديد بتلمسان ، وبنو حفص بتونس) .

وقد ذكر أيضا اسم « برج الذهب » وكان أمير المسلمين قد شيده ليشهد من فوقه استعراضات جيشه ، ويتفرج على المنافسات التي كان يقيمها فرسانه في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع (تحت حكم أبي الحسن 731–752 هـ) . وقد كان أيضا يمارس الفصل بين الناس من خلاله ، كما يروي ذلك كاتبه الخاص ابن مرزوق ، الذي ترك لنا مؤلفا لهذا الملك هو « المسند الصحيح الحسن » . ثم إن هذا البرج كان يستعمل لاستضافة كبار الزوار .

وكان قصر « الدار البيضاء » قد بني في عهد أبي سعيد ، وكان أعده لسكنى ابنه وولي عهده أبي الحسن . ويوجد جنوب شرق « فاس الجديد » .

الحدائق ومساحات الألعاب

كانت هذه القصور تتوفر على حدائق وأحيانا على مساحات مخصصة للألعاب . وأكبر الحدائق كانت حديقة « المزارة » تم إعدادها سنة 1286 م . ويعتقد أنها كانت تقع في موقع المقبرة الحالية الموجودة شمال « فاس اجديد » . وقد تم العثور على بقايا أحواض وصهاريج (سنة 1930 م) يظهر أنها تشير إلى ذلك الموقع .

وكانت هناك حديقة رائعة تحمل اسم « روض الغزلان » ، تضم بنايات وأروقة غنية بزخارفها وذلك في عهد أبي سليم إبراهيم (760–762 هـ) . وكانت حديقة للا أمينة (ابنة أحمد بن أبي سليم) هي الوحيدة التي احتفظ باسمها ، وكان قد أعاد تنميق هذه الحديقة (التي توجد حاليا جنوب غرب القصور الملكية) ، السلطانان مولاي عبد الرحمان ومولاي الحسن .

وقد كانت تقام آنذاك مباريات في الفروسية وتداريب في الركوب . وقد ذكر أيضا نوع من المبارزات بين الأسد والثور كان أبو عنان (752–758) يعجب بها أيما إعجاب . ويعتقد أن المبارزات كانت تدور في حلبة ربما كانت تقع في المشور القديم الموجود في باب السبع . وقد كان هذا النوع من المبارزات يجر[ي] في عهد الموحدين في مراكش ، وأبناء عمو[مته] الحفصيين بتونس . وتذكرنا إحدى بوابات الق[...] (باب البوزات) بأن عملية القنص بطيور [...] كانت تمارس من طرف المرينيين . وقد تغير [...] هذه البوابة الذي جاء من هذا الاستعمال فأ[...] ينطق « بباب البوجات » ويوجد في الش[...] الغربي .

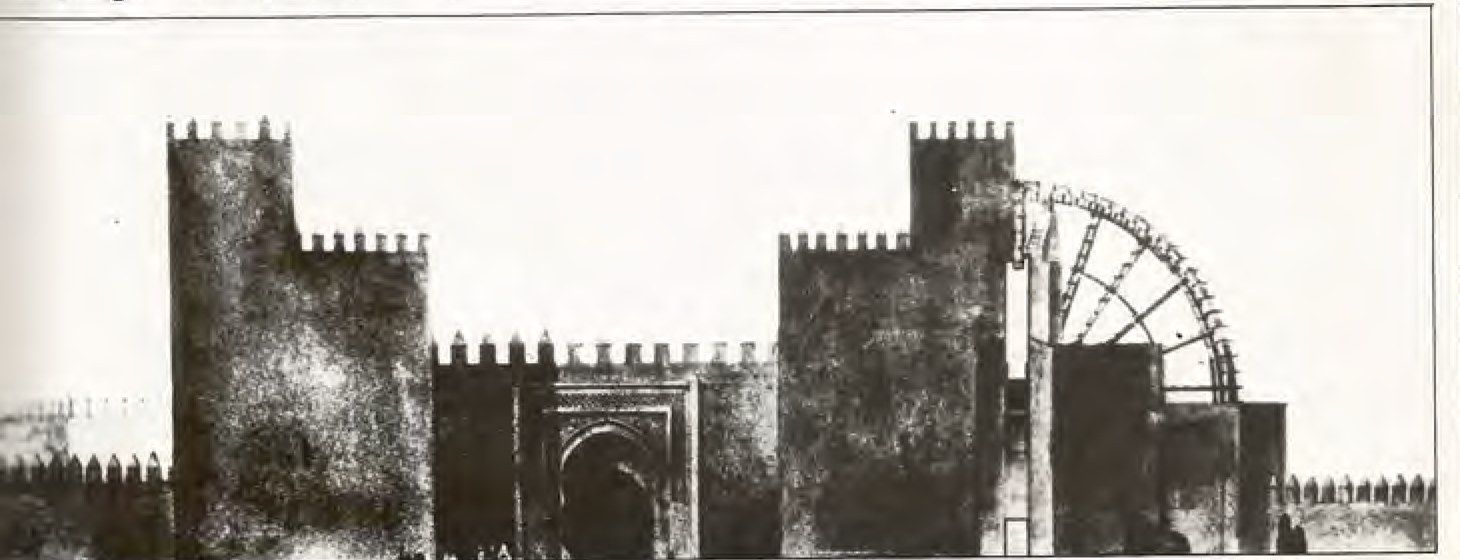
الملحقات الاقتصادية والدينية

تصف لنا بعض النصوص عددا [...] البنايات كانت مرصودة لنشاطات اقتص[...] كانت تبرز الملامح المركزية للدولة المرينية .

فدار السكة ، وهي معمل لض[...] العملات النقدية ترجع إلى حقبة مشيديها [...]

ودار الصناعة (الكلمة التي نتج ع[...] لفظ أرسنال) كانت ضربا من معامل ص[...] المعدات الحربية ، وكانت تنتج الأسلحة البيض[...] ومختلف توابعها كما كانت تنتج عدات الخيل [...]

وكانت دار الديباج ، مجمعا لا[...] الأقمشة وخيوط الذهب ولصناعة الشموع [...] وفضلا عن المسجد الجامع الذي سبق [...]



باب الدكاكين بفاس الجديد ، مع رسم معاد للناعورة الكبرى (النورية).
(ج. ديلاروزيير وبريسوليت . النورية الكبرى وقناة المياه بالمشور العتيق ، بفاس الجديد).



القصر وتوابعه .
(تصميم ر. لوتورنو – فاس قبل الحماية).

إليه ، قام أبو سعيد عثمان بتزويد المدينة ، أقامها قرب مشور باب الدكاكن ، السور الحالي للقصر .

الأحياء والمباني العسكرية

يعتبر السور المزدوج والمحصن الموجود وراء القديم » أول مظهر عسكري لهذه

وكانت توجد في وضع ملتصق مع القصر كانت تجمع فيها خيول الحرس . وقد ذكر الحسن الوزان (ليون الافريقي) أن تلك الاصطبلات كانت تتسع لنحو ثلاثمائة حصان . أما المساكن التي كانت مخصصة لايواء الحرس فقد كانت معدة غير بعيد عن مشور باب الدكاكين حسب ما جاء به نفس هذا المؤرخ . زد على ذلك أن الدكاكين التي توجد باستمرار عند الباب الكبير لهذا المشور كانت تستخدم كغرف للحراسة . وقد كان جزء من المدينة يستعمل لايواء رماة العاهل الشرقيين (وهم ربما من الأتراك ؟) ويحكي الحسن الوزان بأن هذا الحي ، في عهده ، كان قد استبدل بمساجد كثيرة وعدد من الحمامات .

وقد أشار العمري إلى وجود « ربض للنصارى » كان يأوي الميليشيات القشتلانية والأراغونية التي كانت في خدمة المرينيين ، في جنوب حمص ، وربما كان هذا المجمع يقع جنوب المدينة ، غير أن المؤلف المذكور لم يشر على أية حال إلى التاريخ الذي أنشىء فيه هذا المجمع ولا إلى مشيده . وقد كان ابن الخطيب وابن خلدون يشيران إلى هذا الربض باسم « الملاح » ، ربما لأنه عند حدود الملاح الذي كان يطلق عليه اسم حمص (اسم المدينة السورية حمص الذي استعمل أيضا للدلالة على إشبيلية) .

« ...هناك الصراف مهمته جمع الاقوات اللازمة للملك وللجيش وصيانتها وتوزيعها . ولديه عشر خيام أو اثنتا عشرة خيمة كبيرة يخزن فيها الاقوات . ويعمد لتبديل الابل باستمرار كي ينقل التموين الضروري وكيلا يشتكي الجيش قط . ويكون مستخدمو المطابخ تحت إمرة هذا الموظف .

« كما تحت تصرف الملك خمسون خيالا بقيادة قائد ، مهمتهم الاعلام عن الضرائب المرسومة عن كاتب الملك وباسم الملك . وهناك قائد آخر ، له مكانة فريدة وهو رئيس حرس الملك الخاص . وله سلطة الامر باسمه على الموظفين المكلفين بمهمات التنفيذ ومصادرة الاموال وتطبيق مراسيم العدالة . ويستطيع توقيف شخصيات هامة وإيداعهم السجن وتطبيق العقوبات القضائية إذا أمر الملك... »

« وصف أفريقيا »
الحسن الوزان

مذكرات من التراث المغربي



كانت الجالية اليهودية تضمّ عددا كبيرا من الصناع التقليديين الاكفاء : صائغ يعالج ذهبا .
(لوتورنو – فاس قبل الحماية).

المدينة والملاح

كانت المدينة توجد في شرق القصور الملكية . وكان سور مركزها الاقتصادي – السوق – يمتد على شكل خطوط من باب القنطرة (المندثرة حاليا) إلى باب السمارين . ولم يتسن لنا أن نجد في أية بقعة من هذه المساحة أثراما للنشاطات التي كانت تعج بها هذه السوق . ويمكن لنا القول بأن هذه النشاطات لم تكن كثيرة التنوع كما هو الشأن في فاس البالي الذي تشهد قسارياته ، وأزقته المتخصصة في مختلف أنواع التجارات ، وفنادقه بحسن بنية النشاط الاقتصادي وازدهاره . ويظهر أن السوق الأولى كانت تقوم ، بصفة أخص ، بتوفير الغذاء لسكان يتكونون من الوجهاء ، ومن خدمهم وكذا من العساكر ، أكثر مما كانت تحتضن الصناعات التقليدية المنتجة .

وقد كانت المدينة تحتضن أيضا مطمورات جدّ هامة . ويعتقد أن « حبس الزبالة » الحالي من أطلال لاحدى تلك المطمورات . وقد كان يستخدم سجنا في أيام الملك مولاي إسماعيل . وكان سكان فاس الجديد من المخزن وعساكره يحتاجون هذا النوع من المخازن .

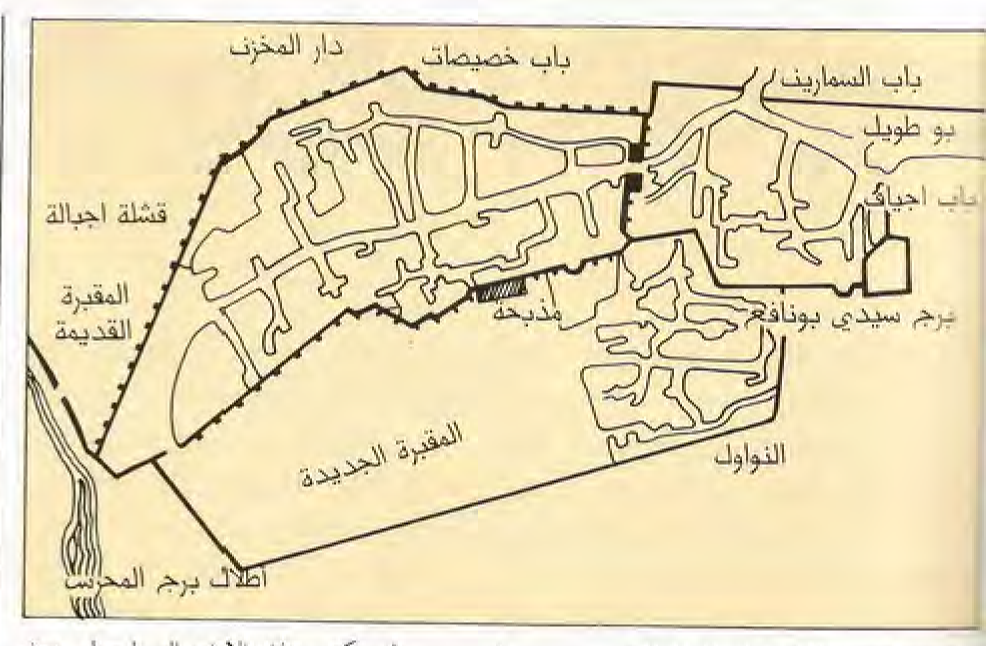
ويشير مارمول كارفازال (القرن العاشر) إلى وجود مطمورات محفورة في الصخور . أما النشاطات الثقافية فقد كانت تجري في المسجد الجامع ، وفي أربعة مساجد أخرى على الأقل ، وفي المدرسة السابق ذكرها .

وكانت الجالية اليهودية فقد كانت تقيم بالمدينة القديمة إلى غاية عهد المرينيين . وقد كانت هذه الجالية تستقر بعبارة أصح صوب المركز الاقتصادي للمدينة ، حيث أمكننا ملاحظة تسميات ذات دلالة : كفندق اليهودي . وقد أنجز توسيع جامع القرويين في موقع دور ابتيعت من ملاكيها اليهود .

وتم انتقال هذه الجالية إلى فاس الجديد ، بالملاح ، في عهد أبي سعيد عثمان سنة 715 هـ . كما جاء في **القرطاس** . وقد أشار الحسن الوزان (ليون الافريقي) بدوره في سياق حديثه عن هذا الانتقال إلى أبي سعيد عثمان . وأضاف بأن الجالية اليهودية استقرت في الملاح بالحي القديم الذي كان يقطنه الرماة الشرقيون (حمص) . إذن ، فإن الأمر لايتعلق بالملاح الحالي . وهناك عملية هجرة يهودية ثانية أشار إليها مصدر يهودي (نصوص يهود وعرب فاس) فأرجعها إلى سنة 1438م .

ومن المؤكد أن هذا الانتقال تم لغرض وقائي ، هو حماية هذه الجالية من المناوشات والمنازعات التي كانت تتولد عن المشاكل الظرفية التي كانت تعيشها الدولة بين الحين والآخر . ولا ينبغي لنا على أية حال أن ننسى أن مدينة فاس لم تكن تتوقف عن استقبال المهاجرين اليهود

فاس الجديد



(...) : « تصميم ر. لوتورنو – فاس قبل الحماية ».

القادمين من الأندلس ، والمطاردين من طرف (...) الاسبان ، الشيء الذي كانت تتولد عنه مشاكل عديدة . وقد كانت هذه الجالية المصنعة تضم عددا كبيرا من الصناع التقليديين الأكفاء كما تضم أغلب صاغة فاس . ولم يتم تحديد وحصر جميع نشاطاتهم في هذا الحي الجديد لأنهم (...) يعملون بفاس البالي .

ولم يكن هذا الانفصال ليحول دون استمرار التبادل بين المجموعتين اليهودية والمسلمة بفاس ، كما أنه لم يقف أمام مشاركة الجالية اليهودية في جميع النشاطات . بل إن بعض الشخصيات اليهودية كانت تتقلد مهام كبيرة كما كان الشأن بالنسبة للاخوة « ابن وقاسة » في نهاية القرن 13 وبداية القرن 14 للميلاد .

بعد هذا الاستعراض لنشأة فاس الجديد ، والمراحل تطوره ، أصبحت الأجوبة على الأسئلة التي طرحناها في بداية هذا المقال تبدو أكثر وضوحا وجلاء .

فالنشاطات الاقتصادية والثقافية وكذا الدينية ظلت محدودة . وقد بقيت أهم هذه النشاطات منحصرة في « فاس البالي » أو في القيسارية ، كما أن المراكز المنتجة المختلفة تفوق السوق الكبير الموجود بفاس الجديد أهمية وانتاجية .

وقد بث المرينيون ، الذين نشطوا الحركة الثقافية والدينية في هذه الحقبة ، مدارسهم الجميلة في المدينة القديمة ، وعلى وجه الخصوص حول مركز الاشعاع الثقافي والديني الذي يتمثل في جامع القرويين .

ويمكن النظر إلى قصد العاهل المشيد بدوره من هذا المنظور وإعطاؤه نفس التفسير ، إذ نجد أنه بدأ أولا بإقامة قصره وبناء السور ، ثم لبث سنوات ثلاثا قبل أن يأمر وزراءه ووجهاء دولته بالاستقرار بالمدينة الجديدة . وهكذا تظهر الدلائل التي تشهد على أن المدينة الجديدة كانت في الأصل قد أقيمت لتكون مدينة للسلطة وليس بنية منافسة المدينة الادريسية .

وقد أفاد ليون الافريقي ، الذي عاش بهذه المدينة أيام الوطاسيين ، أبناء عمومة وورثة هذه الدولة العظيمة ، بما يؤكد هذه المقولة ، حيث أنه أكد أن فاس الجديد لم يكن يأوي سوى عدد قليل من النبلاء بالاضافة إلى أسر الملوك وأقربائهم وبعض أفراد الحاشية البارزين وعدد كذلك قليل من عامة الشعب ، كانوا يمتهنون حرفا دنيا . وذلك ، كما قال الحسن الوزان ، لأن الشخصيات ذات السمعة الجيدة والقيمة العالية تأنف من العمل في وظائف مستخدمي البلاط .

وهذا الحكم السلبي ، إلى حد ما ، لاينبغي أن ينسينا بأن هذه المدينة ، بقصورها الفخمة وحدائقها الغناء ومساجدها البديعة وسكانها البسطاء ، وهذه المدينة نشأت لتخليد دولة وملك هو مقيمها وبانيها ، ظلت محفوظة صامدة برغم تلاحق مراحل التاريخ وتوالي حقبه .

ورد في كتاب « وصف افريقيا » للحسن الوزان (ليون الافريقي) ما يلي:

« يشغل اليهود جزء المدينة الذي كان (...) قديما لحرس الرماة . وكانت مساكن اليهود قبل ذلك في المدينة القديمة ، فكان المسلمون يتعقبون أمتعتهم كلما مات ملك ، فلما ولي الملك أبو سعيد عثمان المريني من سنة 800 إلى 823 هـ، نقلهم من المدينة القديمة إلى المدينة الجديدة بعد أن ضاعف عليهم الجزية ، وبها يقيمون اليوم ، ويشغلون شارعا طويلا وعريضا جدا ، فيه دكاكينهم ومعابدهم . وقد تكاثر السكان اليهود حتى أنه لم يعد بالامكان معرفة عددهم ، لا سيما بعد أن طردهم ملوك اسبانيا ، وهم محتقرون من طرف الجميع ، لايحق لاي واحد منهم أن ينتعل أحذية ، وانما يلبسون نعالا من قش ، ويتعممون بعمائم سود . ومن أراد منهم أن يضع قلنسوة فعليه أن يخيط عليها قطعة من ثوب أحمر . وتبلغ الجزية المضروبة على يهود فاس أربعمائة مثقال في الشهر تؤدى للخزينة الملكية ... »

عَالِم مَغربي: الحسن

مصطفى القصري

في سنة 957 هـ – 1550 م فكر أحد أعضاء مجلس الأعيان بالبندقية المسمى يوحنا المعمدان راموزيو في نشر عدد من الرحلات البحرية تحت عنوان: « كتاب الملاحة والرحلات ».

وأهم هذه الرحلات التي نشرها راموزيو بالبندقية تتلخص في وصف لافريقيا بعد 24 سنة من كتابتها بالايطالية من طرف شخص مجهول إذ ذاك اسمه يوحنا الأسد (JEAN LÉON) الافريقي . وكان هذا الشخص من أصل مغربي هاجرت أسرته من الأندلس وله من العمر أربع سنين، واستقرت بفاس حيث تلقى تعليمه في الكتاب ثم في القرويين، ثم تقلب في وظائف سامية وهو لايزال يافعا، وأرسل في بعثات عديدة أيام الوطاسيين داخل المغرب وخارجه وجاب الآفاق واكتمل علما وعقلا وتجربة وجولانا ولم يكن قد بلغ من العمر الثلاثين، فكيف يا ترى لعبت به الرياح وألقت به العواصف بعيدا عن وطنه وأهله وسكنه ؟ لقد ركب البحر مسافرا عبر سفينة في البحر الأبيض المتوسط وكانت بالقرب من جربة بتونس لما سطا عليها القرصان المسيحيون وأسروه من جملة من أسروا، وعندما انتبهوا إلى مكانته وتعرفوا على شخصيته قدموه هدية إلى البابا الذي كان محبا للعلوم والذي رحب به ودفعه إلى اعتناق المسيحية وسماه باسمه يوحنا ليون (الأسد) ؛ أمّا إسمه الحقيقي فهو الحسن ابن محمد الوزان الزياتي، ازداد بغرناطة ما بين 1489 و 1495 م . ولقد اشتهر الحسن الوزان في أوروبا وأصبح علما من أعلام العلم والمعرفة وترجم كتاب « وصف افريقيا » إلى مختلف اللغات الاوروبية من فرنسية وأنجليزية وهولندية وألمانية وإسبانية خلال القرون التي تلت طبع الكتاب، وخصّصت له دراسات وافية في المعالم والموسوعات . وظلّ موضع ثقة الأوساط العلمية في أوروبا خلال أكثر من ثلاثة قرون نظرا لأهميته كوثيقة جغرافية مدققة لقسم كبير من افريقيا ولقد زار زيادة على هذا القسم جزيرة العرب والشام .

أما العرب فلم يكتشفوه إلا مؤخرا وبعد ما شاع صيته في أرجاء الغرب كله .

فقد ورد ذكره فقط في متم القرن التاسع عشر في العالم العربي ولأول مرة في خطبة ألقاها في المجمع العلمي الشرقي السيد سليم ميخائيل سماده العزيري في سنة 1883 . ونشر له في الثلاثينيات من هذا القرن العشرين محمد المهدي الحجوي من المغرب كتيبا أورد فيه ترجمة بالعربية لوصف فاس وخصص له مقالا بالفرنسية نشر في مجلة هيسبيريس HESPERIS، ولم يتعرض له الكتاب العرب مثل عبد الله عنان إلا أخيرا في مقالات ودراسات وأبحاث لم يتجاوز محتواها ما نعرف عنه في الكتابات الغربية، وقدم السيد محمد زوام في خصوصه رسالة ماجستير أشرف عليها الدكتور محمد السيد غلاب .

وكنا دائما نتعجب شخصيا من تغيب جامعتنا عن ترجمة « وصف إفريقيا » إلى العربية بينما شاع هذا المؤلف في أرجاء العالم كله حتى قيض الله له أخيرا في المغرب وفي المملكة العربية السعودية وفي نفس الوقت 1979–1980 أساتذة قاموا بترجمته كاملا من الفرنسية . وهكذا سدوا ثغرة كانت وصمة في الجبين العربي .

وهكذا أصدرت جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية (كلية العلوم الاجتماعية) ترجمته محققة مقدما لها ومعلقا عليها أنجزها الدكتور علي عبد الواحد المتخرج من جامعة باريس وعضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع .

وفي المغرب أصدرت المنشورات العلمية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ترجمة كاملة قام بها الأستاذان د. محمد حجي ود. محمد الأخضر وكان عملهما في نفس الدرجة والاتقان بالنسبة للعمل السعودي .

منزلة « وصف افريقيا » عند علماء المغرب

ولقد علق علماء الغرب كثيرا على هذا المؤلف الذي ظل زمنا طويلا مرجعا أساسيا اعتمدوا عليه في كشفهم على الخصوص للأقطار العربية الافريقية وبلاد الساحل وغيرها من البلدان . قال شيفر في القرن الماضي :

« إن التفاصيل التي أوردها ليون الافريقي في وصف المغرب تتميز بالدقة، وقد جاءت الأبحاث الأخيرة لتثبت صدق كلامه حتى فيما أثيرت حوله الشكوك فيما مضى . »

مقامه في إيطاليا وعمله فيها

الشيء المعروف عند الجميع هو أنه قضى قسطا هاما من كهولته في إيطاليا حيث تقلد

وزان أوليون الإفريقي

كرسي الدراسات الشرقية في جامعة بولونيا . وفي سنة 930 هـ - 1524 م ألف لطبيب يهودي معجما عربيا عبريا لايزال مخطوطا حسب ما في خمسا (يذكر الحجوي بأنه موجود في خزانة الاسكوريال بمدريد) . وبخصوص وصف إفريقيا يذكر كثير من العلماء بأن الحسن الوزان وضع نسخه بالعربية وقد يكون هذا الوضع في شكل مذكرات إذ مما لا شك فيه مطلقا أنه وضع معالمه مسودته قبل أن يختطف من طرف القرصان الذين سبيل لمقامه العلمي حين رأوا ما تحمل حقائبه من كتب وذخائر ، يقول راموزيو ، « فلما رآه البابا يوحنا ليون دوميديسيس وأدرك أنه يهتم بعلم الجغرافية وأنه سبق له أن ألف كتابا يحمله معه ، كرمه وقادته وأثنى عليه كثيرا ومنحه مرتبات طيبة كي لايغادر البلاد وبعد ذلك ناشده أن يعتنق النصرانية ، وهكذا سكن روما طويلا وتعلم الايطالية قراءة وكتابة وترجم كتابه من العربية قدر مستطاعته » .

وقد عرف الحسن الوزان بمشاهير العرب في ايطاليا حين وضع بيوغرافية لحياتهم باللاتينية سنة 1527 .

ولا يتأتى في هذا الاطار أن نأتي على تحليل كل ما ألفه هذا العالم الجليل من كتب خدمة للفكر الاسلامي العربي في أوروبا .

كيف انتهت حياته

لا أحد يعلم كيف انتهت حياة هذا العالم الجليل : هل توفي بإيطاليا على دين المسيحية أم توفي بها وهو يخفي دين آبائه وأجداده تقية وحفاظا على مركزه وحياته ، أم أنه فر هاربا بدينه وعقيدته الأصلية ليقضي بقية أيامه بين إخوانه المسلمين .

إن هذا الافتراض الأخير هو الذي يكاد يجمع عليه عدد كبير ممن اهتموا من الأوروبيين بحياته ونشاطه العلمي الزاخر . فلقد أكدوا أنه توجه إلى تونس وذكروا أنه توفي بها سنة 944 هـ وقد بلغ الخمسين من عمره يقول . آلدو ميالي : **« إن إقامة الحسن الوزان بمعزل عن محيطه الأصلي كانت بلا ريب ثقيلة على نفسه ، والواقع أنه عاد إلى تونس سنة 1550 ليحظى بالوفاة في أرض الاسلام المقدسة ، وفي حمى دينه الحقيقي ، ونفتقد آثاره منذ ذلك الحين ، ويبدو أننا لن نعرف تاريخ وفاته ، أما المستشرق الكبير كراتشوفسكي الذي خصص كتابا قيما للتعريف بجغرافيي العرب فقد كتب ما يلي :**

« وعقب فراغه من تأليف كتابه بقليل وربما كان ذلك سنة 1528 ، تمكن بطريقة ما من الافلات عائدا إلى إفريقية ، وما لبث أن طرح المسيحية للعودة إلى دينه القديم ، وقد توفي على ما يظهر في تونس في عهد آخر الملوك الحفصيين وذلك سنة 1552 عن عمر يناهز الستين » .

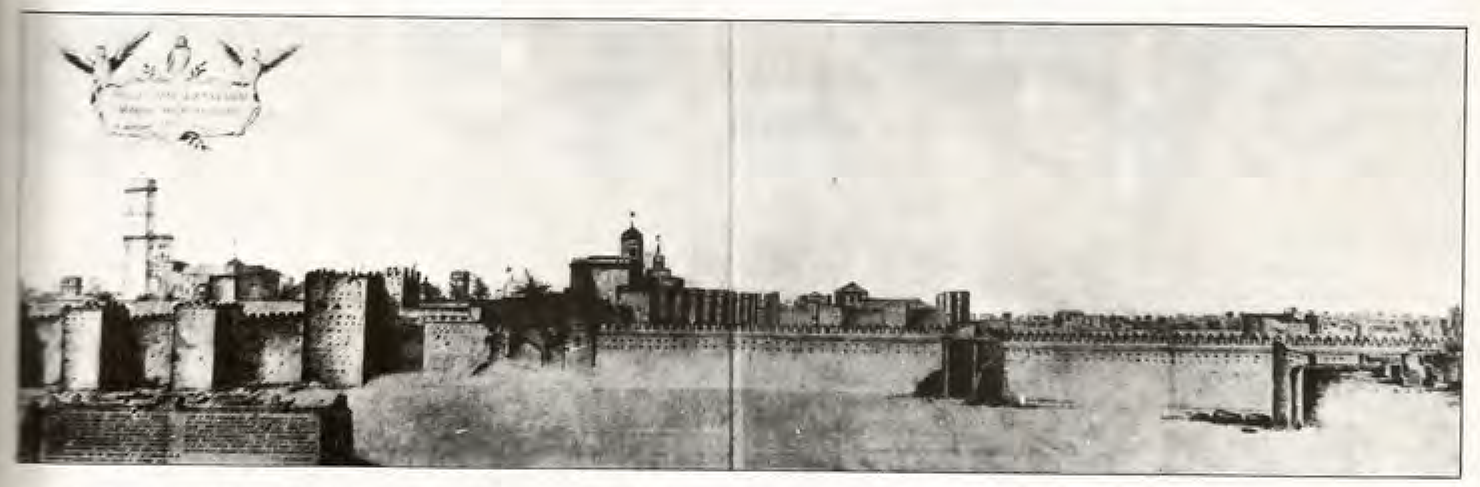
سنكتفي بهذه العجالة التي لاتفي بالمقصود ، ولكننا ونحن نشير هنا إلى الترجمتين العربيتين نرجو أن يوفق شبابنا لاقتناء إحداهما أو لاقتنائهما معا ليشفي غليله عن طريق قراءة الكتاب نفسه لمعرفة درجة هذا العالم في العلم والمعرفة وما أسداه للبشرية بمساهمته في مستهل عصر النهضة الأوروبية من خير عميم ولحضارة الاسلام في ربوع الغرب .

ونورد هنا كنموذج لكتابة صاحبنا بعض اللمسات من وصفه المأثور لمدينتي فاس ومراكش .

وصف مراكش

في هذه المدينة مساجد ومدارس وحمامات وفنادق على الشكل الافريقي . من هذه المساجد وما بناه ملوك لمتونة ، ومنها ما بناه من خلفهم من ملوك الموحدين . وفي وسط المدينة جامع في غاية الحسن بناه علي بن يوسف أول ملوك مراكش ، يسمى جامع علي بن يوسف . وقد هدمه عبد المومن من الملوك الذين جاؤوا بعد اللمتونيين وأعاد بناءه لغرض واحد ، هو أن يمحو اسم علي ويجعل اسمه هو مكانه ، فذهب عمله سدى ، لأنه لايجري على ألسنة الناس إلى الآن الا الاسم القديم (جامع ابن يوسف) .

ويوجد أيضا قرب القصبة جامع آخر بناه عبد المومن هذا ، وهو ثاني ملوك الدولة التي خلفت الدولة (اللمتونية) السابقة بعد أن ثارت عليها . وقد وسع هذا الجامع بعد ذلك يعقوب المنصور حفيد عبد المومن ، وزاد فيه خمسين ذراعا في كل جهة ، وزينه بعدة أعمدة جلبها من إسبانيا ، وبنى تحته خزان ماء بأقواس على جميع مساحة الجامع ، وأمر أن يغطى الجامع بسقف من الرصاص تحيط به قنوات ضيقة بحيث تصرف جميع المياه الساقطة عليه إلى الخزان . وشيد كذلك صومعة بالحجر الضخم المنحوت الشبيه بحجر برج الكوليزي بروما ، يبلغ محيط دائرة هذه الصومعة مائة ذراع توسكاني ، وهي أعلى من برج أزينيلي في بلونية .



مراكش سنة 1641 م. رسم لأدريان ماثام نرى فيه شمال القصبة التي وصفها الوزّان ، وجنوب المدينة . (خزانة فيينا).

يصعد إلى هذه الصومعة بواسطة مدرج مستو عرضه تسعة أشبار ، وسمك جدارها الخارجي عشرة أشبار وسمك الجدار الداخلي خمسة أشبار . وفي داخل الصومعة سبع غرف واسعة في غاية الجمال ، بعضها فوق بعض . وهذا المدرج مضاء جدا من أسفل إلى أعلى بواسطة كوى رائعة في غاية الأحكام والانتظام ، هي في الداخل أعرض منها في الخارج . وعندما يصل الانسان إلى أعلى الصومعة يجد بريجا هرمي القمة . محيطه خمسة وعشرون ذراعا بحجم الصومعة تقريبا ، وعلوه رمحان كبيران . يشتمل البريج على ثلاث طبقات مقوسة يصعد إليها بواسطة درج من الخشب . وقد ركز في أعلى هذا الهرم بإحكام تام عمود نضدت فيه ثلاث تفاحات فضية ، السفلى أضخم من الوسطى ، وهذه أضخم من العليا ، وتزن كلها ثلاثة وتسعين رطلا إيطاليا (36م) وعندما يوجد المرء في الطبقة العليا من البريج عليه أن يدير رأسه على جميع الجهات كما لو كان على مرقب صاري السفينة . وإذا نظر إلى أسفل لم ير الرجال مهما طالت قامتهم إلا كأطفال عمرهم سنة واحدة . ويظهر جليا جبل آسفي البعيد عن مراكش بمائة وثلاثين ميلا ، كما تظهر أيضا السهول المحيطة بالمدينة على مسافة نحو خمسين ميلا .

وفي وسط القصبة جامع في غاية البهاء تعلوه صومعة متناهية الجمال كذلك ، في أعلاها ركز عمود من حديد فيه ثلاث تفاحات من ذهب تزن مائة وثلاثين ألف مثقال إفريقي ، أكبرها السفلى وأصغرها العليا . وقد أراد كثير من الملوك أن يزيلوا هذه التفاحات ويسكوها نقودا عندما اشتدت حاجتهم إلى المال ، ولكنهم في كل مرة تحدث لهم حادثة غريبة تلزمهم بتركها في محلها حتى أنهم تطيروا من مسها ، وتقول العامة إن التفاحات وضعت هناك تحت تأثير أحد الكواكب ، بحيث يستحيل أن يزيلها أحد من مكانها ، كما تقول أن من ركز تلك التفاحات قرأ عليها عزائم سحرية ألزمت بعض الأرواح برصدها على الدوام .

وفي أيامنا هذه أراد ملك مراكش ، الذي كان عليه أن يصد هجمات المسيحيين البرتغاليين ولا يبالي بسذاجة العامة ، أن ينزع هذه الكرات ، لكن السكان منعوه من ذلك بدعوى أنها تمثل أشرف حلية لمراكش . ونقرأ في كتب التاريخ أن امرأة المنصور ، بعد أن بنى زوجها هذا الجامع ، أرادت أن يكون لها هي أيضا نصيب في تزيينه ، فباعت حليها من الذهب والفضة والجوهر إلخ الذي كان الملك أعطاها إياه عندما تزوجها ، وأمرت بصنع التفاحات الذهبية الثلاث التي تعطي أبهى منظر لرأس هذه الصومعة كما ذكرنا .

مراكش سنة 1641 م. رسم لأدريان ماثام ، تظهر فيه أسوار القصبة التي اندثرت اليوم . وفي أقصى اليسار تظهر الحديقة التي وصفها الوزّان . (خزانة فيينا).



« ... توجد هناك أيضا مدرسة مزخرفة بفسيفساء بديعة... ».
(مدرسة ابن يوسف . مراكش . كليشه بوعمري).



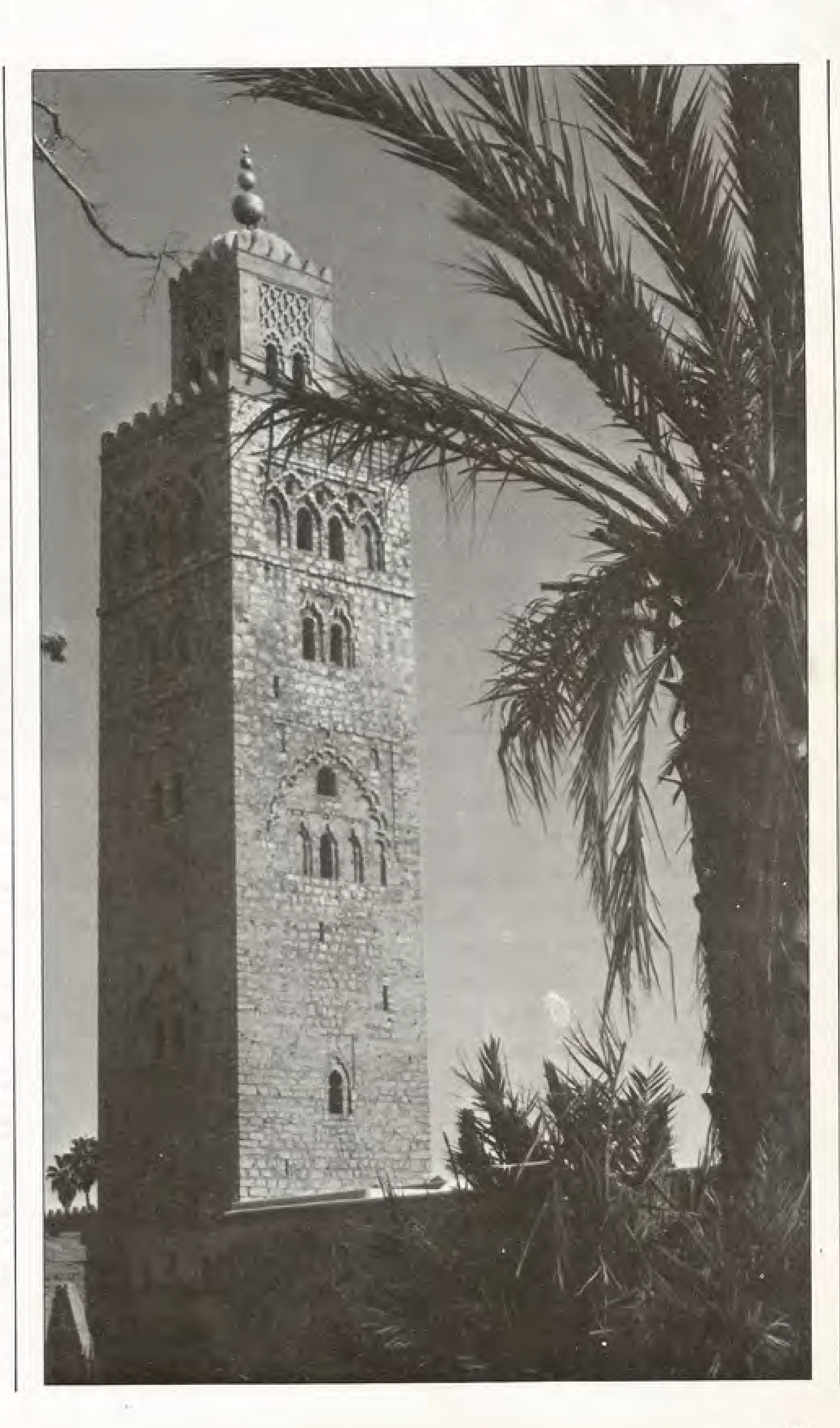
وفي القصبة أيضا مدرسة في غاية الحسن ، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى مختلف الطلبة ، تحتوي على ثلاثين حجرة ، وقاعة في الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدروس فيما سبق . وكان كل طالب مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه ويكسى مرة في السنة ، ويتقاضى الأساتذة مرتبا قدره مائة أو مائتا مثقال حسب نوع الدروس المطوقين بإلقائها . ولم يكن يقبل في هذه المدرسة إلا من كان يعرف مبادىء العلوم معرفة تامة . وهذه البناية مزخرفة بالفسيفساء البديعة ، وحيث لا توجد فسيفساء تغطي الجدران الداخلية بزليج من الطين المشوي اللماع المقطع على شكل أوراق رقيقة أو بمواد أخرى بدل الفسيفساء ، وذلك على الأخص في قاعة الدروس والممرات المسقوفة . وفناء المدرسة المكشوف كله مفروش بالزليج اللماع كالذي يستعمل في إسبانيا . وفي وسط المدرسة فسقية (خصة) منحوتة من المرمر الأبيض في غاية الجمال ، لكنها منخفضة على عادة الأفارقة . وكان بالمدرسة قديما حسبما سمعت عدد كثير من الطلبة ، لكنهم اليوم لايتجاوزون خمسة طلاب مع أستاذ جهله بالفقه فاحش ، ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالآداب وأقل من ذلك بعلوم أخرى .

وصف فاس

وبياع الفول الأخضر في موسمه بسعر رخيص جدا . وتقوم حول الساحة دكاكين تباع فيها « الشعيرية » ودكاكين أخرى تصنع كرات من اللحم المفروم تقلى بالزيت مع كمية من التوابل . ويبلغ حجم كل كرة حجم التينة العادية . ويباع الرطل منها بست ربعيات ، وتصنع من قطع اللحم البقرية غير المرغوبة . ويأتي بعد هذه الساحة ، إلى الشمال ، سوق



باب أكناو . البوابة الرئيسية ، ومركز الحراسة بالنسبة للقصبة والقصور التي وصفها الوزّان والتي لم يبق منها اليوم أي أثر .
(كليشه بوعمري).



العشابين ، وفيه يباع القرنبيط واللفت وأنواع الخضر الأخرى التي تؤكل مع اللحم . ويضم هذا السوق أربعين دكانا . ثم يأتي سوق الدخان ، حيث تباع الزلابية المقلية بالزيت ، وهي شبيهة بذلك الخبز المعسول الذي يباع في روما . ولدى باعة الزلابية في دكاكينهم أدوات عديدة وبضعة غلمان . لأنهم يصنعون هذه الزلابية بكثير من الحذق . ويبيعون منها كل يوم كمية كبيرة لأنها تؤكل كطعام إفطار ، ولاسيما في أيام العيد وقبل أيام الصوم . وتؤكل عادة مع لحم مشوي أو مع العسل أو مع ذلك الحساء القبيح المحضر بالطريقة التالية : يسحق اللحم ثم يطبخ ثم يهرس من جديد ويصنع من حساء سائل يلون بالتراب الأحمر .

هذا ويباع كذلك لحم مقلي وأسماك مقلية ونوع آخر من الخبز الخفيف ، مصنوع من أشرطة رقيقة عريضة ومتموجة ، معجون بالزبدة ويستهلك أيضا مع السمن والعسل . كما تباع كذلك كوارع مطبوخة .

ومن عادة الفلاحين أن يتناولوا في الدكاكين هذه الأطعمة الغليظة صباحا وفي ساعة مبكرة قبل أن ينصرفوا إلى أشغالهم في الحقول .

وبعد هؤلاء الباعة يأتي هؤلاء الذين يبيعون الزيت ، والسمن المالح ، والعسل ، والجبن الطازج والزيتون والجزر والقبار المصبر (أي المطبوخ بالملح أو بالخل). ولهؤلاء دكاكينهم المليئة بالأوعية المصنوعة من الخزف المايورقي ومن أدوات قيمتها أكبر من محتواها من البضاعة . وتباع جرار السمن والعسل بالمزاد ، والمنادون هم حمالون مختصون يكيلون الزيت عندما يبيعونه بالجملة . واستيعاب هذه الجرار هو مائة وخمسون رطلا ، والخزافون ملتزمون بصنع أوعيتهم على قدر هذا المحتوى بالضبط . ويشتري رعاة المدينة منهم هذه الأوعية ويملئونها ثم يعيدون بيعها في فاس .

وعلى مسافة قريبة يوجد الجزارون الذين يشغلون أربعين دكاناً مرتفعة نوعا ما ومبنية على هيأة دكاكين الحرف الأخرى . ويقومون هنا بتقطيع اللحم وبوزنه في الموازين . هذا ولا تذبح الحيوانات في دكاكين المجزرة .

صومعة استعملت في بنائها حجارة ضخمة كتلك التي استعملت في كوليزي روما .
الكتبية .(كليشه بوعمري) .

...ل في مسلخ يقع بجوار النهر ، حيث يتم سلخها ثم تحمل إلى الدكاكين بواسطة حمالين ملحقين بالمسلخ . ولكن قبل أن يتم نقلها يقتضي الأمر عرضها على رئيس الأمناء ، أي المحتسب ، الذي يفحصها ويصدر نشرة يكتب عليها السعر الذي يجب أن يباع اللحم بموجبه ، وعلى الجزار أن يلصق هذه النشرة على اللحم بحيث يستطيع كل الناس أن يروها وأن يقرءوها .

ونجد بعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية ...ـيطة البلدية . ويتألف هذا السوق من مائة دكان . ... جلب أحدهم قطعة قماش بقصد بيعها ، عليه أن ... للمنادي الذي يضعها على كتفه ويذهب من ... لآخر مناديا على الثمن . وفي هذا السوق ستون من هؤلاء المنادين . ويبدأ هذا البيع العلني في الظهيرة ... في ساعة متأخرة من المساء . ويتقاضى المنادي ... (أي 14 سنت ذهب) عن كل دينار . ... باعة هذا الصنف أرباحا طيبة .

ثم يأتي شاحذوا الأسلحة من سيوف وخناجر ... إلخ . ويقوم بعضهم بصقلها ثم بيعها .

وبعد هذا نجد الصيادين الذين يصطادون ... من نهر فاس ومن النهر الواقع في ضواحيها وهو ... وهم يبيعون أسماكا كبيرة وجيدة جدا بثمن ... أي ثلاث ربعيات للرطل . والمألوف أن ... هنا سمك ممتاز يدعى لكشيا (أي الشبوط) في ... ويبدأ الصيد في مطلع تشرين الأول (أكتوبر) ... في نيسان (أبريل كما سنورده خاصة في معرض ... عن الأنهار .

ويأتي بعد الصيادين صناع أقفاص الدجاج . ... هذه الأقفاص من القصب ، وهنا نجد أربعين ... لأن كل واحد من سكان المدينة يقتني عددا ... من الدجاج لتسمينها . وحرصا على النظافة ... الدجاجات طليقة في البيت بل تحبس في أقفاص ...

وعلى مسافة أبعد من ذلك نجد باعة الصابون ... صابونا سائلا . ولا نجد سوى قليل من ... الدكاكين متجمعة إذ نجد منها في كل الأحياء . ولا ... الصابون في المدينة بل في الجبال المجاورة ... والبغالة لبيعه من أصحاب هذه الدكاكين المذكورة .

ونجد بعدهم باعة الدقيق ، والقليل من هذه الدكاكين يكون بحالة تجمع لأننا نجدها مبعثرة في سائر الأحياء . ثم نجد باعة حبوب البذار ، وكذلك بذور الخضار ، ويبيع هؤلاء بعض حبوبهم للتغذية ولكن بكميات زهيدة ، إذ ليس من العادة أن يبيع أحد من أبناء المدينة قمحه . وفي هذا السوق عدد كبير من الذين يشحنون هذا الحب بواسطة بغال أو خيول الحمل . وينقلون عادة كيلين ونصف كيل على ظهر كل حيوان ولكن في ثلاثة عدول الواحد فوق الآخر ، وعليهم أن يكيلوا هذا الحب .

ثم يأتي بعدهم باعة القش الذين يتوزعون في عشر دكاكين . وبعدها نجد السوق الذي تباع فيه خيوط الكتان وحيث يجري تمشيط أليافه . ويقوم هذا السوق في بناء كبير محاط بأربعة أروقة ، في إحداها يوجد باعة الأقمشة الكتانية والمستخدمون الذين يزنون الخيوط . وفي الرواقين الآخرين النسوة اللائي يبعن هذه الخيوط التي تتوافر هنا بمقادير كبيرة . هذا كما يباع الخيط أيضا بواسطة المنادين الذين يتجولون به في السوق . ويبدأ البيع ظهرا وينتهي عند العصر . وتباع كمية كبيرة من هذه الخيوط . وقد زرعت في وسط الساحة بضعة أشجار توت لنشر الظل . ويقصد الناس أحيانا هذا السوق بغية التسلية ، ولا يمكن الخروج منه إلا بجهد جهيد بسبب كثرة النسوة اللواتي يذهبن إليه وكثيرا ما ينشب الخصام بين النسوة وينتقلن من تبادل السباب إلى تبادل اللكمات ويتلفظن بأقبح الشتائم في الدنيا مما يثير الضحك لدى الحاضرين .

ولنعد الآن إلى الجزء الغربي ، أي إلى القسم الذي يمتد من جوار الجامع حتى الباب المؤدي لطريق مكناس .

وبعد سوق الدخان ، وذلك بالسير على خط مستقيم ، نجد صناع الدلاء الجلدية التي تستعمل في البيوت المحتوية على آبار ، ويشغلون قرابة أربعة عشر دكانا ، ثم يأتي أولئك الذين يصنعون الأوعية اللازمة لخزن الدقيق والقمح ، وهم ثلاثون دكانا . وبعد ذلك نجد الأسكافين وبعض الحذائين الذين يصنعون أحذية غليظة للفلاحين ولفقراء العامة ، ويشغل هؤلاء مائة وخمسين دكانا . ثم يأتي صناع التروس والمجنات الجلدية حسب الطراز الافريقي ، والتي نرى بعضها في أوروبا .

ومن ثم يأتي الذين يغسلون الثياب وهم من فقراء الناس ، ولديهم دكاكين تثبت فيها أوعية كبيرة كالحلل أو الدسوت . ويفد إليهم الذين ليس لديهم خادمات في بيوتهم ، فيعطونهم القمصان والملاءات والألبسة الأخرى لغسلها ، ويقوم هؤلاء الرجال بتنظيفها بعناية كبيرة ثم ينشرونها على الحبال لتجفيفها ، كما هو مألوف في إيطاليا ، ثم يثنونها بمهارة . وبذلك يجعلون الغسيل نقيا جدا وناصع البياض بحيث لايستطيع صاحبه التعرف عليه ألا بصعوبة . وهكذا نجد هنا حوالي عشرين دكانا لهؤلاء ، ولكن يوجد بين كل الشوارع وبعض الأسواق الصغيرة أكثر من مائتين من دكاكينهم .

ونرى بعدئذ صناع هياكل سروج الخيل ولهؤلاء عدة دكاكين في الحي الواقع إلى الغرب ، باتجاه مدرسة الملك أبي عنان . ثم يأتي الحرفيون الذين يعملون في زخرفة الركابات والمهاميز والقطع المعدنية في اللجامات ويشغلون أربعين دكانا . وينجز هؤلاء أعمالا فنية مدهشة ، ولربما رأى أحدكم بعض هذه الأشياء في إيطاليا أو في أي بلد نصراني آخر . وبعدهم يأتي الحدادون الذين لايصنعون سوى الركابات واللجامات والقطع المعدنية التي تدخل في كسوة الخيول وجهازها ، وبعد مسافة قصيرة نجد صناع جلود السروج الذين يصنعون لكل سرج ثلاث زوائد جلدية توضع بعضها فوق بعض ، وتكون الوسطى أكثرها رونقا ، والسفلى أقل جمالا ، والثلاث من الجلد القرطبي . وصناعة هؤلاء السراجين دقيقة ومتقنة ، ولها نظائر في إيطاليا والبلاد المسيحية الأخرى . ولهؤلاء مائة دكان . ثم نجد صناع الرماح ومصانعهم فسيحة نوعا ما كي يمكن صنع رماح طويلة في داخلها .

وبعد ذلك تظهر القصبة التي تتميز بشارع بديع جدا يمتد من الباب الغربي حتى قصر كبير فسيح يقطن فيه أخت الملك أو أحد أقاربه . ويلاحظ أن وصف الأسواق هذا يبدأ من الجامع الكبير . وقد تكلمت عن تلك التي تطيف به مرجئا الكلام عن سوق التجار لآخر الحديث كي لا أقطع ترتيب هذا الوصف .

السيدة الحرة العاهلة الفذة

محمد بن عزوز حكيم



قال الرجل الصالح ، شيخ الاسلام أودجال ، وهو يضع يده مباركا ، على رأس الطفلة الصغيرة التي جاءت لتتلمذ عليه وهي في العاشرة من عمرها : « هذه الطفلة سيكون لها شأن كبير » .

كان هذا الحدث سيظل مجرد حدث عابر ، لولا أن هذه الطفلة الصغيرة طبعت ، فيما بعد ، تاريخ شمال المغرب المسلم حوالي نهاية القرن العاشر للهجرة .

وكانت هذه الحركة التي أبداها الشيخ ستظل مجرد شكلية شعائرية تافهة لو لم تكتسب هذه الطفلة اسما مشهورا هو « السيدة الحرة » أو الأميرة النبيلة كما يحلو لعدد كبير من المؤرخين الاسبانيين والبرتغاليين أن يلقبوها .

غريب قدر هذه المرأة ، الحرة بنت علي الرشيد ، المزدادة حوالي سنة 900 هـ . إن تاريخ المغرب لم يقدم لنا أمثلة أخرى منذ انتشار الاسلام في ربوعه عن نسوة حكمن منطقة بكاملها ومارسن سلطة تكاد تكون مطلقة .

عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادي أسس أحد الشرفاء الأدارسة القايد مولاي علي ابن الرشيد مدينة الشاون ، وقاد الجهاد ضد

رسم للسيدة الحرة منقول من المعرض المقام بمناسبة الذكرى الخمسمائوية لتأسيس الشاون (سنة 1971).
(مجموعة ابن عزوز حكيم).

السيدة الحرة

برتغاليين في كل من سبتة وطنجة وأصيلة ، وقد كان هذا القائد قد تلقى فنون الحرب في اسبانيا خلال فتوته .

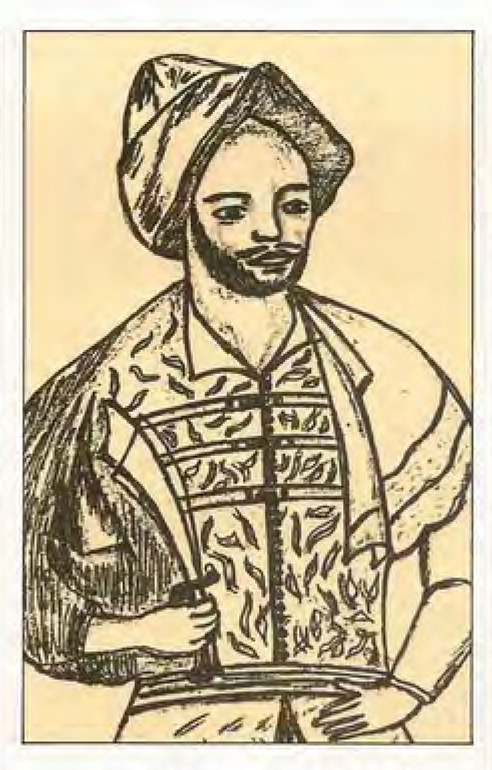
وطوال مقامه بالأندلس ، تزوج سيدة اسبانية مسلمة ، أطلقت على نفسها أسم للازهرة بعد أن أعلنت إسلامها . وكان أصل هذه المرأة من مدينة واقعة على الطريق الواصل بين طريفة وقادس .

وقد أنتج هذا الزواج حوالي سنة 14.. م . ولدا هو مولاي إبراهيم . ثم بعد خمس سنوات ازدادت الحرة . وكان عليها أن تتلقى تربية جديرة بالأسر الشريفة في تلك الحقبة ، وذلك بتتلمذها على يد عدد كبير من مشاهير الشيوخ ، أمثال أبي محمد عبد الله الغزواني . وكانت قد تلقت تعليما مزدوجا على يد أخيها مما سمح لها بالتمكن من عقلية ونفسية الأوربيين ، البرتغاليين والاسبانيين منهم على الخصوص .

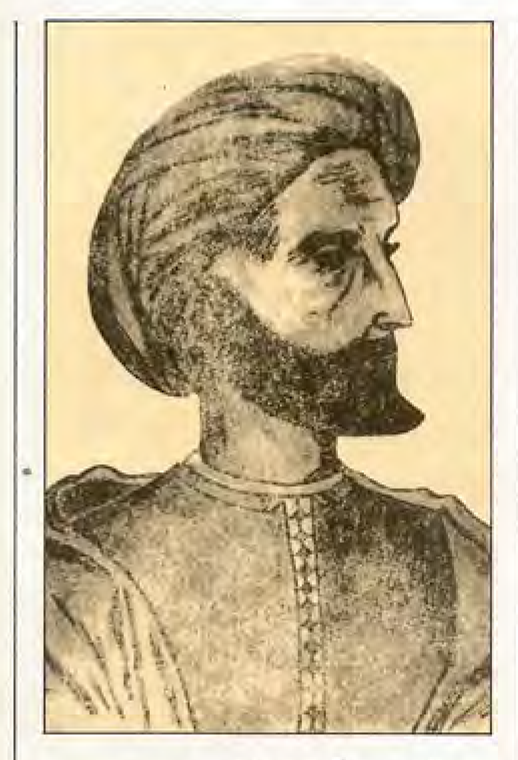
وقد انتقلت هذه المرأة ، التي أصبحت فيما بعد زوجة المندري الثاني ابن أخ المندري الأول مسير محدد مدينة تطوان والذي كان في خدمة بني الأحمر إبان حرب غرناطة ، إلى مدينة تطوان في الأول صغيرة السن حيث تسنى لها أن تنمو بسهولة داخل الوسط الأندلسي المتعلم المحافظ الذي تربت في أحضانه . وقد كانت السيدة الحرة بفعل تأثرها بزوجها وبيئته مثالا للحنكة في فن السياسة وفي معرفة خبايا المجتمعات المقيمة على ضفتي البحر الأبيض المتوسط .

وقد استطاعت بفضل هذه الموهبة ونتيجة لذكائها الفريد وتعليمها الجيد الذي تلقته في أولى سنوات عمرها أن تكتسب قدرا وفيرا من الدراية والحكمة رغم طبعها الحاد .

وفي سنة 1518 م . وعلى إثر وفاة زوجها الذي خلفت منه طفلة ، تم اختيارها والية على مدينة تطوان في نفس الوقت الذي تم فيه تعيين أخيها مولاي إبراهيم عاملا على نفس المدينة .



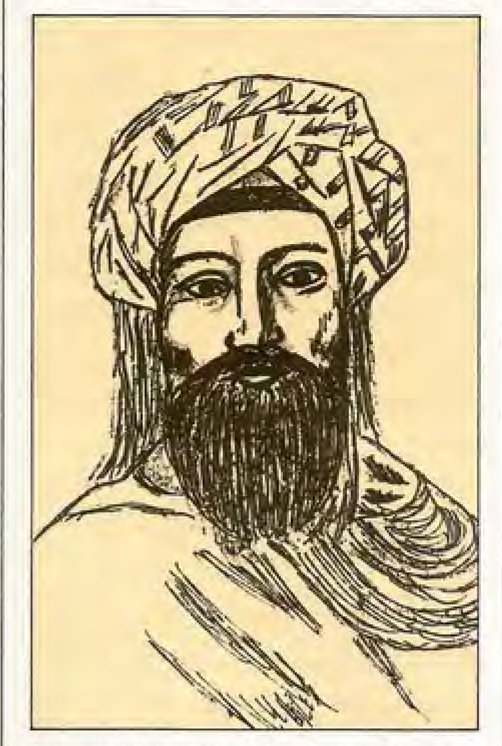
مولاي علي بن الرشيد ، والد السيدة الحرة .
(معرض الشاون 1971) - (مجموعة ابن عزوز حكيم).



مولاي ابراهيم ، أخوالسيدة الحرة .
(معرض الشاون 1971) - (مجموعة ابن عزوز حكيم).



المندري الثاني ، الزوج الأول للسيدة الحرة .
(معرض الشاون 1971) - (مجموعة ابن عزوز حكيم).



المندري الأول القائد في جيش ابن الاحمر بغرناطة ومجدد مدينة تطوان (معرض الشاون 1971) - (مجموعة ابن عزوز حكيم).

قصة تفاحة

من هو المندري ، معيد بناء تطوان ، هذه المدينة التي شيدت تارة وهدمت تارة أخرى ؟

هو أبو الحسن المندري من مواليد غرناطة كان أحد المرافقين للأمير المجاهد ابن الأحمر وأحد قواده المهرة .

وفي نهاية القرن الخامس عشر هاجر المندري ، كما يسميه بعض المؤرخين ، على رأس عدد كبير من سكان غرناطة قبل سقوط هذه الإمارة ، حيث نزل هؤلاء الأهالي عند مصب واد مارتيل . وتوجه إلى فاس وفد منهم فمثلوا بين يدي السلطان محمد الشيخ الوطاسي ، الذي أكرم وفادتهم ومنحهم الإذن بالاستقرار فوق أطلال المدينة المندثرة (تطوان) .

ثم أكد السلطان بعد ذلك زعامة المندري على هؤلاء الأهالي ، الذين سرعان ما أعادوا إقامة أسوار تطوان وشيدوا بها مباني جميلة ومساجد كبيرة .

وبعد أن إستتب لهم الأمر ونظموا شؤونهم ، أعلنوا الجهاد ضد البرتغاليين الذين جاءوا للإستقرار بسبتة و القصر الكبير . وقد ساهم ثلاثة آلاف من أسرى هذه الحرب في إنماء أعمال إعادة بناء مدينة تطوان ، وقد تمت قبل سقوط غرناطة .

وقد أكد هذا الخبر نص السلاوي الذي نقل إلينا بأن أهالي تطوان يزعمون بأن تاريخ إعادة بناء هذه المدينة يتضمنه الاسم العربي المتشابك الاحرف « تفاحة » ، وبالفعل فإننا بإعطائنا رقم 1000 للألف ، وبحسابنا للقيمة الرمزية للأحرف الأخرى سنحصل في الاخير على الرقم 1491 .

وهكذا ، وبفضل « تفاحة » ، وضع هذا التاريخ لنفسه رقما...

وانطلاقا من هذا التاريخ ، أصبحت هذه الأميرة تظهر في الكتابات التاريخية البرتغالية ، بسبب أسر الأميرال القرصان البرتغالي المشهور « بورتيروندو » . وكان هذا الأخير قد سيق إلى ميناء مارتيل في ضواحي تطوان ، حيث شاءت السيدة الحرة أن تنظر في مصيره .

باربروس على الطريقة النسائية

من المعتقد أن السيدة الحرة بدأت تهتم بتطور أعمال القرصنة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، إثر تعيينها والية على تطوان ونواحيها ، وتعيين أخيها كوزير أعظم للسلطان مولاي أحمد الوطاسي بفاس . فقد ربطت الاتصال بخير الدين القرصان العثماني المعروف باسم « باربروس » ، ثم انكبت على صناعة المراكب بمجرى مارتيل للقيام صحبة حليفها الجديد بعمليات محبوكة ضد السواحل الاسبانية .

وقد نتجت عن هذا النشاط البحري الذي جنت السيدة الحرة منه غنائم وفيرة صعوبات جمة في مفاوضات السلم التي كانت تجري خلال سنتي 1537 و 1538 بين الوزراء المفوضين في كل من فاس ولشبونة والتي كانت تتأرجح بين الفشل والنجاح .

كانت الصعوبة الرئيسية تتمثل في عدم قدرة الوزير الأعظم مولاي إبراهيم على الحيلولة دون استمرار أخته في ممارساتها القرصانية . فقد كان يشترط خلال المفاوضات أن تسمح معاهدة السلم باستمرار أخته السيدة الحرة في نشاطاتها البحرية انطلاقا من نهر مارتيل ضد الأسطول الاسباني ، دون أن يلحق ذلك ضررا بالاتفاق المغربي البرتغالي .

وبفعل القوة التي اكتسبتها السيدة الحرة ، والتي جعلتها في مستوى تشكيل تهديد للسلطة في فاس ، أجبرت هذه الأميرة البلاط الملكي بفاس على قبول بنود يخول لها نوعا من الاستقلال الذاتي .

وقد غدت سلطة هذه الأميرة من القوة والاتساع ما دفع حاكمي طنجة وأصيلة البرتغاليين إلى مساندة وجهة نظرها والدفاع عنها لدى العاهل البرتغالي يوحنا الثالث حيث كتبا إليه بأنها حققت من المكاسب خلال سنة 1537 ما يجعلها غير مستعدة للتنازل عن امتيازاتها .

السيدة الحرة



السلطان مولاي احمد الوطاسي ، الزوج الثاني للسيدة الحرة . معرض الشاون 1971 ميلادية) - (مجموعة ابن عزوز حكيم).

وهكذا استمرت السيدة الحرة تحكم تطوان بكل حرية إلى أن وافت المنية أخاها بمكناس سنة 1539 م .

وقد أقدمت بعد ذلك على مناورة سياسية جديدة مكنتها من التمتع باستقلالها . إذ أنها تحالفت مع المندري الثالث الذي زوجته ابنتها الوحيدة ، وأشركته معها في تسيير شؤون المدينة .

غير أن هذه الشركة لم تدم طويلا ، إذ أن حدثا آخر بالغ الأهمية جاء ليغير مجرى حياة هذه السيدة الفريدة . فقد تزوجت سلطان فاس مولاي أحمد الوطاسي الذي تركها بعد أن زار تطوان بمناسبة أفراح العرس وقد تركزت ولايتها على المدينة ورسخ حكمها فيها بعد أن أصبحت زوجة للسلطان .

وقد كان هذا الزواج ، دون شك ، هو الوحيد الذي يحتفل به سلطان من المغرب خارج عاصمة ملكه ، بل والأدهى من ذلك ، في منطقة نفوذ عروسه . وقد كان يقال آنذاك إن السبب في تجاوز المراسم البروتوكولية في هذا الزفاف يرجع إلى أن السيدة الحرة كانت ترفض أن تهجر مدينتها لتهب نفسها لحياة زوجية بعيدة عن أي نفوذ سياسي مباشر أو مهام سياسية فعلية .

غير أن الواقع كان خلاف ذلك تماما ، فالسلطان مولاي أحمد الوطاسي كان بحاجة إلى دعم السيدة الحرة إياه في مواجهة السعديين الذين كان نفوذهم قد اجتاح مدينة مراكش .

وقد تم مؤخرا اكتشاف عقد النكاح الموثق لهذه الزيجة ، وهو مؤرخ في الخامس من ربيع الأول سنة 948 هـ . (30 يونيو 1541م) .

في تلك الحقبة ، كانت العداوة التي تكنها السيدة الحرة للبرتغاليين وخاصة منهم حكام سبتة ، قد بلغت درجة جعلت القنصل البرتغالي بفاس يضطر إلى أن ينصح العامل ألفونسو بسبتة في رسالة بعث بها إليه في 30 أغسطس 1541 بإقفال حدود هذه المدينة .

غير أنه إذا كانت السيدة الحرة حقيقة تولي الأهمية لميناء سبتة الذي تستورد عن طريقه البضائع والسلع القادمة من أوروبا والتي تحتاجها هي وكذا سكان مدينة تطوان ، فإن البرتغاليين ، بالمقابل ، كانوا هم أنفسهم يحققون أرباحا ومكاسب وفيرة من جراء تجارتهم مع المدينة ونواحيها .

وفي مواجهة التهديد الذي كان يشكله

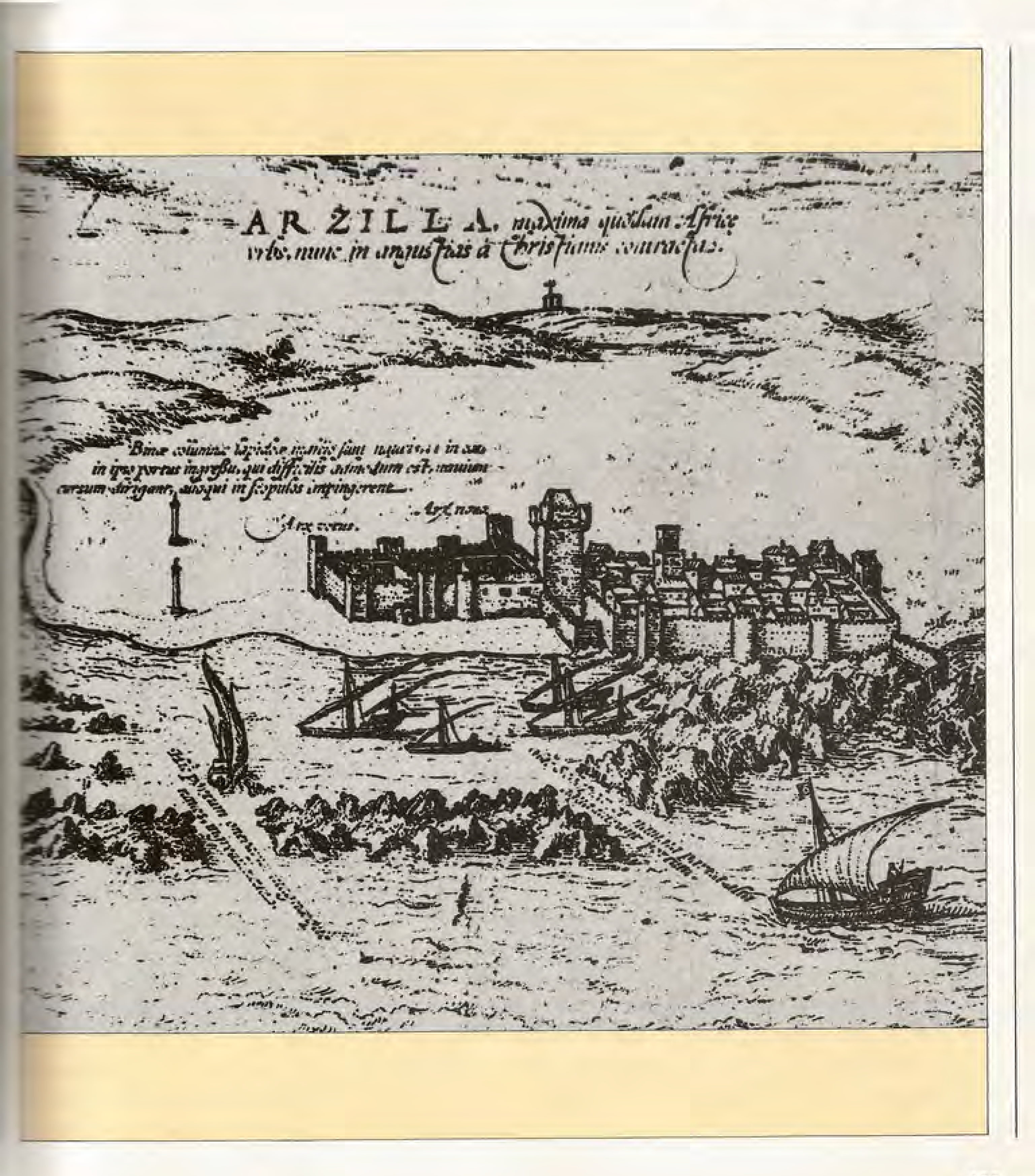
بالنسبة لعدد كبير من المؤرخين يرجع بعضهم إلى بعض تكون تطوان قد أسست سنة 1492 م. على يد المندري .

وبالنسبة لآخرين ، فإن هذا التأسيس يرجع إلى قرون أخرى قبل ذلك ، حيث كانت المدينة قد هدمت سنة 1400 م. من طرف أسطول قشتالي .

غير أن هاتين النظريتين لا تتفق أي منهما مع الواقع . فتطوان كانت توجد أيام الادارسة . وبعد أن هدمت وأعيد بناؤها مرات عديدة تمت إعادة تشييدها من لدن السلطان أبي ثابت سنة 1308 م. وبعد أن هدم برتغاليو سبتة جزءا منها سنة 1437 م. أعيد بناؤها مرة أخرى من طرف المسلمين الاندلسيين الاوائل الذين قدموا إلى المغرب قبل سقوط غرناطة سنة 1484 م.

وقد تمت هذه العملية الاخيرة على يد الامير مولاي علي بن الرشيد مؤسس الشاون سنة 1471 ، وأول عامل لمدينة تطوان إلى غاية 1493 م وهي السنة التي قدم فيها المندري من غرناطة ، وعمل على توسيع المدينة وتسيير شؤونها كخليفة لمولاي علي إلى غاية وفاته سنة 1505 م.

وقد خلف المندري الاول ابن أخيه المندري الثاني صهر مولاي علي المتوفى سنة 1518 ، ثم خلفه في ذلك مولاي ابراهيم ، ابن مولاي علي الذي حكم تطوان إلى غاية سنة 1525 م. وهو التاريخ الذي عينت فيه السيدة الحرة على المدينة عاملة سنة 1528 ، ثم كوالية عليها إلى سنة 1541 وأخيرا خليفة للسلطان إلى سنة 1542 م.


ARZILLA.
Arx vetus.

يؤكد كاتب هذا المقال محمد بن عزوز حكيم بأن السيدة الحرة خلفت من زوجها المندري الثاني طفلة وحيدة . وتشير وثائق أخرى دون اقتناع شديد إلى أن السيدة الحرة ربما كان لها على إثر زواج ثان من أحد الشرفاء الحسانيين هو سيدي محمد بن علي المعروف باسم ابن عسكر ، المؤرخ ، وصاحب مؤلف « دوحة الناشر ».

وقد وجدنا في وثيقة ثانية بأنه بعد الانقلاب الذي تعرضت له السيدة الحرة ، لجأت هذه إلى أخيها من أبيها ، مولاي محمد ، قائد الشاون حيث أسست زاوية أصبحت فيما بعد مشهورة بفضل تقوى هذه السيدة وفقهها وورعها . ثم انتقلت على مايبدو إلى القصر الكبير حيث كان من يعتقد أنه ابنها ، ابن عسكر ، قائدا على هذه المدينة فظلت هناك إلى أن وافتها المنية في 14 يوليوز 1562 م. فدفنت بباب سبتة ، وهي احدى بوابات القصر الكبير .



شعار السيدة الحرة .

ألفونسو دو نورونا حجزت السيدة الحرة البريد الذي كان ملك البرتغال قد أرسله إلى ممثله بفاس . ولم يجد العامل البرتغالي بسبتة بدا من إقفال حدود مدينته بعد أن نفذ صبره . وانطلاقا من هذه الآونة ، بدأت السيدة الحرة في استخدام جميع وسائلها وإمكاناتها لمضاعفة غاراتها البحرية ليس على الاسبانيين فحسب ، وإنما أيضا على البرتغاليين . وهكذا ، ففي 6 أغسطس 1541 احتجزت المراكب التطوانية سفينة برتغالية من طنجة كان على متنها اثنا عشر رجلا وأربع نسوة اقترحت الأميرة على عامل سبتة أن يستعيدهم منها لقاء فدية يفديهم بها . إلا أن العامل رفض بحجة أن عملية الأسر هذه تمت في فترة هدنة . فما كان من السيدة الحرة إلا أن أجابته بمزيد من الهجوم والمناوشات المستمرة ضد جميع قطع الأسطول البرتغالي .

التحالف ضد السيدة الحرة

إن السيدة الحرة بقطع علاقاتها مع البرتغاليين وبزواجها من ملك كان عرشه أصبح مترنحا مزعزع الأركان ، كانت تناور لتجمع وتضم إليها مجموع الشمال المغربي لتعمل بذلك على ترسيخ سلطة زوجها في الجنوب ، دون أن تنسى تصفية حساب قديم لها مع أخيها مولاي محمد أمير الشاون . وبالفعل ، فقد كان هذا يدس ويكيد بغية الاستئثار بمدينة تطوان ، ثم عاد بعد فشله في ذلك إلى إعلان عصيانه لسلطان فاس .

كانت الحالة السياسية في مجموع البلاد قد أصبحت في أوج اضطرابها ، فالسعديون كانوا قد اقتطعوا عددا من المناطق ، والبرتغاليون أقفلوا حدود سبتة ، والأمير مولاي محمد كان قد تحالف مع أعداء السلطان والسيدة الحرة .

وكانت هذه الأخيرة منزوية على نفسها تتحمل شراسة وحقد الأجانب وحتى الأقارب الذين لم يعودوا يستطيعون القيام بعملياتهم التجارية المربحة بسبب قطع العلاقات المغربية البرتغالية .

وبشكل خجول متردد في بادىء الأمر ، ثم صريح واضح فيما بعد ، اجتمعت كل هذه الأطراف لتحبك مؤامرة تهدف إلى الاطاحة بالأميرة . وهكذا تعاون على ذلك ليس فقط البرتغاليون المقيمون بسبتة ، وإنما أيضا صهر السيدة الحرة ، المندري الثالث ، الذي كان قد أبعد على إثر اقترانها بالسلطان ، والمندري الرابع ، والد صهرها وأخيها من أبيها مولاي محمد .

وبطبيعة الحال سعت هذه المرأة السياسية ، في محاولة منها للخروج من هذا المأزق ، إلى التصالح مع عدوها الأبدي ، حاكم سبتة ، حتى تحمي ظهرها وتضمن ولاء التجار ووفاء محيطها الذي كان يرى أفراده أنهم تضرروا كثيرا من جراء إقفال الحدود .

ولأنها كانت متكبرة ترفض أي اتصال مباشر بالعامل ألفونسو دونورونا فقد طلبت من زوجها السلطان مولاي أحمد الوطاسي أن يعهد إلى القنصل البرتغالي بفاس باستياو دو فركاش بهذه المهمة . فالتحق بسبتة بناء على ذلك ، في

أصيلة سنة 1500 ميلادية .

دستور النفار

كانت القصبة القديمة التي توجد حاليا على شكل أطلال في قلب تطوان من عمل المندري الاول .

وقد كانت الطرافة التي استرعت انتباه المؤرخين لا تتعلق بالفن المعماري في حد ذاته ، والذي يعتليه برج شامخ ، وانما بتلك الاشارة أو كلمة السر ، التي تطلق كلما اقترب مركب أو سفينة من شواطىء المدينة . فقد كان الحارس يتربص بصورة مستديمة فوق الاعالي حيث يشرف على الافق . وبمجرد ما كان يلمح شيئا ما أو جسما يبدو فوق سطح البحر ، كان يقبض على مزمار طويل يسمى « النفار » وينفخ فيه معلنا بذلك مشاهدته .

وقد كانت الثكنات والقيادات العسكرية على الخصوص تحصي عدد النفخات التي تزيد عن النفخة الرابعة بانتباه بالغ ، إذ كانت النفخة الخامسة تعني اقتراب السفن الصغيرة ، والسادسة تعني المراكب المتوسطة ، وبعد النفخة الثامنة كان الجميع يوضع في حالة استنفار ، لان النفخة المنبئة التاسعة كانت تعني ظهور البواخر الحربية .

وقد أفادت هذه الاسطورة بأن هذا الاستعمال للنفار ظل متداولا لزمن طويل بعد هلاك مبتدعيه .

محاولة لاصلاح ذات البين بين هذين الخصمين اللدودين .

وقد قبل حاكم سبتة مغتبطا إعادة علاقاته مع السيدة الحرة ، التي دفعها استردادها للثقة في النفس إلى إعادة فتح ميناء مارتيل في وجه القراصنة الأتراك الذين استمرت في إقامة العلاقات الجيدة معهم .

وفي 22 أكتوبر 1542 ، دقت أجراس نهاية هذه الأميرة العظيمة المولودة من أب مغربي وأم إسبانية ، والمخلدة بحكم قوي هيمن على شمال المغرب المسلم طوال سبع عشرة سنة .

ففي أي الظروف إذن اضطرت السيدة الحرة إلى التخلي عن الحكم؟

كان مولاي محمد الحسن المندري والد صهر السيدة الحرة ، الذي أصبح فيما بعد المندري الرابع ، قد نجح في ضمان دعم وعطف القبائل التابعة لأخيها من أبيها مولاي محمد ، وكذ[...] قائد القصر الكبير وربما غيره من زعماء [...] والزوايا ، ليصل في الأخير إلى تكوين جيش من المتطوعين وبالتالي إلى طرد السيدة الحرة من عاصمتها تطوان .

ولايعرف أحد ماذا حل بالسيدة الحرة بعد طردها من تطوان ، اللهم إلا ما نصت عليه الوثائق من مصادرة ممتلكاتها وأموا[لها] ومتاعها .

ومن خلال المراجع القليلة التي نتوفر [عليها] وعلى الخصوص منها الوثائق البرتغالية (فالأخبا[ر] التي كان يدونها المغاربة كانت تركز على الاهم[...] الذي يستدعيه تمركز امرأة في السلطة) يظهر [أن] السيدة الحرة كانت امرأة موفقة ينعتها البعض بالذكاء البالغ مع الشراسة والاندفاع ، بينما يشير إليها البعض الآخر كعاملة جليلة وصالحة من الصلحاء الأتقياء .

منظر عام لمدينة تطوان التي كانت تحكمها السيدة الحرة



المندري الرابع ، الرجل الذي طرد السيدة الحرة ووالد المندري الثالث زوج الابنة الوحيدة للسيدة الحرة .
(معرض الشاون 1971) - (مجموعة ابن عزوز حكيم).

السيدة الحرة



في سنة 1541 ، عندما كان السلطان مولاي أحمد الوطاسي لا يزال بتطوان بعد احتفالات زفاف السيدة الحرة إليه ، استقبل السفير البرتغالي بيريس دو تابورا ، مبعوث الملك يوحنا الثالث ، في شهر يوليوز 1541 م للتباحث في موضوعات تهم البلاطين .

وطوال هذه الفترة ، كان يوجد في زيارة لتطوان (أبريل 1540) عالم اللاهوت واللغوي الهولندي المشهور نيكولا كلينار الذي كان يسافر إلى فاس بحثا عن المخطوطات التي تخوض في علم اللاهوت لدى المسلمين واستعمال اللغة العربية ضد المسلمين ودحض الدين الاسلامي ، كما صرح بذلك بنفسه في رسالة محررة بتطوان في 19 من نفس الشهر .

وبعد أن أقام بهذه المدينة خلال عشرة أيام عاد فتوجه إلى فاس في التاسع والعشرين منه .

وفي هذه الاثناء ، وقع الهجوم على جبل طارق من أسطول القراصنة الجزائريين ، الذين كانت تساعدهم السيدة الحرة بأسطولها . وفي جبل طارق حققت هذه غنائم هائلة وأسرت أعدادا كبيرة ساقتها إلى مارتيل حيث تم تقسيم ذلك بين الطرفين الحليفين . وقد آل إلى قراصنة تطوان ثمانون من النسوة والاطفال الاسبانيين استعملوهم في جلب الفدية التي كان يدفعها مقابلهم حاكم سبتة ألفونسو دو نورونا البرتغالي .

وفي نهاية سنة 1540 م. قام عملاء نورونا بغارة على الضواحي القريبة من تطوان حيث أسروا ثلاثة من الفتيان غنموا قدرا كبيرا من رؤوس الماشية مما أود إلى خلق مشكل بين بلاطي فاس ولشبونة ، بسبب إصرار السيدة الحرة على اطلاق سراح الاسرى الثلاثة ، وإعادة الماشية التي غنمها المغيرون ، وكذا معاقبة هؤلاء على فعلتهم .

وفي سنة 1540 ، التحق للمرة الثالثة بتطوان المبعوث الاب كونتريراس الذي كان مكلفا بدفع فدية الاسرى بفاس وتطوان من أموال جمعها في اسبانيا . غير أنه بعد استرجاعه لاسرى فاس وجد نفسه مدينا بمبلغ 3000 دوطا (وهي عملة ذهبية إيبيرية قديمة). وقد اضطر تاجران إشبيليان كانا يقيمان بالعاصمة المغربية إلى ضمانته إلى أن يدفع المبلغ المترتب عليه . لكنه ما أن وصل إلى تطوان حتى ألقت عليه السيدة الحرة القبض ، ولم تأذن بالافراج عنه إلا بعد أن توصلت من سبتة بالمبلغ المذكور .

الجزء الثاني



دولة السّعديين

تتميّز الموضوعات التي اختيرت عن فترة السعديين بتضمّنها لملحمات مثيرة . وقد عرفت هذه المرحلة من تاريخ المغرب (الجزء الثاني) فترات من الشدّة تخلّلها مصاعب وانتصارات . وقد ترك المغرب السعدي على صفحات التاريخ ، من بداية القرن السادس عشر وإلى منتصف القرن السابع عشر ، بصمات متميّزة .

وتعتبر حياة عبد المالك السعدي ، ومعركة وادي المخازن ، وعلاقات المغرب بالسودان ، وجهاد العياشي ومعارك قراصنة سلا ، مواضيع من الاهمية بمكان ، ينبغي للقارىء أن يتعرف عليها في هذا الفصل ، كما يجب أن يتعرف على دور الزاوية الدلائية ، وعلى الأهمية التي اكتستها تجارة الذهب والسكر والملح ، ثم على بداية دخول التبغ إلى المغرب .

لائحة تواريخ السلاطين السعديين

أبو العباس الاعرج (بمراكش)	1520 - 1543
أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي (بمراكش)	أغسطس 1543
نفس السلطان بمراكش وفاس	يناير 1550 - 1554
نفس السلطان بمراكش وفاس	أغسطس 1554 - شتنبر 1557
مولاي محمد عبد الله الملقب بالغالب بالله	أواخر 1557 - يناير 1573
أبو عبد الله محمد المعتصم	31 يناير 1573 - أبريل 1573
أبو مروان عبد الملك	أواخر مارس 1573 - 4 أغسطس 1578
أبو العباس أحمد المنصور الذهبي	أغسطس 1578 - أكتوبر 1603
عبد الله أبو فارس الواثق (بمراكش)	أكتوبر 1603 - فبراير 1607
المأمون الشيخ (بفاس)	يناير 1604 - أبريل 1608
المأمون الشيخ (بمراكش)	فبراير 1607 - أبريل 1608
زيدان (بمراكش)	1608 - شتنبر 1627
عبد الله ولد المامون (بفاس)	أغسطس 1609 - مايو 1624
عبد الملك ، ولد المأمون (بفاس)	مايو 1624 - 1627
عبد الملك ، ولد زيدان (بمراكش)	شتنبر 1627 - يناير 1631
أبو العباس أحمد الثاني ولد زيدان (بفاس)	نوفمبر 1627 - يوليوز 1628
الوليد ، ولد زيدان (بمراكش)	يناير 1631 - فبراير 1636
محمد الشيخ الثاني ، ولد زيدان (بمراكش)	فبراير 1636 - 1654
مولاي أحمد العباس (بمراكش)	1654 - 1659



شجرة نسب السعديين

(أسماء أفراد الاسر الذين حكموا وضعت داخل إطار)

التهديد العثماني وتاس

محمد حجي

ظهور الأتراك العثمانيين بشمال إفريقيا في مطلع القرن السادس عشر مرتبط بتدهور أوضاع الغرب الاسلامي . فقد انتهت دولة الاسلام في الأندلس بسقوط غرناطة قبل سنوات دون أن يصرخ الأندلسيين أحد ممن استصرخوهم من خلفاء القسطنطينية أو غيرهم ، وتوالى سقوط ثغور أقطار المغرب في أيدي الغزاة الايبيريين المسيحيين من أقصى السواحل التونسية إلى رباط ماسة بسوس المغرب الأقصى دون أن يتمكن متطوعة المجاهدين من صد المهاجمين وتأكد عجز الدول الثلاث في تونس وتلمسان وفاس التي كانت قد شاخت وأشرفت على السقوط .

لذلك اعتبر وصول الأخوين التركيين عروج وخير الدين (بربروس) بأسطولهما الحربي الجهادي إلى جزيرة جربة بارقة أمل للأفارقة الشماليين . — ولو أن أمر الرجلين ظل لغزا لم يستطع التاريخ حله حلا نهائيا حتى الآن — وأخذ الأمل يقوى كلما انتصر هذا الأسطول على المسيحيين في عرض البحر ، أو هاجمهم في الثغور المحتلة فحاصرهم واستنزلهم من حصونهم أذلاء أسراء ؛ كما أخذ نفوذ البطلين التركيين يتسع ويشيع بين السكان فتكاثر من حولهم عدد المجاهدين ، وامتلأت أيديهم بالغنائم ، واتسعت رقعة تحركهم من جنوب الساحل التونسي إلى شماله فسيف البحر الجزائري إلى تلمسان . وصفق أهل الجزائر سنة 1516 أيديهم بالبيعة لعروج (بربروس) فكانت أول أمارة تركية مستقلة بشمال إفريقيا ، تطورت على يد خير الدين



خير الدين بربروس
(الخزانة الوطنية بالجزائر).

(بربروس) إلى ولاية عثمانية تابعة للخلافة العثمانية بالقسطنطينية ، نسجت على منوالها بعد ذلك ولاية عثمانية أخرى بتونس ، وثالثة بطرابلس الغرب .

قامت هذه الولايات الغربية في نطاق تكوين الخلافة الاسلامية التي زعم سلاطين الأتراك العثمانيون أنهم استحقوها بتنازل محمد المتوكل على الله العباسي عنها لسليم الأول عند فتحه مصر . ومن ثم رأوا وجوب خضوع جميع الأقطار الاسلامية لهم ، وامتد نفوذهم فعلا في بلاد الشام ومصر وليبيا وتونس والجزائر إلى تخوم المغرب الأقصى ، فلم يعد بالامكان — حسب منطقهم — أن يشذ هذا البلد المسلم ويند عن سلطة الخلافة الاسلامية .

هناك حقيقة تاريخية خفيت على حكام القسطنطينية فسببت لهم وللمغرب المتاعب التي سنذكرها . ذلك أنهم لم يدركوا أن الدولة المغربية تختلف في طبيعتها ومميزاتها عن الممالك الاسلامية الأخرى التي تساقطت بين أيديهم كأوراق الخريف . فبلاد الشام ومصر أخذت من يد المماليك الجراكسة الذين لايربطهم نسب ولا حسب بالشاميين والمصريين ، وليبيا وتونس والجزائر أخذت من يد الحفصيين والزيانيين عمال ملوك مراكش ، المستبدين بالحكم بعد ذهاب ريح الموحدين ، بينما الدولة المغربية — بخلاف ذلك — دولة عريقة مستمرة منذ أن أقامت أسسها القبائل المغربية الأصيلة الملتفة حول إدريس بن عبد الله حفيد علي وفاطمة ، واستمرت الدولة طوال القرون الاسلامية مع المرابطين والموحدين والمرينيين باسطة نفوذها من فاس أو مراكش على الشمال الافريقي كله وبلاد الأندلس والصحراء وما وراءها . وما كانت تصيبها عثرة من عثرات الدهر حتى تقوم من كبوتها وتستأنف السير في الطريق المعبد الواضح المعالم . وذلك ماحدث بالفعل عند ظهور الأتراك بشمال إفريقيا .

س الدولة السّعدية

انتهى سلطان المرينيين في أواسط القرن الخامس عشر وخلفهم على عرش فاس وزراؤهم السابقون بنو وطاس الزناتيون ، فكانت لهم سلطة محدودة في شمال البلاد ، تقل كلما ابتعدت المنطقة عن المدينة الادريسية لتصير مجرد سلطة اسمية في حوز مراكش وما وراء الأطلس ؛ الأمر الذي سهل من جهة مهمة البرتغاليين في غزو الشواطىء المغربية واحتلال الكثير من الثغور على ساحلي البحرين المتوسط والمحيط ، ودعا من جهة أخرى إلى قيام حركة دينية سياسية في الجنوب المغربي لمقاومة الاحتلال المسيحي ، انتهت باختيار أحد فقهاء قرية تاكادارت ببلاد درعة قائدا للمجاهدين ، هو محمد بن عبد الرحمان الزيداني (القائم بأمر الله) نظرا لكفايته وشرف نسبه ، ولم تلبث قبائل سوس أن اعصوصبت عليه وبايعته أميرا للمؤمنين سنة 1510 ، فكان أول الملوك السعديين .

هكذا ظهر الأتراك في المنطقة وفي المغرب الأقصى سلطتان زمنيتان ، إحداهما هرمة مدبرة في الشمال متمثلة في الوطاسيين ، والثانية فتية مقبلة في الجنوب هي دولة السعديين . واتصل الأتراك أول ما اتصلوا بالوطاسيين القريبين من تلمسان ، الذين لم يكن بإمكانهم غير مدارة البايات وترضيتهم لصرف هجومهم الذي لاقبل لهم به . ولما توالت انتصارات السعديين في الثغور المحتلة بالجنوب ، وهزموا الوطاسيين في أبواب مراكش وعلى ضفاف نهر أم الربيع ، لم يجد الوطاسيون بدا من التزلف أكثر للأتراك ، بالدعاء للخليفة العثماني على المنابر وضرب السكة باسمه ، ليحموا ظهورهم ويشدوا أزرهم عند الاقتضاء . وتطورت العلاقات المغربية التركية بدخول

الامبراطورية التركية في عهد سليمان القانوني (رسم جبّور).





فرسان أتراك – 1533 م .
(كليشه خ. و. باريس).

محمد المهدي الشيخ إلى فاس عام 1549 ، وقبضه على الوطاسيين باستثناء أبي حسون الذي استطاع الفرار إلى الجزائر ، وحاكمها التركي آنذاك حسن باشا ابن خير الدين (بربروس) المعروف بشدة البأس والتفاني في خدمة الدولة العثمانية وتوسيع رقعتها . لذلك نجد محمدا المهدي الشيخ ، الذي كان عليه أن يخضع الامارات المستبدة في الشمال إتماما لعملية التمهيد والتوحيد ، يصرف نظره عن ذلك كله ، ويعطي الأولوية لمجابهة التهديد التركي بإرسال ثلاثين ألفا من خيرة جنده بقيادة ابنيه الحران وعبد القادر ، فاستولوا على تلمسان وما وراءها إلى مجرى واد شلف . واستمر حكم السعديين لغرب الجزائر ثلاث سنوات ، خاضوا خلالها حروبا طاحنة ضد الانكشارية ومن انضم إليهم من رجال القبائل ، وهلك أثناءها الأميران الحران وعبد القادر ، وأصبح من المفروض أن يتدخل الملك محمد المهدي الشيخ نفسه بجيوش سوس الجرارة ، فتتطور المعركة إلى حرب شاملة قد تعرض الوجود التركي في المنطقة لخطر الزوال ، في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تتأهب لخوض الحرب في أوروبا لمواجهة أطماع الامبراطور شارلكان الذي أثار الفتن في ترانسلفانيا ، وحصن القلاع على الحدود العثمانية في بلاد المجر .

لذلك أقدم سليمان القانوني في أوائل محرم عام 959 / يناير 1552 على مبادرة سليمة حكيمة بإرسال سفارة إلى محمد المهدي الشيخ تحمل إليه رسالتين مليئتين بالتمجيد والتكريم ، يخاطبه في أولهما بقوله : « **الجناب العالي الأميري الكبيري الأكرمي الأفخمي الأكملي الأرشدي الأعدلي الهمامي الماجدي النصيري الذخيري الحسيبي النسيبي ، نسل السلالة الهاشمية ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز العصابة العلوية ...** ».



رسم لسليمان الذي رفض السعديون وصيته على بلادهم .
(متحف طوبكابي – اسطمبول).

رسالة بالتركية لسليمان العظيم ، الملقب بالقانوني . مرسلة إلى الشريف محمد المهدي الشيخ السعدي .
(أرشيف قصر طوبكابي – اسطمبول).

تتلخص الرسالة الأولى في إعلان سليمان القانوني :

– كراهيته للحرب الدائرة بين الأتراك والمغاربة ،

– وعزل حاكم الجزائر حسن باشا لميله إلى العنف وعدم مراعاته حسن الجوار مع أن المسلمين أحوج الناس إلى اجتماع الكلمة والاتحاد ،

– وتعويضه بحاكم آخر هو صالح باشا ليعمل على المصالحة وحسن الجوار وتوفير الصفا .

وتقدم الرسالة الثانية للشريف محمد المهدي الشيخ ثلاث خلع سنية ، واحدة له ، واثنتين لولديه .

كان لهذه السفارة الأثر الطيب السريع ، إذ سحب محمد المهدي الشيخ جيشه من الجزائر وصرف نظره نهائيا عنها ، وتفرغ العثمانيون لقتال عدوهم ، فانتصروا على النمساويين في عدة مواقع ، وفتح أسطولهم المتحالف مع الأسطول الفرنسي جزيرة كورسيكا . غير أنه لم تكد تمضي سنتان على هذه المصالحة ، حتى أقدم حكام الجزائر الأتراك على نقض العهد ، وقاد رئيسهم صالح باشا مع أبي حسون الوطاسي المخلوع – على حين غرة – حملة عسكرية قوية ضد مدينة فاس ، فاضطر الملك السعدي إلى الانسحاب إلى مراكش ، وبقي من تخلف مع أبي حسون من جند الترك يعيثون فسادا في العاصمة الادريسية ، إلى أن كر عليهم محمد المهدي الشيخ ، وجرت المعركة الفاصلة على أبواب مدينة فاس يوم 24 شوال 961 / 22 شتنبر 1554 ، صرع فيها أبو حسون وأنصاره ، وانضم من بقي من جنده – وضمنهم الأتراك – للخدمة في الجيش النظامي السعدي .

يظهر أن بايات الجزائر يئسوا بعد هذه المعركة الفاصلة من إدراك مبتغاهم في المغرب بوسائلهم الخاصة ، فاستعدوا عليه الخليفة العثماني ليمدهم بالرجال والعتاد ، لكن سليمان القانوني – الحكيم – أرسل سفارة أخرى إلى محمد المهدي الشيخ يهنئه بتوطيد ملكه ، ويلتمس منه الدعاء له – كخليفة للمسلمين – على منابر المغرب ، وكتابة اسمه على السكة . فغضب الملك السعدي ، وأبرق وأرعد ، وأحضر الرسول وأزعجه ، فطلب منه الجواب ، فقال : لاجواب لك عندي حتى أكون بمصر – إن شاء الله – وحينئذ أكتب لسلطان القوارب ! .

إذا حاولنا التعرف على أسباب سلبية نتيجة هذه السفارة الثانية وجدنا أن العاهلين التركي والمغربي لم يكونا يتكلمان نفس اللغة ، ولا كانت نظرتهما إلى العلاقات السياسية بين

التهديد العثماني

داي الجزائر .
(الخزانة الوطنية بالجزائر) .

بلديهما من نفس الزاوية . فسليمان القانوني ،الذي لم يكن يخامره شك في أحقيته لخلافة المسلمين ، يرى في مطالبته ملك المغرب بمجرد ذكر اسمه في الخطب والنقود اعترافا منه بالدولة المغربية القائمة وإقرارا عمليا بملكها في منصبه رئيسا للدولة ، في مقابل شيء بسيط لايعدو اعترافا اسميا يحفظ مظهر الوحدة الخارجي للبلاد الاسلامية المرتبطة بشكل أو آخر مع الخلافة الاسلامية في اسطمبول ، في حين كان محمد المهدي الشيخ يطعن في استحقاق ملوك الترك للخلافة ، ويرى في مطالبته بذكر اسمهم مساسا بسيادته ، وافتياتا على الأمة المغربية التي بايعته على السمع والطاعة له لا لغيره ، وبالتالي فإن خضوع عدد من الأقطار الاسلامية للأتراك إنما هو بسبب التسلط والقهر ، ومنكر لايقرون عليه .

وكأن سليمان القانوني أراد أن يبلغ من لدن المغرب عذرا بعد أن جرت معه كل وسائل الترغيب والترهيب فاستعصى عليه ، وأبى قبل أن يتخذ إزاءه الموقف العدائي الصارم الذي طالما دفعه إليه بايات الجزائر إلا بعد أن يعرض عليه في صراحة مطالبه التي لم تكن تعني – في نظره – غير التصافي والتعاون والتآخي . فلما خاب أمله اتخذ قراره النهائي بالقضاء على خصمه العنيد ، وعزم على تجهيز الأساطيل وتجييش الجيوش ، لكن وزراءه نصحوه بالعدول عن ذلك إلى وسائل الخيانة والغدر والخديعة .

وقد قدم محمد المهدي الشيخ حياته ثمنا لحميته الوطنية ، وأنفته الملوكية ، إذ كانت نهايته الاغتيال على يد جماعة من جند الترك جاؤوا من القسطنطينية زاعمين فرارهم من سلطانهم ورغبتهم في خدمة الملك السعدي والاستجار به ، فوثق بهم وجعلهم من جنده المقربين ، حتى إذا أمكنتهم الفرصة ، وهو في بعض حركاته بالأطلس الكبير ، دخلوا أخباءه ليلا وضربوا عنقه بشاقور ضربة أبانوا بها رأسه وحملوه إلى الجزائر فالقسطنطينية ، حيث جعل في شبكة نحاس وعلق على باب القلعة السلطانية مدة عشرين سنة .

ومهما يكن من أمر ، فإن الدولة المغربية ظلت حرة مستقلة عن كل نفوذ أجنبي ، ولم يغير ملوك المغرب سياستهم القائمة على الحذر والتحدي تجاه الحدود الشرقية ، بل والمواجهة العسكرية عند الاقتضاء ، كما لم يتخل بايات الجزائر وداياتها قط – وقد ازداد نفوذهم واستقلالهم عن الباب العالي بعد سليمان القانوني – عن مضايقة المغرب وتحين الفرص للنيل منه بوسيلة أو بأخرى طوال حكمهم للجزائر الذي استمر زهاء ثلاثة قرون .

عبد الملك السعدي:

حميد التريكي

في يوم 21 أكتوبر من سنة 1557 اغتيل مؤسس الأسرة السعدية محمد الشيخ على يد حاميته التركية ، وقد قامت بهذا العمل بإيعاز من حسن كورسو، باي الجزائر؛ وبارك حاكم اسطنبول ذلك الاغتيال . وكان ذلك بمثابة عقاب له على إرساله جنوده إلى تلمسان وانتقاما لفوزه على أبي الحسن الوطاسي وجنوده الأتراك في معركة الجزائر (1554) ، ومقابلا لتقاربه مع اسبانيا ، وبذلك أضيف للقضية المغربية ملف جديد ، ملف الأتراك ، في حين ظل ملفا البرتغال واسبانيا مفتوحين .

وبعد مضي عشرين عاما ، ساند الأتراك الأمير السعدي عبد الملك ، الذي لجأ إليهم . ساعتها تجددت المواجهة وأفضت إلى معركة وادي المخازن يوم 4 غشت 1578 .

وإذا أراد الباحث أن يدرك حقيقة الأحداث التي تلت اغتيال محمد الشيخ ، فلابد له من الوقوف عند جملة من التفاصيل :

خلف محمد الشيخ بعد موته عددا كبيرا من الأبناء . وورث ملكه أكبر أولاده ، عبد الله ، ولقب بالغالب (1557 - 1574) .

وحين استتب الأمر لعبد الله ، خالف نظام الوارثة الذي كان وضعه مؤسس الأسرة السعدية ، والذي كان يقضي بأن يحل محل السلطان أكبر إخوته ، فعين ابنه محمد المسمى المسلوخ ، فيما بعد ، وليا للعهد . وعمل على تأمين ارتقائه العرش بعده فقام بمحاولات لأقصاء جميع المنافسين . لكن ثلاثة من إخوة الغالب أفلتوا من المناورة ، وهم عبد الملك الذي كان موجودا بسجلماسة ولعله كان واليا عليها بتعيين من أبيه والذي هرب إلى تلمسان فالجزائر

ALGERII saracenorum vrbis fortissimæ, in Numidia Africæ Prouincia s[i]tuta, iuxta Balearicum fluctum Mediterranei æquoris Hispaniam contra, Osthomanico Principis imperio roboratæ, imago.

..ن المنفى إلى الملك (1557 - 1578)

وبصحبته أمه وأخوه الصغير أحمد المنصور فيما بعد . أما الأخ الثالث فهو عبد المومن ، وهو أكبر الاخوة سنا ، وكان واليا على مكناس ، فقد التحق بأخويه الآنفي الذكر بعد محاولة تمرد على الغالب . وعينه الأتراك واليا على تلمسان ، وكانت قاعدة لتحركاتهم في المغرب ، ولكنها كانت أيضا مرتعا لعمل موفدي السعديين .

وطوال هذه الحقبة (1557-1575) كان الأمير المغترب عبد الملك يسعى دون هوادة للحصول على حقوقه في عرش أبيه . ونستفيد من المراسلات التي كانت بينه وبين أنصاره الكثيرين ومنهم ، بخاصة ، أولئك الذين كانوا معتمدين في البلاطات الأوروبية ، كما نستفيد مما ظل محفوظا في خزانات أوروبا من وثائق أن الأمير كان قوي الشخصية واسع المعرفة مرهف الذوق كما أنه كان فارسا مقداما وصاحب استراتيجية موفقة . لقد تكونت شخصيته تلك خلال العشرين عاما التي عاشها منفيا في وسط المناخ المتوسطي ، مركز النهضة وملتقى الثقافتين (الشرقية والغربية) في القرن السادس عشر .

ثم مرحلتان متميزتان في حياة عبد الملك طيلة منفاه في العاصمة الجزائرية . في الأولى ، من 1557 إلى 1569 ، كان يبدو على الشاب عبد الملك شيء من الحيرة والذهول وهو يعيش في ذلك الميناء العامر بمختلف الأجناس والدائب النشاط . كانت تلك مرحلة التكوين والتعرف على جو منطقة البحر الأبيض المتوسط . وفي الثانية ، من 1569 إلى 1575 ، تجلت



مدينة الجزائر كما رآها عبد الملك سنة 1560 .
(المتحف الوطني للفنون الجميلة بالجزائر).



على الساحة السياسية شخصية الرجل . كما سجلها التاريخ في النهاية .»

البيئة الجزائرية وتكوين عبد الملك

«استوطن عبد الملك الجزائر العاصمة سنة 1558 . وكان إلى جانبه أمه ، التي قدر لها أن تلعب دورا مهما في صعود ابنها وارتقائه . ويحدثنا مؤرخون مغاربة عن تدخلها الحاسم لصالح عبد الملك لدى مراد الثالث ، في اسطنبول . وغير بعيد من الجزائر كان هناك سند أخيه الأكبر عبد المومن حاكم تلمسان .

كان عمر الأمير المنفي سبعة عشر عاما ، وكانت أمامه سنون في الجزائر تتخللها زيارات متكررة لاسطنبول وتداريب طويلة مع الأسطول العثماني في معاركه الكبيرة التي خاضها ضد أساطيل النصارى ، هناك تلقى تعليمه كمحارب ورجل استراتيجية»

وأثناء ذلك ، تراءت له مدينة الجزائر وهي في مرحلة تكوينها المدهش ، وكان وقتئذ في ريعان شبابه . وكان بحارة ماهرون إذ ذاك يستولون على القاعدة . فمن المعلقين من سموهم قراصنة ومنهم من وصفوهم بالمجاهدين . في مقدم كل ربيع كانوا يخرجون بسفنهم العشرين أو الأربعين أو الخمسين ، لمطاردة السفن المسيحية من العرائش إلى شواطىء إيطاليا ، مرورا بشواطىء البرتغال واسبانيا وجزر الباليار وصقلية ... وما كانوا يغنمونه من سفن كانت تعرض في السوق فتخلق البلبال في تجارة غربي البحر الأبيض المتوسط . وقال الكاتب المنتمي لجنوة ف . بروديل إن الاتجار في مدينة الجزائر يضمن ثلث الربح . كان هؤلاء المحاربون يضايقون أساطيل الأعداء ومن ثم زودوا الامبراطورية العثمانية بخيرة أميرالاتها . في تلك الحقبة ، كانت تلك طريقة « نظامية » ومقبولة للاتجار والحرب ، طريقة ألفها على السواء المسلمون والمسيحيون .

وكانت هذه البعثات تعود للجزائر بغنائمها العظيمة ، وكانت هذه تبلغ ما بين عشر سفن وعشرين . وفي هذه السفن كانت توجد سلع شتى قيمة ، وأسرى بالآلاف كانت تطلب أحيانا لافتكاكهم فديات ثمينة . أما السلع فكانت تتألف من قناطر من الحرير والفرش الملونة والحلي والأسلحة والمعدات . وكلها أشياء كان يسيل لها لعاب الفتى عبد الملك . فهو كان يعشق النسيج الجيد والملابس الشرقية والجوهرات . وكان يهتم كبير الاهتمام بالأسلحة النارية . وعملت اتصالاته العديدة بالمسيحيين على فتح آفاق لثقافته وحساسيته . فقد تيقظ اهتمامه بأوروبا وألسنها وموسيقاها وآلاتها . ويقول بروديل : من 1560 إلى 1587 كانت صبغة مدينة الجزائر في عهد **أولغ علي** أكثر ما تكون إيطالية .

واستعرضت أمام عيني عبد الملك نظريات أسرى منتمين للعديد من البيئات ، ففيهم النبيل والأسقف واللص وفيهم أحيانا رجال رفيعو الثقافة مثل **سرفنتيس** صاحب دون كيخوطيه الذي كان وقع في الاسر سنة 1575 . وفي عهد الحروب الدينية وأواخر الحروب الصليبية كان عبد الملك متسامحا ومحسنا ، فكما قال فراي ليويس نيتو : « **رغم كونه كان « كافرا محمديا » شهد راهب مسيحي معاصر له أنه كان يحب المسيحيين لدرجة أنني احترت في تفسير هذه المحبة وإكبار هذا الاحسان الذي عامل به كثيرا من الأسرى** » .

«في الجزائر تعرف عبد الملك على شخصيات فذة ، كما تعرف على أولئك الذين قدر فيما بعد أن يساندوا قضيته ويدافعوا عنه ، وعلى رأسهم باشا مدينة الجزائر أولغ علي هذا الصياد المتمرد والمتعود على القرصنة ، الذي تعرف عليه سنة 1571 والذي أنقذ ما أمكن إنقاذه من الأسطول ودخل اسطنبول حيث رقي إلى درجة أمير البحر . وكان عبد الملك إلى جانبه ذلك اليوم كما كان الحال في غيره من الأيام لأنه كان اعتاد أن يصطحبه في غزواته . وربما كان أولغ علي يحتاط من الأمير السعدي . ومع ذلك كان باشا الجزائر يؤيده لأنه كانت له هو أيضا سياسته المغربية كما كان ، في نفس الوقت ، يسعى لمضايقة الاسبان»

وخلف أولغ علي نائبه **مراد الرايس** المدعو حاجي موراتو ، وهو أيضا متمرد ، وأصله ألباني . ويقول **فراي ديكو دي هايدو** (الجزائر ، 1578) : « **كان ما يغنمه جعله من الغنى ما أصبح معه من أمهر قراصنة الجزائر** » . وتحالف مع عبد الملك وزوجه ابنته . وأيد صهره بكل ما لديه من قوة سواء في اسطنبول أو لدى فيليب الثاني . وأحرج هذا بمساومات ...

وبواسطة **أندريا كاسارو كورسو** ، اتصل عبد الملك ، منتهزا ما كانت تربطه بالرجل من مودة ، بإحدى شبكات الأخبار المهمة في البحر الأبيض المتوسط الغربي في ذلك العهد . وأهمها بالنسبة لعبد الملك كانت موجودة في بلنسيه ، وهناك كان فرنسيسكو يقوم بربط الاتصال المباشر مع فيليب الثاني . وقد عمل **أندريا وفرنسيسكو** ، الاخوان ، عدة أعوام لجلب ملك اسبانيا إلى المودة مع عبد الملك سواء أثناء فترة نفيه أو مدة الاستعداد لمعركة وادي المخازن ، « حرب الملوك الثلاثة » . ونستفيد أهم ما في القضية من خلال المراسلات بين أندريا وفرنسيسكو .

وتعرف أيضا في مدينة الجزائر على القبطان كابريت (وربما كان فرنسيا) . وكان كابريت هذا مغامرا وعميلا مزدوجا ومخترعا لآلات حربية . وأوفده عبد الملك بعد توليه الملك في مهمة بباريس لدى الملك **هنري الثالث** وبمدريد (سنة 1576) حيث قابله الملك فيليب الثاني بحذر وحيطة .

أسطول الأخوين باربروس ، وكان مشهورا بسرعته . وكان يمارس نشاطا « **نظاميا محللا** » في الأبيض المتوسط . هذا الأسطول زود الامبراطورية العثمانية بأفضل أميرالاتها .
(المتحف الوطني للفنون الجميلة بالجزائر).



وتعرف كذلك في الجزائر على مغامرين مسلمين موريسكيين هما الغري ومحمد زرقون الملقب بالقاهر . بعث أولهما إلى المغرب حيث اتصل بحاشية السلطان **محمد المتوكل** ابن أخي عبد الملك ومنافسه . وهيأ بنجاح اندحار الدوغالي : هذا المورسكي الآخر الذي كان يقود ترسانة المتوكل . أما زرقون فبقي في الجزائر حيث كلف بقيادة الجناح الأيسر للفرسان بمعركة وادي المخازن . وأعدم المورسكيون الثلاثة بفاس بأمر من أحمد المنصور ، أخي عبد الملك الذي كان أكثر منه حظا .

ولم يركن منفي الجزائر إلى الراحة ، بل كان يدبر بدقة وإحكام عودته إلى المغرب . وكان في ذلك يستعين بصداقاته ، ما ظهر منها وما بطن ، قبل كل شيء للتعريف بمطالبه ثم بحقوقه لدى الدول المعنية (العثمانيين واسبانيا والبرتغال) سعيا وراء الحصول على مساندة كل منها .

هل يسانده الاسبان أو الأتراك ؟

مر أكثر من عشرة أعوام منذ أن فر عبد الملك من سجلماسة واستوطن الجزائر . وفي سنة 1569 ، التي شرع أثناءها اتصالاته السياسية المعروفة ، كا يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما ؛ لم يعد ذلك الفتى الحر المنبهر كما كان أوائل سني الغربة بل أصبح سياسيا ماهرا حذقا ، عارفا بخبايا التاريخ .

الاسبان أولا

"كان يعلم أن أمامه سبيلين للرجوع إلى المغرب : إما عن طريق اسطنبول وإما بمدريد ، وحيث إنه حتى في ذلك العهد ، ورغم

أحد قراصنة الجزائر في عهد عبد الملك .
(من رسم جبور).

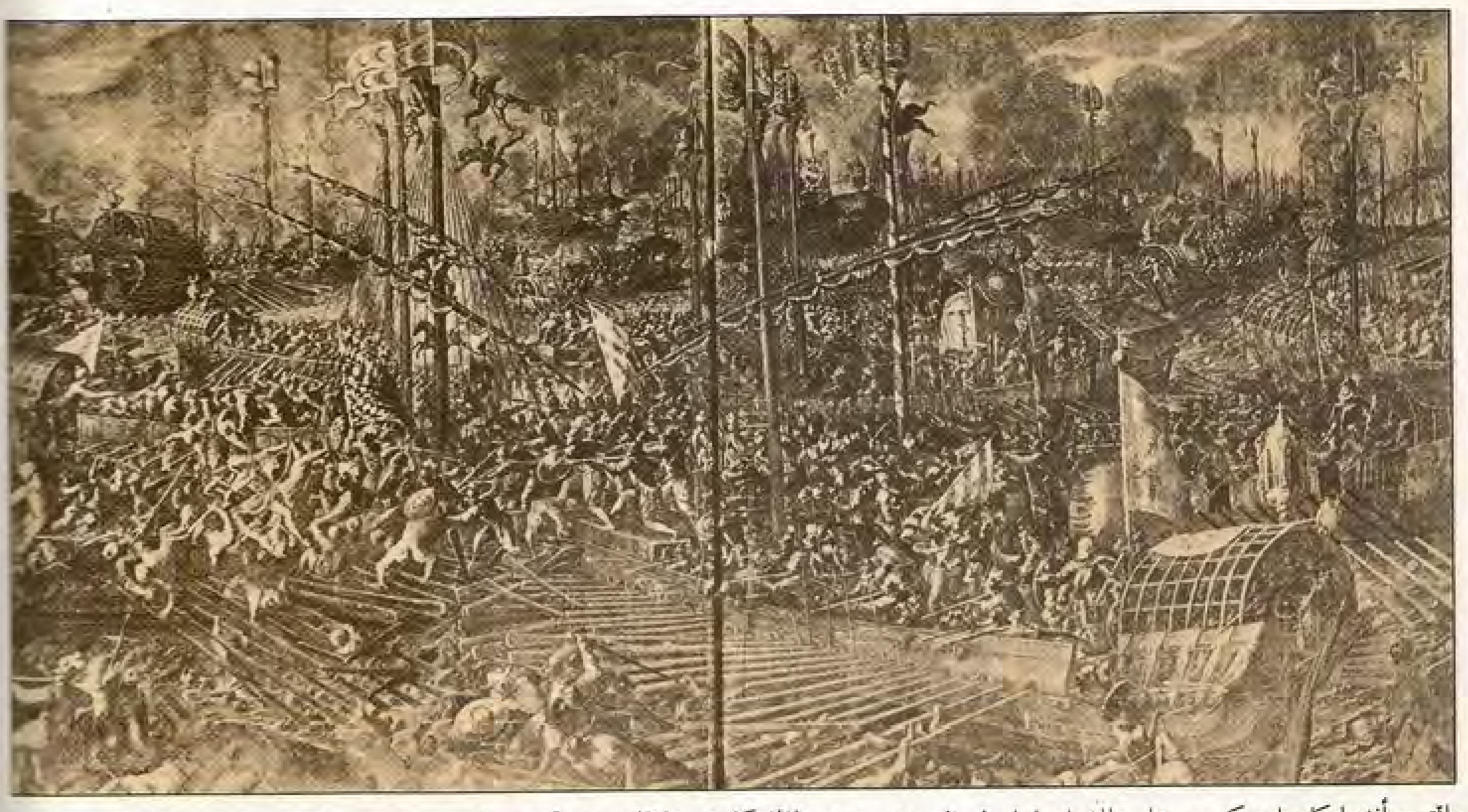


ما يمكن اعتقاده ، كانت الأمور السياسية تدع جانبا عقيدة المحاور أو الشريك ، فقد اتخذ عبد الملك أولا سبيل مدريد. ألم يكن أبوه ، وهو المجاهد الفذ ، تعامل مع الاسبان واستنصر بهم على الأتراك ؟ ثم إن المخاطر مع الاسبان أدنى مما يتوقع من غيرهم ، فالاسبان يكتفون ببعض القواعد البحرية لتأمين حماية سفنهم من رئيس الجزائر ! أما مع الأتراك فكان يخشى احتلالا لم يكن يرضاه لا السعديون ولا الشعب المغربي . أما القواعد المسلمة للمسيحيين فقد كان عبد الملك يعلم أن في الامكان استعادتها فيما بعد بلا حرج كبير ، كما يبينه مثال أكادير في سنة 1541 حيث كانت الأسرة في أوائل عهدها .

وهكذا قرر عبد الملك إيثار مدريد ، وكان ذلك بمساعدة الأخوين كاسبارو كورسو . لكن بما أنه كان عند الأتراك فقد بدأ أولا بتقديم طلب لفيليب الثاني بأن يأذن له بالتوجه سنة 1569 إلى مدريد ثم رجاه أن يعطيه بيانات عما وعد به إياه من مساعدة مالية . وجدد الطلب مرارا بلا طائل ، إلى سنة 1574 . وكان الاخوان كورسو يبلغان الطلب كل مرة مشفوعا بعناصر جديدة ومشروعات مؤامرات أو أحلاف . من ذلك الرسالة الموجهة إلى فيليب الثاني يوم 18 أكتوبر 1570 ، وفيها أبدى عبد الملك تخوفه من باشا الجزائر أولغ علي وأخطر ملك اسبانيا بتطورات « قضية » المؤامرة التي كان يدبرها مع أخيه عبد المومن ، حاكم تلمسان ، ضدا على أتراك الجزائر . وهذه المؤامرة ، التي كانت لحاكم وهران يد فيها ، ربما كانت تشكل تجديدا لما كان فيليب الثاني يعتزم عمله مع أولغ علي الذي جاء يستفزه في سواحله بما قدمه من مساعدة للمورسكيين الغرناطيين أثناء تمردهم في سنة 1569-1570 .

وبعد عام من ذلك سلم أسير معركة ليبانته (1571) عبد الملك إلى فيليب الثاني .

عبد الملك يستنجد بفليب الثاني ملك اسبانيا (الماثل في الرسم في حضرة والده شارل كنت).
(قصر جرانفيل ، بوزنسون – فرنسا).



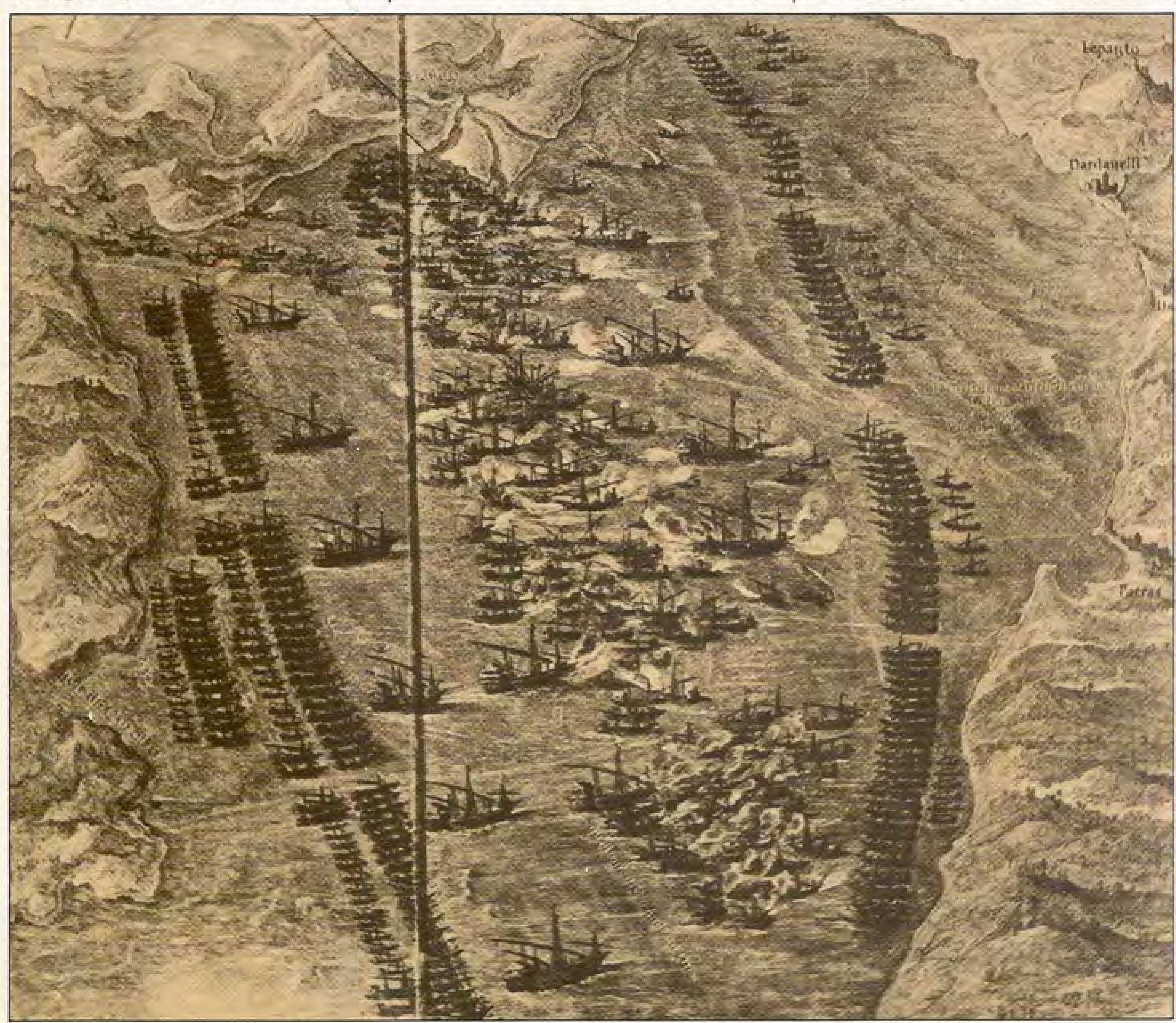
معركة ليبانتة (1571)، أولى الهزائم الكبيرة للاسطول العثماني كان الشاب عبد الملك أسر خلال هاته المعركة .

واقترح أندريا كاسبارو كورسو على ملك اسبانيا أن يرسله إلى وهران ، فمنها يمكن في آن معا إثارة الفتنة من الجزائر على الأتراك وتوقيف التوغل المحتمل للغالب في تلمسان . إلا أن هزيمة الأتراك في ليبانتة قلبت الوضع ؛ ففي غياب أسطول يعينها كانت الجزائر ضعيفة ، وحاولت جموع سكانها التحرر من الاحتلال التركي ، وكانت تنتظر الاغاثة من المغرب ! في تلك الأثناء قتل عبد المومن ، أخو عبد الملك ، بمسجد تلمسان (قبل نونبر 1571) على يد مبعوثين من خليفة الملك بفاس محمد المسلوخ . كانت هذه الواقعة مهمة بالنسبة لعبد الملك فبها أصبح ، من بين الذين ظلوا على قيد الحياة في الأسرة ، أكبرهم سنا ، وأصبحت مطالبه ضد ابن أخيه ولي العهد قائمة على أساس شرعي بحسب القانون الوراثي السعدي . وهكذا قام عبد الملك بحساب سياسي جريء وحصيف فاتجه إلى الأتراك على هزيمتهم ! أما ملك الاسبان ، فقد أبان عن روح « بيروقراطية » بحيث ترك شؤون المطالب بالعرش السعدي تتعثر طالما كانت علاقاته حسنة مع السلطان الغالب . ألم يسمح هذا السلطان للاسبان بالتوطن في باديس بالرغم من مقاومة سكان الجزائر ؟ ثم إن الغالب ترك المورسكيين المتمردين (1569-1570) بعد أن كان وعدهم بالمساعدة . كانت الحالة بالنسبة لعبد الملك مستعصية فلم يتخل عن اسبانيا ورغم ذلك قام بمساع في اتجاه الأتراك وظل في تآمر بين هؤلاء وتلك طوال سني الغربة الأربع .

الأتراك يتخذون موقفا

وقع إذا عبد الملك في قبضة فيليب الثاني سنة 1571 بعد واقعة ليبانتة . كان منتظرا في وهران ، فإذا به يبرز حرا ، بعد أشهر ، في اسطنبول ، ومنها التحق بالجزائر ، يوم 2 مايو 1572 ، بصحبة الباشا الجديد **عرب أحمد** . كان عبد الملك يشكو من جرحين في ساعديه ولا أحد يدري كيف تم الافراج عنه . لكن إنها أول مرة يعلم فيها بوجوده في اسطنبول (رسالة د . كاسبارو ، إلى فيليب الثاني في تاريخ 13 يوليوز 1572) ؛ إن التاريخ لمساعيه الأولى السياسية لدى الأتراك يكتسي أهمية بالغة ، خصوصا وإن المصادر المغربية تحمل على الاعتقاد بأنه ذهب يطلب مساعدة اسطنبول في بداية منفاه . ولم تكشف المصادر الأوروبية مساعيه إلا ابتداء من 1573 . ولا يمكن تبين حقيقة الأمر نظرا لانعدام وثائق تركية . بيد أننا نعتقد أنه ما كان ممكنا لعبد الملك أن يخاطب اسطنبول إلا بعد وفاة أخيه الأكبر عبد المومن ، أي بعد سنة 1571 . وبما أن طلبه رفض أول الأمر ، كما ذكره المؤرخون المغاربة ، فقد كان لابد من انتظار إحياء الأسطول التركي على يد أولغ علي بعد واقعة ليبانتة والانتقام من الاسبان في تونس قبل أن تتمكن

اسطنبول من التدخل في المغرب . غير أن المصادر الأوروبية تساعد على تتبع تجوال عبد الملك من الجزائر إلى اسطنبول خلال المدة الفاصلة بين المعركتين الكبيرتين (1571 - 1574) . فليس من قبيل المصادفة أن تكررت رحلات المطالب بالعرش السعدي خلال السنين الأواخر لمنفاه . وقد تشدد فيليب الثاني في موقفه بعد ليبانتة ، في حين أبان الأتراك عن مرونة ما ... فانتهز عبد الملك الفرصة : ففي سنة 1573 توجه مرة أخرى إلى اسطنبول . وقيل لنا إنه في هذه المرة جاء يطلب السلطان « مساعدته على استرجاع مملكة فاس » (هايدو) . وحسب المصدر نفسه لبي طلبه وكتب السلطان **سليم الثاني** إلى **رمضان باشا** يرجوه « إعادة السلطان مولاي ملوك إلى عرشه » . وخلال سنة 1574 تلاحقت الأحداث في اتجاه السند التركي : وجاء موت الغالب يعجل بفتح وراثة العرش . وفي مارس 1574 رفض فيليب الثاني طلبات عبد الملك ولعل الملك الاسباني كان عالما باتفاق اسطنبول . وطلب في نفس الوقت من أندريا كورسو ألا يعود إلى الانشغال بهذه الأمور ، الشيء الذي رمى بعبد الملك في أحضان الأتراك ، في هذا الوقت بالذات أجلت الاستعدادات لغزوة تونس (17



مذكرات من التراث المغربي

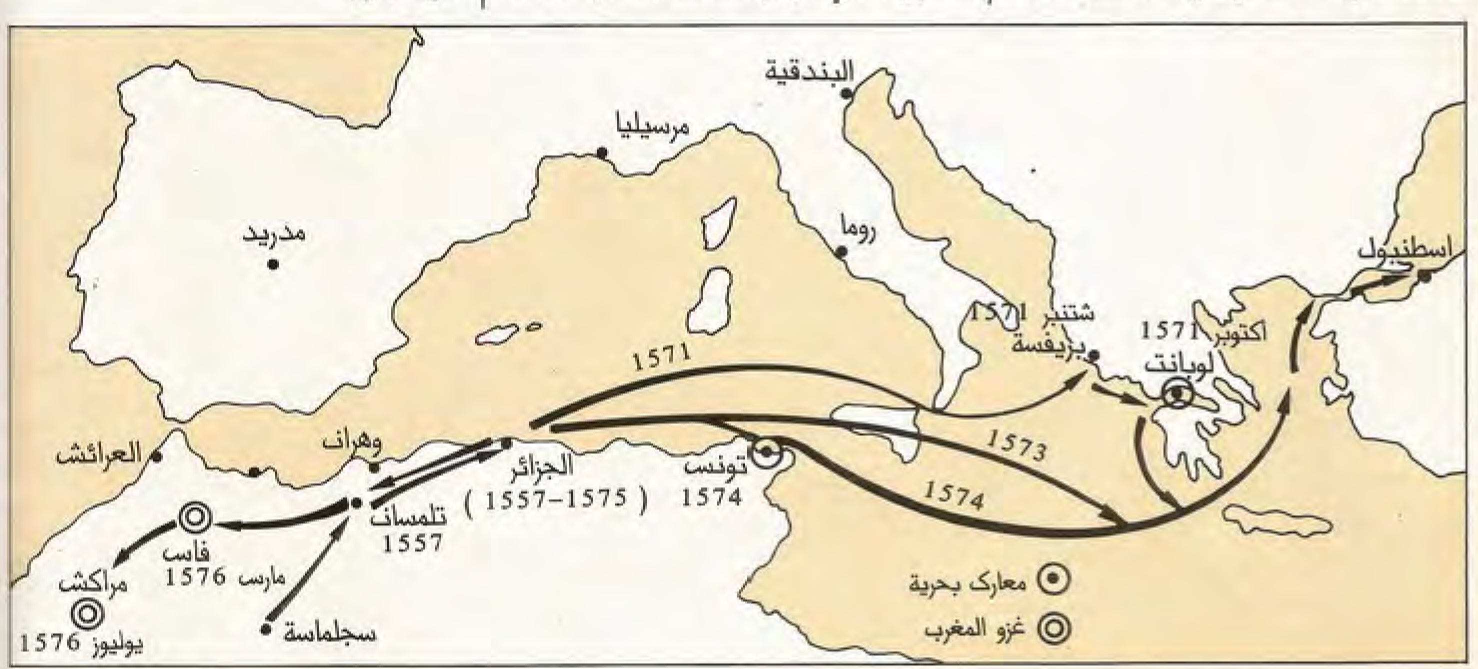
شتنبر 1574) وموت سليم الثاني انطلاق البعثة المغربية التي كان قررها الأتراك . وبعد أسبوع من الاستيلاء على تونس بمشاركة أميرنا بارح هذه المدينة قاصدا اسطنبول لطلب النجدة (رسالة إلى أ . كورسو في تاريخ 24 شتنبر) .

يسجل في هذا الوقت التدخل « الرومانسي » لسحابة الرحمانية أم عبد الملك لدى مراد الثالث ، وكانت سحابة أول من أخطر السلطان بسقوط تونس ، وطلبت منه أن يمد ولدها عبد الملك بالعون . بهذه الحيلة الذكية استطاع عبد الملك أن يسبق البريد الرسمي ويحصل على عطف السلطان ... ولكن كان هناك صهره مراد الرايس الذي كان يحتال من جهته ليبقى في منصب رئيس طائفة « قراصنة الجزائر » حتى يساعد في البحر الجنود الذين قادهم بعد ذلك كل من عبد الملك ورمضان باشا .

وبعد موافقة مراد الثالث والأمر الصادر لباشا الجزائر بقيادة الجنود في الغزوة المغربية ، تطلبت هذه الغزوة سنة كاملة ، فلم يتمكن الجنود من الانطلاق صوب المغرب إلا في شتنبر 1575 . وإذا كانت وسائل عبد الملك المالية المحدودة لم تسمح له باستقطاب الأفواج المحاربة فإنه كان من النباهة بحيث لم يلجأ إلا إلى جنود مختارين . ففي مواجهة منافسه ، الذي كان له



مراد الثالث (1574 – 1595). أيد مطامح عبد الملك . (متحف كورير ، البندقية – إيطاليا).



تنقلات عبد الملك بحثاً عن الدعم لمطامحه في العرش . (ح. التريكي).



جنود من رجالة الأتراك حفظة السلطان . لقد استعملهم عبد الملك . وبعد أن كافأهم وأكرم وفادتهم رافقهم إلى حدود المملكة . (نقش ايطالي في بداية القرن السابع عشر).

جيش قوامه ثلاثون ألف رجل مجهزون ومتوفرون على ستة وثلاثين مدفعا ، كان لعبد الملك عشرة آلاف جندي محترف من بينهم ما يتراوح بين خمسة ألف وستة من الأتراك وألف « زواوي » جزائري وثمانمائة من الصبايحية ، وأضيف إلى أولئك جميعا في الطريق ستة آلاف من الفرسان الذين دعمت بهم عبد الملك القبائل الحليفة . ثم إنه كان له اثنا عشر مدفعا . قاد عبد الملك جنوده في اتجاه فاس معتمدا مراحل صغيرة . ووجهت المعدات وقطع المدفعية عن طريق البحر .

جو رهيب

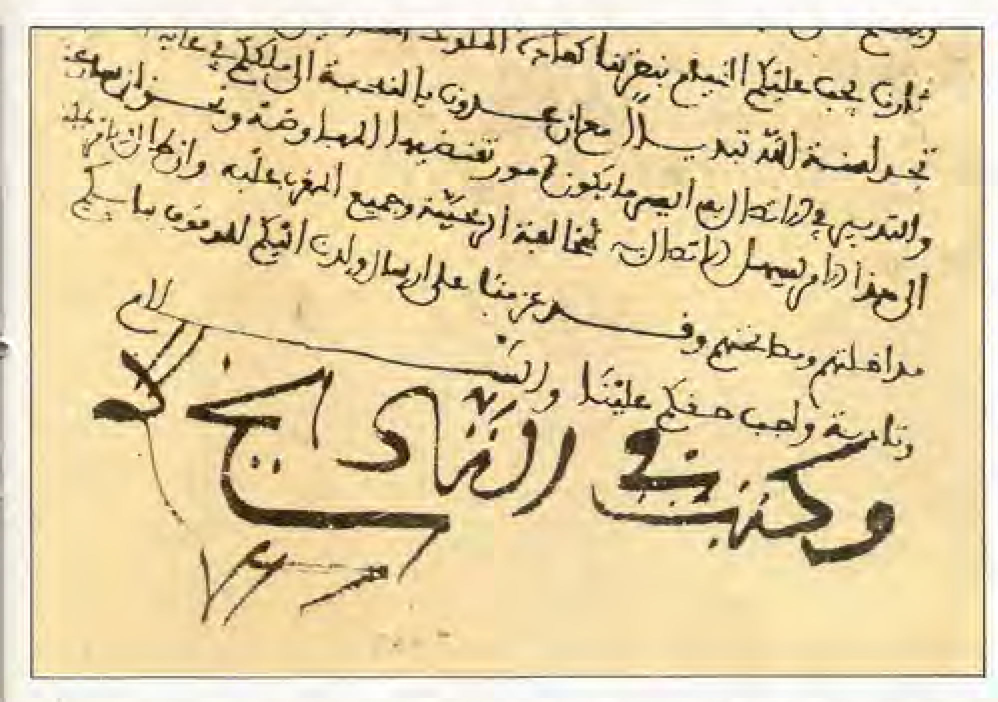
كان الجو في المغرب رهيبا . الناس كانوا يشعرون في أعماقهم أن البلد مطوق من الأتراك شرقا والاسبان شمالا وغربا . وبدت امارات في السماء زادت من رعب السكان . وقام أنصار عبد الملك بحملة دعائية نفسية لتهيىء استقباله من لدن الجماهير كبطل قهر الاسبان في نزال « حلق الواد » بتونس (1574) . وقد كتب مؤرخ مجهول نصا فند فيه مزاعم أولئك الأنصار فقال : « **تأمل ، أخي ، واسأل نفسك هل كان سكان الامبراطورية (العثمانية) بحاجة إلى نصائح عبد الملك أو كانت لهم مصلحة في الاعتماد على خططه أو دهائه أو قوته للاستيلاء على حلق الواد ! فهو لايزيد على كونه كان لاجئا أووه! ...** »

فلماذا عمدوا إلى نشر تلك المزاعم ؟ الواقع أن عبد الملك كان يرغب في تهدئة نفوس المغاربة الذين كان يقلقهم الخطران التركي والمسيحي ، ولذلك كان يزعم للناس أنه المنقذ

الخدمة الطبية في الجيش السعدي

...« أروي هذا عن محمد السمراوي من عين اسليطن ، وكان من بين أصحاب مولاي محمد (المسلوخ) : كان في معسكر مولاي محمد ، في الامام والخلف ، أكثر من مائة وخمسين من الانفاد ، وأكثر من مائة من النطاسيين والمحاجم ، وكذلك أكثر من ثلاثين قدرا من الدهان بالورد والبيض (يستعمل البيض في الجراحة لجبر الكسر) للجرحى ، وقطع من الكتان لمنع سيل الدم وللضمادة ، ولا نقول شيئا عن الاخبية والمؤونة . وكان يستقدم الجرحى من ساحة الوغى إلى الاخبية وتضمد فيها جراحهم » . (من نص كتاب مجهول ، عن المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب ، باريس 1924) .

مذكرات من التراث المغربي



مولاي محمد بن عبد الله المتوكل ، ابن أخي عبد الملك ومنافسه . لم يستطع إنقاذ حكمه . إمضاء المتوكل .
(مصادر تاريخ المغرب) .

الكفيل بدرء الخطرين معا لاسيما وأن الأتراك بحاجة إليه ليدعمهم هو ضد اسبانيا ! وحيث إن الوقائع الكبيرة في ذلك الوقت إذا كانت تجري في الأرض فعلاماتها تظهر للقوم في السماء ، فكما ذكره **اليفراني** (النزهة) كان السكان يشاهدون في الأجواء أعلاما حمراء تتقدم الجنود الأتراك الذين استقدمهم عبد الملك من الجزائر ...وبعد سنتين ونصف سنة تحقق كل من الغزاة البرتغاليين ، والمغاربة أيضا ، السماء عند الغروب ومالوا إلى اعتقاد نفس التخيلات . فكما جاء في الاستقصا « ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير في برج العقرب » وتبعه « تجلي » نزول البرتغاليين بطنجة ثم معركة وادي المخازن ... وذلك ما أكده بعض كلام سيدي **عبد الرحمن المجذوب** المتوفى سنة 1569 ...

في هذا الجو الشبيه بما وصف بقيام الساعة ، تابع عبد الملك مسيرته حيث كان توجه **محمد المتوكل** وجيشه . وانتصر عبد الملك انتصارا ساحقا في اللقاء الأول بالركن الواقع على « واد إناون » ، يوم 8 مارس 1576 ، نتيجة تخلف خيرة جنود منافسه . فمن بداية المعركة ، انضم الدغالي قائد المدفعية إلى صفوف الغازي وتبعه عدد من الجنود . وتبين أن هذا التخلف الذي حصل كان مدبرا من الجزائر على يد المورسكي الغوري الذي كان اندس في صفوف أتباع المتوكل . وقد علم المتوكل بعد ذلك بما كان خصمه يبيته في الخفاء ، حيث إنه لم يأمر بإعدام بعض المشبوهين إلا ليلة هذه المعركة الأولى . إلا أن ذلك لم يحل دون هزيمته ؛ وبصعوبة وجد الوقت فقط ليجمع ثروته في فاس ثم ليرحل إلى مراكش . واستولى عبد الملك على عدد من متاعه



بعد انتصار عبد الملك الاول على المتوكل تلقى بيعة أهل فاس . خريطة خاصة « جدا » لمملكة فاس أنجزها موبت . ويلاحظ إلى اليمين المحيط الاطلسي وتتمثل فيه الرؤية التوسعية الأوروبية ذلك العهد . (كتاب مصادر تاريخ المغرب غير المنشورة قبل).

وفيها قطع المدفعية . وساعدته غنائمه الكبيرة القيمة على تسديد نفقات الجنود المستقدمين من الجزائر (خمسمائة ألف أوقية ذهب) ودفعت إلى رمضان باشا ، كما مكنته غنائمه من توزيع هبات لأولئك الجنود . ومكنته غنيمته من العتاد والسلاح ، اللذين فقدهما المتوكل ، من مواصلة غزوه للمغرب .

وعند وصول عبد الملك إلى فاس انتبه إلى نصب خيمته خارج المدينة وأمسك عن السماح للأتراك بالدنو منها علما منه أن الأتراك خلفوا صدى سيئا حين أتوا سنة 1554 في جولتهم الأولى عندما كانوا في رفقة أبي حسون الوطاسي . وبايع سكان عاصمة المغرب الشمالي عبد الملك . واقترض هو من أعيانهم ووجهائهم المال الوفير الذي كان يحتاجه لأداء الديون للأتراك ، ثم لارجاعهم إلى بلادهم بعد أن رافقهم إلى وادي سبو وودعهم . ثم اهتم بأمر المتوكل واتجه صوب مراكش لينازله في معركة ثانية وقعت بخندق الريحان يوم 9 يوليوز 1576 . وكان ذلك على واد بين الرباط والمحمدية . نزل عبد الملك من على جواده وسار بين الصفوف ونظمها وأحكم دفاعه . وكانت خطته تتلخص دائما في فرض الساحة التي اختارها للمعركة على خصمه . وفي هذه المرة جر الخصم وفرسانه إلى أرض مليئة بالشوك مما أعجزهم على عظيم استعدادهم ، كما كان في عهد الغالب ، أبي المتوكل .

وقد وصف مارمول تجهيز أولئك الفرسان قبل سنوات من تلك المعركة قائلا :

« كان لباسهم من المخمل ونسيج الحرير الموشى والأملس . وأغلبهم كانوا يحفظون سيوفهم مع صفائحها الذهبية أو الفضية . ومن الجانب الآخر كانوا يحملون كذخيرة صندوقا ذهبيا أو فضيا محمولا بين الكتفوالخاصرة على حميلة السيف ، وكانت بديعة الصنع كالسيف الذي تجانبه وكلاهما كان معلقا بالآخر بحزام عريض تزينه صفائح من الذهب والفضة المنقوشة » .

أما التجهيز فلم يكن بأقل روعة من ذلك على حسب فنون ذلك العهد . وكانت الأسلحة

عبد الملك كما يراه ...

... راهب اسباني معاصر ...

« كان يتحدث الاسبانية بطلاقة وبرقة ولطافة وأدب . كذلك كان يكتب هذه اللغة . وكان يتقن الايطالية أكثر من أي لغة أخرى . وكان يملك زمام التركية . كان هذا الامير نبيها جدا وكانت حكمته الواسعة تمتد إلى كل شيء وخصوصا في مجال الحكم الموفق للمملكة . كان يتقن العزف على عدد من الالات الموسيقية . ويحسن الرقص . ويحب كثيرا الاسلحة العسكرية وفن الحرب حيث كان يخصه بتمارينه الوافرة . وكان يصنع بيديه قطعا من المدفعية ما تزال موجودة إلى الان في بلاده . كان إتقانه جميع الاعمال نادرا والناس جميعا كانوا لذلك معجبين به » .

(فراي نيتو : وصف معركة القصر الكبير ، في كتاب « المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب » ، فرنسا ، الجزء الاول ، ص. 503).

... ومؤرخ مغربي ...

« كان عبد الملك شهما ، جليلا ، يقظا ، حازما في المعركة . كان سلوكه العام يجعل منه أحسن ملوك السعديين . قاد مملكته . بمهارة ، وزودها بجيوش وفيرة ، وكان يباشر شؤون الدولة بنفسه ولا يهمل صغيرا منها . وشيد في العرائش وسلا سفنا استعملها الاندلسيون الموريسكوس والمغاربة في غزواتهم التي أقضت مضاجع النصارى كثيرا » .

(وصف بقلم عربي مجهول ، أعيدت ترجمته إلى العربية من نص أجنبي)

... وسفير انجليزي

« ثم أهديته عودا كبيرا فتقبله مني وشكر لي ذلك كثيرا . ثم استخبر عن الموسيقيين الذين كان يزمع استقدامهم من انجلترا . فأجبته أنني سأهتم بإرسالهم إلى حضرته وأنهم سيصلون بالتأكيد إلى المغرب إذ سيركبون أول سفينة متجهة إليه ».

« لقد ألفيته تقيا ورعا ، عارفا بالعهدين القديم والجديد والكتب المقدسة . وهو يكن لامتنا محبة أقوى مما يشعر به نحو غيرها من الامم ، ذلك أن ديننا (الانجليكان) يحرم عبادة الاوثان » .

(وصف لادموند هوكان سفير اليزابيث الاولى بمراكش – يوليوز 1577) .

الأوروبية تستهوي الناس وتفتتن في أسواق فاس أو مراكش حيث كان يروجها سريا تجار أوروبيين تحدوا منع البابا كما تحدوا الحصار الذي ضربه عليها البرتغاليون والاسبان : كانوا يبيعون الرماح والخوذات والأردية إلى غير ذلك . والتجأ المتوكل بعد هزيمته إلى مراكش واهتم مرة أخرى بجمعه ثروته . وبعد ذلك عاتبه العلماء بشدة في رسالة مشهورة على هزائمه وفراره مبررين بذلك عزله .

عبد الملك والنظام السياسي

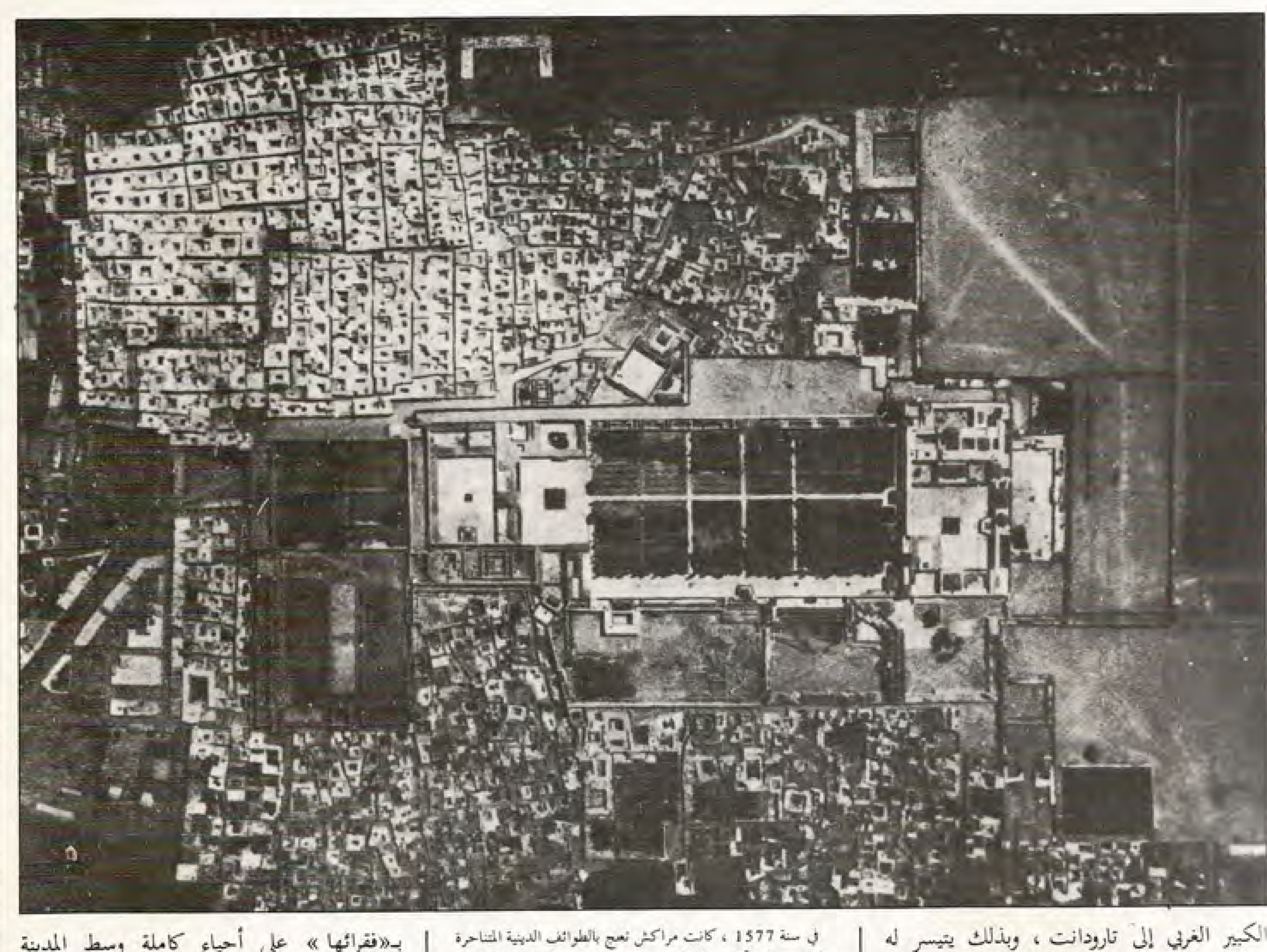
لقد فتح انتصار عبد الملك الجديد في خندق الريحان له طريق مراكش التي دخلها بعد أسبوع من فوزه ، يوم 16 يوليوز 1576 . وقد هجر المتوكل تلك العاصمة بلا معركة وقصد الأطلس الكبير حيث آواه شيخ الزاوية **محمد بن ويسادن السكتاني** .

كان يرى عبد الملك وقتها أنه عليه أن يستعد لممارسة الحكم ، وفي ذلك بذل كل جهده بلا توان ولا فتور . كانت أمامه مشكلات عدة ، سياسية وعسكرية ودبلوماسية . وكان لابد من أن يخوض المعارك على واجهات شتى ليتمكن في خاتمة المطاف من مواجهة أعظم المهمات ، ألا وهي وقف الغزو المدبر من دون سباستيان ضد المغرب .

إلا أن انتصارات عبد الملك العسكرية لم تمكنه من إخضاع البلد تماما . فإذا ظلت فاس على طاعته ، فإن الشمال الغربي والغرب بقيا في حوزة أسرة **ابن تودة** وهم من كبار الأسياد في القصر الكبير وأصيلة ، وكانوا حلفاء للمتوكل وللبرتغاليين . وقد كان عبد الملك ، منذ اغترابه ، حاول بدون جدوى استمالتهم . كان الصراع على أشده في الناحية التي كانوا يهيمنون عليها ، كانت بمثابة باب مفتوح على الغزو البرتغالي . وقام عبد الملك بحساب ماكيا فيلي حيث اقترح على دون سيباستيان تسليمه إحدى القواعد... ولم تكن له قاعدة حتى يسلمها إياه ! كان ذلك منه خديعة دبلوماسية قصد بها تلافي الدخول في حرب البرتغال كما أراد بها بث بذور الشقاق في صفوف أعدائه المتحالفين ... وكان الأطلس الكبير بدوره مفلتا من قبضته ، إذ كان من نصيب منافسه وزاوية **ابن ويسادن** . وسعيا من عبد الملك وراء تجريد هذه القوة الدينية من نفوذها اعتمد على قوة دينية أخرى وهي زاوية عبد الله بن سعيد الحاحي الذي كان يسيطر على الأطلس



أصيلة والقصر الكبير كانتا قاعدتين قويتين وبابين مفتوحين على الخارج . وظلتا ، رغم جهود عبد الملك ، خاضعتين لحلفاء المتوكل وللبرتغاليين .
(أصيلة . المستندات من الصور بتطوان).



في سنة 1577 ، كانت مراكش تعج بالطوائف الدينية المتناحرة وبالعصب العسكرية والقبلية . وقد طارد عبد الملك مرات عدة حركات متمردة في القصبة (القصبة السعدية بمراكش ، كوهلر ، هسبريس ، 1940).

الكبير الغربي إلى تارودانت ، وبذلك يتيسر له تطويق المتوكل عن طريق سوس . ونعرف ، من خلال مكتوب للسلطان زيدان ، أن عبد الله الحاحي كان اعترف بسلطة عبد الملك وكان يتردد عليه كثيرا . كانت مراكش ساعتها ساخنة هائجة ولعل سكانها كانوا زهاء مائة ألف نسمة وكان بها أحزاب دينية وعسكرية وعصبيات قبلية . وكانت تعيش ، على طريقتها ، العهد المخضرم للقرن السادس عشر . وفي القصبة كان مرتزقة من كل الاتجاهات في صراع بينهم أو كانوا يتمردون وفيهم الموريسكيون ، أولئك الأندلسيون المسلمون المطرودون من اسبانيا ، وكانوا يحاربون المرتدين البرتغاليين والاسبان والفرنسيين ، وكان

من جهة أخرى الانكشارية الأتراك في حرب مع زواوة القبائل ! وفيما كان يحاول عبد الملك لعدة مرات منازلة منافسه في الأطلس الكبير أو الريف كان يجد نفسه مرغما على البقاء محجوزا في القصبة حيث كان عليه أن يقمع الثوار أو يوقف تيار النزاع المحتد بين المرتزقة . وفي النهاية استطاع أن يتخلص من نفر منهم بإنشائه جيشا وطنيا نظاميا . وفي المدينة كانت الطوائف الحزبية الدينية وبخاصة منها الزاوية الجزولية تهيمن

بـ«فقرائها » على أحياء كاملة وسط المدينة وغربها ، وكانت الطائفة الجزولية صراحة « قومية » ومناهضة لأية تبعية أجنبية ، مسيحية كانت أو تركية مسلمة . وكان رؤساؤها متبوعين من الجماهير بسبب هذا الموقف وكذلك لأنهم كانوا أسخياء يدعون المساكين والفقراء إلى مائدتهم ويطعمون الطعام على حبه . لم يكن عبد الملك مرتاحا أمام هذا النفوذ الجزولي ، نظرا لتحالفه مع الأتراك وعطفه على المسيحيين . وفي نفس العام الذي استولى فيه الملك الجديد على مراكش قام في وجه تلك الزاوية الفقيه **محمد الأندلسي** الذي كان ينتقد بشدة « الفقراء » وخصوصا منهم الجزوليين . ودارت معارك طاحنة

عبد الملك الملك

يوليوز 1577 . مر عام على تولي عبد الملك الحكم باسم المعتصم بالله . لقد كان دخل إلى مراكش بعد انتصاراته الباهرة على خصمه الذي التجأ إلى جبال الاطلس ومعه بعض عصابات من الانصار .

كان عبد الملك وقتئذ في أكمل قوة ، في الخامسة والثلاثين من العمر . « جميل الوجه بين قومه » (دوبيبنيي A. D'Aubigné) . أبيض اللون . « عيناه واسعتان ولونهما أخضر . لحيته سوداء كثيفة . والسحنة القرمزية تزيد خده بهاء » (فراي نيتو Fray L. Nieto) . كان قوي البنية وكان يمارس الرياضة كالرماية بدون سهم ومنازلة أصحابه ومناورات بحرية في زورقه الراسي في بركة بأكدال مراكش . لكن تذوقه أنواع الرياضة وفنون الحرب لم يحل دون اهتمامه بمباهج أخرى . كان أميرا رقيق الذوق ، فنانا أنيقا ، واسع الصدر . وقد استثمر مدة الغربة ، التي دامت ثمانية عشرة عاما ، أحسن استثمار ، فتعلم الايطالية والاسبانية والتركية واتصل مباشرة بالثقافات الكبيرة لعصر النهضة . وقال دوبيبنيي إن معارفه كانت عظيمة بالنسبة لسيد فبالاحرى لملك . وبالاضافة إلى عنايته بالاستراتيجية وتقنيات المعارك والاسلحة النارية (لقد كانت تصنع المدافع بأمره) ، كان اهتمامه كبيرا بجوانب أخرى . وقد تزيا بزي الاتراك وجرى مجراهم في زي جيشه . إنه كان يحب أن يتزيى رعاياه بالزي التركي (كما جاء في ما نقله السفير الانجليزي ، يوليوز 1577) . وكان عبد الملك محبا للموسيقى . وكان يتقن العزف على ءالات عدة . وأزمع استقدام موسيقيين انجليز إلى بلاطه . ويقول فراي نيتو إنه كان يحسن الرقص . وربما كان يمارس إحدى رقصات عصر النهضة في البلاطات .

وفي الخامسة والثلاثين من العمر كان عبد الملك ، حسبما ذكره العديد من الشهود ، صلب العود مالكا زمام قواه العقلية والجسمية . ولو عاش غير الظروف التي هيأتها له الاقدار لكان في زمرة هؤلاء الامراء من مثل الذين تعرف عليهم في سني الغربة .

إلا أن الاقدار هيأته لمهام عظيمة . وقد كتب عبد الملك لاخيه أحمد هذه النصيحة ذات الدلالة : « فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة فإن الساعة لاتقتضي إلا الحزم والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم » (الاستقصا) .

وكان أن وقعت المعركة التي كان يبيت لها دون سيباستيان بالبرتغال ، في الجناح الاخر من المضيق ... وهي المعركة التي أبان فيها عبد الملك عن خلاله فكان مثال رئيس الدولة الحازم والدبلوماسي المحنك والاستراتيجي الماهر . ألا وهي معركة وادي المخازن .

سنة 1577 في أزقة العاصمة بين أنصار هذين التيارين الدينيين و« أهرقت الدماء » كما سجله المؤرخون . فهل كان من قبيل المصادفة أن عمد المتوكل ، الذي دخل مراكش دخولا مفاجئا سنة 1577 ، إلى البحث في كل مكان عن الفقيه الأندلسي ، الأمر الذي أفضى إلى فتنة انتهت باغتيال الفقيه المذكور ؟

وما أن هدأت هاته الزوبعة ، حتى كان يتعين على عبد الملك أن يقمع دمويا مؤامرة الكراوة أنصار منافسه الذين كانوا مدعمين من قبائلهم . كان المتوكل متمالئا مع الكراوه مما ساعده على الاستيلاء أياما معدودات على المدينة ، وكان وقتئذ عمه غائبا . لكنه لم يستطع احتلال القصبة التي كانت فيها أخت عبد الملك الأميرة مريم انتصرت فيها على المغيرين . ولما عاد عبد الملك إلى مراكش اعتقل نحو ستة وأربعين من الكراوه ونفذ الاعدام فيهم بتهمة الخيانة . وهذه ، فيما نعلم ، المرة الأولى التي ورد فيها ذكر استعماله العنف . واصبحت المدينة بعد ذلك هادئة ، وأشعره حاكمها بذلك بعد الهدوء المستتب . وبه استقر النظام .

عبد الملك السعدي

كان عبد الملك سيد الموقف الداخلي . فشرع يهتم بالشؤون الدبلوماسية . ومع ذلك كان يعد البلد للمقاومة العسكرية ضدا على الأخطار الأجنبية . وفي غمرة كل هذه المهام الكبار كان يجد حينا بعد حين الوقت ليتسلى في قصره المراكشي بالقصبة . ومن خلال ما كتبه معاصرو عبد الملك ندرك إدراكا عميقا بعد شخصيته .

أمير فنان ويقظ

وفي يوليوز 1577 اتخذ عبد الملك اسم **المعتصم بالله** ودخل مراكش بعد انتصاراته على منافسه الذي فر إلى جبال الأطلس مع جماعة من أنصاره .

كان وقتها عبد الملك في أوج قوته . كان عمره خمسا وثلاثين سنة . « جميل الوجه بين قومه » (دوبينيي) ، « ذا عينين خضراوين واسعتين ولحية سوداء كثيفة وبشرة فضية مذهبة كانت تضفي بهاء على خده »، (فراي نيتو) . كان ربعة وكان يغذي قوته الجسمية بالرياضيات المستمرة من رماية القوس بدون نبال ومصارعة مع رفاقه ومناورات بالبحر بمجاذيف سفينته الراسية في حوض أكدال . غير أن هوايته الرياضية والحربية لم تمنعاه قط من مسرات الحياة . كان أميرا مرهف الحس ، فنانا أنيقا ومرح الطبع . لقد عرف كيف يفيد من الأعوام الثمانية عشر التي قضاها منفيا في ناحية الأبيض المتوسط ، حيث تعلم الايطالية والاسبانية والتركية واطلع مباشرة على ثقافات عصر النهضة « حتى قيل في فرنسا إن معارفه تعدت ما كان في مقدور سيد من الطبقة الراقية أو ملك أن يدركه » (دوبينيي) . وإلى جانب الاهتمام الخاص الذي كان يوليه لاستراتيجيات وتقنيات المعارك بالأسلحة النارية كان فضوله يشمل ميادين أخرى . واقتبس من الأتراك لباسهم فارتداه هو وحاشيته كما نقل عنهم لباس الجنود . وكان يحترم استيراد قدر وافر من الثياب الانجليزية « لأنه كان يود أن يتزيى رعاياه بالأزياء التركية » (من أقوال سفير انجلترا ، يوليوز 1577) . وكان يولي عناية خاصة للباس . كان يقول إن ذلك يجلب الاحترام ويقول : « **هذا لباس المحاربين** . **وفي أيام الجمعة والأعياد كان يمتطي صهوة جواده وهو بنفس لباس سلطاننا** » (سلطان اسطنبول) (من وصف للجنابي) . وفي معركة وادي المخازن ارتدى نفس الزي الذي كان يتزيى به يوم عوده من المنفى . وكان يحب الموسيقى بل يحسن العزف على آلات موسيقية مختلفة. وكان في نيته أن يتقدم موسيقيين انجليز إلى بلاطه. وأهداه سفير انجلترا، باسم الملكة إليزابيث الاولى، عودا . وكان « يرقص رقصا بديعا » (الاسباني نيتو) ... ربما كان يمارس إحدى رقصات

كان عبد الملك يهوى الموسيقى . وكان يتقن العزف على عدة آلات موسيقية . وكانت انجلترا تعلم ذلك ، مما جعل الملكة إليزابيث الثانية تهديه عودا انجليزيا .
(الموسيقيون المغاربة ، جولة عبر تاريخ المغرب) .



عبد الملك في حقبة اغترابه في ناحية الأبيض المتوسط ، تعلم في تلك الأثناء الايطالية والاسبانية والتركية . وكان هو الملك السعدي الوحيد الذي وقع باسمه بالحروف اللاتينية على رسائله الدبلوماسية الموجهة لمختلف البلاطات الاوروبية .
(مصادر تاريخ المغرب غير المنشورة قبل).

بلاطات عصر النهضة ؟ هكذا كان يستقبل ضيوفه بتلقائية أعجبت سفير الانجليز . وكان يجري مباحثاته في حدائق القصر بلا تكلف ، وكانت تتم بين جلسة موسيقية أو راقصة ومباراة لصيد البط أو جولة ليلا على متن سفينته ذات المجاذيف .

وفي المسائل الحرجة كقضية البورق المغربي الذي طلبه الانجليز كان يعهد بالأمر إلى « خبراء » مورسكيين أندلسيين أو خارجين عن دينهم ، وكان هؤلاء يتفادون إلزام الملك بشيء ويجعلون بلباقة المفاوضات تتعثر (كما يتجلى من التقرير المستفيض الذي حرره سفير انجلترا) . كانت تربيته أرستقراطية وكان شعورا بواجباته وكان ذلك يتبين أيضا من خلال اتصاله برعاياه . وكما أورد ابن أخيه السلطان زيدان إنه لم يلجأ إلى الزيادة في ضريبة النايبة على شدة الحاجة المالية وسدد ما كان عليه من ديون أعيان فاس بمجرد استيطانه مراكش .

في الخامسة والثلاثين من العمر كان عبد الملك ، حسب مختلف الشهادات التي أدلى بها عدد من معاصريه ، يبدو رجلا مالكا جميع قواه الجسمية والعقلية . وفي ظروف أخرى كان يجوز أن يكون واحدا من نصراء الآداب والفنون الذين يحلو لهم العيش المرح ، كأمراء عصر النهضة الذين تعرف عليهم خلال مقامه في ضفاف الأبيض المتوسط . إلا أن القدر وجهه إلى طريق القيادة والحرب . كتب إلى أخيه أحمد ليلة معركة وادي المخازن يرجو منه أن يكون يقظا . وأن يفتح عين الحذر لأن الساعة تتطلب الصرامة والجهد والاقدام . كانت فعلا الحاجة ماسة إلى اليقظة ، كان لابد منها بين حاشيته القريبة التي كان يندس فيها عدد من العملاء الذين كانوا يعملون لحساب دول ذلك العهد : اسبانيا وتركيا والبرتغال . فكاتباه الخاصان ديكو مارين وليويس دى ساندوفال و « صديقاه » كابريت و أ . كاسبارو كورسو كانوا يلعبون على أكثر من حبلين . والواقع أن عبد الملك ، بفضل ما أوتي من فراسة ، استطاع أن يرد كيد الكائدين ، وله كانت دائما الكلمة الأخيرة .

وكانت لعبد الملك عن السيادة فكرة متعالية . ففي مواجهة خصمه المتوكل الذي قال عنه إنه يسلك مسلك اللصوص في حين هو يعمل بتؤدة عمل الملوك . وقبل أيام من معركة وادي المخازن كتب إلى دون سباستيان ملك البرتغال يقول عن المتوكل إنه ليس له من الملك إلا الاسم . فلا يستحق مثل هذا اللقب إلا الرجل الذي يملك ناصية الحق والعدل والمنطق .

في المفرق الاستراتيجي (1577)

إن السباق في المغرب ، بين اسبانيا والامبراطورية العثمانية ، بلغ ذروته في 1577 - 1578 بعد القرار الذي اتخذه ملك البرتغال بتوجيه رجال جيشه إلى المغرب . وكان فيليب الثاني يخشى بهذه المغامرة الخرقاء قيام نزاع واسع ، في أول إقناع دون سيباستيان بالعدول عن مشروعه ، خلال لقائهما في « قمة » غوادلوب (22 دجنبر 1575 - 2 يناير 1576) . ثم بعث إليه بكابريت « لينير هذا الأمير بحقيقة قوة عبد الملك ويحمله على التخلي عن الهجوم » . لكن دون سيباستيان كان مصرا على ما أزمعه ، خصوصا وإن المتوكل ، الذي كان يطارد عمه ، إلتجأ إلى صخرة بليش (نونبر 1577) ، ومنها طلب النجدة إلى البرتغال ضدا على عبد الملك وحصل عليها . وكان فيليب الثاني يخشى كثيرا ردا تركيا فحاول التقرب إلى عبد الملك بغية إبعاده عن صفوف العدو ، وفي شهر مايو 1577 اقترح ملك اسبانيا لأول مرة مشروعا لمعاهدة مع هذه التعليمات التي أعطاها لكابريت لتبليغها إلى عبد الملك : سيبرم الصلح للمدة التي يراها ملك اسبانيا ملائمة ويقحم فيه ملك البرتغال ... وفي

كان المتوكل مطاردا من عمه عبد الملك . فالتجأ (سنة 1577) إلى صخرة بليش . ومن هناك بعث برسالة إلى ممثل فيليب الثاني ملك اسبانيا ، خوان دي مولينا ، يرجوه فيها إقناع الملك بالاستمرار في إسناده .
(مصادر تاريخ المغرب غير المنشورة قبل).

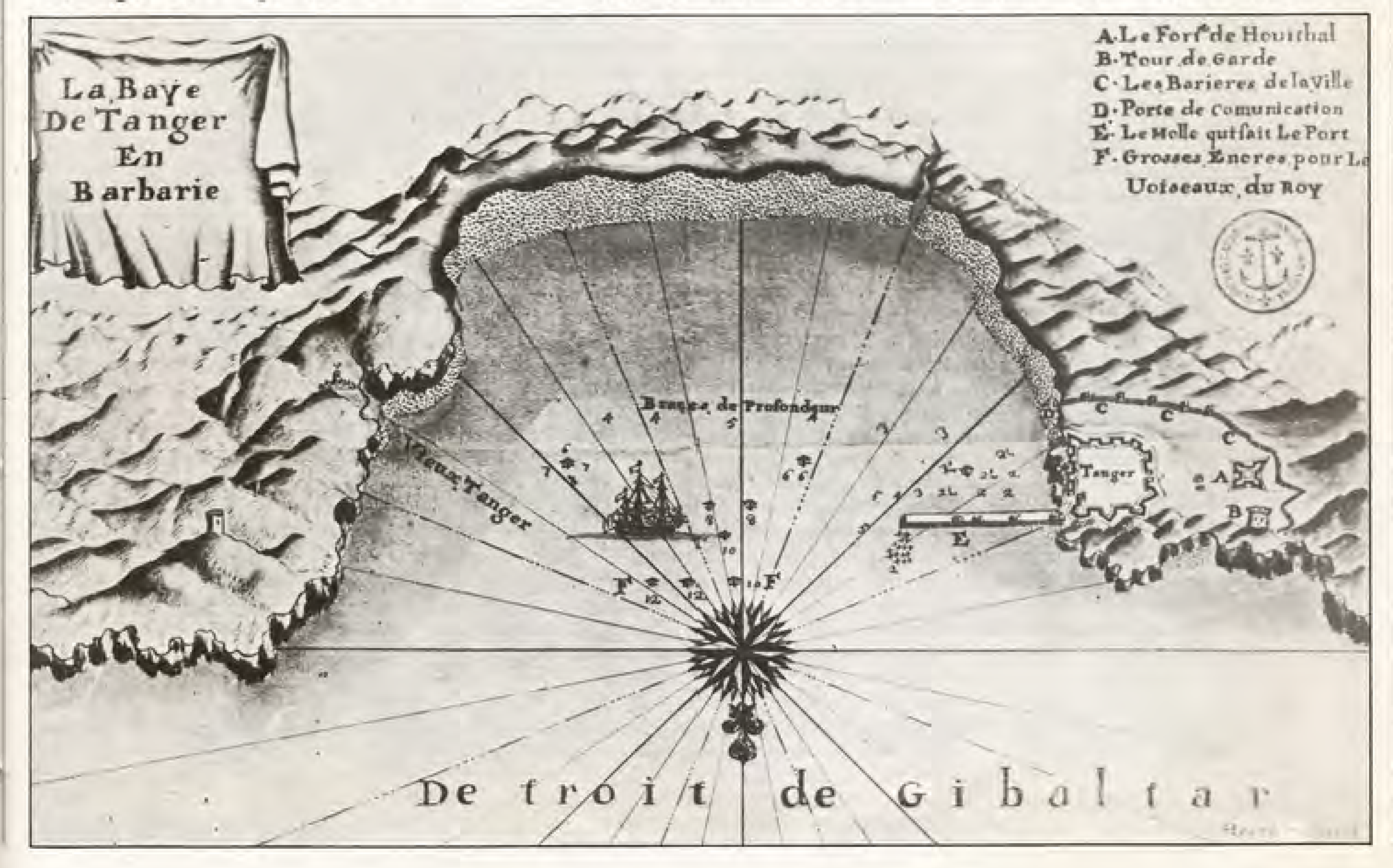


حالة غزو الأتراك شواطىء المغرب يرسل فيليب الثاني سفنه وعلى ظهرها الجنود والمعدات . على أن يغلق الملك السعدي موانئه في وجه قراصنة الجزائر ... ويمتنع عن تكوين بحرية حربية ، إلخ .

وبالرغم من هذه الشروط القاسية ، كان هذا نصرا دبلوماسيا لعبد الملك من حيث كونه أجل قيام الحرب مع البرتغال وضيق الخناق على المتوكل ومساعيه . ففي دجنبر الموالي صدر رأي مجلس شورى الدولة لفيليب الثاني ، وفيه ذكر للصعوبة التي يمثلها بالنسبة لاسبانيا استقبال المتوكل في بليش « حيث إنه سبق وأجريت مباحثات مع عبد الملك » وأنه « من الأفضل التعاون مع الأقوى » . في ذلك الحين كان عبد الملك ، وهو يلعب على الحبلين ، يتابع الاتصال بالسلطان العثماني . وفي شهر أبريل من نفس السنة ، وصل سفيره إلى اسطنبول حاملا رسالة جاء فيها بالخصوص : « إذا تفضل علينا سيدنا السلطان بالنجدة فسنرد بعون الله الكفار على أعقابهم خاسرين » (الجنابي) . وفي مقابل ذلك أرسل الأتراك إلى مراكش ، شهر نونبر ، سفيرا لم يستطع فيليب الثاني أن يعلم شيئا عن مهمته .

في هذه الظروف ظهر في المغرب ، شهر غشت 1577 ، أندريا كاسبارو كورسو . وفي هذه المرة رضي ملك اسبانيا بالاستعانة بخدمات صديق عبد الملك . وتفيدنا رسائل أندريا المكتوبة من مراكش ورسائل أخيه الذي كان مايزال مستوطنا بلنسية ، أيما إفادة ، بالدور الذي قام به فيما بعد ، حيث أخبر فيليب الثاني بما كان عليه أمر العلاقات بين عبد الملك والأتراك ، وحاولوا إقناع عبد الملك بالعدول عن استقدام أسطول أولغ علي . ووصف أندريا كورسو هذه الحالة الغامضة بقوله : « **ظل عبد الملك غارقا في تأمله وأرجأ إبعاد السفير التركي** » .

كان الملك السعدي سجين الضغطين الاسباني والتركي في وقت كانت تتأكد فيه التكهنات في خصوص الغزو البرتغالي . ورأينا أن دون سيباستيان كان تلقى بابتهاج عروض المتوكل . ثم طلب إليه بعد ذلك أن يتوجه إلى طنجة وينتظر بها مقدم الغزاة . وفي الوقت نفسه حشد قوات هائلة ، في الأشهر الأولى من 1578 : وفيه كان التجنيد العام في البرتغال ، كما كانت الاستعدادات البحرية في لشبونة وقاديس بمساعدة فيليب الثاني ، وزود البابا الحملة بالجند والسلاح الايطالي ، وجمع الجنود في



حين قرر فيليب الثاني التودد لعبد الملك ، حرض المتوكل دون سيباستيان ملك البرتغال على غزو المغرب ، وتوجه إلى طنجة لاستقبال الغزاة البرتغاليين . (طنجة في القرن السادس عشر ، كتاب المصادر غير المنشورة قبل التاريخ المغرب) .

إن بلد صاحب الصولة سباستيان ، ملك البرتغال ، نبيل ومطيع .

لا يمكنكم ، سادتي ، أن تجهلوا أنه حينما قام أسلافكم وأجدادكم بخوض غمار الحرب ، لاجل البضائع ، حرصوا على سلامة وصحة خدمهم ورعاياهم ووقايتهم من كل مغامرة مؤذية أكثر من حرصهم على تدمير وقتل أعدائهم المور والعرب والمحمديين الذين جابوا في جميع العصور أراضينا وأراضيكم وأفسدوا أفضل متاعنا وأحرقوه .

وإذا كنتم تخشون أن يجتاز شعب إفريقيا الموريتاني هذا بعدده الوفير حدودكم وأن ينتصر علينا وعليكم ، أفلا تعلمون أن مجد أمتنا الراسخ منذ القدم سيصمد أمام مثل تلك الغزوة الحربية ؟ أترضون أن يأتي قوم من ذرية محمد للانتقام في قصورنا من أسر أجدادهم وأسلافهم الذين زعموا أنهم عوملوا معاملة سيئة كما عومل أسلافنا ، تدفعهم رغبة الاستيلاء والتوسع حتى اقتحموا قسرا حدود مملكتي فاس ومراكش وغيرهما ؟ كيف ! أتظن هذه الامة البربرية أن قواتنا من الصغار بحيث استحال على عمانويل أن يسير أبعد مما أزمعه ، وأنها ستستحوذ على الاراضي والاقطار التي ليست لها ... »

(وصف لـ ج. دى سنتيلاس) .





قام عبد الملك ، لمواجهة الخطرين الاسباني والبرتغالي المهددين ، بتحصين مدن الشمال . هنا حصون العرائش .
(المستندات من الصور بتطوان).

ألمانيا . بينما كان المتوكل يستجمع آخر قواه في الشمال ، وبلغ عددهم زهاء ستة وعشرين ألفا ، شاركوا في المعركة .

وفي الخامس والعشرين من شهر يونيه بارحت القوة الغازية لشبونة ، ووقتها لم يكن السلطان العثماني خاملا : إذ تفيد « مذكرة البندقية » المؤرخة في 19 يوليوز ، استنادا إلى شهادة التجار الايطاليين المقيمين بمصر أن « السيد العظيم (أي السلطان العثماني) سيأمر بقطع كمية كبيرة من الخشب ليصنع بها سفنا بقصد فتح الطريق إلى شرقي الهند وإعادة ملك

البرتغال إلى صوابه » . وهكذا كان للقضية المغربية صدى في مجموع العالم القديم من مضيق جبل طارق إلى المحيط الهندي .

وفي الثاني من يوليوز ، أتى خبر الغزوة إلى عبد الملك . فتوجه على الفور مع جيشه إلى القصر الكبير حيث وصل في الرابع والعشرين . لقد قطع في ظرف أسبوعين مسافة خمسمائة وخمسين كيلومترا . وكتب في رسالة يتحدى بها دون سيباستيان ، يقول : « **إني رحلت إليك ست عشرة مرحلة . أما ترحل إلي واحدة ؟** »

كان على استعداد لمنازلة الجيش الغازي ، إلا أنه بادر بتوجيه نداء أخير بليغ إلى الغازي يدعوه فيه إلى السلم . فالحرب التي أضرم نارها دون سيباستيان ظالمة . وهو يلتزم بأن يتنازل له عن أية مدينة بحرية أرادها . ثم يعرض أن يحتكما إلى حكام من البرتغال ويعلن استعداده لقبول القرار الذي سيتخذه دون سيباستيان نفسه بعد التحري . كل هذه عروض لم يسبق لها مثيل في التاريخ . فما عهد الناس أن يعرض أحد الملوك نفسه على محكمة ...

وكانت تعارض شتى الضغوط عزمه الدفاع عن مملكته . وما كان لهذا العزم أن يتأكد إلا بشرطين : أولهما أن يعتمد على قواته ويضمن بذلك للبلد اكتفاءه الذاتي من حيث التسلم ، والثاني أن ينوع علاقاته الخارجية ليحد من خناق الدول الكبرى . وهكذا كرس جهده طوال آخر سنة من ملكه في هذا السبيل .

ملك مالك للزمام

في نونبر 1578 ، بعد أشهر من معركة وادي المخازن ، زعم كابريت ، العميل ذو الوجهين ، وهو العارف بوضعية القوات المغربية ، في رسالة إلى فيليب الثاني أن « اسبانيا لو أرادت غزو المغرب في عهد عبد الملك ، فما عليها إلا أن تجند أربعين إلى خمسين ألف رجل . أما ونحن في عهد أحمد المنصور فالكفاية تكون حاصلة بخمسة عشرة ألف رجل أو عشرين ألفا .

وقبل ذلك بعام أرسل جاسوس مجهول الهوية « مذكرة من مراكش » إلى اسبانيا ، يقول فيها :

« **إن مملكتي مراكش وسوس هادئتان** ».

ويستعد مولاي عبد الملك للذهاب إلى فاس مصحوبا بأحد عشر ألفا من حملة البنادق وثلاثين ألفا من الفرسان وكلهم من الكفار . ولا يوجد أكثر من خمسمائة تركي في مملكة مراكش . ويحمل مولاي عبد الملك معه الكثير من مدفعية الحملة . وقد أمر بألف من الابل لنقل البارود ...

وفي مدة تقل عن ثلاثة أعوام من الملك ، وكانت مدة صعبة ، استطاع عبد الملك أن يتغلب على الأخطار الخارجية بأن حرض الدول الكبرى بعضها على بعض ، واستطاع تحسين الوضع الداخلي بأن زود البلد بقوة عسكرية ضخمة وحقق اكتفاءه الذاتي من الأسلحة .

فكيف تمكن من ذلك كله وهو الملك

كان عبد الملك أيام شبابه منبهرا بفاعلية التنظيم العسكري التركي . فجرى في ذلك مجرى الاتراك ونحا على نحوهم في تنظيم جيشه . وعلى منوالهم أعطى الاولوية للمدفعية الثقيلة وفصائل المشاة .

(رسم فارسي في القرن السادس عشر).

« عندما علم عبد الملك ، صبيحة يوم الاثنين ، أن النصارى كانوا يسيرون في المعركة ، نقر في الناقور في صفوف أنصاره وأمر الجنرالات والكولونيلات بإخراج جنوده من ثكناتهم وتوزيعهم بحسب الترتيب الذي أمر به وأثبت في خريطة مطبوعة بهذا الكتاب . وبما أن هذا الملك كان ضعيفا جدا بسبب المرض الذي أصابه مؤخرا ، وأن سحنته كانت شاحبة مصفرة وأن ساعديه كانا بفعل الشلل عديمي المفعول ، فقد نصحه حكماء مجلسه بألا يشارك بنفسه في القتال . لكنه رفض . ولم يكن امتطى صهوة جواد منذ عشرين يوما فبذل من الجهد فوق طاقته ليبارح فراشه وارتدى ملابس فاخرة موسومة بالذهب ومزينة بأحجار كريمة ولؤلؤ بديع وركب فرسه الابيض القوي . وبدأ وهو على هذه الحال يحرض أنصاره ويحدثهم بليونة ويعدهم بأشياء كبيرة من ترقيات ومكافآت وهبات وامتيازات كان يحظى بها جميع الذين أحسنوا السلوك طيلة اليوم . وأكد أيضا بجميع الجنود أنه سيكرمهم يعد النصر بهدايا جميلة لكل منهم فيها نصيب خاص به .

وقد زرعت هذه الكلمات في نفوس الجنود الشجاعة والاقدام ، لاسيما وأنه كان مر وقت طويل لم ير فيه الجندي الملك لانه كان مريضا . وكان جميع الجنود بعد ما سمعوا من كلامه أكثر ما يكونون أهبة للقتال والموت في سبيل الملك . وبالرغم من أنه قبل ذلك كان نفر منهم يفكرون في خيانته وفي الفرار فإنهم سرعان ما عدلوا عن فكرتهم فتقدموا بين يدي الملك مبدين نحوه محبة عظيمة وقبلوا راحتيه بتعظيم وإجلال » .

(لويس نيتو : فرنسا الاكليروس . شاهد عيان في معركة الملوك الثلاثة ، برتغالي) .

عبد الملك السعدي





أصدر عبد الملك أوامره بتأليف أسطول حربي وتنشيط العمل في ورشي العرائش وسلا .

الشباب الذي كان المفروض أن يتيه في مباهج الحياة وينبهر بملذاتها ؟ إن سر ضحيته يكمن في حيويته وعظيم تيقظه وحذره وتلك صفات أثبتها له الرواة . كذلك أقروا له بالشجاعة النادرة . وإن لقراراته الأولى كملك واسع الدلالات في هذا السياق . فقبل أن يبارح فاسا ، وكانت المرحلة الأولى لرجوعه من المنفى ، اتخذ عددا من التدابير التي وإن اختلفت حجما إلا أنه كانت لها جميعا أبعاد مستقبلية أكيدة : ذلك أنه حصن العاصمة الشمالية تحسبا لرجوع محتمل للأتراك ، وكون نواة لجيش وطني تلافيا للجوء إلى المرتزقة الأجانب (حامية فاس والمخازنية) وكان جيشه النظامي مؤلفا من رجال من القبائل . ثم إنه ، وهذا هو الأهم ، أصدر أوامره بتأليف أسطول حربي ونشط العمل في ورشي العرائش وسلا وعزز هاتين المحروستين (غشت 1576) لمواجهة الخطرين البرتغالي والاسباني ، المهددين . وبعد سنة من ذلك ، شهر أبريل 1577 ، كتب إلى السلطان التركي يقول : **« إننا نتوفر الآن من البوارج والزوارق الحربية على أربعين قطعة . فنحن على سنن أسلافنا : نقاتل في سبيل الله بحرا وبرا »** .

كان تدرب على استعمال المدفعية في منفاه . فسهر شخصيا على صناعة مدافعه . وشهد الفرنسي برونغون Berongon سنة 1576 أن عبد الملك كان حريصا « على صنع مدفعية مهمة » ، وقال هذا الشاهد إنه شهد في مراكش « سبع قطع أو ثمان قطع صنعت مؤخرا وكان الملك يسهر بنفسه على صوغها ... » وقبل بضعة أيام من معركة وادي المخازن ، كان ما يزال يأمر بصنع المدافع في حين كان جيشه يتقدم صوب ساحة القتال . وهذا على كونه كان مريضا ، وربما كان بدأ فيه مفعول السم الذي سقيه . وكان عبد الملك ، إلى كونه ينتج الأسلحة الخفيفة والأعتدة ، على اتصال بانجلترا ، التي كانت إلى حدها دولة محايدة فيما يعني المغرب وإن كانت ملتزمة في مناهضة اسبانيا ، وذلك للحصول على والواقع أن فرنسا كانت تهتم بتزويد المغرب بالسلاح والعتاد بله السفن ، مقابل تمكينه إياها من السكر والنحاس وغيرهما . إلا أن موقف عبد الملك ، المرتبك ، من الأتراك كان على ما يبدو يضايق فرنسا التي كانت مرتبطة بحلف معهم . وقد اكتفى الملك السعدي بالوساطة الفرنسية سعيا وراء تحسين علاقاته باسطنبول وبتعيين قنصل فرنسي في المغرب « ليسهر فيه على نظام السياسة والعدل في ممارسة التجارة » (الاجراءات لصالح القنصل بيرار ، التي وقعها ، بشنونسو يوم 10 يونيه 1577 ، الملك هنري الثالث) .

وفي مجال التنظيم العسكري والاستراتيجية ، من المعروف أن عبد الملك اختار انتحال الطريقة العثمانية فيما يخص نظام الجيش المغربي سواء من حيث الزي و « تكتيك » المعارك . وقد أولى عناية خاصة في هذا المضمار بالمدفعية الثقيلة وفصائل المشاة المسلحين بالبندقيات العتيقة على غرار الرجالة الأتراك .

وسار في المعارك الكبرى على نهج « الهلال » كما لوحظ في وادي المخازن حيث تجلى تفوق « التكتيك » التركية على « تكتيك » البلاد الأوروبية ... فأوروبا كلها كانت ذلك اليوم حاضرة . وفي عهد عبد الملك ، كان المغرب يتوفر على معدات عسكرية رفيعة ، فكانت أرق ما وصلت إلى توفيره الأسرة المالكة المغربية في القرن السادس عشر ، وذلك ما يتأكد من خلال ما أحصاه كابريت سنة 1578 . وهكذا واجه عبد الملك قدره مرتاح البال مطمئن الضمير .

« إعلان الحرب ضد النصارى من وراء وأمام الاطلنط التي كانت جبالها وسهولها تصبح خالية ، لأن سكان الاقاليم الخاضعة للشريف دخلوا مراكش . كذلك إن نهرا انحرف عن طريقه واقتحم كل حقول الوادي وإن البادية في ضواحي مراكش امتلأت بالمور الممتطين جيادهم وبإبلهم وبالانعام . وكنت ترى أشخاصا من جميع الاشكال يهبون ، وفيهم نسوة عجائز . وكل واحد منهم كان يظهر من السرور والمرح ما يجعلك تظن أن هذه الحرب يراها مطهرة لنفسه » .

(مختصر منزيس . الرواية البرتغالية للقرن السادس عشر) .

السلاح والعتاد اللذين كان يطلبهما إلى التجار الانجليز بمراكش ويعطيهم لقاء ذلك ملح البارود والسكر المغربيين .

وفيما يخص ملح البارود كان غير سخي في العطاء نظرا لأنه كان بحاجة ماسة إلى هذه المادة الاستراتيجية . وتفاوض لاستقبال خبراء انجليز في صنع الكرات الحديدية التي كانت تحشى بها المدافع وحاول استقدامهم لمراكش لهذا الغرض فكتب (شهر يوليوز 1577) إلى السفير هوكان Hogan يخبره أنه يعتزم تأمين أن تمر من المغرب المنتوجات الأوروبية المصدرة للامبراطورية العثمانية عوض تمريرها عن طريق ألمانيا وإيطاليا . وكانت العلاقات مع فرنسا صعبة رغم ما كان من تجانس بين الملكين هنري الثالث وعبد الملك ووجود الاستعداد الطيب لدى البلدين .

الموت على صهوة الجواد

نظم عبد الملك ، قبل التحاقه بمراكش انتصاره الأخير هناك ، حفلا دينيا مؤثرا في مسجد القصبة : كانت أعلامه البيضاء المطرزة بآيات قرءانية بخيوط ذهبية منصوبة في الفناء الكبير . وختم « الطلبة » في ذلك الحفل « السلكة » القرءانية مائة مرة ومثلها من صحيح الامام البخاري . ثم تليت الابتهالات بمشاركة العلماء والقادة العسكريين والجند وعموم الناس .

وفي يوم 4 غشت 1578 أشرقت الشمس ساطعة على سهل القصر الكبير وأطلقت أشعتها البراقة على تلك الربوع . وأصدر عبد الملك الأمر « للجنرالات والكلونيلات بأن يبارح الجنود ثكناتهم وتوزيعهم بحسب ما أقره من ترتيب مثبت على خارطة » (نيتو) . ثم استعرض جنوده واتخذ الاحتياطات الأخيرة بأن أحكم إغلاق الأفواه العريضة القطع المدفعية . ثم « ارتدى ملابس فاخرة مزينة بالخيوط الذهبية والأحجار الكريمة واللؤلؤ البديع ...»

وعلى الساعة الثانية عشرة أعطيت الانطلاقة . وفجأة غشيت السحب الأفق فكانت عاصفة صيفية في سماء الغرب . وبذلك تمالأت قوى الطبيعة مع فورة الرجال . وكان عبد الملك طريح الفراش يئن من داء مزمن ربما كان نتيجة للسم الذي سُقيَه . وأشرف وهو على تلك الحال على ساحة الوغى . فاهتز الجيش وانطلق . ونهض ساعتها عبد الملك من فراشه وأمر بأن يأتوا له بحصانه . وإذ كان يقوم بهذا المجهود خارت قواه أو ما بقي منها . فعملوا على أن يستريح وينام . حضره الموت وكان يشير إلى جيشه بأن يسيروا دائما إلى الامام .

وفي الاستقصا ، قال منويل :

« وكان أمر هذا الرجل عجبا في الحزم والشجاعة حتى أنه لما مات مات وهو واضع سبابته على فمه كأنه يشير إلى جيشه أن يسكتوا عن الخوض في وفاته حتى يتم أمرهم ، ولا يضطربوا ، وكذلك كان ، فإنهم كتموا موته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفرا لا كفاء له... ».

أزياء تزيى بها عبد الملك

« كان يتزيى بقفطان تركي أحمر قاني وأبيض ويحمل عمامة على رأسه ، والخنجر في جنبه ، في يده حفنة صغيرة من السلاح الفولاذي ، وكان يمتطي فرسا رماديا فاتحا . وكان السرج مكسوا بمخمل أخضر مزين بأوشحة ذهبية معقودة . وكان يقول إنه دخل البلاد بنفس الزي وعلى ظهر هذا الفرس حينما غزاها . كان يسير مصحوبا بخدمه ويستظل من الشمس الوهاجة بمظلة كان يحملها راجلان . وكان يمشي بالقرب منه بعض الطلبة وهم يتلون قرءان محمد بصوت جهوري »

(من وصف الاسباني لويس دى اوكسيدا)

وبعد بضعة أيام ووري جثمان عبد الملك بفاس . ودفن كما يدفن الشهداء بفراشه وكسوته وأسلحته وأعلامه . وحمل جثته كبار العلماء .

إن المرء عندما يقارن بين المغرب عند مجيء عبد الملك وكيف أصبح في أقل من ثلاث سنين من ملكه لايتمالك عن الاعتقاد بأن الأقدار سخرت هذا الملك لينشر النظام ثم يغادر الحياة الدنيا .


Jebbour

عبد الملك السعدي

1541	التاريخ المقدر لمولد عبد الملك بن محمد الشيخ وسحاية الرحمانية . محاصرة الجزائر من أسطول كارلوس الخامس .
1554	جعل حدا لاحتلال فاس من لدن محمد الشيخ ، الامير الوطاسي أبو حسون بمساعدة أتراك الجزائر الذين سلم لهم باديس . وفاة أبي حسون . استقرار الملك نهائيا لمحمد الشيخ مؤسس الاسرة السعدية .
1556	فيليب الثاني يتوج ملكا لاسبانيا .
1557	اغتيال محمد الشيخ على يد حاميته التركية . وخلفه ابنه عبد الله « الغالب بالله ». (21 أكتوبر). فرار عبد الملك إلى الجزائر بصحبة أمه وأخيه أحمد (المنصور). دون سيباستيان يتوج ملكا للبرتغال . إليزابث الاولى ، ملكة انجلترا .
1558 - 1559	ثورة عبد المومن حاكم مكناس ، بدعم تركي ، على أخيه الغالب . هروب عبد المومن إلى الجزائر وتسميته واليا على تلمسان .
1563	حملة تركية على « المملكتين » الاسبانيتين وهران ومرسى الكبير .
1564	رد فعل اسبانيا التي احتلت نهائيا صخرة بليش القاعدة البحرية للعمليات التركية الموجهة ضد السواحل الاسبانية ونحو مضيق جبل طارق .
1566	حكم السلطان العثماني سليم الثاني . محاصرة مالطة من الاتراك .
1568 - 1569	باي الجزائر أولغ علي يساعد ثورة الموريسكوس الغرناطيين .
1569	المساعي السياسية الاولى لعبد الملك لدى فيليب الثاني .
1571	محاصرة قبرص من الاتراك وتصاعد عسكري في البحر الابيض المتوسط . وقد انتهى في ليبانتة بتدمير الاسطول العثماني من طرف الاساطيل المسيحية المتحالفة (7 أكتوبر). عبد الملك يشارك في المعركة . اغتيال عبد المومن في مسجد بتلمسان ، وقد قتله موفدون من ولي العهد محمد (المتوكل فيما بعد). عبد الملك أصبح بذلك أكبر المطالبين بالعرش السعدي سنا .
1571 - 1573	رحلات لعبد الملك إلى اسطنبول حيث حصل ، بعد طلبه ذلك ، على موافقة سليم الثاني على نيله حقوقه في عرش أبيه .
1574	وفاة الغالب (يناير). تولي ابنه المتوكل منافس عبد الملك . تعيين رمضان في منصب باشا الجزائر (مارس). هنري الثالث ، ملك فرنسا . انتقام تركي من ليبانتة : حصار حلق الواد واستعادة تونس نهائيا من الاسبان (13 شتنبر). عبد الملك يشارك في المعركة ويركب إلى اسطنبول حيث ينال موافقة السلطان مراد الثالث الذي حل محل سليم الثاني .
1575	عبد الملك ورمضان باشا يهيئان الغزوة المغربية التي انطلقت شهر شتنبر .
1576	غزو المغرب بعد معركتي فاس (مارس) ومراكش (يوليوز). عبد الملك يصبح ملكا للمغرب .
1576 - 1577	نشاط دبلوماسي مكثف لعبد الملك باسطنبول والجزائر ومدريد وباريس . قدوم سفراء ومبعوثين أتراك واسبان وفرنسيين وانجليز إلى مراكش .
1577 - 1578	استعدادات عسكرية لدون سيباستيان ضد المغرب . المتوكل ، بعد تنحيته من الجنوب ، يلتجىء إلى صخرة بليش ، ومنها يطلب مساندة دون سيباستيان ويحصل عليها . استعدادات عسكرية لعبد الملك .
1578	انتصار المغرب في وادي المخازن (4 غشت). انهيار البرتغال ، وفاة عبد الملك ودون سيباستيان والمتوكل الذي لقب بعد ذلك بالمسلوخ في معركة الملوك الثلاثة كما سميت معركة وادي المخازن .

(تواريخ رتبها ح. التريكي)

معركة الملوك الث

محمد زنيبر

لايوجد حدث يصور التطور الذي طرأ في تاريخ المغرب منذ القرن الخامس عشر مثل معركة الملوك الثلاثة ، التي عرفت بأسماء أخرى مثل معركة القصر الكبير أو معركة **وادي المخازن** ، وهو الاسم الذي درج على استعماله المؤرخون المغاربة في كتبهم . وربما خطر لبعض المؤرخين المعاصرين أن يسموها ، اليوم ، بدافع تصحيح جاء متأخرا عن موعده « معركة الملوك الأربعة »، لأنها ، بالاضافة إلى الملوك الثلاثة الذين ذهبوا ضحايا لها ، كانت منطلقا لبروز ملك رابع سطع نجمه عاليا في المغرب ، ألا وهو **أحمد المنصور الذهبي** .

ومهما يكن ، فالحدث أصبح ، بالنسبة للمغاربة ، رمزا تاريخيا غنيا بدلالاته ، فهو الحق الأبلج الذي ينتصر على باطل العدوان ، وهو الاسلام الذي ينتزع انتصارا باهرا في تلك السلسلة الطويلة من الحروب الصليبية التي استهدف لها منذ أزمان ، وهو شعب المغرب الذي هب بحماسة للدفاع عن بلاده ، وقد هزته غيرة وطنية بالغة في عمقها ... ولكن الحدث هو ، قبل كل شيء ، حدث تاريخي ، وعلى هذا الأساس يجب أن يعتبر ويطرح في مجال البحث والتحليل .

أصول المعركة

قبل كل شيء يجب وضع الحدث في إطاره التـاريخي ، وإلّا ظل غامضا ومستعصيا على الفهم الصحيح . وما الحروب إلا انفجارات من العنف تعبر عن يأس عدوين عجزا عن الوصول إلى تسوية نزاع قائم بينهما . الشيء الذي يلزمنا بالنسبة للموضوع الذي نخوضه الآن أن نبحث عن الأسباب التي جعلت المغرب والبرتغال يقفان وجها لوجه في صراع بارز لاهوادة فيه . وهكذا ، سينتهي بنا الأمر إلى إلقاء نظرة على **أصول** معركة وادي المخازن .

— إنها ، في الواقع ، نهاية مسلسل بدأ مع تدهور الدولة المرينية في القرن الرابع عشر ،





وتفاقمت خطورته بضياع سبتة التي احتلتها البرتغال في سنة 1415م ، وبالحصار الذي ضربته الدول الايبيرية الناهضة على الشواطىء المغربية . يضاف إلى ذلك ما عاشته الدولة المغربية من انحطاط ومشاكل داخلية مستعصية في تلك الفترة . فما أبعدنا من عهد الدولة الموحدية التي كانت هيبتها سارية في غرب البحر الأبيض المتوسط بكامله ، وكذلك في ثغور الأندلس لدى النصارى الاسبان !



كانت معركة وادي المخازن منعطفا هاما في مسيرة التاريخ المغربي . (أطلس لميركاطور . طبعة معادة. 1607، بأمستردام).

لقد شاءت أقدار لا مرد لها أن يتحول المغرب من إرادة القوة ، ومن العمل الطموح المعزز بالقدرة على تحدي الصعاب مهما عظمت إلى موقع التراجع والانطواء والتخلي عن الحركة والقنوع بالدفاع عن النفس .

لكن ، هل وجد في هذا الموقف عهدا من السلم والراحة ؟ الواقع أنه حينما تخلى عن نقل الحرب إلى بلاد الغير ، فإن الآخرين ، أعداءه بالأمس ، أصبحوا هم الذين ينقلونها إلى أرضه وفي عقر داره . وهكذا ، فالمغرب ، سواء أكان طموحا وغازيا ، أم قنوعا ومنطويا على نفسه ، كان يواجه دائما نفس الواقع المر : **الحرب** . لقد شاء له موقعه الفريد من نوعه أن يقع في نهاية عالم كبير ومعتز بنفسه : **عالم الاسلام** وفي الاحتكاك المباشر بعالم آخر لايقل عنه امتدادا وطموحا : **عالم المسيحية** . فكان حتما عليه أن يتحمل في حياته اليومية وأن يكابد في لحمه ودمه ثقل العداوة الراسخة منذ قرون والتي أصبحت تتحكم تحكما عشوائيا وجنونيا في العلاقات بين هذين العالمين . لقد اختار المغرب الاسلام فكان لابد من أن يعتد باختياره أمام الصديق والعدو ، لأنه أصبح ركيزة حياته .

وأمامه تقع شبه الجزيرة الايبيرية التي احتضنت الاسلام في فترة من تاريخها ورحبت بالثقافة العربية فازدهرت في ربوعها حضارة عربية إسلامية بلغت منتهى التقدم . لكن ما لبث الحظ أن تنكر لها حينما تألب المسيحيون عليها واندفعوا في حركتهم من أجل استرداد الأندلس وطرد العرب والمسلمين من أرضها . وغدت ممالك قشتالة وقطلونية تنظر إلى نفسها مدافعة عن العالم المسيحي بأسره تجاه العالم الاسلامي .

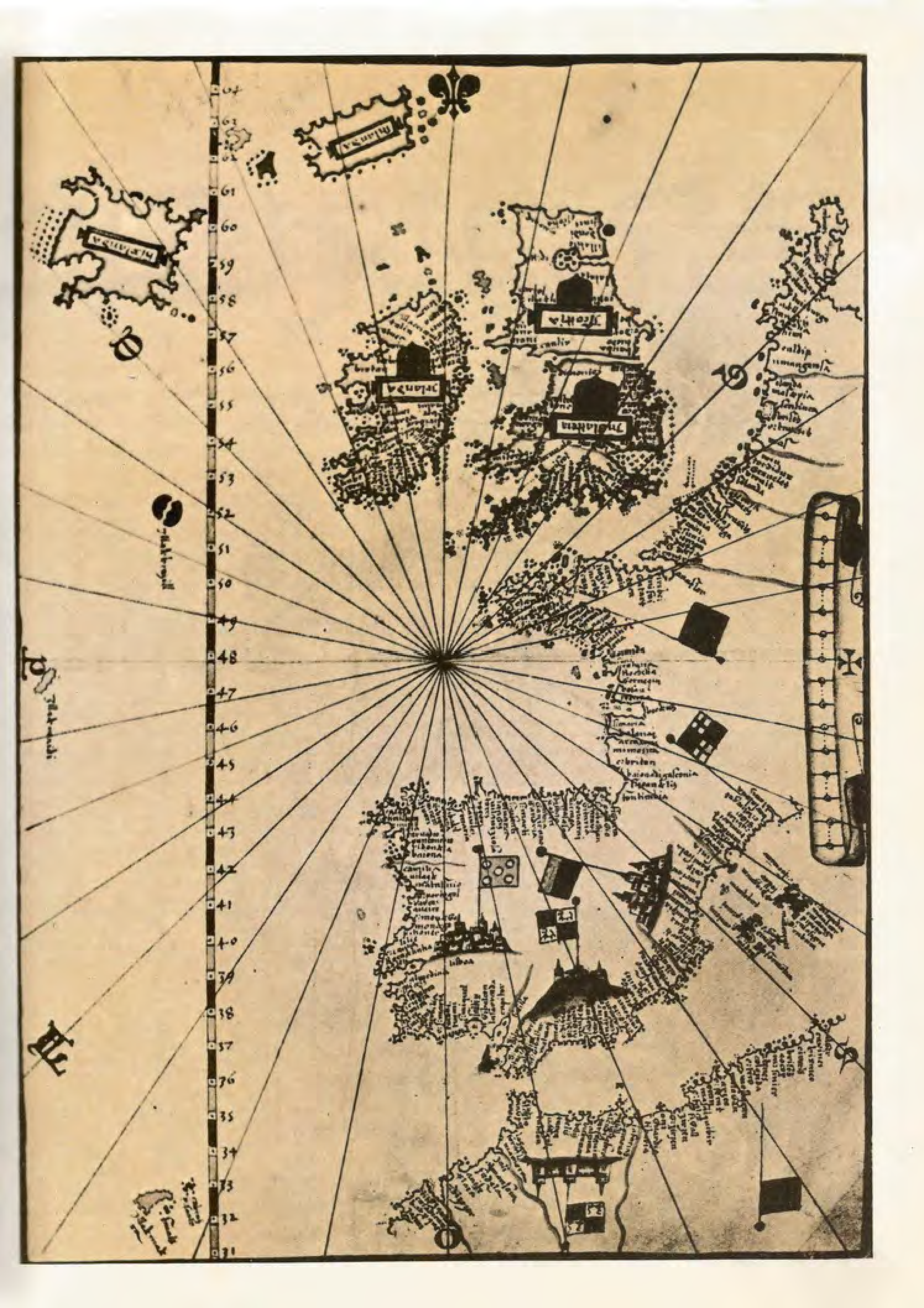
وهكذا ، شاءت الأقدار أن يقف هذان الشعبان المتصفان بالشجاعة والاباء والوفاء ، واللذان يجمع بينهما الجوار ، الشعب الاسباني والشعب المغربي ، موقف الصراع من بعضهما ، ويتحولا شيئا فشيئا ولعدة قرون إلى عدوين لا سبيل لرأب الصدع بينهما .

الهجوم الايبيري

أصبحت الظروف التاريخية ، ابتداء من القرن الخامس عشر ، تجرى لصالح الدولتين الايبيريتين ، البرتغال واسبانيا ، على حساب المغرب ، الذي كان ، بالاضافة إلى تدهوره العام ، يجتاز من أزمة داخلية ويعاني من الفوضى . وطبيعي أن تنظر الدولتان اللتان أصبحت تحركهما مطامع امبريالية إلى المغرب كغنيمة قريبة وتحت اليد لايصح تفويت الفرصة للاستيلاء عليها ، سيما وغزوها ، على ما كان يظهر ، لم تكن تعرضه صعوبة كبيرة ، بينما كانت قوتهما تتزايد يوما عن يوم .

ولنذكر بكل إيجاز كيف أن البرتغال تحول بالتدريج ، ابتداء من القرن الخامس عشر ، إلى دولة بحرية كبيرة ، بفضل المبادرات التي قام بها الأمير هنري الملاح (المتوفى سنة 1468) في هذا الشأن ، وإلى سياسة استكشاف الشواطىء الافريقية التي واصلها ابن أخيه ألفونسو الخامس . فما لبث الأسطول البرتغالي أن تمكن من السيطرة على البحار ، ودار دورته على جنوب إفريقيا ليصل إلى الخليج العربي والبحر الهندي ، محققا بذلك ثورة كبيرة في المواصلات البحرية .

لكن هذه المطامع الامبريالية الكبيرة ، الرامية إلى غزو العالم ، ما كانت لتنسي البرتغال حساباته القديمة مع جاره المغرب . ولذلك فقد



أصبح البرتغال ابتداء من القرن الخامس عشر قوة بحرية توسعية. (خريطة بحرية قديمة لجان مارتين - المتحف البريطاني).

خصص أولى حملاته للهجوم على المغرب . فجاء الملك خوان الأول على رأس جيش للهجوم على شمال المغرب وانتهت الحملة باحتلال سبتة في 1415 . وأصبح لهذا الحدث أهميته في تاريخ المغرب لأنه يفصل بين عهدين ويحدد بدء المغامرة الامبريالية البرتغالية .

لقد ظل المغرب عنصرا أساسيا وحلقة نفيسة في الخطة التي وضعها أصحاب هاته المغامرة ، لأنه كان يجتذب اهتمامهم لأكثر من سبب واحد . فمن ذلك أن البرتغال ظل محصورا في بقعته من لدن جارته مملكة قشتالة ، مما جعله يعاني من ضيق العيش في أرض صغيرة . فكان يشعر بالحاجة إلى التوسع تجاوبا مع طموحه ويفكر في أن يكون توسعه على حساب المغرب القريب منه . وفي نفس الوقت ، كان يحركه طمع مماثل في الاستيلاء على موارد المغرب الزراعية ، ولا سيما الحبوب التي كانت تعتبر البلاد أحد مخازنها الغنية . ولا ننسى ذكر منتجات الصناعة التقليدية المغربية التي ظلت طوال قرون عديدة بضاعة نفيسة في التبادل التجاري مع إفريقيا السوداء .

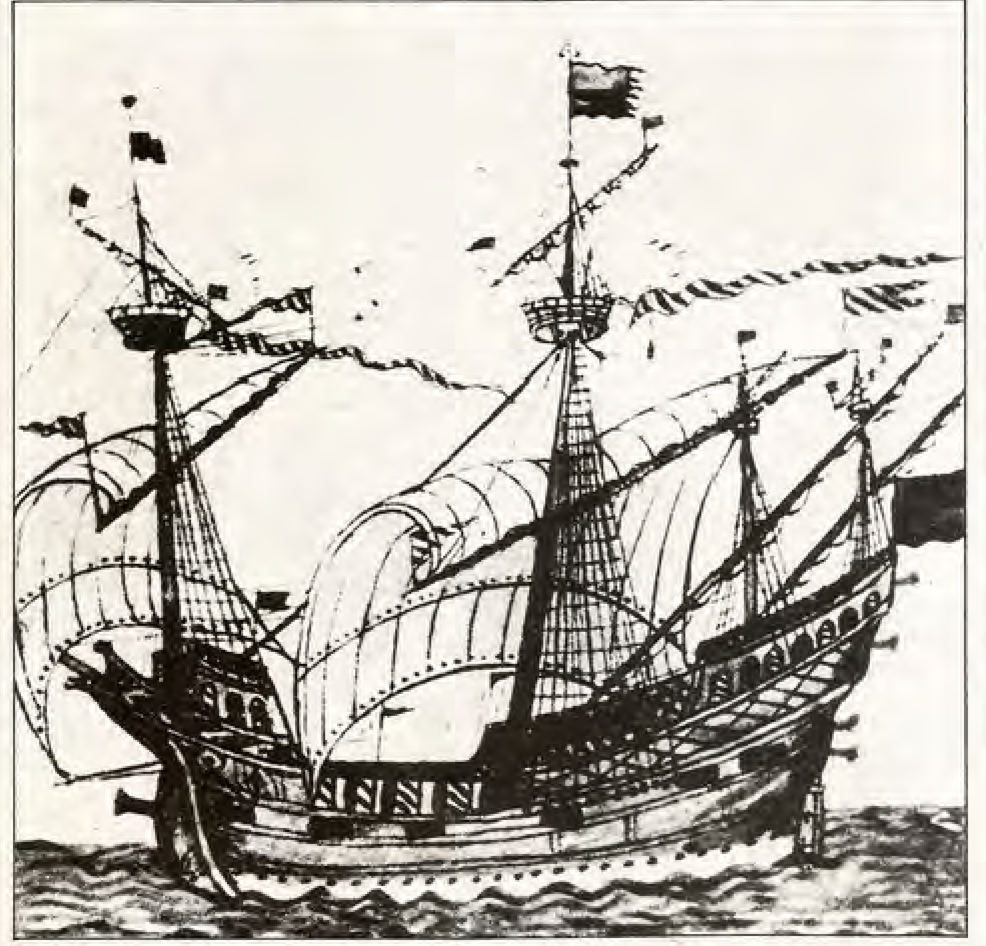
فالمغرب كان ، إذن ، بالنسبة للبرتغال قاعدة مهمة على المستويين الاستيراتيجي والاقتصادي من أجل مد سيطرته في القارة الافريقية .

وكانت إسبانيا ، من جهتها ، تحركها نفس الدوافع تجاه المغرب . فبعد أن أتمت استرداد ما بقي من الأندلس العربية بعد الاستيلاء على غرناطة سنة 1492 وأتمت وحدتها السياسية على يد الملوك الكاثوليك ، أصبحت بين عشية وضحاها أولى قوة في أوروبا . بحيث يعتبر القرن السادس عشر عهد الأوج في تاريخها . فهو القرن الذي خولها أن تستفيد من اكتشاف أمريكا وتكون امبراطورية استعمارية شاسعة الأطراف أمدتها بثروات عظيمة . إنه قرن شارل الخامس وفيليب الثاني اللذين كانا يتحركان بقوتهما العسكرية داخل أقطار أوروبا باسم الكاثوليكية ويجابهان الدولة العثمانية كمدافعين عن النصرانية .

وإلى جانب هاته المطامح الكبيرة ، ظلت اسبانيا تمنح في اهتماماتها الدائمة مكانا خاصا لمصير المغرب . بل إن بعض قادتها لم يكونوا يترددون في القول بأن المغرب يعد كجزء من إرثهم التاريخي القديم الذي يرجع لعهد ملوك القوط ، إذ كان هؤلاء يعتبرون موريطانيا الطنجية داخلة في مملكتهم . وحينما استولت اسبانيا على الجزر الخالدات (كانارياس) في سنة 1403 ، فإنها بدأت تمهد منذ ذلك العهد لعمل من شأنه أن يساعدها على المزيد من تقوية سيطرتها بالمغرب . ولا أدل على ذلك من الشنآن الذي قام بينها وبين البرتغال من أجل امتلاك جزء من الشواطىء الأطلسية المغربية ، يمتد من رأس بوجدور إلى أكادير الحالية .

اتفاقية سنترا

قامت إذن المنافسة بين اسبانيا والبرتغال من أجل الاستيلاء على المغرب . إلا أن هذا الأخير ما كان ليستفيد من ذلك النزاع لأن كلا المتنافسين كان ينظر إليه ويطمع لا حد له . يضاف إلى ذلك أن الكنيسة الكاثوليكية كان لها دور في المحافظة على الانسجام بين الدول المسيحية والحد من عوامل الصراع فيما بينها وتوجيهها لغزو العالم ، والبلاد



أصبح البرتغال ، وهو الاقليم الضيق ، بفضل أسطوله المتكون من المراكب ذات العارضات الاربع يغزو عددا من الاقطار النائية .



القصر الصغير ، حصن برتغالي منذ سنة 1458 . (كليشه المستندات من الصور بتطوان).

الاسلامية على الخصوص . ولم تكن البلاد الاسلامية تستفيد من أي تنظيم ولا تنسيق فيما بينها . بل كان كل منها يعيش على حدة ويأكل القوي منها الضعيف . فكان ذلك أخطر مظاهر الانحطاط الذي عرفته في تلك الآونة .

وعلى أي ، فقد استطاع الفاتيكان أن يوفق فيما بين البرتغال واسبانيا حينما أوحى إليهما بالامضاء على **معاهدة سنترا** التي تحدد لهما خطة في اقتسام أرض المغرب فيما بينهما . وهكذا خولت المعاهدة لاسبانيا حق الاستيلاء على جزء من الشاطىء المغربي الشمالي يمتد من بادس في اتجاه الشرق ويشمل من المدن الكبيرة غساسة ومليلية ، وخولت للبرتغال حق الاستيلاء على الشواطىء الواقعة غرب بادس في البحر المتوسط والنازلة مع المحيط الأطلسي إلى رأس بوجدور ، لايستثنى منها إلا ساتتا كروز دوماربيكينا التي تبقى لاسبانيا .

والواقع أن اتفاقية سنترا إنما جاءت لتكرس الأمر الواقع الذي جرى به العمل منذ عشرات السنين . فالعمل التوسعي الذي كانت تقوم به الدول الايبيرية بالمغرب كان قد وصل إلى أكثر أهدافه قبل نهاية القرن الخامس عشر . ويكفي أن نتتبع سلسلة المدن المغربية الساحلية مع تاريخ احتلالها لنتأكد من ذلك : مليلية : 1497 ، غساسة :1506 ، بادس :1507 ، سبتة :1415 ، القصر الصغير : 1458 ، طنجة : 1471 ، أصيلة : 1471 ، العرايش : 1489 ، آنفا : 1469 ، آزمور : 1486 ، آسفي : 1486 ، ماسة : 1497 ، سانتاكروز دوماربيكينا : 1476 . ثم وقع احتلال مراكز شاطئية مهمة أخرى في بداية القرن السادس عشر ، وبالخصوص مازيغن .

باعتبار هاته القائمة للمراسي المغربية التي احتلها البرتغال ، يتبين لنا ، في الحين ، أن المغرب لم يبق له إلا مدينة الرباط وسلا على مصب أبي رقراق في واجهته البحرية . ولا أدل على درجة العجز الذي تردت فيه الدولة المغربية من هذه الحالة، فالدولة الوطاسية الضعيفة المتخاذلة لم تستطع أن تجنب المغرب إحدى الأزمات الخطرة التي عاشها في تاريخه. وماأن ظهر

معركة الملوك الثلاثة

عجزها عن إخراج العدو من البلاد ، حتى بدأت تفقد سمعتها ومصداقيتها لدى الشعب . ولم تستطع منطقة سلطتها الفعلية أن تتجاوز فاس وناحيتها . مما شجع على ظهور إمارات محلية ومزيد من تفاقم الانقسام داخل البلاد وخلق حالة مزمنة من الفوضى والفتنة . وما قصرت الدولة الوطاسية في أن تمنح لنفسها طابعا وطنيا ، ولكن بدون جدوى . فكان الأطلس المتوسط ومراكش وأقاليم الجنوب خارجة بالكلية عن نفوذها وحكمها .

وهكذا كان المغرب في مستهل القرن السادس عشر يظهر كبلاد معرضة من كل ناحية لهجوم أعداء كانوا يعملون على خنقه وحرمانه من كل اتصال سياسي حر مع العالم الخارجي . فلم تبق له موانىء ، ولم تكن له بحرية ، في الوقت الذي كان يواجه حصارا دائما تقوم به الأساطيل الاسبانية والبرتغالية . فإذا أضفنا إلى ذلك التدهور الحاصل في مبادلاته التجارية مع إفريقيا السوداء عن طريق القوافل العابرة للصحراء منذ أزيد من قرنين ، أمكننا أن نتصور كيف نزل مستواه المعاشي إلى الحد الأدنى ، وما هو عمق الأزمة الاجتماعية التي كان يتخبط فيها .

وبالجملة ، فالأحداث كانت تدل على أن الدولتين الايبيريتين كانتا ماضيتين في تحقيق مشروعهما بكامل النجاح ، وهو المشروع الرامي إلى إخضاع المغرب لسيطرتهما الاستعمارية . وكان البرتغال يحلم بالحصول على حصة الأسد في المؤامرة الامبريالية الجارية ، طبقا لاتفاقية سنترا . ولكن لاننسى أن إسبانيا بقيت لها الحرية الكاملة للتصرف في مصير أقطار المغرب الأخرى . ومن الجهة المغربية ، لم تكن الدولة القائمة بفاس ، دولة الوطاسيين ، تبعث على الثقة في قدرتها على القيام بأية مقاومة ناجحة تجاه المغيرين ، بله قيادة نضال صحيح للتحرير الوطني . كان المغرب ، إذن ، يواجه تحديا خطرا يتعلق بمصيره . فكيف كان جوابه عليه ؟



آسفي في بداية القرن السادس عشر للميلاد .

الجابهة الوطنية اكتست صبغة دينية وشعبية

المفاجأة الكبرى التي تمخضت عنها الأحداث كانت هي بروز إرادة قوية للمقاومة في المستوى الشعبي . وظهر خطأ كل من تصور أن الأزمة السياسية قوضت كل حظوظ الأمة المغربية في الاستمرار والبقاء ، ذلك أن من أخذ بمثل هذا الاعتقاد لم يضع في حسابه حيوية الشعب المغربي التي ظهرت دائما ، في اللحظات الحرجة والحاسمة ، لتنقذ الموقف وتحول مجرى التاريخ . فالتطور الجاري في البلاد برهن على أن عجز الوطاسيين إنما كان في عمق الأشياء عجز دولة ، أي عجز بنية فوقية سياسية . وأما الشعب فقد كان يحتفظ بفضائله كاملة غير منقوصة ، ولم تكن تعوزه إلا القيادة الصالحة .

ولنذكر كيف أن استيلاء البرتغال على سبتة في سنة 1415 هز المغرب هزا . فانطلقت الدعوة للجهاد هنا وهناك في سائر ربوعه . وتجندت الزوايا ، وبالأخص القادرية والشاذلية للعمل من أجل الجهاد . وكان أحد أقطاب التصوف المغربي ، محمد بن سليمان الجزولي ، أجرأ عملا في توخي هذا الهدف ، إذ نظم في الجنوب المغربي شبكة مكثفة من الزوايا دورها يتخلص في دعوة الناس واستنفارهم للمشاركة في كل معركة مع المغيرين . وكان من نتائج الدعوة والاستنفار تكوين جماعات من المجاهدين بالريف وجبالة وعلى مقربة من الجيوب الاسبانية والبرتغالية التي كانت تنخر جسم البلاد .

وهناك من يطرح تساؤلا في هذا الصدد : هل كانت الحركة وطنية أم دينية ؟ سؤال لامعنى له ، لأننا في عصر لم يكن فيه التفريق بين هذين المظهرين ، بحيث يمكننا أن نقول إن الحركة كانت وطنية ، بكل معنى الكلمة ، لأنها كانت تهدف إلى الدفاع عن أرض ، عن وطن له موقعه وصورته في الكرة الأرضية . كما يمكننا أن نقول إنها كانت دينية ، لأن أكبر محرك فيها كان هو الدفاع عن الاسلام والمسلمين . فالجانب الديني كان له ، بالطبع ، ثقله في الميزان . وربما كان الأمر بالنسبة للمغرب يكتسي صورة خاصة ، لأن موقفه كان يدخل في إطار المعركة القديمة بين المسلمين والنصارى في ضفتي مضيق جبل طارق ، تلك المعركة التي ترجع إلى قرون خلت دون أن تقف عند حد .

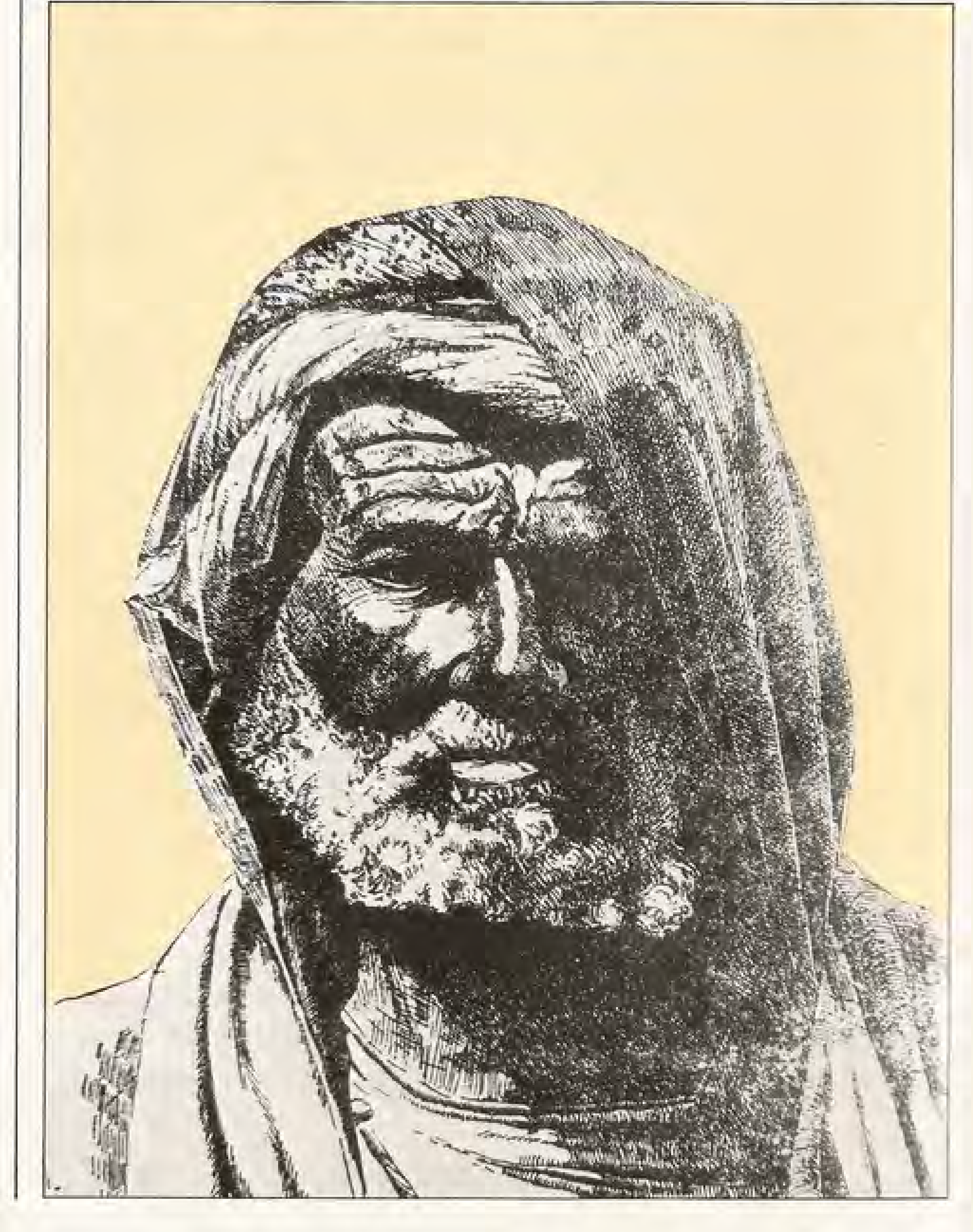
وقد عملت الظروف ، في الآونة الأخيرة ، على إذكاء نار العداوة وإحياء الجروح القديمة ، وذلك حين أقدم نصارى الاسبان على العدوان على مواطنيهم المسلمين من البلاد وحرمانهم من كل الحقوق بالاستيلاء على غرناطة في سنة 1492م والتنكيل بهم وطردهم من البلاد ، في



شريف الشاون ، سيدي بوجمعة العلمي ، قاد الحرب ضد البرتغال . ومات بالبندقية في يده سنة 1471 .
(وثائق ابن عزوز حكيم).

النهاية ، وهز الحدث المغرب من أقصاه إلى أقصاه ، وهذا أمر طبيعي إذا ذكرنا كيف أنه ربط مصيره بالأندلس وتضامن معها طوال قرون وما بخل بالأنفس والأموال في سبيل الدفاع عنها ، واليوم وقد حكمت الأقدار على الموريسكيين بأن يلتجئوا إلى عدد من المدن المغربية مثل تطوان وفاس والرباط وسلا إلخ ... فإنها جعلت منهم ، في نفس الوقت ، خير دعاة للتيار الديني الوطني الذي أخذ ينتشر في البلاد .

وإلحاحنا على العامل الديني لايعني أننا نتجاهل أهمية عوامل أخرى من بينها العامل الاقتصادي الذي كان له ، ولا شك ، تأثيراته في عدد من التطورات التاريخية . لكن الشيء الذي أردنا أن نلفت له النظر هو أن السياق التاريخي ، بوجه عام ، كان يغلب عليه طابع الصراع الديني القائم منذ قرون بين الطرفين . ذلك الطابع الذي قدر له أن يوجه المغاربة، بعد فترة من الحيرة، إلى الحل الذي كان مناسبا لمقتضيات التاريخ .



الشرفية تتكفل بقيام دولة جديدة : دولة السعديين

لانقاذ المغرب من الأخطار التي كان يجابهها ، أصبح من الضروري تجنيد الشعب لصراع لا هوادة فيه ضد العدوان الامبريالي . وكان لابد من وضع العقيدة كرهان ، أي من إعلان الجهاد المقدس ، لجمع القوة الضرورية لمثل تلك الملحمة . ولكن، من كان له الصلاحية لاعلان الجهاد ، على الصعيد الوطني ، وتنظيمه وقيادة معاركه ؟

بالطبع ، لم يكن من المعقول الاتكال على دولة الوطاسيين التي برهنت على تخاذلها ، لا من قريب ولا من بعيد ، ولم يعد كذلك من المفيد الرجوع إلى الحل المعتاد الذي يعتمد على إسناد الحكم إلى أسرة قبلية كبيرة أو إلى عشيرة ذات عصبية . بل صار الظرف يقتضي البحث عن تصور جديد للحكم يتجاوز العلاقات السلالية أو الاقليمية للحصول على إجماع الأمة المغربية في إطار وحدة وطنية لمواجهة الوضع الخطير . وللسير في هذا الاتجاه الجديد لم يكن من الضروري إحداث انقلاب في الأفكار أو في تقاليد المجتمع المغربي .

ذلك أن الحل كان موجودا في عين المكان . وكانت الأحداث ترهص به منذ زمان . وهو يعني بالاجمال إسناد القيادة إلى أحد أحفاد الرسول ﷺ أي إلى شريف يجمع في شخصه بركة الأشراف وسمو النسب والسلطة المعنوية التي تمكنه من لم الشتات وإقصاء أسباب النزاع والفتنة ، وفرض قاعدة للانضباط الوطني . وكانت الفكرة ، منذ زمان بعيد ، محل نقاش في عدة

طلحة ، قاد المقاومة ضد الاحتلال البرتغالي لسبتة سنة 1428 .
(أرشيف ابن عزوز حكيم).

المراسلة بين المتوكل والعلماء

« كان محمد بن عبد الله المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتقال إلى بلاد الاسلام رسالة بعث بها إلى أعيان المغرب من علمائه وأشرافه وذوي رأيه يغمض عليهم بها في نكث بيعته ونقضها ، ومبايعة عمه من غير موجب شرعي ، وقال لهم : « ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين » وقد قال العلماء : انه يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه .

« وتهددهم فيها وأبرق وأرعد . وقال :

« فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » وسمى النصارى : أهل العدوة واستنكف من تسميتهم نصارى . فأجابه علماء الاسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة وفاضحة لركيك تأويله ، وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفا حرفا :

« الحمد لله كما يجب لجلاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه وإرساله ، والرضى عن آله وأصحابه ، الذين هجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به ، حتى أسس الله دين الاسلام بشروط صحته وكماله . وبعد ، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والاجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد الله السعدي عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة ، واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب ، قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب : لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب ، فقولك : خلعنا بيعتك التي التزمناها وطوقناها أعناقنا وعقدناها ، فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع ، ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع ، وانما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه... ».

« كان مولانا محمد الجد الاكبر عهد لاولاده مولانا أحمد ، ومولانا محمد الشيخ واخوانهم ، لا يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم إلا الاكبر فالاكبر ، فالتزموا ذلك إلى أن كبر أولادهم فطلب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع ، فقاتله على ذلك حتى تم له الامر وانتظم ، فعهد لوالدك الذي كان أكبر أولاده ، فلم ينازعه أحد في ذلك إلى أن ألقى والدك رحمه الله ذلك ، وعهد إليك فلم ينازعك أحد ، فأبى الله إلا الحق فاعطى ملكه لعمك الذي هو أكبركم بعد أبيك ، فإن سلمت هذا فأي حجة تدلي بها وأي طريق تعتمد عليها ؟ وإن أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجدك من قبله لثبوتها لعمكم مولانا أحمد ، إذ لا حجة حينئذ لجدك في القيام على عمك ، فخلافته صحيحة لبيعة جدك له ».

« وأما قولك : في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى ، ففيه المقت الذي لا يخفى . وقولك رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله أحدهما : كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال ، وأن الحق لم يبق من يقوم به الا النصارى والعياذ بالله والثاني : انك استعنت بالكفار على المسلمين . وفي الحديث : أن رجلا من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فوجده بحرة الوبرة ، موضع على نحو أربع أميال من المدينة فقال له : « يامحمد ، جئت لانصرك » فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ان كنت تؤمن بالله ورسوله » فقال : « لا أفعل » فقال له عليه الصلاة والسلام : « إني لا أستعين بمشرك » وما سمعته من قول العلماء رضي الله عنهم في الاستعانة بهم إنما هو على المشركين بأن نجعلهم خدمة لا زيال الدواب لا مقاتلة ، فأما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه ، وقد قيل قديما : « لسان العاقل من وراء قلبه » وفي قولك : يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين ، وفي ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضا والعياذ بالله .

« وقولك : فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، أين أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ما قلت ففي الحديث : « يتكلم أحدكم بالكلمة تهوى به في النار سبعين خريفا .»

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا ، حملتهم الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية ، وتجدد لهم نور الايمان . وأشرق عليهم شعاع الايقان فمن قائل يقول : « ...لا دين إلا دين محمد صلى الله عليه وسلم » ومن قائل يقول : « سترون ما أصنع عند اللقاء ، ومن قائل يقول « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن

المنافقين » ومن قائل يقول : « إنما قصد التشفي بالمسلمين إذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعال القبيحة » إلى غير ذلك فجزاهم الله عن الاسلام خيرا . ورضي عنهم وبارك فيهم ، فلله درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان ، فلو لم يكن منهم إلا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافيا في صحة إيمانهم وعظيم إيقانهم فقد بلغ نور غضبهم لله سبحانه ساق العرش ، والحب في الله والبغض في الله من قواعد الايمان .

« وقولك أيضا : متبرئا من حول الله وقوته ، فان لم تفعلوا فالسيف فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله فقط . أنبا سيفك هذا وأنت مع المسلمين في أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ، ثم زال نبوه الان بالكفار فهذه أضحوكة فتأملها... ».

« وأما ما نسبته لامام دار الهجرة فكفاك عجزا أن لم تعين لنا نصا جليا نعتمد عليه فيما تحتج به الا أنك كثرت به سواد القرطاس مغربا بذكره لامعربا بنصه .

« وما نسبته للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتوسيع الغصة بخمر ، فهو مما نص عليه المالكية في مختصراتهم التي ألفوها للصبيان ، فعدولك عن ذلك إلى الحنفية إما قصور ، وأما إلغاء لمذهب مالك رضي الله عنه ، وهو النجم الثاقب .

« وأما قولك : أنتم أهل بغي وعناد فلا نسلم لك ذلك إلا لو أقمت بين أظهرنا وقاتلت معنا حتى ترى أنسلمك أم لا . فأما إذ هربت وتركتنا فالحجة عليك لا علينا ، على أنك في كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره ، وقد قال العلماء رضي الله عنهم : « من يقول بتكفير العامة فهو أولى بالتكفير » وذلك معزو لزعيم العلماء القاضي أبي الوليد ابن رشد ، والقاضي أبي الفضل عياض ، وكيف لا تنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان ، وكيف وقع لامرائهم المستنصرين بالكفار على المسلمين ، هل حصلوا على شيء مما قصدوه ، أو بلغوا شيئا مما أملوه ؟ على أن أكثر العلماء حكموا بردتهم ففاتهم الدنيا والاخرة والعياذ بالله .

« وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك ، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم ، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا »، « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لن تغلب هذه الامة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين لابات الدنيا » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« سيقاتل آخر هذه الامة الدجال » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألته الا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها ». والكل عليك وإياك نعني .

« وما ذكرته عن عمك : فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويته المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله من حملوا القرآن مائة ختمة ، وصحيح البخاري ، وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير ، والصلاة والسلام على البشير النذير ، والدعاء له وللاسلام بالنصر والتمكين ، والفتح الشامخ المبين ، فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك ، وقضى ما هنالك ، وبلغه كتابك الذي كان هذا جوابا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة ، ولولا أن الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الاسلام والمباهاة بها ، والافتخار بكثرتها لما قرنا لكم أمرها ، إذ لا اعتماد له أيده الله عليها ، وكذلك هم لا اعتماد لهم الا على حول الله وقوته ونصره وتأييده ، والناس على دين الملك ، وقد قاتلك وأنت في وسط المسلمين في بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية ، فأي نحس وشؤم حلا بديار الروم ، فإن جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد ، ارجع إلى الله أيها المسكين ، وتب إليه فإنه يقبل التوبة عن عباده في كل وقت وحين ، ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، وهذه نصيحة إن قبلتها ، وموعظة إن وفقت إليها ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسـلام ».

« الاستقصا » لدول المغرب الاقصى الجزء الخامس

أوساط بالمجتمع المغربي ، وتوحي بتيار فكري مساند لها ، وهو التيار الذي دعاه المؤرخون المعاصرون **الشرفية** .

وفي بداية القرن السادس عشر ، كانت الفكرة قد نضجت وأصبحت قابلة للتطبيق . وسبق لنا أن أشرنا إلى تحركات الزوايا وسعيها الحثيث في سبيل القضية ، وبالأخص الزاوية الجزولية بجنوب المغرب . ويرجع الفضل إلى مريديها البارزين وشيوخها ، الذين يخطون بتبجيل السكان المحليين ، في المبادرة إلى اتخاذ القرار من أجل تعيين قائد للجهاد يقع الاختيار عليه من عائلة شريفة تعيش في نفس المكان وهكذا بايعوا محمدا بن أحمد السعدي ، الذي حمل لقب القائم منذ توليه (1511) . فكانت نشأة الدولة السعدية . بحيث إن بروزها على المسرح التاريخي كان ثمرة المحاولات والاجتهادات والتجارب التي أجريت منذ زمان في سبيل إيجاد حكم وطني جدير بهذا الاسم ، وقادر على مجابهة التحدي الأمبريالي وعلى طرد المغيرين من التراب الوطني .

ويتضح من تحليلنا أن الدولة القائمة نشأت عن نوع من تعاقد مع الشعب . ولذلك فإنها لم تتوان في القيام بالتزاماتها التي يأتي الجهاد في أولها . وكانت الزوايا مجندة لمساعدتها وفي نفس الوقت لمراقبتها وهي تقوم بالمهمة المسندة إليها .

ويجب القول إن الدولة السعدية لم تخيب الآمال وكان جوابها إيجابيا إذ إنها استطاعت في زمان قصير نسبيا أن تحرر عددا من المراكز المهمة مثل أكادير وآزمور وآسفي والقصر الصغير التي كانت واقعة تحت الاحتلال البرتغالي ، في الوقت الذي كانت فيه منشغلة بالصراع مع دولة الوطاسيين المحتضرة وتعمل على توطيد كلمتها بالتدريج في مجموع البلاد .

لم تكن البرتغال ، بالطبع ، تتابع هاته التطورات دون حنق وتخوف ، إذ باتت ترى كل حساباتها فاشلة وكل مشاريعها خاسرة ، فهي لم تكبد هزائم وتخسر بعض المراكز فحسب ، بل إن مستقبلها أصبح مهددا في المغرب . والقاعدة الوحيدة التي بقيت لها على الساحل الأطلسي ، ميناء مازيغن ، أصبحت معرضة باستمرار للهجوم ، بحيث إن الأوضاع انقلبت في ظرف أربعين سنة . وهكذا أصبح البرتغاليون هم الذين يقفون موقف الدفاع عن النفس ويشاهدون وجودهم بالمغرب في تقلص . فكان لابد من أن يتجه نظرهم للقيام بعمل كبير ليوجهوا الأحداث من جديد لصالحهم . وهكذا انساقوا شيئا فشيئا وهم يعيدون النظر في الموضوع ويبحثون عن الحل الذي يساير أطماعهم إلى حرب الملوك الثلاثة .

التدخل العثماني

وتعقدت الأحوال ، في هاته الأثناء ، بتدخل عنصر جديد في المنطقة : وصول الأتراك العثمانيين إلى أقطار المغرب كفاتحين . فبعد أن استولوا على ليبيا وعلى تونس والجزائر ، أخذوا يعدون لتتويج توسعهم بالاستيلاء على المغرب الأقصى . فاجتهدوا وما قصروا ولكن محاولاتهم باءت دائما بالفشل . ولعلهم لم يكونوا يتوقعون مقاومة ضارية وناجعة من لدن المغرب بعد أن تمكنوا من الاستيلاء على الأقطار المغربية الأخرى دون كبير صعوبة .

وكان المغرب آنذاك يعتبر تسرب العثمانيين إلى إفريقيا الشمالية ظاهرة أمبريالية . الشيء الذي حدا بالدولة السعدية إلى شحذ عزيمتها في الدفاع عن المغرب من الأطماع العثمانية . بل إنها أكثر من ذلك لم تكن راضية عن استيلاء العثمانيين على الجزائر وتونس ولم تتردد في مجابهة القوات العثمانية بحد السيف داخل التراب الجزائري . ونجم عن ذلك حال من التوتر بالحدود مع الجزائر حيث ما فتئت السلطات التركية تقوم بالدسائس وتدبر مؤامرات ضدا على المغرب . وأدى بها الحال إلى تنظيم حملات عسكرية داخل أراضيه .

لكنها اضطرت للرجوع إلى شيء من الواقعية بعدما تكبدته من هزائم متكررة . فتظاهرت بالتخلي عن استعمال القوة ، وحاولت أن تبسط نفوذها على المغرب باتخاذ سياسة التقارب مع الملوك السعديين ذاتهم ، ونية الأتراك الدفينة أن يتخذوا من تلك الخطوة المسالمة مرحلة لاخضاع البلاد فيما بعد . وقرروا السير على هاته الخطة ، فنموا علاقاتهم السياسية مع البلاط السعدي وما كانت لعبتهم لتخفى على الملوك السعديين الذين كانوا يحذرون منهم وفي نفس الوقت يستفيدون من تجربتهم على المستويين العسكري والسياسي .

كانت المشاريع العثمانية بالمغرب تتجاوز النطاق الضيق للعلاقات بين البلاط السعدي والباب العالي . فقد كانت لها انعكاسات على الوضع الدولي ، وبالأخص في المنطقة الغربية من حوض البحر المتوسط . وإسبانيا التي طالما قاومت التوغل العثماني ببلاد المغرب منذ أوائل القرن السادس عشر ، والتي اضطرت إلى التخلي عن تونس والجزائر ، ما كانت لتقبل استقرار الأتراك على ضفاف مضيق جبل طارق ، بعد إخضاع المغرب الأقصى لنفوذهم . فكان عليها ، هي الأخرى ، أن تحدد سياسة تجاه المغرب ، سياسة ترتكز على الأسلوب الدبلوماسي وعلى التلويح بالصداقة ، حتى لايلقى السعديون بأنفسهم بين ذراعي العثمانيين .

فكان الوضع بالمغرب في بداية القرن السادس عشر يتسم بالأحداث التالية :

1 – وقوع البلاد تحت ضغط أقوى دولتين في العالم : إسبانيا في عهد شارلكان والدولة العثمانية تحت قيادة سليمان القانوني .

2 – نجح المغرب برغم قوة أعدائه في الدفاع عن نفسه عسكريا ودخل معهم في معارك واستطاع أن يحرر عددا من المراكز التي كانت واقعة تحت الاحتلال البرتغالي .

3 – كانت الدولة السعدية مضطرة ، على المستوى السياسي ، إلى اللعب على الحبلين للمحافظة على نوع من التوازن بين جاريها القويين ، فتمنح صداقتها تارة للايبيريين ، وطورا



للعثمانيين ، للمحافظة على استقلال المغرب .

وكان في طوقها أن تواصل هاته اللعبة ما دامت الأسرة متحدة . لكن بعد وفاة محمد الشيخ (1557) لاحت في صفوفها أول أزمة خطيرة . مما خول الفرصة للدول الأجنبية لكي تتدخل في شؤون الدولة المغربية وتشعل نار الشقاق بين أعضاء الأسرة ، وذلك بتقديم تأييدها لفريق على فريق .

أزمة العرش

صعد عبد الله الغالب إلى العرش السعدي سنة 1557 ، طبقا لقاعدة الدولة في تولية العهد إذ تسند تلك المنزلة السامية للبكر من

كان مجموع المغرب الكبير يثير طمع القوتين المتوسطيتين اسبانيا والعثمانيين .
في الصورة الاسبان وهم يستولون على تونس التي كانت في يد الاتراك .
(كليشه ب. ذ. باريس).

أولاد السلطان الهالك . وبما أنه كان ذا طبع يغلب عليه الخوف والتشكك ، فإنه كان يتوجس دسائس ومؤامرات من أعضاء الأسرة ، مما دفع به إلى اتخاذ قرار خطير ، ألا وهو قتل كل إخوته .

وكان من بين هؤلاء عبد الملك وأحمد اللذان لم ينتظرا حتى تحل بهما المصيبة ، بل عزما على مغادرة المغرب والتجئا لدى الأتراك العثمانيين . ونظرا لما كانا يتمتعان به من خصال الذكاء والإقدام وعلو الهمة ، فقد لفتا إليهما أنظار الكبراء في الدولة العثمانية واستطاعا أن يكسبا ثقتهم وعطفهم . ولم تكن الدولة العثمانية تستهين بعلاقات من هذا النوع ، سيما وأنها لم تستطع أن تبسط هيمنتها على المغرب ، فكان يدخل في خطتها أن توسع نفوذها بالمغرب عن طريق ربط علاقات ودية مع طائفة من أعيان المغرب البارزين ، ولا سيما إذا كانوا أمراء من أبناء العائلة الحاكمة .

وكان عبد الملك وأحمد يقدران العطف العثماني حق قدره ، معتبرين أنهما في حالة فرار وفي حاجة للدفاع عن منزلتهما وحقوقهما . فهما إذن يرحبان بحماية الدولة العثمانية وينتظران منها السند السياسي والعسكري عندما يحين الوقت ، ويقبلان ، ولو ظاهريا ، أن يسيرا في ركابها . واستفادا من فترة الغياب باستكمال تربيتهما

قال صاحب « زهرة الشماريخ » ما صورته : « ان سبب قيام أبي عبد الله القائم أن أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجو ، واستحكمت شوكة البرتقال ، وبقى المسلمون في أمر مريج لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الاسلام ، لان بنى وطاس فشلت ريحهم يومئذ في بلاد السوس ، وانما كان لهم الملك في حواضر المغرب ، ولم يكن لهم منه بالسوس إلا الاسم ، مع ما كانوا فيه من قتال العدو بطنجة وأصيلا وحجر بادس وغيرها من ثغور بلاد الهبط ، فلما رأى قبائل السوس ما دهمهم من تفاقم الاحوال وكثرة الاهوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله بن محمد بن مبارك الاقاوي نسبة إلى آقة من بلاد السوس ، فذكروا لهم ما هم فيه من افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكلب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم ، وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه فامتنع من ذلك ، وقال « إن رجلا من الاشراف بتاجمدارت من درعة يقول : « إنه سيكون له ولولديه شأن ، فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنسب بكم وأليق بمقصودكم » فبعثوا وكان من أمره ما كان ».

« الاستقصا » لاخبار دول المغرب الاقصى
الجزء الخامس

السياسية والعسكرية . فشاركا في العمليات العسكرية التركية كضباط في الجيش العثماني . وكان ذلك يتطابق مع طموحهما إذ يضمن لهما تكوينا وتهيؤا مناسبا لهما كسلطانين سيعتليان عما قريب عرش المغرب .

وبالفعل ، سرعان ما لبث الأحداث توقعاتهما ومنحتهما الفرصة لتحويل حلمهما إلى حقيقة . فقد توفي أخوهما عبد الله الغالب سنة 1574 وترك العرش لولده محمد المتوكل . فقرر الأميران المغتربان أن يعترضا على توليته . وطلبا الدعم من العثمانيين الذين لم يترددوا في منحهما المساعدة الكافية . فما كان من عبد الملك إلا أن كون جيشا على التو ودخل على رأسه إلى المغرب .

كان له لقاء أول مع جيش المتوكل بالقرب من فاس ، انتهى بانتصاره لأن خصمه استولى عليه الخوف وانهارت معنويته بسرعة . وحينئذ شكر الأتراك الذين جاؤوا في ركابه وجازاهم وردهم إلى الجزائر . واستطاع في الحين أن يكون جيشا مغربيا محضا وأن يواصل مطاردة المتوكل الذي كان له معه لقاء ثان قرب وادي الشراط جنوبي الرباط . فهزمه ، مرة أخرى ، وسار في طريقه قادما إلى مراكش حيث اعتلى العرش السعدي .

هكذا انقلب الوضع لصالح عبد الملك واضطر المتوكل للالتجاء إلى الجبال حيث تحول إلى رئيس عصابة ، وبدأ يقوم ببعض المناوشات الطفيفة . وفي الوقت ذاته كان عبد الملك يأخذ العدة لبسط سيطرته الكاملة على مجموع البلاد .

المتوكل يستغيث بالبرتغال

لما رأى المتوكل أن حظوظه في استرجاع العرش أخذت تتضاءل يوما بعد يوم ، وأنه أصبح في وضعية هارب وراءه الطلب ، بدأ يفكر في الحصول على حماية أجنبية مهما كان ثمنها . وهكذا خف إلى ملك البرتغال دون سباستيان ، دون تردد يلتمس عونه ونجدته . ولم يعتبر أن العاهل البرتغالي كان يعبر صراحة عن رغبته في الاستيلاء على المغرب بقوة السلاح وربط مصيره بالسيطرة البرتغالية . وهكذا منحه السلطان المخلوع أحسن فرصة للتدخل في شؤون المغرب وتعهد بالتنازل له عن الشواطىء المغربية ، لقاء مساندته .

مثل هذا الموقف ما كان للمغاربة إلا أن يعتبروه خيانة صارخة للوطن ولبلاد الاسلام . فهو يقتضي ، على الأقل ، التحالف مع الكافر وتسليمه جزءا من قطر مسلم . إلا أن المتوكل على ما أظهرت الأحداث ، لم يكن يكترث لشعور الشعب المغربي ، ولم يظهر أي استعداد للانصات إلى ذوي الرأي من رجال الحل والعقد بالبلاد . ففي رسالته إلى أعيان المغرب ، أخنى عليهم بالائمة وواخذهم بكونهم نقضوا عقد بيعتهم له وعملوا على تحويلها بطريق غير شرعي إلى عمه . وكان مما قاله لتبرير خيانته للوطن :

« ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين ، وقد قال العلماء : يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه بكل ما أمكنه » .

وكان جواب الأعيان على تلك الرسالة شهادة ناصعة على موقف المغاربة وشعورهم في مواجهة الحدث الخطير . فهو عبارة عن نص طويل ، ولكنه مركز وموثق ، إذ عرض لجميع المبررات والأحداث التي أدلى بها السلطان المتخاذل ، فتناولها بالفحص والنقد على ضوء تعاليم السنة وما أقرته القواعد الفقهية التي جرى بها العمل منذ الصدر الأول للاسلام . ويتلخص في استنكار موقف المتوكل ووجوب التحلل من بيعته . ونحن نورد فقرة منه في مكان آخر .

ـ ولم يأبه المتوكل لما قدم له من تحذير ونصح معزز بالحجج الدامغة . ولم يحوله ضمير عن موقفه المشين . فذهب به العناد إلى أن ربط مصيره مع دون سباستيان ، والتحق به على رأس بضع مائات من الرجال الذين كانوا يشكلون ما بقي له من قوة . ولما تيقن أن سلامته غير مضمونة وسط المغاربة الذين باتوا ناقمين عليه إلى أقصى حد ، وجد نفسه مضطرا إلى أن يبحث لنفسه عن ملجإ بسبتة حيث أقام بها أربعة شهور قبل الذهاب إلى طنجة لاستقبال المتعهد بحمايته



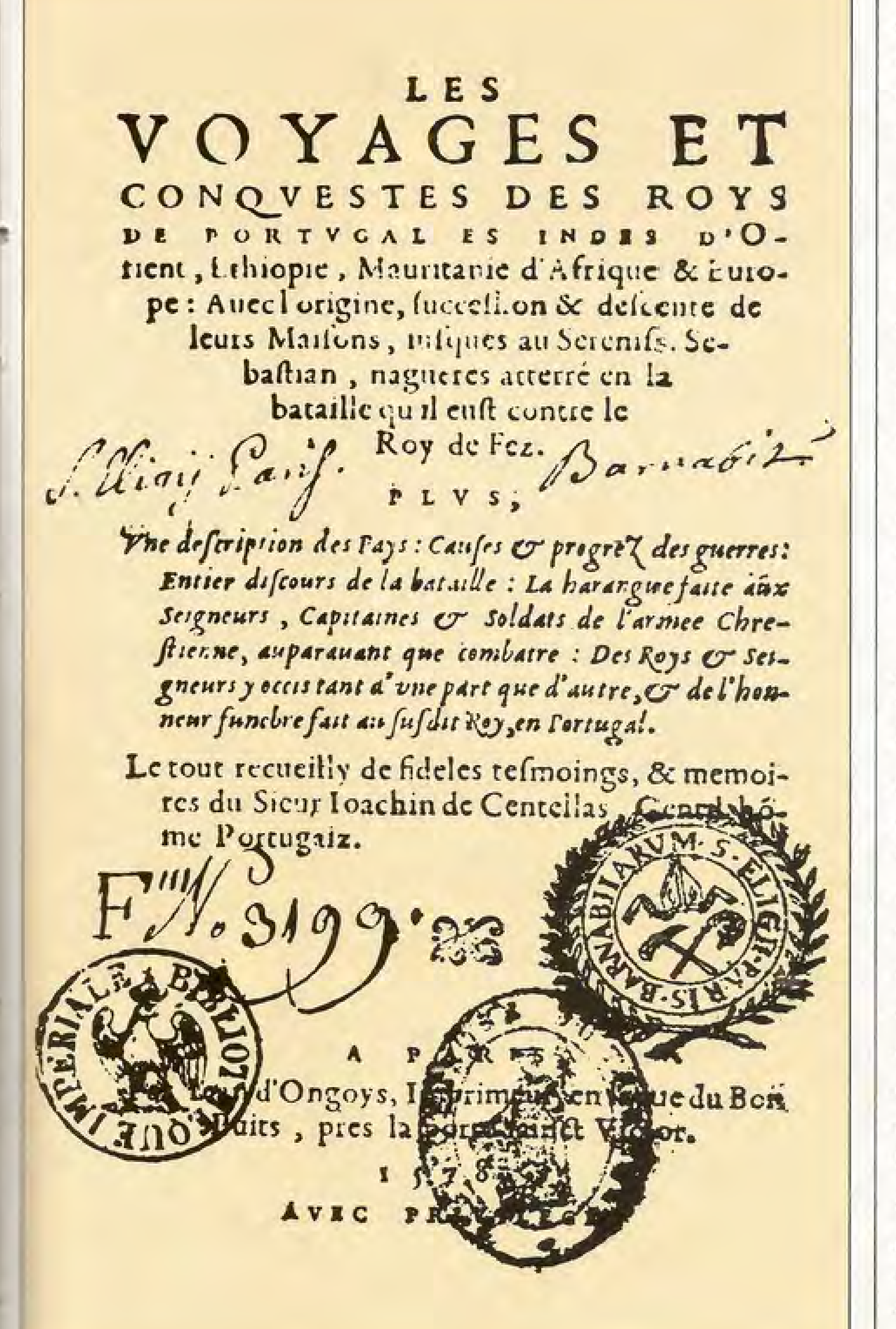
دون سبستيان : الذي كان يعتقد أن الدخول في حرب مع المغرب عمل يتقرب به إلى الله .
(من مستندات مدريد) .

ملك البرتغال ، دون سباستيان . وكان صهره عبد الكريم بن تود والي الهبط يجاريه في موقفه . فطلب هو ، أيضا ، الغوث من البرتغال ومنحه كجزاء على مساعدته مدينة أصيلة التي احتلها الجيش البرتغالي في الحين واتخذ منها القاعدة الكبرى لهجومه في معركة الملوك الثلاثة .

حصافة عبد الملك

أصبح عبد الملك يتحكم في مجموع أرض المغرب ما عدا إقليم الهبط . ولم يظهر منه ، برغم ذلك ، أي رغبة في إثارة الحرب مع البرتغال . بل إن فكرته الأولى ، بمجرد تسلمه مقاليد الحكم ، كانت تميل إلى المسالمة واللجوء إلى الأسلوب الدبلوماسي . فقد كان يعرف ، بالمشاهدة والتجربة ، أن المغرب لم يكن في وضع مريح وهو في جوار أعظم دولتين في العالم آنذاك ، الدولة العثمانية ، من جهة ، وامبراطورية شارلكان التي كانت مقاليدها بيد ولده فيليب الثاني ، من جهة أخرى . فكان لزاما عليه أن يستعمل أكثر ما يمكن من الحزم والذكاء للحفاظ على استقلاله ، سيما وأطماع جاريه العملاقين أمر كانت تقوم عليه الدلائل باستمرار .

كانت الدولة السعدية تلجأ في حالة الاضطراب إلى استعمال القوة العسكرية ، لكن كانت لها ، أيضا ، في الميدان الدبلوماسي تحركات لم تخل من فائدة وفعالية . ونظرا لموقع المغرب الجغرافي ولتأثير العوامل الجغرافية – السياسية ، فإن السياسة السعدية تأرجحت باستمرار بين التقارب مع الدولة العثمانية ، الممثلة إقليميا من لدن السلطات التركية بالجزائر والتفاهم مع اسبانيا . وإذا كان عبد الملك مدينا للأتراك بما قدموا له من مساعدة لاسترجاع عرش آبائه ، فإنه


LES

VOYAGES ET

CONQVESTES DES ROYS

DE PORTVGAL ES INDES D'Orient, Ethiopie, Mauritanie d'Afrique & Europe: Auec l'origine, succession & descente de leurs Maisons, iusques au Serenis. Sebastian, nagueres atterré en la bataille qu'il eust contre le Roy de Fez.

PLVS,

Vne description des Pays: Causes & progrez des guerres: Entier discours de la bataille: La harangue faite aux Seigneurs, Capitaines & Soldats de l'armee Chrestienne, auparauant que combatre: Des Roys & Seigneurs y occis tant d'vne part que d'autre, & de l'honneur funebre fait au susdit Roy, en Portugal.

Le tout recueilly de fideles tesmoings, & memoires du Sieur Ioachin de Centellas Gentilhôme Portugaiz.

A PARIS,

d'Ongoys, Imprimeur, en la rue du Bon Puits, pres la porte sainct Victor.

1578.

AVEC PRIVILEGE.

معركة وادي المخازن التاريخية (القرن السادس عشر) وقد وصف الاسبان والبرتغاليون بتفصيل هزيمة البرتغاليين في هذه المعركة .
(المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب) .

كان عالما بما يساورهم من أطماع ، ولذلك فلم يكن يقبل أن يجازيهم على معروفهم بالتنازل عن جزء من سيادة بلاده لصالحهم والدخول في التبعية لهم . فكان من مصلحته أن لايترك العلاقات مع الدول الايبيرية تتطور نحو العداء والقطيعة .

ومن ثمة جاءت مساعيه السلمية المتواصلة لدى تلك الدول في نفس الوقت الذي كان فيه البرتغال يعد العدة للعدوان على المغرب . فما أن صعد إلى عرش المغرب حتى اقترح على ملك اسبانيا فيليب الثاني ابرام عقد يهدف إلى إقرار السلام بين اسبانيا والمغرب ، وتأمين حرية التجارة لرعايا البلدين . وكتب في نفس الوقت إلى دون سباستيان رسالة يذكره فيها بأنه يهيء حربا لامبرر لها ضد المغرب وأنه يلقي بنفسه وجيشه في مهاوى التهلكة في مغامرة من هذا النوع وأن تعهدات المتوكل أزاءه لا قيمة لها وأنه هو ، عبد الملك ، له السلطان العثماني كصديق وحليف .

يتبين من كل هذا أن عبد الملك لم يكن يريد الحرب ولم يكن يتمناها للأسباب المذكورة آنفا ولسبب آخر لايسوغ تجاهله : **الوضعية الداخلية** بالمغرب . لقد كانت جد متأثرة بالنزاع الذي نشب بين المتوكل وعمه عبد الملك ، والذي اكتسى صبغة حرب مدنية . فحسب شهادة المؤرخين ، كانت حياة السكان في كل مكان تطغى عليها الفوضى ، والفتنة والعصيان والرعب مما جعل خزائن الدولة فارغة من المال ، سيما وأن السلطة المركزية لم تستطع أن تجمع الجبايا طوال عدة سنين متوالية . ونظرا لما عرف عن عبد الملك من حدس سياسي ووعي بالمسؤولية ، فلم يكن يسهل عليه أن يدفع يبلاده إلى الحرب في الوقت الذي كان يعمل فيه على تضميد جراحها الخطيرة . ولكن ، هل كان في استطاعه أن يتوق الحرب ؟ إنه أمر لم يكن يرجع إليه وحده . بل

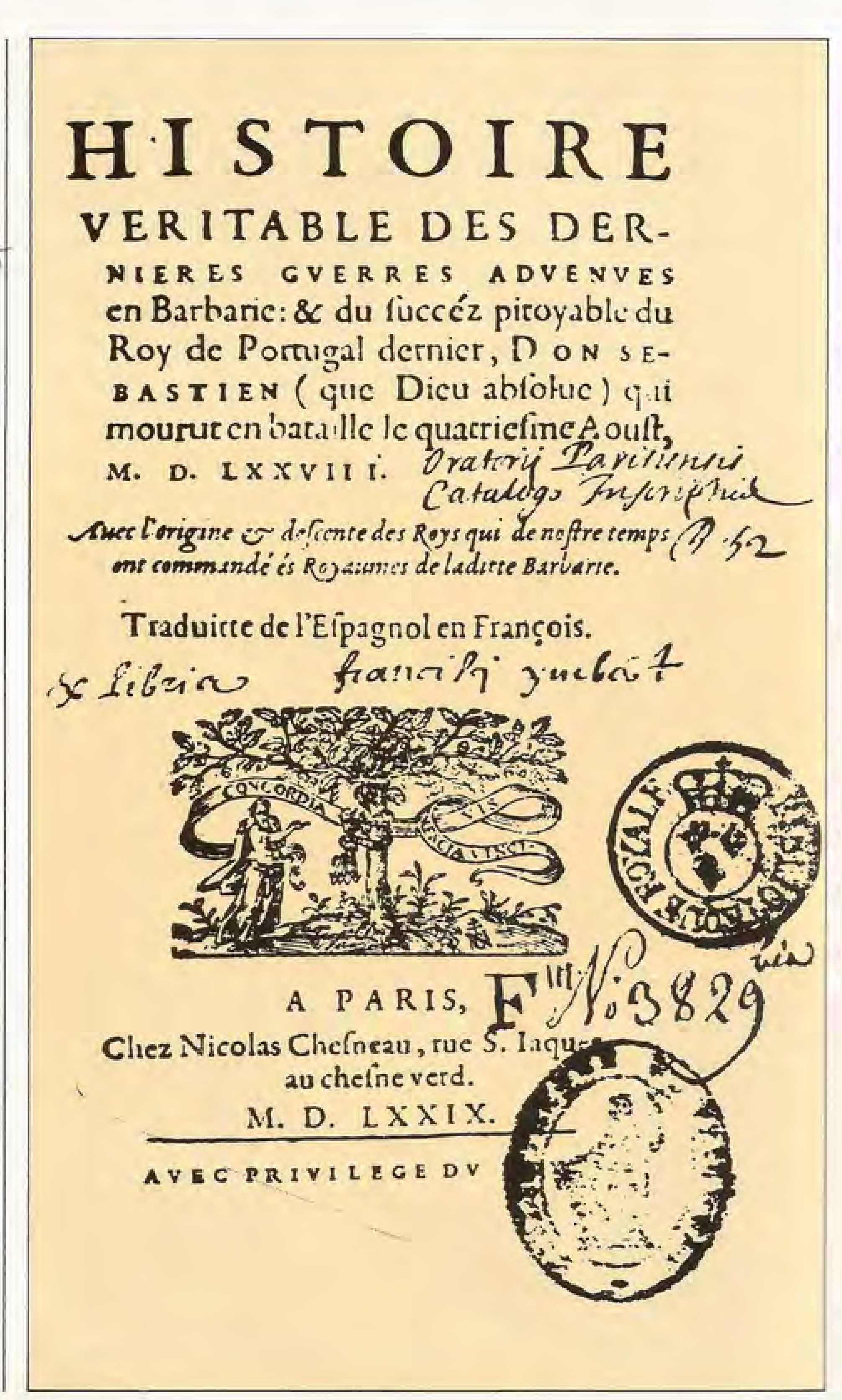
كان يعود كذلك إلى موقف الطرفين وما يتصفان به من تبصر وحكمة وما كان لدى كل منهما من استعداد صادق لاحترام سيادة الآخر وحقوقه

وصول الحملة البرتغالية إلى المغرب

ولكن الشهادات كلها مجمعة على شيء واحد : عزم دون سباستيان على احتلال المغرب . فكل أقواله وأفعاله تنم عن كراهية لا مزيد عليها للاسلام والمسلمين . فكان يحلل الوضع بالبساطة التالية : الدخول في الحرب مع المغرب يعني القيام بعمل من الأعمال الصالحة في نظر الكنيسة ، لأنه حرب لمذاهب الضلال والكفر وفي ضمنها يدخل الاسلام . وكانت شجاعته توحي إليه بأفكار خرافية ومشاريع تجاوزها الزمان ، مثل إثارة الحروب الصليبية من جديد وفتح افريقيا . ووصل به الهوس بمثل هذه الأفكار إلى درجة أنه جاء مختفيا إلى سبتة وخرج إلى النواحي المجاورة عسى أن يلقى « المور » أي العرب أو المغاربة ويتبارز معهم . ولما ذهب إلى طنجة دخل في معركة مع الفرسان الذين وجههم عميله المتوكل .

وعلى أي ، فقد اغتنم دون سباستيان فرصة تطارح المتوكل عليه طالبا الغوث والنجدة لينظم بنفسه حملة عسكرية كبيرة على المغرب . ولم يكن رجال شوراه ولا كبراء مملكته متفقين معه في الرأي . وكذلك حاول خاله فيليب الثاني ، ملك اسبانيا ، أن يصرفه عن مشروعه الأهوج . لكنه رفض أن يستمع لكل النصائح وأصر في عناد جنوني على تنفيذ خطته .

فأمر بتجنيد أكبر عدد ممكن من الرجال في مملكته . وأذاع بالطبول والأبواق بواسطة البراحين أن كل نبيل وسيد في المملكة عليه أن


HISTOIRE VERITABLE DES DERNIERES GVERRES ADVENVES en Barbarie: & du succéz pitoyable du Roy de Portugal dernier, DON SEBASTIEN (que Dieu absolue) qui mourut en bataille le quatriesme Aoust, M. D. LXXVIII.

Auec l'origine & descente des Roys qui de nostre temps ont commandé és Royaumes de laditte Barbarie.

Traduitte de l'Espagnol en François.

A PARIS, Chez Nicolas Chesneau, rue S. Iaques au chesne verd.

M. D. LXXIX.

AVEC PRIVILEGE DV

الترجمة الفرنسية لكتابة فري لويس نيينو للتاريخ 1579 .
(المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب) .

ينخرط في جند الحملة وإلا فقد رواتبه ومخصصاته وسائر الاعفاءات والامتيازات التي منحه الملك إياها . واستقدم عددا كبيرا من الألمان كجنود مرتزقة . كما استقدم إيطاليين واسبانيين ، بالاضافة إلى الجنود الذين كان خاله فيليب الثاني وعد بإمداده بهم . واهتم في نفس الوقت بعدته وعتاده . فقوى مدفعيته بقطع جديدة . وضاعف ذخيرته من الأسلحة والرصاص والمؤونة . واحتجز كل السفن الراسية في موانىء المملكة البرتغالية . بحيث لم يهمل أي شيء من الاستعدادات الضخمة للقيام بحملته العسكرية .

فقد كان دون سباستيان يريد أن يرعب المغرب بقواته الكبيرة ويضمن لنفسه كل شروط الانتصار بجيش يتوفر فيه الكثرة وحسن التجهيز .

وبعد ما شحن العدة في السفن ، أبحر على رأس* جيشه في يوم 26 يونيو 1578 . وخصصت للنبلاء اثنتا عشرة سفينة من نوع الكالير التي كان يجذفها الماجين . واجتمع ما لايقل عن 1300 مركب شراعي . ما بين صغير وكبير . وبلغ المشهد من الروعة والعظمة ما جعل أحد الشهود الحاضرين يقول إن ذلك الأسطول كان « أجمل ما رُئي على وجه البحر منذ زمان سحيق . وقفت الحملة في قادس طوال خمسة عشر يوما لتتلقى نجدة من الكتائب الاسبانية وتتمم تجهيزها العسكري .

ومخر الأسطول عباب البحر يوم 8 يوليو وكان في التاسع منه واقفا أمام ميناء طنجة . ووجه دون سباستيان معظم جيشه إلى أصيلة ونزل هو بطنجة حيث كان له حديث مهم مع المتوكل الذي كان في انتظاره . وكان ولد المتوكل البالغ من العمر عشر سنوات ، أتى ليستقبله عند النزول من البحر .

وحاول المتوكل أن يقنع سباستيان ، أثناء اللقاء بينهما ، بأنه مازال يحتفظ بنفوذه ومكانته لدى المغاربة ، وأن عبد الملك سيتخلى عنه الكثير من أتباعه بسرعة ، وأن دون سباستيان سيصادف سهولة في القيام بحملته ، إذ إن كل الجنود الذين يعملون مع عمه سيقبلون عليه ويضعون نفسهم في خدمته . وتعهد له في نفس الوقت بالتنازل له

قلعة أصيلة ، التي نزل بها البرتغاليون عندما كان عبد الملك السعدي بتامسنة .
(المستندات من الصور بتطوان).





تنقلات الجيش البرتغالي
أصيلة
12-28 يوليوز
واد سبو
29 يوليوز
30-31 يوليوز
قريمدة
الخميس
العرائش
فاتح أغسطس
2 أغسطس
3 أغسطس
وادي المخازن
وادي وعروف
4 أغسطس
القصر الكبير

عن ثلاث موانىء مغربية مع ظهيرها الأرضي . وقدم له ولده مولاي الشيخ كرهينة إلى أن ينجز ما تعهد له به .

وسار دون سباستيان إثر هذا اللقاء إلى أصيلة وبرفقته المتوكل . ووصل إليها يوم 13 يوليوز . ووجه الرهينة الصبي مولاي الشيخ إلى مدينة مازيغن .

الاستعداد للمعركة

ماذا كان يجري آنذاك في المعسكر الآخر ؟ كان عبد الملك يعرف بأن الهجوم البرتغالي على قاب قوسين أو أدنى . ولم يرعه الحادث ، بل إنه ذهب إلى سوس يوم 26 يونيو . وعلم هناك يوم 2 يوليو أن الجيش البرتغالي غادر لشبونة في اتجاهه إلى المغرب . فعاد من حينه إلى مراكش ليجمع جيشه . وفي 3 يوليو كان معسكرا بالخميس . ووصل إلى إقليم تامسنا في 6 منه . وفي ذلك المكان وصل نبأ وصول الجيش البرتغالي إلى قادس . ولما وصل إلى سلا في 14 يوليو علم بنزول البرتغاليين في أصيلة .

ووصل إلى المعمورة في 16 يوليو وأعد السير ليصل في 24 يوليو إلى سوق الخميس على بعد بضعة كيلومترات من القصر الكبير . وهكذا برهن عبد الملك في هاته الظروف الخطيرة على كثير من الرزانة والعزم وروح التنظيم . هذا في الوقت الذي بدأ المرض ينتابه وهو ما يزال في تامسنا . وبرغم الألم ، فقد كان يزاول قيادته بكل فعالية ، حتى إن شاهدا اسبانيا معاصرا قال في هذا الشأن :

« لما سمع عبد الملك بخروج دون سباستيان من قادس للنزول بأصيلة ، خرج وهو مريض في البراري وأخذ الطريق مع جيشه نحو أصيلة ، وكان يحمل في محفة حتى لم يبق بينه وبين مدينة القصر الكبير إلا يوم واحد . وكان أخوه ينتظره هنالك بجيشه لينضم إليه . وبمناسبة اللقاء بينهما أطلقت نيران المدافع والبنادق من الجهتين كتحية ، برغم كون الملك كان في حالة سيئة ويعاني الشيء الكثير من الضعف . » (لويس نييتو المصادر غير المنشورة قبل من تاريخ المغرب) .

عسكر عبد الملك بجيشه في ضواحي القصر الكبير . وكان يتلقى باستمرار كل الأخبار عما يجري في معسكر العدو بواسطة جواسيسه . وحاول مرة أخرى أن يرد دون سباستيان إلى صوابه . فوجه إليه يذكره بأن المتوكل ما فتىء يكذب عليه ويغره ، وأنه جره إلى مواقع التهلكة وقال له ، في الأخير ، إنه يمنحه فرصة ثمينة وهي أن يتخلى عن مشروعه وينسحب بكل أمان وحاول أعضاء مجلس الشورى أن يقنعوا الملك بالاستفادة من هذا العرض ، لكنه ركب رأسه كالمعتاد وقرر أن ينشب المعركة مع عبد الملك . وتدعي بعض المصادر أنه تردد في وقت ما وفكر في الاكتفاء باحتلال العرايش . لكن المتوكل خشي من هذا الموقف الذي يؤدي إلى ضياع قضيته ، فتدخل في اللحظات الأخيرة لدى دون سباستيان وتمكن من إرجاعه إلى خطته الأصلية .

المعركة (4 غشت 1578)

ومهما كان ، فقد غادر سباستيان أصيلة يوم الثلاثاء 29 يوليو ، وسار ببطء طوال ذلك اليوم ويومي الأربعاء والخميس محاذيا للعتاد الثقيل الذي أتى به . وفي يوم الجمعة توقف عن السير في انتظار القبطان فرانسيسكودى ألدانا الذي نزل من البحر بأصيلة ومعه 500 من القشتاليين جاؤوا يحاربون تحت قيادته . ولما حل يوم السبت تقدم نحو وادي المخازن ليقيم معسكره هنالك .

وكان عبد الملك هادئا في موقعه لايكاد يبدي حراكا ، إلى أن أمر بإقامة معسكره على ربوة مواجهة للجيش البرتغالي الذي بنى معسكره في سهل على بعد فرسخ . ونصب خيامه على ضفة وادي المخازن .

وفي فجر يوم الاثنين أخذ سباستيان يجيز مدفعيته وعتاده الثقيل عن طريق مخاضة في النهر . ومن هنالك ، أيضا ، كان جواز الجيش الذي عبأه في الحين للدخول في المعركة . ثم خطب في جنوده يحثهم على الاستبسال في سبيل دين النصرانية . وتعاقب عدد من أعضاء الاكليروس طوال صباح الاثنين يعظون الجنود ويذكون حماسهم الديني من أجل الاستشهاد في سبيل « العقيدة الكاثوليكية المقدسة » .

وتختلف الروايات التاريخية ، سواء منها المغربية أو الأوروبية ، في تقدير أعداد الجيشين المتقابلين . فيذكر البعض أن عدد الجيش البرتغالي بلغ 000 125 جندي بينما يجعله الآخرون لايتجاوز 000 60 . والظاهر أن هذا العدد الأخير أقرب إلى الواقع . وعلى أي ، فليس من المعقول أن نسلم بالعدد الذي انتهى إليه هنري تيراس في « تاريخ المغرب » إذ ذكر 000 14 من الرجال و2000 من الفرسان لسبب بسيط وهو أننا رأينا مبلغ اهتمام سباستيان باستعداداته العسكرية التي خصص لها ما يكفي من الوقت حتى يضمن لنفسه كل شروط الانتصار . وكان يعرف أن المغرب بلد كبير قادر على تجنيد عشرات الآلاف من الرجال ويستند إلى التجارب السابقة . نضيف إلى هذا أن أحد المعاصرين ، لويس نييتو ، ذكر في روايته عدد 40.000 .

أما الجيش المغربي ، فلم يكن على حالة جيدة من حيث التجهيز التقني ، وقد عانى كثيرا من الحرب المدنية القريبة العهد والتي لما تلتئم جروحها . وعمل عبد الملك ما استطاع على ترميمه في أمد جد قصير . فإذا اعتبرنا الأعداد التي يدلي بها هنري تيراس وهي 50.000 من الرجالة و 22.000 من الفرسان ، نجدها لاتخلو من مبالغة ولا تقدم فكرة صحيحة عن القوة الفعلية التي كان عليها الجيش المغربي . فكثير هي الشهادات التي تذكر أن جيش عبد الملك كان يضم عناصر موثوقا بولائها وأخرى

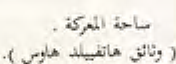
معركة الملوك الثلاثة

مشكوكا فيها . وبرغم كل ذلك ، فلابد من الاشارة إلى عاملين كانا يجريان في صالحه : من جهة كان يعمل في أرضه التي يعرفها أكثر من العدو ومن جهة أخرى كان يتمتع بالتأييد العام من الشعب المغربي الذي هب المتطوعون من صفوفه في كل مكان ليساندوه بأنفسهم وقد أخذت تحدوهم روح الجهاد في سبيل نصرة الدين .

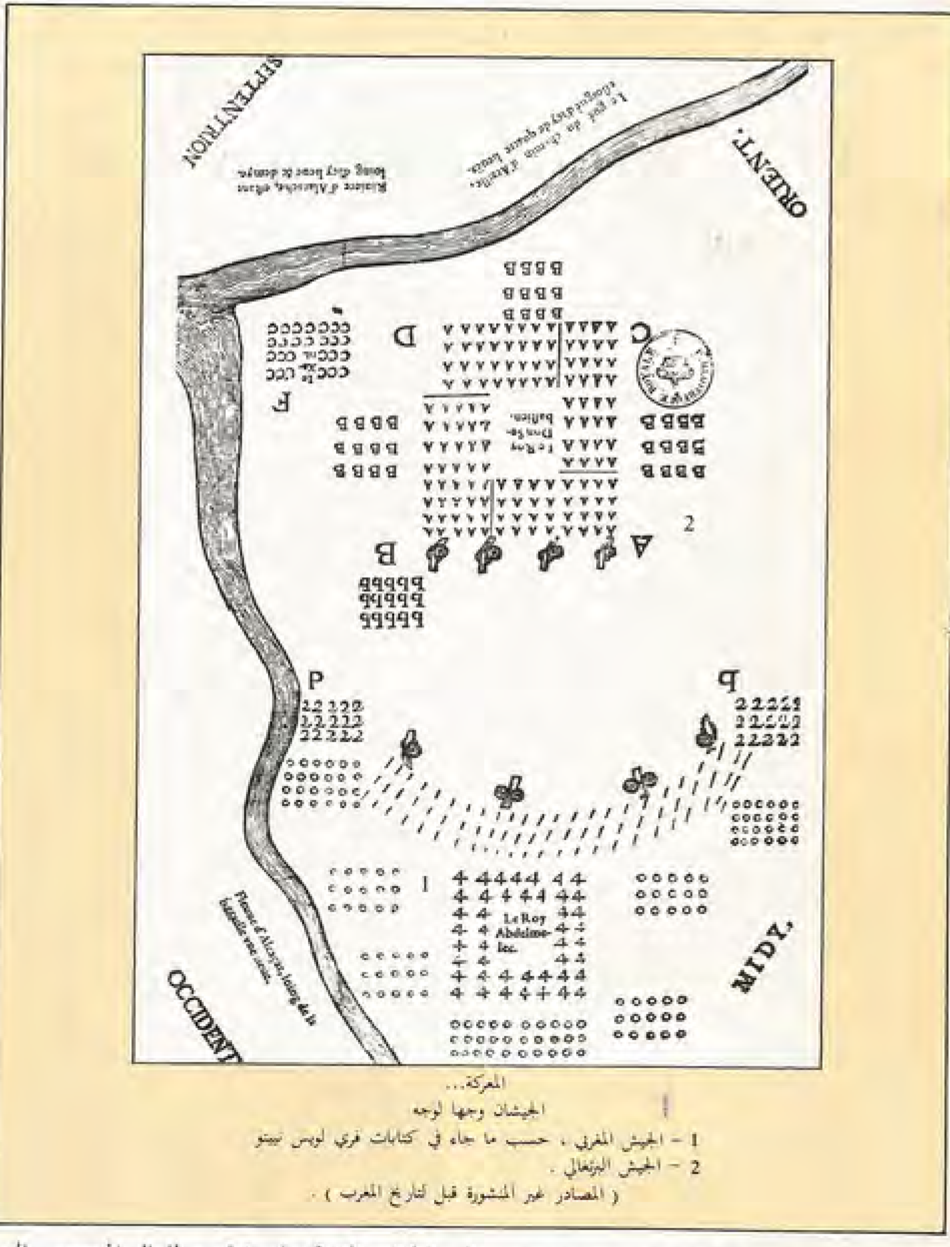
وعند الزوال انتشبت المعركة بصورة فعالة وتبودلت طلقات المدافع والمكاحل ، ثم بادر البرتغاليون إلى مهاجمة الجناح الأيسر المغربي فأحدثوا فيه ثغرة وأجبروا عددا من الخيالة على التراجع . وكان الكثير من هؤلاء من الذين لا يوثق بولائهم ، لأنهم ينتمون لبعض القبائل العربية التي لم تكن في حالة تفاهم مع الدولة السعدية . وبرغم كل ذلك ، تمكن المغاربة من ضبط أنفسهم في الحين ولم يتركوا للبرتغاليين مجالا لاستغلال تقدمهم .

وأثار رد الفعل المغربي الفوضى في صفوف الجيش البرتغالي . وكان المغاربة قد وضعوا مدفعيتهم في المقدمة ورتبوا جيشهم على شكل الهلال . فوضعوا المشاة في الوسط والخيالة في الجناحين . ومثل هذه التعبئة كانت تسهل عملية التطويق من الجناحين ، سيما وقد أصبح الجيش البرتغالي في وضع غير مريح بسبب وجوده داخل ملتقى النهرين . فلم يكن في مستطاعه أن يجري قواته بسهولة . وبما أن وادي المخازن كان وراء ظهره ، فلم يكن لديه أي خط مضمون للتراجع الاستراتيجي .

عرفت المعركة لحظة من التردد . ثم وقع هجوم مغربي وتقاطر المغاربة كالسيل من الربى المحيطة بالمكان وانقضوا بشراسة على أعدائهم فقتلوا عددا من النبلاء . وتمكن الجناح الأيمن المغربي من تطويق الجيش البرتغالي من الخلف وفي نفس الوقت كان الجناح الأيسر يستولي على مدفعيته . وتلت العمليتين هزيمة النصارى الذين لم يجدوا طريقا للفرار ، فلم يكن لهم بد من أحد أمرين : إما الموت ، بالسلاح أو بالغرق ، وإما الوقوع في الأسر . وكان من بين القتلى ملك البرتغال دون سباستيان والمتوكل ، السلطان المخلوع ، وانتشلت جثتاهما من وادي المخازن . وفي المعسكر الآخر مات عبد الملك على إثر مرضه . لكن موته لم يعرف إلا بعد تمام الانتصار . وبويع أحمد المنصور في الحين ملكا على البلاد .



ساحة المعركة .
(وثائق هاتفيلد هاوس) .



المعركة...
الجيشان وجها لوجه
1 – الجيش المغربي ، حسب ما جاء في كتابات فري لويس نيتو
2 – الجيش البرتغالي .
(المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب) .

المغزى التاريخي لمعركة وادي المخازن

كانت نتائج المعركة متعددة . ولن نتحدث هنا إلا عن أهمها :

1 – إنها تحتل مكانها في الصراع الطويل بين الاسلام والمسيحية ، ففي الوقت التي كان يظهر فيه العالم الاسلامي تحت قيادة الدولة العثمانية قويا بالجناح الشرقي في مجابهته للعالم المسيحي التي كانت تمثله أسرة النمسا الامبراطورية ، ويفوز في كثير من الأحيان بانتصارات باهرة ، نجده في الجناح الغربي يعاني شيئا غير قليل من الضعف ، إذ كان يلتزم مواقف الدفاع السلبية . وكان احتلاله من لدن الدولة المسيحية الايبيرية يلوح كأمر وشيك الوقوع . فجاء الانتصار المغربي في معركة وادي المخازن ليرد للغرب الاسلامي البعض من هيبته ويرفع من سمعة المغرب ويضع حدا بصفة نهائية للمشاريع الصليبية .

وهنري تيراس الذي أظهر كثيرا من التحفظ فيما يخص أهمية الحدث ، لم يتمالك عن الاعتراف بانعكاساته الخطرة على المستوى الأوروبي ، وذلك حين يقول :

« إن انتصار المغرب على البرتغال في معركة واحدة خوله سمعة دولة كبيرة . فربطت البلاطات الأوروبية العلاقات معه وطلبت ، في بعض الأحيان ، مساندته ، وقد استفاد أبو العباس أحمد من هذا الخطأ في التقدير بأوروبا ، وكان لمعركة الملوك الثلاثة أثرها في إضفاء مجد مبالغ فيه على الدولة السعدية حتى في وقت تدهورها » .

2 – وضع الانتصار المغربي حدا للمغامرة البرتغالية بالمغرب ولحلم قادة البرتغال بالاستيلاء عليه . فكان خاتمة لصراع استمر أزيد من قرنين . صحيح أن البرتغاليين كانوا ما زالوا يحتفظون بمدن مازيغن وطنجة وسبتة . ولكن حضورهم هنالك لن يكون له أفق في المستقبل .

3 – يدين عهد أحمد المنصور بالشيء الكثير لذلك الانتصار . فبفضل السمعة التي عاد المغرب يتمتع بها ، أصبح هذا العاهل محط اهتمام الدول الأوروبية التي كانت توجه له سفراءها وتبرم معه عددا من الاتفاقيات .

4 – برهنت المعركة عن وجود شعور وطني قوي لدى المغاربة ، مما كان يجعل من السهل تجنيد الشعب كلما كان استقلال البلاد مهددا .

ولا يسعنا إلا أن نصادق على ما قاله تيراس في هذا الصدد :

« في هاته المناسبة كما في العديد من المناسبات التي وقعت فيها مائات الهجمات العقيمة على المراكز البرتغالية ، كان الصراع ضد المسيحيين أمرا يرجع للمهاجر أكثر مما يرجع للمخزن » .

5 – من عواقب المعركة التي لا يمكن الاستهانة بها هي أنها تسببت للبرتغال في ضياع استقلاله إذ وقع ربطه بالتاج الاسباني لمدة ستين سنة . وإنها تمثل تقطعا في تاريخ هذا القطر كانت له انعكاسات على توجيهه التاريخي .

المغرب وبلاد السودان

محمد مزين

لن يتأتى فهم أي حديث عن تاريخ التقارب السياسي والاقتصادي والفكري بين المجموعتين الافريقيتين المغربية والسودانية في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) إلّا إذا وضع هذا التقارب في إطاره الصحيح ألا وهو ما كان يعرفه العالم الغربي (الاوروبي والافريقي) خلال هذه الحقبة الزمنية من أحداث سياسية واقتصادية وفكرية .

فنتيجة للنهضة العامة التي عرفتها أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين تم اكتشاف امريكا والطريق الجديدة نحو الشرق الاقصى عبر رأس الرجاء الصالح... وبالتالي تم انتقال مسرح الاحداث من البحر الابيض المتوسط إلى المحيط الاطلسي .

وفي نفس الفترة أي في القرن السادس عشر للميلاد تمكن العثمانيون من اكتساح العالم العربي وأوروبا الشرقية وبناء امبراطورية واسعة الاطراف تسيطر على أغلب سواحل البحر المتوسط .

وفي القرن المذكور ، بعد معركة وادي المخازن (1578 م) ، استرجع المغرب مكانته الدولية واستطاع بعد فترة تراجع ، أن يستعيد دوره في اللعبة الدبلوماسية الدولية التي كانت تنفرد بها الدول الاوروبية الغربية اسبانيا والبرتغال وفرنسا وانجلترا .

ففي اطار تقييم هذه الظروف حيث ترتبط التحالفات وتتفكك لترتبط في وضع جديد ، نتمكن من إدراك رغبة المغرب والسودان في توطيد دعائم الاتصال بينهما .

ومنذ الفجر الباكر من القرن السادس عشر اهتم - من الجانب المغربي - السعديون (القائم بامر الله فالأعرج ثم محمد الشيخ) بإشراك السودان في سياستهم وفي اهتماماتهم ، وقد تأكد ذلك بالخصوص مع المنصور الذهبي الذي أراد أن تكون مسألة ربط العلاقات مع السودان من المسائل الاساسية في سياسته . وكان ذلك رغبة منه في الافلات من قبضة الاتراك الذين كانوا يسعون إلى تطويق المغرب والسودان من الجنوب ، ومن قبضة الاوروبيين (البرتغال والاسبان بالخصوص) الذين أرادوا إضعاف المغرب بعد أن فهموا ما كانت إثار علاقاته على النهضة السياسية والعسكرية والاقتصادية بالمغرب والسودان .

ومن جانب السودانيين فإن الاحساس بهذا الخطر ، وبالخصوص الرغبة في تثبيت الاسلام في أرضهم ،حملهم على السعي بحثا عن حلفاء يؤمنون بودهم استمرار دولهم... ومن هنا يجب فهم رسالة ملك برنو ادريس الوما إلى المنصور عام 1584 م تقديرا .

وفي هذا الاطار يجب فهم العلاقات المتميزة التي سعى إليها الجانبان خلال هذه الحقبة وليس كما فهمه بعض المؤرخين الذين ظلّوا يعتمدون على مصادر أجنبية للتأريخ لهذه الفترة جاهلين أو متجاهلين ما تتوفر عليه اليوم الخزانتان المغربية والسودانية من مصادر معاصرة للاحداث...

ويتوفر الباحث اليوم عن قضية العلاقات المغربية السودانية في القرن السادس عشر الميلادي على مجموعة من المصادر يمكن تصنيفها إلى نوعين

النوع الاول :

وهو عبارة عن مراسلات منبثقة عن جوانب مختلفة :

- السلطات المغربية
- السلطات السودانية على اختلاف انواعها
- السلطات الاوروبية والمراسلون التجاريون (انظر دوكاستر).

والنوع الثاني :

يتمثل في كتابات المؤرخين المعاصرين من أمثال الفشتالي في المغرب والسعدي وكمتر في السودان زيادة على كتب التراجم (أحمد بابا السوداني) والرحلات مثل كتب ابن بطوطة وابن حوقل وحسن الوزان ومارمول وغيرهم كثير .

والحقيقة أن التصور التاريخي لهذه الفترة الذي نعتمده كتصور رسمي ما زال في حاجة إلى تعميق وتحقيق ، لان المصادر المذكورة أعلاه لم تستغل بعد بما فيه الكفاية .

وكل ما نستطيع اليوم إدراكه من هذه العلاقات هو :

- **أولا** : ما يمكن أن نستشفه من هذه المصادر من معطيات حول أوضاع المغرب والسودان الاقتصادية والصحية ،
- **ثانيا** : ما سجلته نفس المصادر حول حملات المنصور إلى السودان ،
- **ثالثا** : التجارة القائمة بين المنطقتين خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد .

مذكرات منِ التراث المغربي

الأوضاع الاقتصادية وا



إذا كنّا لانعرف إلّا شيئا قليلا عن الحياة الاقتصادية والصحية في بلاد السودان خلال هذه الفترة ، فإن المصادر التي يزخر بها تاريخ المغرب تمكننا من الوقوف على ما عرفته البلاد من زراعة وتجارة وأزمات غذائية وصحية . وكلنا نعرف ما للأوضاع الاقتصادية والصحية من تأثير على سياسة الملوك والامراء والدول .

قد يبدو من الصعب من أول نظرة الجمع بين الجانبين الاقتصادي والصحي ، لكنه يكفي أن يتتبع القارىء جدولين يجمع فيهما بين السنين التي عاش فيها المغرب أزمات اقتصادية (الجفاف وقلة الانتاج والمجاعة) إلى جانب السنين التي أصابه فيها الاوبئة والطاعون لكي يقتنع أن الظاهرتين متكاملتان . لقد عانى المغرب خلال ذلك القرن – حسب ما جاءت به المصادر المعاصرة – من مجاعات مهولة دامت مددا متفاوتة وأدت إلى وفاة العديد من سكانه ، حتى أن بعض الكتاب رأوا في ذلك نذيرا بفناء البشرية ، خصوصا أن بعض هذه المجاعات صادف نهاية القرن العاشر الهجري . ثم إن هذه المجاعات أدت إلى إضعاف قدرة المقاومة عند السكان مما جعلهم عرضة لكل الامراض المعدية المنتشرة آنذاك في غرب البحر الابيض المتوسط . وقد كان الطاعون أحد تلك الامراض ، فالاطار يبين لنا نسبة المجاعات والاوبئة التي عاشها المغرب خلال تلك الحقبة .

بينما كان ينتظر من التبادل التجاري مع أوروبا وافريقيا أن يذلّل الصعاب الناشئة عن الجفاف والأوبئة ، كان على عامل جباية الضرائب أن يؤمن تنظيم الجيش ويحافظ على النظام والأمن .
(محصّل الضرائب . العالم المصوّر 1861) .



لائحة بأشهر المجاعات والاوبئة التي عاشها المغرب خلال نهاية القرن العاشر للهجرة :

- 1519 – 1520 : جفاف ومجاعة
- 1520 – 1521 : جفاف ووباء ومجاعة
- 1522 : وباء
- 1532 : طاعون
- 1540 : جفاف وطاعون ومجاعة
- 1552 – 1553 : جفاف ومجاعة
- 1558 : جفاف وطاعون ومجاعة
- 1561 – 1562 : طاعون
- 1571 : جفاف ووباء ومجاعة
- 1580 – 1581 : جفاف ووباء
- 1583 – 1584 : جفاف
- 1596 – 1597 : أمطار متأخرة عن وقتها ووباء
- 1597 – 1598 : وباء
- 1601 – 1603 : جفاف ووباء ومجاعة
- 1605 – 1606 : جفاف
- 1609 – 1610 : أمطار متأخرة عن وقتها
- 1613 – 1614 : جفاف .

ومن الملاحظ أن هذه المصائب (المجاعات والاوبئة) كانت تتكرر كثيرا وتتزامن وتطول مما كان يجعل الدولة تواجه مصاعب كبيرة في التنظيم والتخطيط . فتضطر إلى الارتجال وإلى البحث عن الحلول القريبة المدى والتي تعتمد موارد غير الموارد الفلاحية : كالتجارة الخارجية مع أوروبا ومع بلاد السودان ، ثم تضطر إلى فرض ضرائب جديدة – غير الضرائب الشرعية – على المبادلات ، لتزويد خزينتها .

وبالنسبة للسكان الذين كانوا في غالبيتهم يعيشون من الزراعة فإن مدخولهم كان يخضع كذلك إلى تقلبات الطقس . فتضطرهم الظروف إلى شراء حاجتهم من الحبوب في الاسواق حيث تكون الاثمان مرتفعة نتيجة لقلة العرض أو الالتجاء إلى نباتات طبيعية لسد الرمق . أما الفئة القوية فقد كانت تستغل تلك الظروف لتزيد غنى على غناها ، الشيء الذي كثيرا ما كان يثير غضب العامة ويؤدي إلى مناقشات فقهية كان يحاول بها العلماء والمفتون إطفاء غضب الثائرين وإشعار المحتكرين بذنبهم . كما كان يؤدي ذلك في بعض الاحيان إلى ثورات سياسية .

وفي بداية القرن السادس عشر كانت السلطة المركزية (الوطاسية) ضعيفة مما جعل بعض الزوايا تحل محل الدولة في تحمل العبء ، ذلك أنها فتحت أبوابها أمام المحتاجين والمسافرين والمريدين وبالخصوص في البوادي وساهمت بذلك في توزيع المواد الغذائية على من كان في حاجة إليها . فكانت تتوصل بالصدقات والهبات ، وتزرع الاراضي الموقوفة عليها ، وتطعم الناس .

ويظهر أن توالي الازمات قد أثر بشكل خطير على الاجيال المتعاقبة خلال القرن السادس عشر . ذلك أن المتتبع لما جاء في المصادر من إشارات في الموضوع يلاحظ أن عدد السكان قد انخفض بالنسبة لما كان عليه خلال القرون الماضية .

وقد أدّى ذلك إلى تناقص اليد العاملة في الزراعة ، وبالتالي إلى تقلص المساحات المزروعة وتراجع كمية الانتاج وانتشار الترحال على حساب الاستقرار والعمران ، وذكر الحسن الوزان أن بعض القرى بل بعض المدن أصبحت عبارة عن أطلال مهجورة لا يسكنها إنسان .

دام هذا الوضع إلى حدود الربع الاول من القرن السادس عشر (1525 تقريبا) ثم بدأ الانتعاش من جديد يدب إلى البلاد .

ويمكن الخروج من استقرار عدد من مصادر العصر بالاستنتاجات التالية :

مع وصول السعديين إلى الحكم استمرت الحالة الاقتصادية على ما كانت عليه رغم بعض الانفراج الناتج عن التباعد بين سِنِيِّ الازمات وعن الاستقرار السياسي النسبي الذي وفرته الدولة الحاكمة (1510 – 1659).

وتمكن السعديون من توفير هذا الاستقرار بفضل الدعوة إلى الجهاد التي كانوا يتزعمونها وكانت تستهدف استعادة الثغور المحتلة من الاجانب ، وبفضل نسبهم الشريف أي الآصرة التي تشد الاسرة الحاكمة إلى النبي ﷺ وتجمع حولها المسلمين الذين يسعون إلى نصرة آل البيت ، وبفضل دعم السعديين للتجارة وخصوصا الدور الذي قام به المغرب كوسيط بين السودان وأوروبا .(حيث كانت التجارة أحد الحلول المعتمدة في تعويض الكساد الزراعي وتمكين البلاد من الحصول على بعض حاجاتها والدولة من توفير أموال لخزينتها .

وإذا كانت هذه الدعائم الثلاث المتمثلة في الجهاد والنسب الشريف والتجارة قد جمعت حول الدولة السعدية سكان المغرب فإن نفس الدعائم جعلت سكان بلاد السودان الذين كانوا يواجهون نفس المشاكل (هجوم الاوروبيين وتشتت البلاد بين القبائل وتعدد الازمات الاقتصادية) يسعون إلى الاستفادة من نفس الاستقرار لمواجهة الهجمة المسيحية (الجهاد) لجمع الشمل تحت قيادة إسلامية موحدة ولحل مشاكل التغذية بتشجيع التجارة مع المغرب .

تدعيم العلاقات

عام 999 هـ / 1590 م كان خبر تهيؤ المولى أحمد المنصور الذهبي لحملة موجهة إلى بلاد السودان قد طغى على سائر الأخبار . فقبل عام من ذلك كان السلطان جمع أعيان البلاد وخطب فيهم خطبة رددت صداها مختلف وسائل إعلام العصر . وصل نبأ تلك الخطبة إلى العديد من الجهات في العالم ، فقد حملها ممثلوا الدول الاوروبية وبلغها جواسيس العثمانيين كما سجلتها عيون أهل السودان بالمغرب... ودونها المؤرخون المعاصرون بكل تفاصيلها ، منهم من كان من المؤيدين ومنهم من كان من المعارضين .

ومن الجوانب التي أكدت عليها كل تلك الكتابات أن النقاش دار حول ثلاثة جوانب من خطبة المنصور :

– الاول تأكيد المنصور على رغبته في نشر وتدعيم الاسلام في هذه البلاد النائية .

– الثاني تأكيده على توثيق أواصر القرابة بين الجانبين لفائدة كل منهما أمام الاخطار المحدقة بكليهما .

– الثالث الرغبة في أرجاع الاستقرار إلى المنطقة والاستفادة من ثروات السودان لتدعيم جيوش الاسلام في حربهم ضد المد المسيحي .

والحقيقة أن قرار المنصور هذا هو خلاصة تطور تاريخي طويل ، لا يمكن فهمه إلّا باستعراض أهم مراحل العلاقات بين المغرب والسودان وبالخصوص أخبار هذه العلاقات على عهد الدولة السعدية .

أخبار العلاقات بين الجانبين إلى حدود 1589

رغم مايمكن أن يخطر للقارىء العادي من أن الصحراء الفاصلة بين المغرب وبلاد السودان قاحلة وواسعة وأنها بمثابة حاجز طبيعي يعوق الاتصال بين البلدين فإن الحقيقة عكس ذلك ، لأن الصحراء كانت دائما عاملا قويا من عوامل الاتصال الحضاري والسياسي والتجاري ، فهي كانت تلعب الدور الذي لعبه البحر الأبيض المتوسط بين افريقيا وأوروبا .

وبدون الرجوع إلى الماضي السحيق فإن العلاقات بين الجانبين قد توطدت بالخصوص بفعل انتشار الاسلام بالسودان ، حيث تمت مبادلات علمية وتجارية بين الممالك السودانية كمالي والسنيغال من جهة والشمال الافريقي من جهة ثانية .

وفي عام 1325 ، كما ذكرت المصادر التاريخية ، وكان كونكو موسى امبراطور مالي



جلب من سفر له إلى بلاد الحجاز مهندسا معماريا من أصل أندلسي يدعى الساحلي وهو من غرناطة ، وإليه يرجع الفضل في وجود بنايات سودانية على النمط المغربي . ثم إن هذا الامبراطور كان قد تبادل الهدايا مع السلطان المريني أبي الحسن . وقد تابع الابن سياسة أبيه ازدهرت العلاقات والمبادلات بين سليمان والملوك المرينيين ، وتبودلت بين الجانبين هدايا ، ومن بينها الفيل الذي وصل إلى فاس .

ولم تتوطد هذه العلاقات في الحقيقة إلا على عهد السعديين لأن المرينيين كانوا منشغلين مع الاندلس لمواجهة الخطر ، بينما كان الوطاسيون مهتمين برد الهجمة البرتغالية على السواحل المغربية .

وتوطدت العلاقات بين الجانبين في عهد السعديين ،وطالب أحمد الأعرج بمعدن الملح بنغازي (1526 م) وكاتب في الموضوع اسكيا اسحاق الاول ، وفي عام 1544 أعاد محمد الشيخ نفس العملية لكن طلبه قوبل بالرفض ، بل إن اسكيا أرسل ألفين من الطوارق للغارة على بلاد درعة . وفي عام 1557 شن محمد الشيخ حملة عسكرية قوامها ألفان وثمانمائة من الفرسان للهجوم على تغارى .

وبقيت العلاقات بين الجانبين على هذا النحو إلى حدود 1580 مع مجيء المنصور ، والواقع أن النزاع حول تغاري وتودني جاء نتيجة تدخل الاوروبيين من الجنوب ، ومزاحمتهم لأهل السودان ، مما جعل هؤلاء يسعون – على الاقل – إلى الاحتفاظ بهاته المناجم الواقعة وسط الصحراء والبعيدة عن النفوذ الاوروبي .

ويمكن اعتبار ما وقع بين الجانبين من 1580 إلى 1586 استمرارا طبيعيا لما وقع قبل تولى المنصور السلطة . ذلك أن السلطان المغربي تابع سياسة أبيه محمد الشيخ وعمه أحمد الأعرج وطالب من جديد بحقه في ملح تغارى وتودني ، ودعم طلبه بمراسلات تفسيرية وحملات عسكرية . ويستخلص من المراسلات أن المنصور كان يسعى إلى تنظيم جبهة إسلامية في الغرب توازي الجبهة الاسلامية في الشرق (مع العثمانيي) والجبهة المسيحية في الشمـــال . ولما بلغ المنصور ما كان يسود السودان من اضطرابات وأحس الخطر الذي كان يهددها من الشرق ومن السواحل الجنوبية والغربية قرر القيام بحملات عسكرية . وأشهر هذه الحملات :

– حملة 1583 تحت قيادة أبي فارس بن أبي عبد الله محمد بن بركة وأحمد بن الحداد الغمري المعقيلي ، موجهة إلى التوات وتيكورارين .

وعن نفس الوقت أرسل وفدا إلى كاغو محملا بالهدايا إلى أسكيا الحاج .

– حملة 1584 القسم الأول منها تحت قيادة محمد بن سالم والقسم الثاني تحت قيادة ابن محمد عبد المولى .

– حملة 1586 موجهة إلى تغاري .

وقد قوبلت الحملتان الأوليان من أهل البلد بالترحاب إذ اعتبروهما كاستجابة للنجدة التي طلبها أهل مالي (ادريس ألوما).

والواقع أن كل هذه الحملات تدخل في إطار التمهيد وفتح الطرق التجارية وتأمينها . وهو



الحركة بمراكش : تهيء القوافل سنة 1641 .
(المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب – دوكاستر) .

رد فعل طبيعي من دولة كانت تخشى الاختناق في ظرف سياسي واقتصادي دولي صعب .

السودان يحتل مكان الصدارة في الأحداث الدولية

انتشر خبر قرار المنصور السعدي بتنظيم حملة عام 1590 م في عدّة جهات وبالخصوص في البلاطات الاوروبية والعثمانية . والواقع أن هذا القرار لم يصدم أحدا لأن السودان كان محط أنظار الاطماع الاوروبية المسيحية منذ أواخر القرن الخامس عشر والأطماع العثمانية منذ وصولهم إلى تلمسان . ثم إن الاوروبيين والعثمانيين يعرفون أن المنصور كان يحاول جاهدا منذ انتصاره في معركة وادي المخازن مد الهجومات الاوروبية عن افريقيا الغربية .

والحقيقة أن بلاد السودان هاته التي دخلت مسرح الاحداث وأصبحت محل نزاع بين هذه القوات لم تكن معروفة بما فيه الكفاية . فتعبير « **السودان** » مازال واسعا يضم وإلى حدود القرن التاسع عشر :

- السودان الشرقي (عيون وادي النيل)
- السودان الأوسط (منطقة بحيرة التشاد)
- السودان الغربي (منعرج نهر النيجر ، والساحل إلى المحيط الأطلسي).

والمقصود بالسودان في القرن السادس عشر هو المنطقتان : الوسطى والغربية .ولاتساع المجال هناك كانت الدول التي حكمت المنطقة لا تعرف حدودا مضبوطة . وعلى العموم فإن هذه الدول كانت تحتفظ بعاصمتها في السودان الغربي ؛ وبناء على ما يمكن استنتاجه من مصادر العصر يظهر أن هناك ثلاث امبراطوريات اشتهرت في بلاد السودان :

الأولى : امبراطورية غانة .

اندثرت حوالي القرن الرابع عشر وقد ذكرها العماري وابن خلدون . وكان سكان هذه الامبراطورية يتكونون من رعاة برابرة صنهاجة وفروعها المختلفة (الجدلة على الساحل ولمتونة ومسوفة إلى الشرق). وكان يسكن السودان المجاور للمحيط البافور وهم مجموعة قبائل سمراء أجداد السبير ووولوف المستقرون في الغرب والسراكولي ووانكارا في الشرق . كل هؤلاء مزارعون كانوا يحتلون الاوْكَرْ والهود متنقّلين بين هذه المناطق والجنوب .

وحسب تاريخ السودان يظهر أن مملكة غانا أسسها البربر حوالي القرن الرابع الميلادي ، وأنها دخلت تحت حوزة السراكولي شيئا فشيئا مما غير لون سكانها . وكان اتساع هذه الامبراطورية من المحيط إلى انحناء نهر النيجر .

الثانية امبراطورية مالي

يظهر أن هذه الامبراطورية قد وصلت أوجها مع حكم كونكوموسا (1307 – 1332م) ، الذي استطاع إدخال ولاتة وتمبوكتو ومملكة سوغاي تحت سلطته . وحوالي عام 1390 كانت الامبراطورية قد أدخلت تحت نفوذها سيلا والتكرور والدجودالا ... وكانت قبائل لمتونة ومسونة التي تسكن الصحراء تؤدي له الضرائب .

لكن الاضطرابات التي سادت المنطقة ابتداء من القرن الخامس عشر حالت دون استمرار هذه الامبراطورية . ومن أهم الحواضر المعاصرة تمبوكتو ودجيني . وحسب تاريخ السودان كان عدد سكان تمبوكتو في القرن




محاربون أفارقة : كان من الممكن تعبئة عشرة آلاف منهم في أقل من أربع وعشرين ساعة !
(مستندات افريقية).

ثروات مدينة گاغو

في الفترة التي كان فيها كريستوف كولومب يبحر في اتجاه القارة الجديدة بعد الاسبان والبرتغال بداية القرن السادس عشر ، كان الحسن الوزان (ليون الافريقي) ينتقل عبر مملكات افريقيا الغربية . حيث ترك لنا في كتابه « وصف افريقيا » النص التالي حول كاغو عاصمة امبراطورية صنغاي :

« تعتبر كاغو مدينة كبيرة على غرار كبارا ، أي أنها لا تتوفر على سور محيط بها . وتقع هذه المدينة على بعد 650 كيلومترا جنوب غربي تمبوكتو . وبيوتها سمجة المظهر قبيحته ، باستثناء بعض المساكن التي كانت جميلة بديعة يسكنها الملك وحاشيته . وسكان هذه المدينة تجار يجوبون المنطقة باستمرار ، ببضائعهم . وتؤم هذه المدينة أفواج هائلة من الزنوج يحمل أفرادها معهم كميات كبيرة من الذهب بغية ابتياع السلع القادمة من بلاد البربر (افريقيا الشمالية) وأوروبا . ولم يكن هؤلاء يجدون قط ما يكفيهم من هذه السلع مما كان يضطرهم إلى إرجاع كميات كبيرة من الذهب كانت تصل أحيانا إلى النصف أو الثلثين مما كانوا يحملونه معهم .

كانت كاغو متحضرة متمدنة بالنسبة لتمبوكتو . وكان اللحم والخبز موجودين فيها بوفرة ، ولم تكن تتوفر فيها لا الخمور ولا الفواكه .

وفي الحقيقة ، فقد كان البطيخ والخيار والقرع الجيد توجد فيها بكثرة وكذلك الارز بكميات هائلة . وهناك ساحة تعرض للبيع أعدادا لابأس بها من الرقيق ، من ذكور وإناث ، أيام السوق .

كان ثمن صبية في الخامسة عشر نحو ست دكات وكذلك كان ثمن الفتى الذكر تقريبا . وكان ثمن الاطفال الصغار منهم يبلغ النصف بالنسبة لثمن المسنين .

ولدى الملك قصر خاص لايواء عدد كبير من الحريم والجواري ، والاماء ، والخصيان المكلفين بحراسة النسوة . ولديه أيضا جهاز مهم من الحرس يتكون من الفران والمدرعين المسلحين بالاقواس .

وتوجد بين الباب العمومي والباب الخاص للقصر ساحة واسعة مسورة . وفي كل جانب من جوانب هذه الساحة يوجد بهو للاستقبال . ولان الملك كان يباشر جميع أعماله بنفسه ، فقد كان يحيط به عدد وافر من الموظفين ، من مدونين ومستشارين وضباط وأمناء » .

السادس عشر الميلادي 25000 نسمة ، ودجيني 10.000 إلى 15.000 نسمة .

الثالثة امبراطورية كاغو

بدأت هذه الامبراطورية في الاتساع مع تراجع امبراطورية مالي في نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر للميلاد .

ومع بداية القرن السادس عشر كانت هذه الامبراطورية تشمل كلا من الأراضي المجاورة لنهر النيجر والساحل وإلى حدود التكرور . والواقع أن مملكة السونرار التي كانت تحت سيادة مالي في القرن الرابع عشر استقلت مع نهايته واتخذت قائدا مستقلا لها وهو « الصوني » . وحسب المؤرخ السوداني فإن المؤسس الحقيقي لهذه الامبراطورية هو علي الصوني (1464 – 1492) . وهذا يوافق عمر التوسع البرتغالي . وبعد وفاته خلفه ابنه . لكن حكم ابن علي صوني لم يدم طويلا حيث أبعده أحد قادته العسكريين السراكولي (محمد) ممادو توري (1493 – 1529) الذي حمل لقب أسكيا وأعطى الانطلاقة لدولة جديدة . وتقديرا سنة 1525 كانت امبراطوريته تتسع من مصب نهر السينغال غربا إلى بورنو شرقا ، ومن ييكو جنوبا إلى الصحراء الوسطى شمالا . وعلى طول القرن السادس عشر وبالخصوص بعد وفاة أسكيا الأول نشبت في الدولة الجديدة اضطرابات كادت أن تذهب بها .. وعم الاستقرار النسبي والمؤقت الذي عرفته على عهد أسكيا داوود (1549 – 1582) .

وخلال نفس الفترة وفي مناطق أُخر من بلاد السودان كانت هناك دول أقل أهمية من حيث الحجم تتعاقب وتتوارث ، مثل حواضر الهواسة وامبراطورية بورنو وممالك موسى ...

وهذا يوضح أكثر ما نجده في المصادر من أن الملاحظين المغاربة المعاصرين كانوا مقتنعين من أن بلاد السودان كانت مضطربة ومتفرقة .

مذكرات من التراث المغربي

وضعية الاسلام في السودان

إن مسألة انتشار الاسلام في السودان مسألة معقدة . ولا يمكن في سطور التاريخ لها وضبط كل ما يتعلق بها . فلهذا سنكتفي هنا بذكر أهم مراحل انتشار الأسلام هناك لفهم الأسباب التي دفعت المنصور إلى محاولة تدعيم وتجديد إسلام تلك البقاع .

فمنذ القرن التاسع الميلادي والاسلام موجود في حواضر الساحل وجنوب الصحراء . فقد دخل عدد من ملوك غانا ومالي ثم ملوك بورنو مبكرا إلى الاسلام . وعلى سبيل المثال ، حسب ما ذكره البكري ، هناك ملك مالي الذي أسلم في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي . هذا ولابد من الاشارة إلى أن غالبية السكان كانوا مايزالون على الوثنية .

وفي القرن الرابع عشر الميلادي ، كما تذكر المصادر ، كونكو موسى (1307 - 1332) حج إلى مكة المكرمة ، وقاد بعد رجوعه حملة لنشر الاسلام . وتجب الاشارة هنا إلى العلاقات التي بدأت آنذاك تتقوى مع بلدان شمال افريقيا (من تمبوكتو وكاغو نحو سجلماسة) ومع طرابلس ومصر . وفي نفس القرن زار ابن بطوطة بلاد السودان وأشاد بذيوع الاسلام بين أهل تلك المناطق .

أما في القرن السادس عشر ، الفترة التي نتناولها بالدرس ، فالمصادر غنية بالمعلومات حول موضوع الاسلام في بلاد السودان . فالوزان صاحب وصف افريقيا وأحمد بابا السوداني صاحب « نيل الابتهاج » يقدمان وصفاً يستفاد منه أنه كانت تصل إلى مدينة تومبوكتو كتب مخطوطة من بلاد البربر ، وكانت تباع هذه الكتب بسهولة في الأسواق وتدر أرباحا كبيرة على بائعيها أكثر مما كان يمكن أن يربحوه في تجارة أخرى .

وقد ذكر أحمد بابا أكثر من مائة عالم أصلهم من تمبوكتو حتى كان عدد من العلماء من باقي البلاد الاسلامية يحجون إلى تمبوكتو لحضور دروس علمائها . وكان هؤلاء العلماء هم الذين كانوا ينشرون الاسلام ويدعمونه .

ماذا يمكن استخلاصه من كل هذا ؟ أولا أن الروابط العرقية والدينية موجودة بين المغرب وبلاد السودان . ثانيا أن باب هذه المناطق نحو باقي أنحاء العالم هو الغرب الاسلامي والشمال الافريقي .

ونفهم الآن لماذا اتجه أولاد إدريس ألوما إلى المنصور ، كما نفهم نداء علي بن داوود الذي قدم



جودر ، القائد الاندلسي الذي قاد حملة 1590 - 1591 .
(رسم جبّور) .

إلى مراكش في أبريل 1589م لطلب النجدة من المنصور ، كما نفهم أخيرا السبب العميق الذي حرك المنصور وجعله يدعو إلى حملة 1590م .

الحملة العسكرية لعامي 1590 و 1591

كل المصادر التي ذكرت أحداث هذه الحملة منذ بداية تنظيمها إلى وصولها كاغو تؤكد أن المنصور لم يقدم على استعمال القوة العسكرية للتدخل في بلاد السودان إلا عندما فشلت كل محاولاته السلمية لاقناع أسكيا إسحاق سلطان كاغو بالالتحاق بالصف الاسلامي الموحد لمواجهة الخطر المسيحي .

وقد عقد المنصور مجلسا للشورى بمراكش لشرح موقفه أمام رؤساء الجند وكبار رجال دولته وذوي الرأي والخبرة من عامة الناس . وذكر المولى أحمد في الخطاب الذي تلاه على الجمع – والذي وصلنا عبر مصادر العصر – أن غايته هي توحيد قوى الاسلام تحت قيادة واحدة ، وكذا الاستفادة من ثروات بلاد السودان لتقوية الجيوش الاسلامية ، وشحذ عزيمتها في مواجهة « مغتصبي الأندلس وأعداء الدين المحمدي الحنيف » .

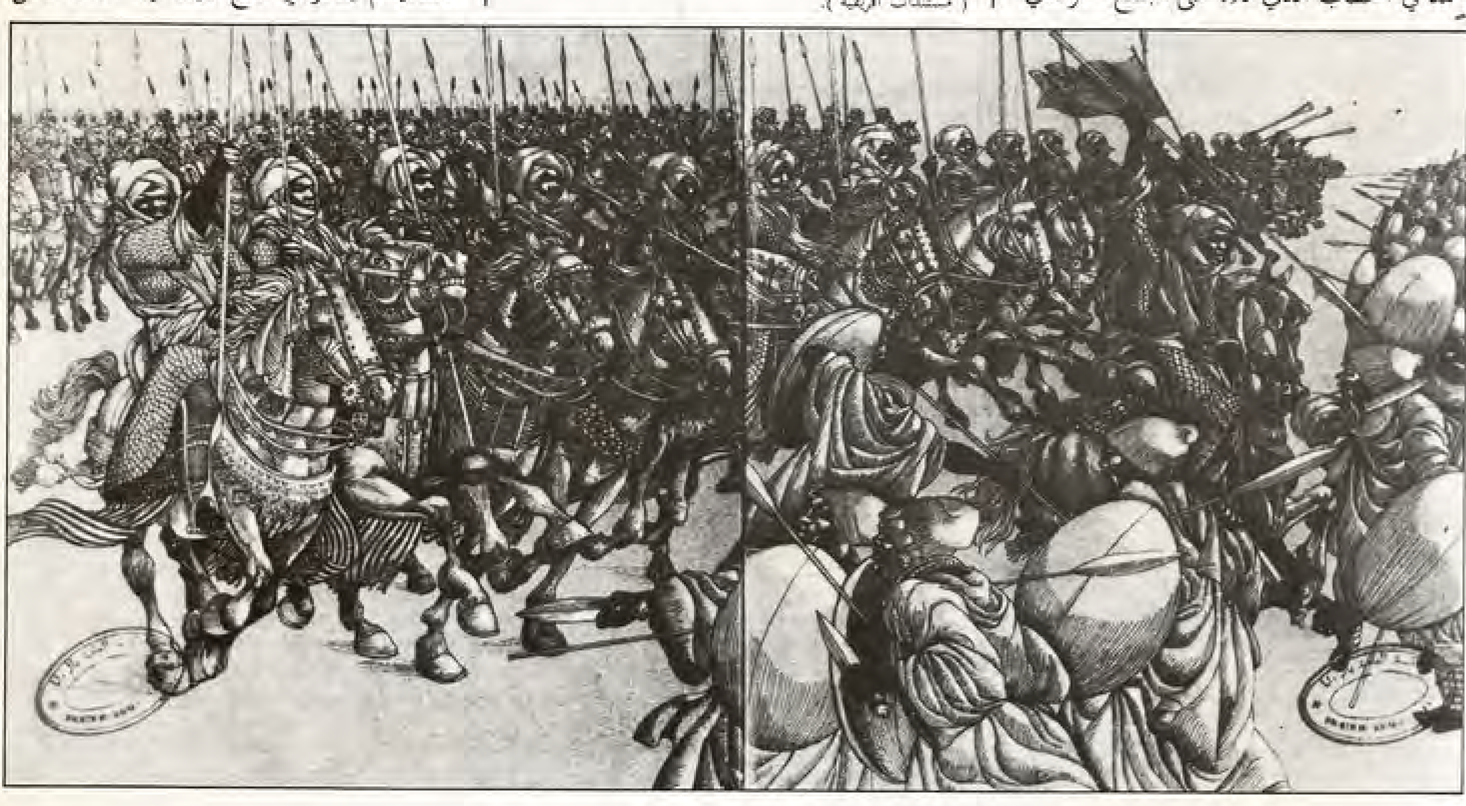
وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد أفراد هذه الحملة التي أوكل المنصور إلى جودر قيادتها . ويتراوح حسب الروايات بين ثلاثة آلاف واثنين وعشرين ألفا . وهذه هي الأرقام التي أوردها مؤرخ اسباني مجهول الهوية :

– المحاربون المشاة (من الأندلسيين) 2000
– الفرسان 5000
– العرب المسلحين بالرماح 1500
– المجموع 8500

ويذكر نفس المصدر العتاد الذي حملته الجيوش معها : ·

– النقاب 600
– الجمال 1000
– الأبل 8000
– الخيام 180
– البارود 300 قنطار
– البارود المسحوق 10 قناطر
– الرصاص 300 قنطار

وفي المقابل جهز السودانيون جيشا يزيد على 100.000 جندي مسلحين بالخناجر والسيوف والنبال والعصي . والواقع أن جيش أهل السودان لم يكن مستعدا ومقوما بما فيه الكفاية حسب ماذكر المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي . الشيء الذي أظهر منذ البداية تفوق الجيش المغربي تقنيا ... ثم إن أهل كاغو كانوا مقتنعين بأن الصحراء تمثل أداة واقية طبيعية يصعب على الجيوش اختراقها . حيث إن الأسكيا لم يفكر في جمع جيشه إلا عندما تمكن



إذا كان عدد الجيش السوداني كثيرا فإن الجيش المغربي كان أكثر تقنية وأقل عددا . وهنا يظهر الفرسان في مواجهة جنود مملكة بورنو .
(مستندات افريقية).



ضريح أسرة أسكية الحاكمة (القرن الخامس عشر للميلاد). (مستندات افريقية).

ولم يكن الطريق سهلا بل شاقا وطويلا . ونعرف اليوم تقريبا كل منعرجاته بفضل ما نستشفه من المصادر المعاصرة فمن مراكش اتجهت الحملة نحو درعة إلى الكتاوة ثم في اتجاه تندوف فإلى حمادة باركا ومنها إلى تغازى وتاودني . وهما المنجمان للملح اللذان وقع حولهما النقاش . ثم اتخذت الحملة نحو الجنوب عبر أونان ثم أدوان وتازروفت فإلى كارابارا .

- كانت مراحل نشر الأسلام تواكب ازدهار المبادلات التجارية بين السودان والمغرب الكبير . الخريطة الكطالنية (1375) وفيها يظهر كونغوموس ملك مالي وهو يقدم لتجار من سجلماسة قطعة من الذهب .

المصـادر

يأخذ المتخصصون في تاريخ افريقيا السوداء بعين الاعتبار أنواعا من المصادر هي :

– العادات الافريقية المنقولة بواسطة الشعراء السحرة الافريقيين ، المتوفرة على عناصر أسطورية كثيرة ، غالبا ما تكون مختصرة حيث وصلتنا على شكل مذكرات سلالية .

– كتابات القرن السادس عشر ، للمحصلين السودانيين الذين كتبوا بالعربية :

أ – تاريخ الفتاش للمؤلف كعيت ؛

ب – تاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي .

– المعلومات الكثيرة التي قدمها المؤرخون والجغرافيون الرحالة من شمال افريقيا وغيرها والذين زار أغلبهم السودان أمثال :

– ابن حوقل في القرن العاشر للميلاد ؛

– ابن بطوطة في القرن الرابع عشر ؛

– الحسن الوزان (ليون الافريقي) في مطلع القرن السادس عشر ؛

زيادة على الشهادات الدقيقة التي قدمها لنا رحالة من أمثال البكري (القرن الحادي عشر للميلاد) والادريسي (القرن الثاني عشر) وياقوت الحموي (القرن الثالث عشر) وابن خلدون والجمري



علاقات متينة ودائمة بفضل الاسلام والعلماء المسلمين .

(القرن الرابع عشر) مع أن هذين المؤرخين الاخيرين لم يزورا بلاد السودان .

ومهما كان الامر فإن محدودية البحث حول تاريخ افريقيا السوداء رغم الجهود الكثيرة التي بذلت لم يكن شموليا . ويكفينا حتى نقتنع بذلك أن نتصفح الفهارس المتعددة الخاصة بالسودان والتي نقلها دوجير أنكور إلى خزانة معهد فرنسا .

(انظر ماقاله ر. موني في هذا الصدد في مؤلفه :

-History and Archeology in Africa School of Oriental and African studies. 1955-.

تقسيم بلاد السودان إلى ممالك

« ... تقسم بلاد السودان كذلك إلى ممالك بعضها مجهولا مع ذلك بالنسبة لنا وتكون بعيدة عن مدى تجارتنا . وهكذا لن أتكلم إلا عن تلك التي قصدتها والتي ترددت عليها لمدة طويلة ، وعن الممالك الاخرى التي كان ينطلق منها تجار لبيع سلعهم في البلاد التي كنت فيها والذين اعطوني عنها اخبارا وفيرة . ولا أريد أن أغفل اني ذهبت إلى خمس عشرة مملكة في بلاد السودان ، ومكثت فيها مدة تبلغ ثلاثة أضعاف المدة التي قضيتها على الطريق ، وكل هذه الممالك كانت معروفة جدا ومجاورة لتلك التي أقمت فيها . وسأذكر أسماء هذه الممالك بدءا من الغرب سائرا في اتجاه الشرق وهي : ولاتة ، جنه ، مالي ، تمبوكتو ، غاءو (كاغو) ، غوبر ، آغادس ، كانو ، كاتسنه ، زقزق ، وانغاره ، وانفاره ، بورنو ، غاوغه ، والنوبة ، وهذه الممالك الخمس عشرة والتي يقع أغلبها على النهر النيجر ، يمر منها الطريق الذي يسلكه الذين يذهبون من ولاتة قاصدين القاهرة . وهذه الطريق طويلة ولكنها مأمونة جدا . وهذه الممالك متباعدة بعضها عن بعض . وتنفصل عشر منها بعضها عن بعض بصحاري رملية أو بواسطة نهر النيجر . وعلينا أن نعلم أن كل مملكة كانت في الماضي تحت حكم عاهل متميز . ولكن خضعت في عصرنا لهيئة ثلاثة ملوك ، وهم ملك تمبوكتو الذي يملك القسم الاعظم من المماليك المذكورة ، وملك بورنو الذي يملك أصغر قسم ، وملك غاوغه الذي يستحوذ على الباقي تحت سلطته . ولكن من الصحيح أيضا القول بأن ملك دوكالا يملك هو أيضا دولة صغيرة . وهنالك عدة ممالك أخرى تتاخم من جنوب الممالك المذكورة آنفا ، مثل مملكة بوريه وتميام وداومه ومدره وقرواف وملوك هذه الممالك وسكانها أغنياء وتجار نشطون وينشرون العدالة ولهم حكومة جيدة . أما سكان الممالك الاخرى فيعيشون في أوضاع أكثر رداءة من أوضاع البهائم »

الحسن الوزان

« وصف افريقيا »



كان السودان في القرن السادس عشر يمتد من بحيرة تشاد إلى الساحل الاطلسي.

المغرب وبلاد السودان

وقد أطلق على هذه الطريق : طريق جودر .

من الواضح أن عدد أفراد الجيش المغربي أقل بكثير من عدد جنود أسكيا . ربما فسر ذلك برغبة المنصور في إقناع أهل السودان باتباعه فيما يرمي إليه من وحدة بين الجانبين ضد التدخل المسيحي ! لقد كان موقف أهل البلاد من حملة المنصور موقفا غير موحد . وحسب الفشتالي الجيش السعدي من الوصول إلى كارابار أي إلى أبواب تومبوكتو !

والسعدي يظهر أن الحضور المغربي في السودان كان مرغوبا فيه من بعض الفئات :

–العامة التي فهمت رغبة المنصور في إعطاء نفس جديد للاسلام بهذه البقاع بعد تعرضه للوثنيين من جهة والمسيحيين من جهة أخرى .

– وحكام بعض المناطق مثل حاكم تمبوكتو وقائد دجيني منباكران وقاضيها بامب قناتي .

– وبعض العلماء مثل قاضي تمبوكتو عمر بن محمد بن عمر .

– والتجار الذين كانوا في حاجة إلى الاستقرار لممارسة تجارتهم ...

– وبعض أفراد عائلة أسكيا الذين انضموا إلى المنصور . لكن هذا الموقف لم يكن عاما بل إن المصادر تذكر أن مجموعات من السكان غادرت المناطق الذي كانتا تقيم فيها خوفا من وصول السعديين . وربما كان هذا هو السبب الذي يفسر قلة الأرباح المجلوبة من هذه الحملة .

وفي تقيم سريع لنتائج هذه الحملة يظهر :

– أن السعديين رغم الصيت الذي اكتسبوه على المستوى الدولي بنجاح حملتهم إلى السودان فإنهم فإنهم لم يجلبوا منها تلك الأرباح الخيالية التي نجد الكتب المدرسية تؤكد عليها .

– وأن المجهودات التي بذلت لتجهيز الحملة لاستتباب الأمن في السودان قد كلفت الدولة السعدية أكثر مما جلبت من أرباح من هذه البقاع ،

– وأن الأطروحة السعدية الرسمية التي دافعت عنها وسائل الأعلام المعاصرة من أن السودان غني بالذهب ، وأن المغرب اكتسب منه ثروات هائلة ، أطروحة تدعو إلى بعض الشكوك ،

– وأن الأرباح الحقيقية التي جناها السعديون من هذه المحاولة هي إبعاد الأطماع العثمانية عن بلاد السودان والحد من التدخل الأوروبي في افريقيا الغربية وبالتالي فتح الطرق التجارية وتدعيم الممالك الاسلامية هناك .

الذهب

إن الباحث في وثائق القرن السادس عشر المتعلقة بالتجارة يلاحظ أن ذكر الذهب يأتي في غالبيتها وبالخصوص في المراسلات المتبادلة بين الأمراء السعديين من جهة وملوك ورؤساء الدول الأوروبية (انجلترا والبرتغال وفرنسا واسبانيا وهولاندا) من جهة أخر ، أو المتبادلة بين الممثلين التجاريين المنتمين لمختلف الجنسيات ومراسليهم في أوروبا .

هل هذا يعني أن الذهب هو المنتوج الأساسي الذي كان يتاجر فيه المغرب خلال القرن السادس عشر ؟ أم أنها فقط الصورة التي كانت وسائل إعلام العصر الرسمية تريد أن تقدمها عن المغرب السعدي ، تلك الصورة التي تتجلى في إظهار المغرب بمثابة بلاد الذهب « الذهبي » . ونحن نعرف أن المنصور كان يحمل هذا اللقب !

★ الواقع أن كل المؤرخين الذين كتبوا عن العلاقات بين المغرب والسودان مثل البكري والادريسي والعماري وابن بطوطة والوزان يؤكدون وصول الذهب السوداني إلى المغرب منذ القرن الثامن عشر الميلادي .

حسب دراسة كودينو Godinho يظهر أن ثروة بعض أغنياء سجلماسة في القرن 15م كانت تقدر بمائة ألف دينار ذهبية ، أي ما يوازي 375 إلى 450 كيلوغرام من الذهب الخالص ، زيادة على الديون التي كانت في عنق المتعاملين معهم والمقدرة بأربعين ألف دينار ذهبية ، أي ما يوازي 150 إلى 180 كيلوغرام من الذهب الخالص . ولاغرابة في ذلك حيث إنه في عام 1450م كان

خريطة لافريقيا كما كان يراها بعض الاسبان . والقارة بالنسبة لهم كتلة ما فتىء يكتنفها الغموض .
(خريطة اسبانية يرجع تاريخها إلى سنة 1500 م).

مدخول المدينة من الضرائب على التجارة يقدر بأربع مائة ألف دينار أي 1500 إلى 1800 كيلوغرام من الذهب الخالص .

– وفي ما بين 1491 و 1500 م كانت الخزينة المالية البرتغالية في آزمور تحوي مايزيد عن 41.520 دوبلا Doblas من الذهب (دوبلا واحد يساوي 4،4 غرام من الذهب) بينما كانت خزينة آزمور قد جمعت بين 1480 و1500 (6200 دوبلا) أي 27 كيلوغرام من الذهب .

وحسب مصادر القرن السادس عشر يظهر أنه كان يصل إلى المغرب من تمبوكتو وحدها كل سنة ستون قنارا من التبر !

ومما يثبت هذه المعلومات شهادة التجار الانجليز الذين عاشوا في المغرب خلال هذه الفترة ، مثلا :

– مذكرة من التجار العاملين في المغرب (قبل 15 يوليوز 1585)

"Which will hinder us moche in our returne, the principal being gold" S.IH.M. Angl.I. p.466.

– مذكرة من التجار العاملين بالمغرب موجهة إلى المجلس الخاص . (25 أبريل 1567) .

"But also for a scret treasure, greate quantitee of tyne gold of that countrye" S.I.H.M. Angl.I pp. 92-93.

– رسالة من ريشار طرافيل وشركائه إلى مموليه .

"S.I.H.M. Angl.I. p. 416."

وخلاصة ما جاء في هذه المذكرات والرسائل أن الذهب كان يصل إلى المغرب من السودان في نوعين :



نقود ذهبية ضربت على عهد المنصورالذهبي ، ونعتت أيضا بالذهبي . (كليشه بنك باريس الوطني) .


libia
egito
ethiopia
tebas
pentapolis

– التبر وهو ذهب مسحوق
– السكين وهو نقد ذهبي

وكان التجار الانجليز يبحثون بالخصوص عن التبر ، الذي كان أصله من جزيرة تيبر (INSULA TIBER) وهي منطقة قرب بحيرة التشاد .

وهذا الذهب هو الذي جعل الانجليز يطلقون على المنصور لقب :
"THE GREATEST PRINCE IN THE WORLD FOR MONEY" ذلك أن عهده صادف دخول أكبر كمية من هذا الذهب إلى المغرب ، وبالخصوص بعد 1591م .

أما السكين SEKIN فكان الانجليز يحولونها إلى عملتهم قصد ترويجها . ويجب الاشارة هنا إلى أن معرفة الأوروبيين في القرن الخامس عشر عن أصل هذا الذهب كانت غامضة وغير مضبوطة . ذلك أن الذهب بالنسبة لهم منتوج افريقي . وأن افريقيا عالم واسع غير معروف ، أو بالأحرى لايعرفون منه سوى بلدان شمال افريقيا ومصر أي المناطق التي كانوا يصلون إليها بعد عبور البحر !

ومن هنا تظهر فائدة المقارنة التي أقامها بيار فيلار (P. VILAR) بين خريطتين ، الأولى الأطلس الكلطاني الذي أنجز ما بين 1375 و 1380 ، والثانية الخريطة المسماة بخريطة كريسطوف كولومب . فبمقارنة الخريطتين يظهر التأخر الأوروبي الكبير في معرفة موضوع افريقيا وبلدان الذهب .

ولم تتغير هذه المعرفة إلا أواخر القرن الخامس عشر ، حيث لم يعد عندهم الذهب يأتي من قارة افريقية غامضة بل من « عالم السود » من امبراطورية غانا ومالي ثم من شمال افريقيا ومصر ، اللذين كانا بمثابة حجرة الزاوية بالنسبة لتبادل هذا الذهب .

وتتميما لفهم ظاهرة وصول الذهب إلى المغرب خلال القرن السادس عشر لابد من الاشارة إلى أن دخول الذهب لم يكن منتظما بل كان يخضع للظروف التاريخية التي عاشها الجانبان . ويمكن حصر ثلاث مراحل تغيرت فيها كمية الذهب الآتية إلى المغرب خلال القرن السادس عشر :

– المرحلة الأولى وتوافق بالتقريب النصف الأول من القرن ، وهي تعتبر استمرارا لمرحلة بدأت مع القرن الثاني عشر .

– المرحلة الثانية وأولها حوالي 1578 ونهايتها 1591 مع رجوع جوذر بهدايا السودان .

– المرحلة الثالثة وتتمثل في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر .

إذا كنا نعرف الكثير عن المرحلة الأولى ، فإن الغموض مازال يطغى على معرفتنا لظاهرة وصول الذهب إلى المغرب خلال المرحلتين الثانية والثالثة ، فكل ما نتوفر عليه ينحصر في مضمون المراسلات المعاصرة والتي تسمح لنا فقط بتكوين تصور عام وسطحي للظاهرة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نشير إلى رسالة ميلشيور بيطوني التي يقترح فيها على فيليب الثاني بناء حصن باركين لمحاولة جلب الكمية الهائلة من الذهب التي كانت ماتزال تصل إلى المنصور (انظر ANGL. II I.SERIE - S.I.H.M.) والرسالة مؤرخة بعام 1591 .

ثم إن الفكرة الأساسية التي تستخلص من كل المراسلات المتبادلة في الموضوع تكمن في أن الكمية من الذهب التي كانت تصل إلى المغرب كبيرة ، وأن تقدير هذه الكمية بالأرقام غير ممكن . وربما كان سبب ذلك :

أ – السر المفروض من السلطات السعدية حول الكميات التي كانت تصل إلى المغرب . ولتفسير هذا القرار لانملك سوى محاولة نطرحها على شكل تأويلات : هل كان المنصور يريد حفظ السر لأن الكمية التي تصل إلى المغرب كانت قليلة ؟ أم أنه سعى إلى الكتمان ليحتمي من التصدير ؟ أم أن عدم استقرار الكميات التي كانت تصل من السودان هو الذي جعل المنصور يحتفظ بالسر ؟

ب – المنع القانوني الذي أعلنته السلطات السعدية عن كل تصدير للذهب ، وقد أدى ذلك – حسب ما جاء في مراسلات أنجليزية – مثلا إلى إخفاء الذهب في صناديق السكر . وقد أشكل الأمر عندما غرقت السفينة في نهر الطايمز (TIMISE) بلندن عام 1583 وهي قادمة من المغرب وعلى ظهرها صناديق سكر . وعندما ذاب السكر ظهر الذهب !

وخلاصة القول أنه كيفما كانت الصورة التي حاول الجانبان تقديمها حول الكمية من الذهب التي كانت تصل إلى المغرب ، يمكن أن نجزم بأن هذه الكمية لم تكن كبيرة كما يظهر للقارىء من أول نظرة ، وذلك لسببين اثنين :

أ – أولا قلة الذهب المباع في أسواق السودان نتيجة إما لاستنزاف بعض المناجم وإما لتحول الطرق ،

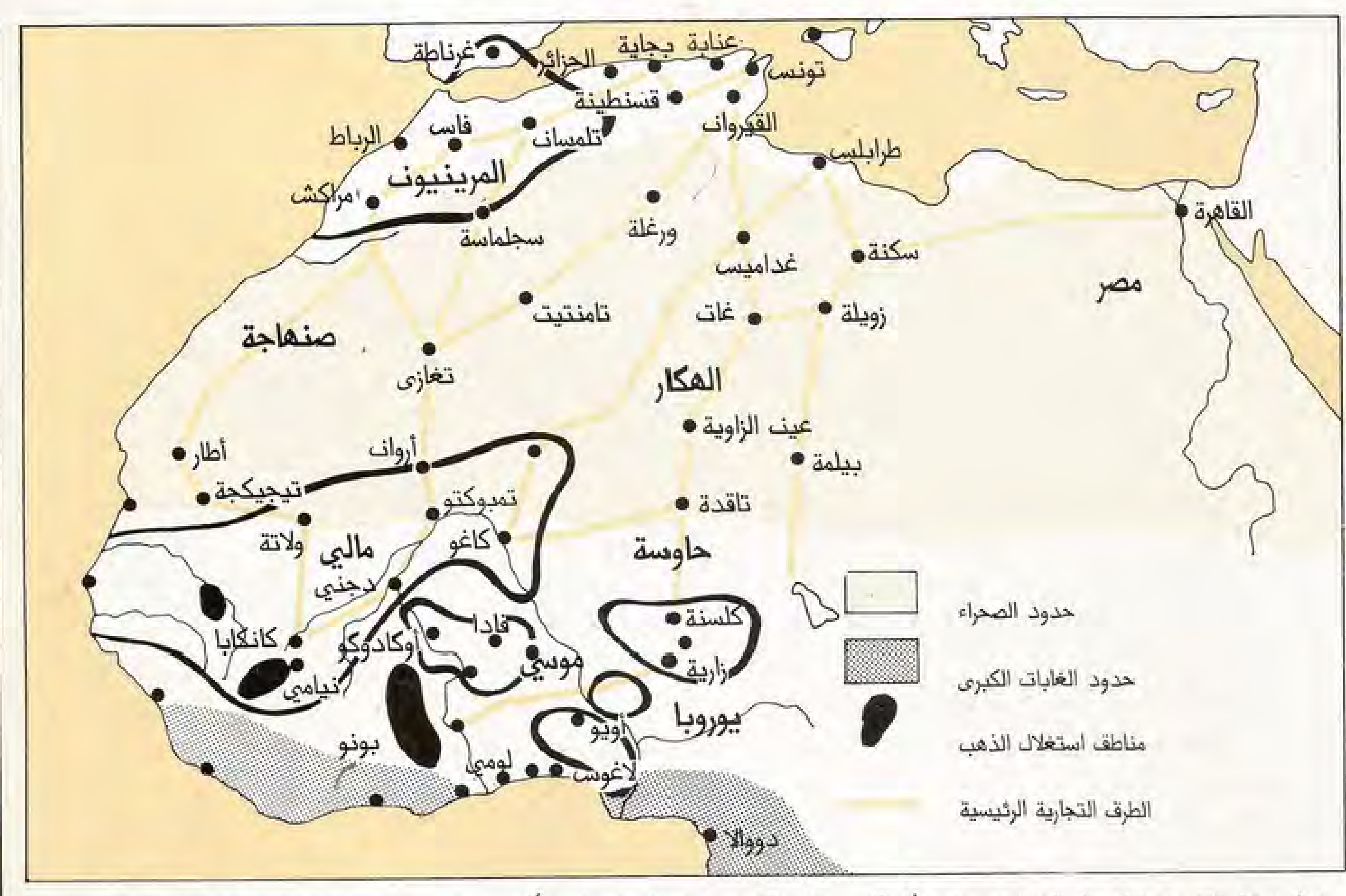
ب – ثانيا الظرفية العالمية للسوق التي أصبحت في صالح الذهب والمعادن النفيسة .

أما السبب الأول فيتلخص في أن تقلص كمية الذهب التي كانت تصل إلى المغرب بدأت نتيجة التوسع البرتغالي والاسباني إلى جنوب بلاد السودان و على طول سواحله ، وقد جلب عبر لامينا LA MINA وأركين ARGUIN وغيرهما من الموانىء الثروة الذهبية السودانية .

وتقدم دراسة كودينو GODINHO حول التوسع البرتغالي في افريقيا معطيات مفيدة لفهم هذه الظاهرة . هذا وإن رغبة البرتغاليين في السيطرة على بعض الموانىء المغربية خلال القرن الخامس عشر لايمكن أن تفسر إلا بسعيهم إلى تأمين « مخارج » الذهب . وإن مراحل احتلال البرتغاليين للثغور المغربية (الشمال ثم الجنوب) مرتبطة كل الارتباط بتحول الطرق التجارية للذهب.

فإذا كان احتلال سبتة عام 1415 ثم طنجة 1437 فذلك لأن الذهب كان يصلهما عبر فاس . ثم إن احتلال ماسة وآسفي وآزمور في مرحلة متأخرة لايفهم إلا إذا عرفنا أن ثمن الذهب

المغرب وبلاد السودان



مناطق استغلال الذهب في افريقيا خلال القرن السادس عشر للميلاد.
(تاريخ افريقيا).

الذي كان يصل تلك المدن في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ثمن بخس.

وإن متابع البرتغاليين لاحتلالهم لسواحل افريقيا الغربية سعيا وراء الحصول على الذهب بأثمان أرخص. ففي سنة 1436 احتلوا رأس بوجادور، وفي عام 1469 سان جورج دي لامينا (Saint George de Lamina) وبهذا يكون البرتغاليون قد تمكنوا من تحويل ذهب بلاد السودان إلى السواحل التي كانت تحت سيطرتهم لمدة طويلة وفي نفس الوقت تمكنوا من تفقير المغرب.

وهذا على سبيل المثال جرد بكميات الذهب التي كانت تصل إلى البرتغال بالأوزان، وبمتوسط كرفيلا لكل عام :

– 1504 – 1507 : 433، 368 كيلو
– 1511 – 1513 : 413، 922 ،،
– 1517 – 1519 : 443، 672 ،،
– 1519 – 1522 : 411، 864 ،،
– 1543 – 1545 : 371، 578 ،، .

وكما يشير إليه فيلار (P. Vilar) لا يدخل في هذه الأرقام سوى الذهب الذي كان يجلبه الملك البرتغالي رسميا، أما ذهب الخواص فيصعب حصره لعدم توفرنا على أرقام. وكيفما كان الحال فإن كميته كذلك كثيرة.

وبعد 1544 م بدأت هذه الكمية تقل فمثلا لم يدخل البرتغال بين عامي 1560 و 1561 سوى 145 كيلوغرام من ذهب السودان! مع هذا كله فإن البرتغاليين – إلى حدود 1570 – كانوا بجلبهم ذهب السودان عبر الموانىء الجديدة، يؤثرون على الكمية التي كانت تصل إلى المغرب ذلك أن المتتبع لهذه الأرقام يلاحظ أن الكميات من الذهب التي كانت تصل إلى السواحل الواقعة تحت مراقبة البرتغاليين بدأت تقل (لا يصل الذهب نهائيا إلى أركين عام 1570). وقد نعزو تفسير هذه الظاهرة إلى تقلب إنتاج المناجم. ولكن هذا لن يكون صحيحا لأن الانتاج بقي في مناجم السودان بنفس الكمية؛ تسعة أطنان في السنة، منها ستة على الأقل للتصدير. وكان ينتج كل من منجمي البورِّي واللوبي أربعة أطنان لكل منهما كل سنة، وينتج الباقي مجموعة من المناجم.

الواقع أن الأوضاع السياسية الجديدة



بشمال افريقيا ساهمت في إحياء تجارة القوافل وبالتالي في تدهور النظام البرتغالي إن المتتبع لتاريخ تجارة القوافل يلاحظ أن هذه التجارة التي تربط بين بلاد السودان والشمال الافريقي كانت دائما تخضع للواقع السياسي في هذه البلدان ، حيث إن ازدهار طريق من الطرق الثلاثة الموجودة لا يكون إلا بتوفر الأمن والاستقرار . (انظر الخريطة). ثم إن الطريق المغربية نفسها كانت تتفرع إلى مجموعة من المسالك تختلف أهميتها حسب الفترات .

أ – المجموعة الأولى تمثل المسالك الداخلية :

1 – الاتجاه الأول : مراكش وفاس والعرائش (أو سبتة)

2 – الاتجاه الثاني : فاس والمهدية (أقل أهمية).

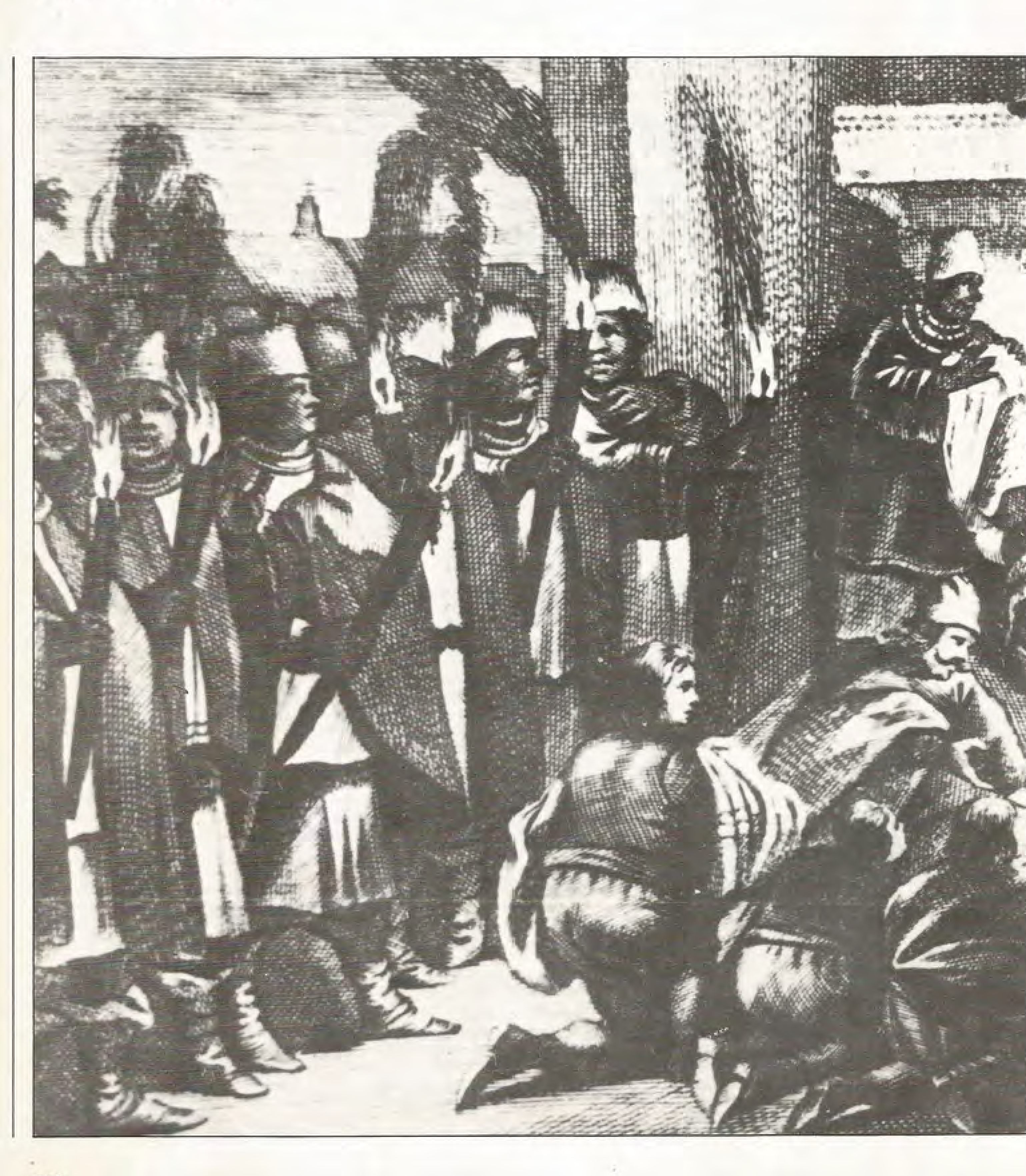
3 – الاتجاه الثالث : مراكش – آسفي (أو آزمور).

ب – المجموعة الثانية تتمثل في نقط التبادل الصحراوية وهي تقع عموما جنوب الأطلس ، عبارة عن مناطق وصول القوافل بعد قطعها للصحراء : سوس ودرعة وتافيلالت .

وقد اختلفت أهمية كل منها حسب الفترات . ثم إن التوات كان هو المركز الموزع . وواضح أن كل هذه النقط كانت بمثابة القلب النابض لنظام تجارة القوافل . وقد فهم رجال السياسة المغربة والعثمانيون أهمية هذه المواقع ، مما أثار صراعات متعددة بين الجانبين على طول القرن السادس عشر وخصوصا بعد وفاة المنصور (1603) حيث أن خلفاءه لم يستطيعوا تثبيت الوجود المغربي هناك . وأصبح مثلا التوات محط أطماع الجيران : شيخ تاودني ، كونتا تمبوكتو وقائد الطوارق . واتجهت الطريق التجارية نحو الشرق .

كان البرتغاليون يحاولون مضايقة المغرب في مجال تجارة الذهب بافريقيا فأنشأوا لهذا الغرض مراكز تجارية على مقربة من الثغور المحصنة على الشواطىء الافريقية .

ملك « الكونغو » يستقبل دبلوماسيين برتغاليين .
(داير – 1668).



ج – المجموعة الثالثة تتمثل في نقط التبادل الساحلية . كانت كل الموانىء الصغيرة الموجودة على طول الساحل الافريقي إلى حدود خط الاستواء تتصل ببعضها عن طريق البحر .

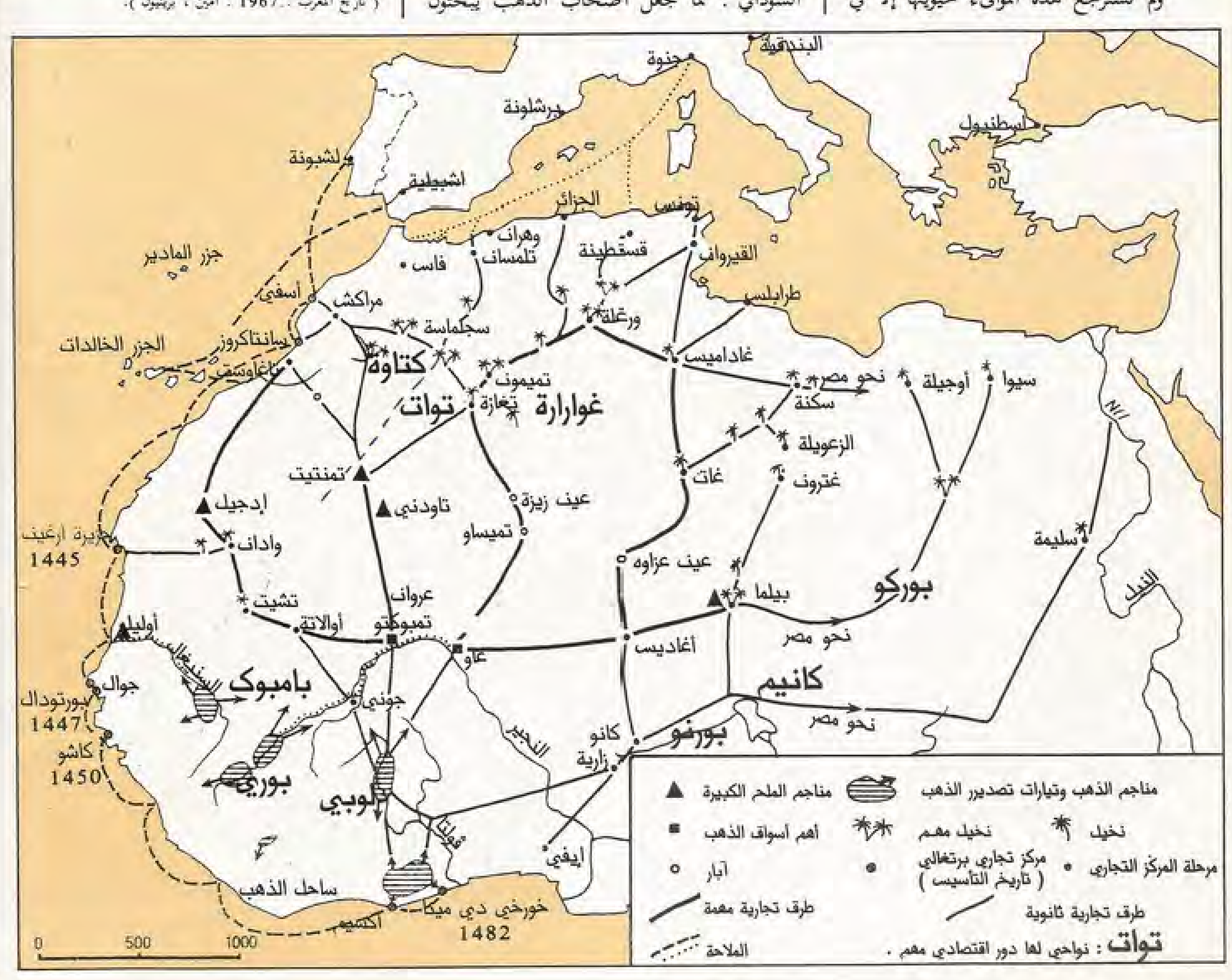
وجاء البرتغاليون في النصف الثاني للقرن الخامس عشر وسخروا لأنفسهم هذه الأوضاع ، واستغلوا تجارتها .

وإلى حدود 1549 نظم البرتغاليون هذه الموانىء على شكل حصون مثل سانتا كروز وآسفي وآزمور مما أدّى إلى تقلص تجارتها .

ولم تسترجع هذه الموانىء حيويتها إلا في أواخر القرن السادس عشر بالخصوص مع توفر الأمن (عهد المنصور) ووصول الأنجليز والفرنسيين والهولنديين ، ذلك أن المصادر تذكر حركة خروج ودخول السفن منها وإليها .

هذا وتجب الاشارة إلى أن ازدهار هذه الطريق ارتبط ارتباطا وثيقا بالظرفية التاريخية ، ففي نهاية العصر السعدي مثلا فقدت حيويتها ، وعوضتها الطريق الشرقية الواقعة تحت سلطة العثمانيين . ثم إن الاقتصاد المغربي كان لم يعد يستطيع تقديم السلع اللازمة لشراء الذهب السوداني . مما جعل أصحاب الذهب يبحثون عن زبون آخر . في انتظار تمكن المغاربة من فك الحصار الأوروبي على سواحله واسترجاع استقراره .

أما التفسير الثاني لظاهرة قلة كمية الذهب الواصلة إلى المغرب من السودان فيكمن في الظرفية العالمية التي لم تكن في صالح المغرب . فابتداء من عام 1545 وبالخصوص 1550 م حل ذهب أمريكا في التجارة العالمية محل ذهب



خريطة المبادلات في افريقيا الغربية خلال القرن السادس عشر للميلاد .
(تاريخ المغرب ، 1967 ، أمين ، برينيوي).



الذهب الامريكي كان يدخل عبر اشبيلية إلى أوروبا وينافس الذهب الافريقي .
(كليشه بوعمري) .

افريقيا . وأدى هذا الحدث لا محالة إلى تقلص كمية الذهب التي تدخل المغرب . ومن دراسة للأستاذ ب. شوني (P. Chaunn) يتبين أن الذهب الامريكي كان قد بدأ يدخل إلى أوروبا مع ما سمي بـ « **طور الذهب** » أو **ذهب الأنتيلا** ، (1494 – 1525) وهذه كميات الذهب التي دخلت إلى اسبانيا خلال الفترة المتراوحة بين 1503 و 1560 كما حاول إ. هاميلتون أن يقدمها انطلاقا من المستندات المتوافرة :

– 1503 – 1510 : 4950 كيلوغرام من الذهب

– 1511 – 1520 : 9153 كيلوغرام من الذهب

– 1521 – 1530 : 4889 كيلوغرام من الذهب

– 1551 – 1560 : 4260 كيلوغرام من الذهب .

تبين هذه الارقام بوضوح كميات الذهب المستورد من أمريكا إلى أوروبا ، وهي كميات هائلة ، لا سبيل لمقارنتها مع ما كان يأتي من السودان (انظر الارقام أعلاه)، وهو نسبيا قليل ! وهذا يعني أن ذهب أمريكا كان قد عوض ذهب افريقيا الآتي عبر الموانىء المحتلة أو عبر المغرب ، وبالتالي فإن اهتمام الاوروبيين بذهب السودان سيقل ، وتقل معه تجارة المغرب ، واستيراده للذهب . فتصبح النهضة التي عرفتها تجارة القوافل مع المنصور الذهبي والتي ذكرت المصادر أن مستخلصها ساعد على إحياء موانىء المحيط الاطلسي عبارة عن نهضة مؤقتة لم تتمكن من الاستمرار نظرا لهذه الظرفية . ثم إن الكمية التي حرّكتها هذه النهضة لم تصل في وقت من الأوقات إلى مستوى الكميات التي دخلت المغرب في القرون السابقة . بل إن الاتجاه العام لتجارة الذهب كان دائما يسير نحو التقلص ، خصوصا بعد 1603 . فثورة الحرس التي صاحب قافلة الذهب لعام 1607 بأمر من المولى زيدان تثير الانتباه . فالمصادر أكدت عليها وعلى أنها كانت تتكون من ثلاثين جملا تحمل أربعة أطنان من الذهب ! وتذكر نفس المصادر أن السلطان مولاي زيدان هذا كان قد أهدى **ذهبا** للسلطان العثماني رغبة منه في الحصول على مساعدة عسكرية .

وقد جاء في بعض الرسائل من مراكش وسلا مؤرخة بعام 1669 أن قافلة من أربع إلى ست جمال وصلت إلى سوس محملة بحوالي 500 إلى 700 كيلوغرام من الذهب .

كيفما كان الحال ، فإن كمية الذهب التي كانت تدخل إلى المغرب كانت ضئيلة بالمقارنة مع ما كانت تحمله السفن الاسبانية إلى قادس (أربعة أطنان ...)

مذكرات من التراث المغربي

الصناعة السكرية

قدم الفشتالي معامل السكر السعدية وقارنها بأهرام مصر . وهو يصور هنا الدهشة التي تثيرها عند كل زائر ضخامة الشلالات المائية الاصطناعية وكثرة البرك والجفان والقدور واللوالب . وهو بهذا يقدم للباحث فكرة عن تقدم هذه الصناعة التي أغنت الدولة السعدية .

ولم يكن الفشتالي بكتابه « مناهل الصفا » المؤرخ الوحيد الذي وصف هذه الصناعة ، فاليفراني في **النزهة** يقدم معلومات مفيدة في هذا الباب ، زيادة على ما تساعدنا به المراسلات المعاصرة التي جمعها الكونت دوكاستر وأتباعه وما نستفيده من الأبحاث الأثرية التي قدم نتائجها بول بيرتيه في كتابه « معامل السكر القديمة بالمغرب » حول زراعة قصب السكر والتقنيات المستعملة في معامل شيشاوة .

وقد بينت الاستكشافات الأثرية بناحية شيشاوة أن زراعة قصب السكر قديمة في المغرب . ويؤكد ذلك ما جاء به الادريسي في كتابه « نزهة المشتاق » (1154م) من أنه من النادر الوقوف على قصب من جودة وطول وسمك جذع القصب الذي كان يزرع في سوس . فحلاوته وكثرة مائه تفوقان حلاوة ووفرة مياه غيره . وكانت شهرة السكر الذي يستخلص منه قد انتشرت في العالم بأسره ، ويفوق أنواع السكر الأخرى كلها حلاوة ونقاوة .

وقد تطورت هذه الصناعة على العهد السعدي كما تشهد بذلك الآثار الضخمة والماثلة أمام الزائر اليوم بناحية شيشاوة . كانت المزارع المجاورة تغذي المطاحن الحجرية بالقصب وكانت هذه المطاحن تعمل بالقوة المائية على سحق القصب وعصره . ومازالت ممرات المياه المحمولة على أسوار يصل علوها في بعض الأحيان عشرين مترا والمسترسلة على طول كيلومترات جاثمة للعيان .

يقول الفشتالي واصفا كثرة الحركة هناك في عصره :

« **وإذا ألقيت عصا التسيار بمعصرة منهما رأيت مجمع الورى وأول الحشر وقرية النمل وكودة النحل ومدرج الذر لكثرة ما ضمت من العملة وحشرت من الخلق** » (ص 281 من المخطوط) .

وقبل أن تبنى هذه المعامل بناحية شيشاوة ، كان محمد الشيخ السعدي قد شجع انتشار زراعة قصب السكر وبناء معامل لطحنها بناحية المحمدية (تارودانت الحالية) ، ولكن معلوماتنا حول هذا الموضوع ، وحول ما أنجز كذلك بناحية تيدسي ، مازالت محدودة .

ويعتبر ما أنجزه المنصور في هذا الباب تتميما لما بدأه أبوه . فعلى المستويين الزراعي والتقني ظهرت مساهمة المولى أحمد . فقد نقل زراعة القصب من سهل سوس إلى حاحا والحوز ، ثم استفاد مما حمله الأسرى الايطاليون (البنادقة) من تقنيات خصوصا في تصفية السكر .

وقد وصف المؤرخ الرسمي الفشتالي المستوى التقني الذي وصلت إليه هذه المصانع ، فذكر أن كميات هائلة من السكر كانت تخرج منها كل سنة . وقد تساعدنا دراسة دقيقة للكميات السكرية التي كانت تصدر من المغرب على العهد السعدي على فهم عدد من القضايا التاريخية التي مازالت غامضة ، وبالخصوص على



بينت الابحاث الأثرية أن زراعة قصب السكر في المغرب موغلة في القدم . وقد أقيمت في أيام السعديين شبكة مائية واسعة لأجل هذه الزراعة . (انظر الفشتالي - مناهل الصفا). في الصورة ، مجال لزراعة قصب السكر بشيشاوة .
(معامل السكر القديمة بالمغرب - ب. بيرتيي).
(Les anciennes sucreries du Marocc, P. Berthier).



يتجلى المستوى التقني الذي بلغه السعديون في تكرير السكر من خلال آثار معامل السكر التي أقاموها في عهدهم .
تبدو هنا قاعة البرك والجفان بمعمل شيشاوة .
(انظر كتاب ب. بيرتيه عن معامل السكر القديمة بالمغرب).

إلقاء بعض الأضواء على الدور الذي لعبه المدخول المترتب عن بيع السكر إلى الخارج في تعديل الميزان التجاري المغربي وتقوية الخزينة المغربية في القرن السادس عشر . يقول الفشتالي :

« وقد قطعت معاقدة الكراء فيها اليوم لطائفة من أهل الذمة من كل سنة ... هذا القدر من الخراج الوافر الذي لايزال بيت المال هنيئا » (ص 281 من المخطوط) .

ويظهر حسب بعض المصادر أن المغرب كان يصدر السكر إلى البندقية وفلاندرا منذ القرن الثالث عشر . رغم ما ذكره الحسن الوزان في وصفه لافريقيا حيث قال إن جودة السكر المغربي كانت ضعيفة . فإن ما ذكرته المصادر البريطانية عن أمر الملكة إيليزابيث بلزوم استعمال السكر المغربي وحده في قصرها يبين بما لايترك المجال لأي شك بأن السكر السعدي كان بمثابة منتوج استراتيجي ، حتى أن المولى أحمد كان يستعمله كسلاح في علاقاته الدبلوماسية . ففي « مذكرة بمثابة مشروع عقد للتجارة في المغرب » مؤرخة بعام 1567 جاء أن ثمن السكر المصفى الذي بيع للقصور الملكية الانجليزية « FOR 25 L. THOWSENDE WYGHT » . وفي مقتطف من كتاب الحسابات للقصر الملكي مؤرخ بشهر غشت 1589 نجد أن على التجار الذين يمارسون تجارتهم بالمغرب وعددهم أربعون أن يقدموا للمملكة ستين صندوقا من السكر ، يحتوي كل صندوق منها على 300 لبرة بثمن 14 بانس لكل لبرة . الواقع أن السكر الذي عرفه الوزان (بداية القرن السادس عشر) ليس هو السكر الذي أصبح ينتج في المغرب السعدي .

وكما وقع بالنسبة للذهب فإن السكر واجه مزاحمة السكر الامريكي (الأنتيل والبرازيل) .

ففي أوج ازدهار هذا الانتاج في المغرب تعرض لضربة ظرفية لم يستطع مقاومتها ، فقد كانت الكميات المستوردة من أمريكا كثيرة وثمنها كان منخفضا مما أثار اهتمام الدول الأوروبية آنذاك . فتحول « سلك السكر » ، في نهاية القرن السادس عشر ، إلى البرتغاليين والهولانديين الذين طوروا التجارة السكرية مع الأنتيل وماديرا وصاوتو طومي . ثم إنه في 1603 كان المنصور قد توفي وترك البلاد مضطربة . فانعدم الأمن من جديد وحطمت المعاصر ، كما ذكرت إحدى المذكرات الانجليزية المؤرخة في 1609 . وبذلك تم القضاء على « سكر المغرب » .



معمل سكر شيشاوة ، قاعة الأفران .
(كتاب ب. بيرتيه عن معامل السكر القديمة بالمغرب).

مذكرات من التراث المغربي

تجارة السُّكر والملح

من أهم المحاور التجارية في القرن 16م في العالم الغربي المحور الجديد أوروبا – أمريكا ،المحور القديم الذي يربط بين الشمال والجنوب أي بين أوروبا وافريقيا ، وقد لعب المغرب دورا أساسيا في إنعاش هذا المحور وتطويره بفضل ما كان يقوم به من وساطة بين أطرافه الشمالية والجنوبية .

– كان يشتري المنتوجات الأوروبية ويبيعها في افريقيا

– وكان بالمقابل يشتري المنتوجات الافريقية ليبيعها للأوروبيين .

في هذا التبادل كانت تجارة القوافل تلعب الدور الأول ، حيث كانت تربط بين شمال افريقيا وبلاد السودان ، وبالتالي فهي تربط في الحقيقة بين أوروبا وافريقيا منذ عهد قديم . وكان السكر والملح إلى جانب منتوجات محلية أخرى أساس المبادلات ، حيث كان على المغرب أن يجد إنتاجا يؤدي به ثمن الذهب لأهل السودان ويضمن به تمويلا مستمرا من الذهب ، وفي نفس الوقت إنتاجا يؤدي به ثمن المنتوجات الصناعية التي يشتريها من الأوروبيين دون اعتماده على الذهب ، وقد نجح المغرب في فرض السكر في مبادلاته مع الأوروبيين عوض الذهب وفي فرض الملح – بسيطرته على مناجمه في تغازي وتاودني – كمنتوج بديل للذهب في تجارته مع أهل السودان .

وكان البرتغاليون ، باحتلالهم ميناءي آسفي وسانتاكروز (أكدير) ، تمكنوا من مراقبة تجارة جنوب المغرب ، وبالتالي استطاعوا في البداية أن يفرضوا نظامهم المبني على جلب المنتوجات المغربية وبيعها لأهل السودان مقابل الذهب . ولكنهم سرعان ما فقدوا سلطتهم على سانتاكروز وآسفي (1541م) وأصبحوا يتعاملون المغاربة حسب نظام جديد إذ كانوا يبيعون في الموانيء المغربية منتوجاتهم مقابل السكر بدل الذهب .

وقد شجع الانجليز هذا النوع من التبادل مع المغرب ، خصوصا أنهم كانوا يحبون السكر المغربي ويحملون منه صناديق كثيرة على متن سفنهم . وكان ذلك في صالح المغرب الذي تمكن من حصر خروج الذهب في اتجاه أوروبا .

ونحن نعرف أن حصول المغرب من السودان على هذا المعدن النفيس لم يكن بالعسير ، ذلك أن الذهب كان يصل إلى المغرب من « بلاد السود » عبر نظامين : الأول النظام التجاري المعتمد على بيع المنتوجات الأوروبية في أسواق افريقيا والثاني النظام الجبائي الذي كان يفرض المغرب بموجبه خراجا على ملح تغازي وتاودني باعتبار هذين المنجمين ملكا لسلطان المغرب . وكان أهل السودان (ملوك [illegible] خصوصا) يدركون قيمة هذا الملح والأرباح التي يمكن أن تجنى منه ، وحاولوا الاستيلاء عليه في القرن الرابع عشر بالقوة

قال الوزان يصف ملح تغازي :

« إنه في هذه المنطقة مخزن كبير للملح [illegible] هناك أثمن من المرمر ، وهذا الملح يؤخذ من كهوف حفر تقع عند مدخلها أكواخ العمال الذين يعملون في مناجم الملح ، ويباع إلى تجار يحملونه على الجمال [illegible] مملكة تمبوكتو حيث الملح نادر ندرة شديدة »

، وفي أيام المنصور الذهبي تواصل النقاش حول ملكية هذه المناجم ، وتطور من الميدان التجاري إلى ميدان الدين والمشروعية . وتجد [illegible]

قافلة تجار الملح .
(شركة الجغرافيا بباريس . (S. Ki. P.))



« ..ومن عادة تجار تمبوكتو القدوم إليها (مملكة جنة) في هذه الفترة ، فيجلبون بضائعهم في مراكب صغيرة جدا ، مصنوعة من نصف جذع شجرة مجوفة ويجدفون طيلة النهار ، ويربطون مراكبهم في المساء ، وينامون على الارض...

« ..ويضطر تجار وانغارة ، حينما يسافرون لبلاد الذهب أن يجتازوا جبالا عالية ووعرة لا تستطيع حيوانات النقل اجتيازها . فينظمون أنفسهم كالتالي : يحمل عبيدهم على رءوسهم البضائع والاشياء الضرورية لهم ، والموضوعة في قشور قرع عريضة وعميقة . ويستطيع كل عبد أن يقطع عشرة أميال سيرا وحتى أكثر من ذلك مع حمل مقداره مائة رطل على الرأس . ورأيت منهم من يقوم بقطع هذه المسافة مرتين في نفس اليوم . وليس لديهم شعر فوق الجمجمة بسبب الثقل العظيم الذي اعتادوا حمله . وينقلون ، فيما عدا البضائع الاقوات لسادتهم ولكل العبيد المسلحين والمستخدمين في حراسة التجار ...»

« وصف افريقيا » ، **الحسن الوزان**

مناهل الصفا للفشتالي نص الرسالة التي بعث بها السلطان السعدي إلى آسكيا إسحاق في موضوع منجم الملح بتغازى ، ويقول فيها في جملة ما قال :

« هذه الملاحة المعدنية التي تضرب إليها أكباد الابل وتشد بسببها لبلاد تغازى ... لما فيها من الاعانة لهذه الجيوش الاسلامية والعساكر المظفرة ... وصرفها في إقامة أسطول الجهاد وفيما اعتدناه للرباط في ذات الله . وذلك بأن وظفنا زنة مثقال تبرا على كل حمل من الجمال التي تغشى هذه الملاحة للحمل على طول المدى وألزمناهم ذلك ما أعقب ... وها نحن قد أنفذنا إليكم بما لأئمة المذهب في هذه المسألة على الخصوص وما لعلماء السنة فيها من الحجج والنصوص والبراهين المحكمة . »

والحقيقة أن حصول المنصور على الملح لم يكن سهلا ، ذلك أنه منذ توليه الحكم عام 1578 وهو يولي اهتماما خاصا للموضوع ، فقد كاتب آسكيا داود في شأن التنازل له عن خراج معدن تغازى فأجابه أسكيا داود بأن « بعث له عشرة آلاف ذهبا هدية . » (تاريخ السودان للسعدي ص 111) . وفي عام 1582 عاد المنصور فكاتب ابن آسكيا داود أسكيا الحاج محمد عن التنازل عن هذا المعدن ، فعاد الوفد المغربي محملا بهدايا . وفي عام 1586 أرسل المنصور قوة مسلحة لاحتلال تغازى وفرض مثقالا عن كل حمل . وفي نفس السنة « جاء الخبر بأن لايذهب أحد إلى تغازى فمن مشى إليها فماله هدر .» (تاريخ السودان ص 121) . وفي التاريخ نفسه أرسل المنصور مكتوبه المشهور والذي سبق وعرض مقتطف منه .

هذا ولم يكن سهلا على المغرب حفظ هذا النظام ، خصوصا أن الظرفية التاريخية لم تكن في صالح هذه التجارة كما رأينا سابقا . ففي القرن الخامس عشر للميلاد كان الأوروبيون قد وصلوا إلى منطقة لامينا وأركين ، واستمروا في استنزاف ذهب السودان حتى أواسط القرن السابع عشر ؛ كل هذا لم يكن في صالح النظام الذي كان السعديون يقومون فيه بدور الوساطة فاضمحل وتقهقر مرة أولى في أواسط القرن السادس عشر ، ومرة ثانية نتيجة وصول الذهب والسكر الأمريكيين رغم محاولة المنصور تدارك الأمر ؛ فقد كانت الظرفية التاريخية أقوى من إرادة السعديين .

مذكرات من التراث المغربي

أحمد بابا السوداني

يعتبر أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التكروري التمبكتي السوداني المالكي (وهذا اسمه كاملا كما جاء في **نيل الابتهاج**) من أشهر وأسطع وجوه علماء الاسلام في الغرب الاسلامي ، وينتمي أحمد بابا إلى تلك المجموعة من المحصلين المسلمين ، المدافعين عن الاسلام في البقاع النائية ، الذين أثروا في الحضارة العربية الاسلامية أيما تأثير .

ارتبط اسمه بالسودان وبالخصوص بتمبوكتو التي ولد فيها عام 963 هـ – 1556 م . وكانت هذه المدينة في عصره مركز إشعاع فكري يضاهي مركزي مراكش وفاس . وكانت تمبوكتو مرتبطة ببعض المدن المهمة بواسطة القوافل التجارية التي تصل المغرب بالسودان . وحسب ما ذكره المؤرخون فإن هذه المدينة الوسطى غنية بآلاف الكتب والمخطوطات التي توارثتها العائلات أبا عن جد . ويذكر أحمد بابا أنه عندما استولى الجيش السعدي على مكتبات السودان كان بمكتبته مايزيد على 1600 مجلد !

ثم إن تمبوكتو قد خلفت علماء وفقهاء ومتصوفة تجاوز صيتهم المجال السوداني بل وتجد ذكرهم في جل كتب التراجم الاسلامية . فأبو العباس أحمد والد أحمد بابا ترك لخلفه عدة شروح منها شرح مدونة المقبيلي ، وعمه أبو بكر المتصوف المشهور رحل إلى المدينة المنورة ومكث بها مدة طويلة . فالأول أجازه في الحديث والمنطق والثاني في اللغة والنحو . وقد استفاد أحمد بابا كذلك من الشيخ بغيغ الذي لازمه مدة تزيد على عشر سنوات بتمبوكتو .

وفي هذه المدينة العلمية وصل أحمد بابا إلى عين ما وصل إليه أجداده من الشهرة ، كفقيه نبيه وإمام مسموع . فقد كان العالم المرموق في عصره كما ذكر المترجمون الذين يعتبرونه من ركائز المذهب المالكي في الغرب الاسلامي .

وبالفعل لقد خصص أحمد بابا قسطا كبيرا من حياته ومن أعماله للدفاع عن هذا المذهب . فقد أتم كتاب ابن فرحون « الديباج المذهب » بكتابه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » . ويقال إنه استعمل فيه خلاصة أكثر من ثلاثين كتابا . وقد زاد «النيل» في عدد التراجم عن كتاب ابن فرحون ، مما جعل أحمد بابا ينجز خلاصة للكتابين في « كفاية المحتاج بما ليس في الديباج » وضمنه له ترجمة كاملة .

ويعتبر « الديباج » و « النيل » من الكتب الأساسية التي لاغنى عنها لمن أراد التعمق في المذهب المالكي في الغرب الاسلامي .

ولم يشتهر أحمد بابا باهتمامه فقط بالتراجم بل اشتهر كذلك بمساهماته لأغناء المذهب . فكتابه حول القانون المالكي في جزئين على شكل



كانت مدينتا دجنّي وتومبوكتو ، تتنافسان في حقل العلم والثقافة
أيام أحمد بابا التمبوكتي .
(تصميم افريقيا ، الحضارات الزنجية) .



يرتبط اسم أحمد بابا باسم تومبوكتو ، ففيها ولد وذاع صيته كعالم .
(كليشه ب. نانطي).

شرح لمختصر خليل ، زيادة على نحو أربعين كتابا تقل عنه شهرة في مختلف فنون العلم جعلت من هذا العالم قدوة عصره .

كانت تحليلات وشروح أحمد بابا بمثابة المرجع الأساسي لفهم الفقه المالكي . فحتى أستاذه بغيغ كان يرجع إليها للاستشهاد بها في درسه . ثم عندما انتقل أحمد بابا إلى مراكش ، في ظروف سنذكرها فيما بعد ، أثار الانتباه

« ... ويقع في وسط مدينة تمبوكتو الجامع المبني بحجارة منحوتة مع طين الكلس على يد مهندس من الاندلس ، كما أن هناك قصرا كبيرا بناه المهندس نفسه وحيث يسكن الملك ، وبها كثير من دكاكين الصناع والباعة ، وتصل أقمشة أوروبا إلى تمبوكتو ويجلبها تجار من بلاد البربر .

« وصف افريقيا » ، **الحسن الوزان**

بمعرفته الدقيقة للفقه وبإتقانه اللغة العربية . وقد طلب منه علماء مراكش إلقاء درس بالجامع الكبير جامع الشرفاء . وكان يشرح **المختصر** ويعلق عليه بطريقة علمية لم يشهد أهل مراكش مثلها ، ويحلل **ألفية** العراقي في الحديث **وتحفة الحكام** لابن عاصم في الأحكام **وصحيح** البخاري ومسلم . وكان أحمد بابا يفتي عندما تطرح عليه قضايا ، وكانت فتواه في مستوى فتاوى **الركراكي** أكبر المفتين آنذاك بمراكش .

وانتشرت شهرة التمبكتي عبر أرجاء العالم الاسلامي وبالخصوص في المغرب الأوسط .

وتذكر المصادر الكثير عن الظروف التي دخل فيها أحمد بابا إلى المغرب ، وتؤكد أنه ينتمي إلى قبيلة أقيت التي كانت دائما معارضة للسلطة القائمة في السودان . وعند مجيء السعديين (1591) كانت أسرة أحمد بابا تتزعم معارضة قوية ضدهم . ففي عهد جودر ثم محمود زرقون تزايدت الاحتجاجات والمعارضات ، فأمر **المنصور** قواده بسجن المعارضين ونفيهم إلى مراكش . وكانت أسرة أحمد بابا من بين هؤلاء المنفيين الذين وصلوا إلى عاصمة السعديين عام 1594م حيث سجنوا سنتين وسرحوا بعد ذلك بشرط أن يقيموا سكناهم بمراكش . وقد ذكر هذه الظروف في كتابه **كفاية المحتاج** .

وبقي الشيخ أحمد بابا بهذه المدينة نحو عشر سنوات ضيفا على علمائها وأعيانها . خصص فيها وقته كله للعلم : ففيها أنجز أو أتم كتابة جل كتبه مثل : نيل الأبتهاج ، وفيها تتلمذ عليه المقري صاحب **نفح الطيب** و **أزهار الرياض** ، وقاضي مكناسة ابن الغساني ، ومفتي مراكش الركراكي وغيرهم كثير .

ومع هذا كله فإن إقامة الشيخ بمراكش لم تنسه تمبوكتو بل كان يحن إليها ويحلم بالعودة . ولم يتمكن من تحقيق حلمه هذا إلا بعد وفاة المنصور ، حين سمح المولى زيدان له ولأسرته بالرجوع إلى بلادهم .

وفي يوم مغادرته مراكش صاحبه إلى أبواب المدينة وفد من العلماء والطلبة . ويحكى أنه عند الوداع أخذ أحد الحاضرين يده وقرأ قوله تعالى « **إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد** » . معبرا عن الأمل في رجوع أحمد بابا إلى المغرب وإلى مراكش . لكن الشيخ سحب يده بسرعة وطلب الله أن لايجعله يرجع أبدا قائلا : « **لاردني الله إلى هذا المعاد ولأرجعني لهذا البلد** » . كما جاء به **اليفراني** .

ووصل فعلا إلى تمبوكتو ، وعاش بها سنين طوالا ، وبها وافته المنية يوم 22 أبريل 1627 .

الكتب المدرسة على عهد أحمد بابا بتمبوكتو ومراكش وفاس

في الترجمة التي كتبها أحمد بابا لنفسه في كفاية « المحتاج » ذكر أهم المصادر والكتب التي درسها على يد شيخه وأستاذه بغيغ . ويبين الجرد الذي قدمه التمبوكتي ، التشابه الكبير بين أمهات الكتب التي كانت تدرس بتمبوكتو واتجني وفاس ومراكش وهذه بعضها :

- المختصر لسيدي خليف (في الفقه) .
- مختصر بن حاجب (في الفقه) .
- الموطأ للامام مالك (في الفقه) .
- المدخل لابن الحاج (في الفقه) .
- شرح المنتقى والمدونة للمحلي (في الفقه) .
- صحيح الامام مسلم (في الحديث) .
- صحيح الامام البخاري (في الحديث) .
- ألفية العراقي وشرحها (في الحديث) .
- تلخيص المفتاح (في البلاغة) .
- مختصر السعد (في البلاغة) .
- الصغرى للسنوسي وشرح الجازرية (في التوحيد) .
- حكم ابن عطا الله . شرح زروق (في التوحيد) .
- نظم أبي مقراء (في التنجيم) .
- مقدمة التاجوري (في التنجيم) .
- الرجز للمغيلي (في المنطق) .
- شرح الخزرجية للشريف والدمانيني (في العروض) .
- تحفة الحكام لابن عاصم وشرح ابنه (في النوازل الفقهية) .
- المعيار المعرب للونشريفي (في النوازل) .
- ألفية ابن مالك (في النحو)، ومقامات الحريري (في الادب) .

التوسع البرتغالي

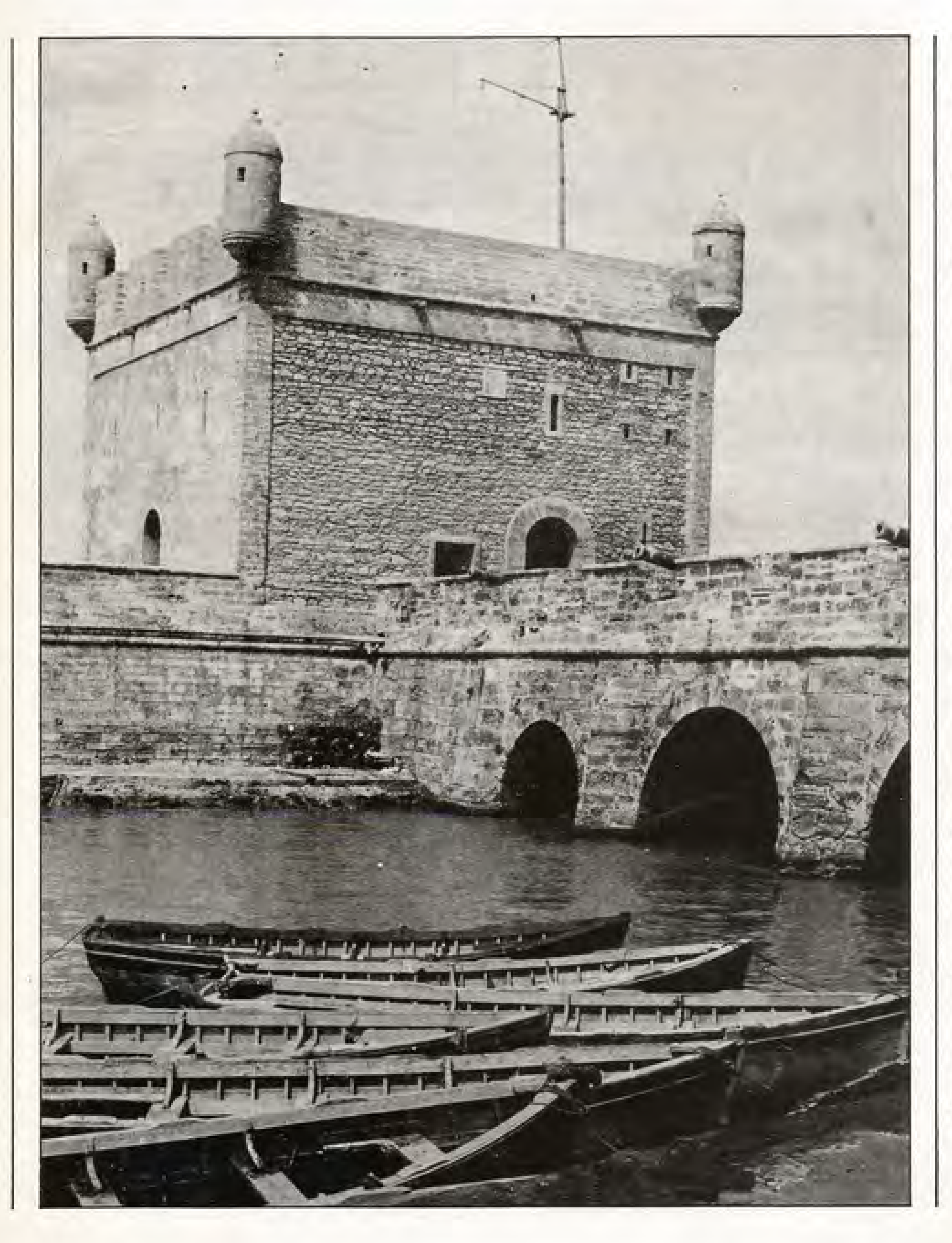
محمد بن عزوز حكيم

من المؤكد أن حركة السعديين لم تتوان، لقلب نظام الدولة الوطاسية، عن استغلال عزم المغاربة على رد الاعتبار بوضع حد للتدخلات الأجنبية خصوصا منها تلك التي كان البرتغاليون يمارسونها على طول الشواطىء المغربية.

وبالفعل، فإن رجوح كفة الوافدين من البرتغال على التراب المغربي خلال عهد الدولة الوطاسية بلغ درجة كانت تنذر بالويل، حتى أن معظم المدن والنقط الاستراتيجية على طول السواحل الأطلسية والمتوسطية المغربية كانت عمليا تحت السيطرة البرتغالية أو الاسبانية.

وهكذا، لم يكن المغرب آنذاك قد انتهى فحسب كقوة بحرية كانت تتمتع بالقوة والسلطان أيام المرينيين أو الموحدين، وإنما وجد نفسه فضلا عن ذلك وقد حوصر داخل حلقة بحرية برتغالية كان فيها الأسطول البحري البرتغالي يراقب المياه الاقليمية المغربية، مما جعل المغرب يصبح منعزلا عن باقي العالم.

والأدهى من ذلك والأمر هو أن السلاطين الوطاسيين كانوا عاجزين عن مواجهة الخطر البرتغالي. ولم يكونوا يستطيعون الاعتماد على الشعب الذي أصبح آنذاك يتسم بالفتور والخمول. فلم يكن لديهم جيش منظم قادر على مواجهة الغزو الأجنبي، ولا أسطول جدير بحماية المنطقة المغربية داخل بيئتها الجغرافية.



نهجت البرتغال، التي كانت تعتبر أكبر دولة بحرية في مطلع القرن الخامس عشر، سياسة احتلال المدن والمواقع الاستراتيجية بساحل المغرب الاطلسي. مدينة الصويرة، احتلها البرتغاليون يوم 3 يوليوز 1506.
(كليشه بوعمري).





كان ذلك نتيجة لموقف يرجع إلى سنوات عديدة سابقة ، وبعبارة أصح إلى تاريخ 21 أغسطس 1415 ، الذي استأثر فيه البرتغاليون بمدينة سبتة المغربية . ومنذ ذلك الحين ، لم يتأخر البرتغاليون الذين كانوا يشكلون أكبر قوة بحرية في تلك الآونة عن احتلال أهم المدن والنقط الاستراتيجية الواقعة على الساحل المغربي من مضيق جبل طارق وعلى امتداد الشاطىء الأطلسي . وقد كان ذلك بالترتيب التالي :

- القصر الصغير في 13 أكتوبر 1458 ؛
- أصيلة في 24 أغسطس 1471 ؛
- أزمور في 3 يوليوز 1486 ؛
- جزيرة اللكوس ، 4 يبراير 1489 ؛
- ماسة ، 11 يناير 1497 ؛
- فونتي (رأس جير) سنة 1505 ؛
- الصويرة ، 3 يوليوز 1506 ؛
- آسفي ، 6 يوليوز 1508 ؛
- الجديدة ، 4 يونيو 1514 ؛
- معمورة ، 24 يونيو 1515 .

وينبغي أن نضيف إلى هذا الغزو دخول الجيوش الاسبانية ما بين سنتي 1476 و1508 إلى كل من :

- قلعة الشبيكة ، سنة 1476 ؛
- مليلية ، سنة 17 شتنبر 1497 ؛
- رأس جير ، 4 شتنبر 1502 ؛
- غساسة ، 13 شتنبر 1506 .

على أن استرجاع المدن المغربية من أيدي البرتغاليين تحقق بظهور الدولة السعدية التي استرجع سلاطينها مدن :

- حصن شبيكة ، 6يبراير 1527 ؛
- رأس جير ، 12 مارس 1541 ؛
- آسفي ، 20 أكتوبر 1541 ؛
- أزمور ، 10 أكتوبر 1541 ؛
- القصر الصغير ، 16 يونيو 1550 ؛
- أصيلة ، 13 شتنبر 1589 .

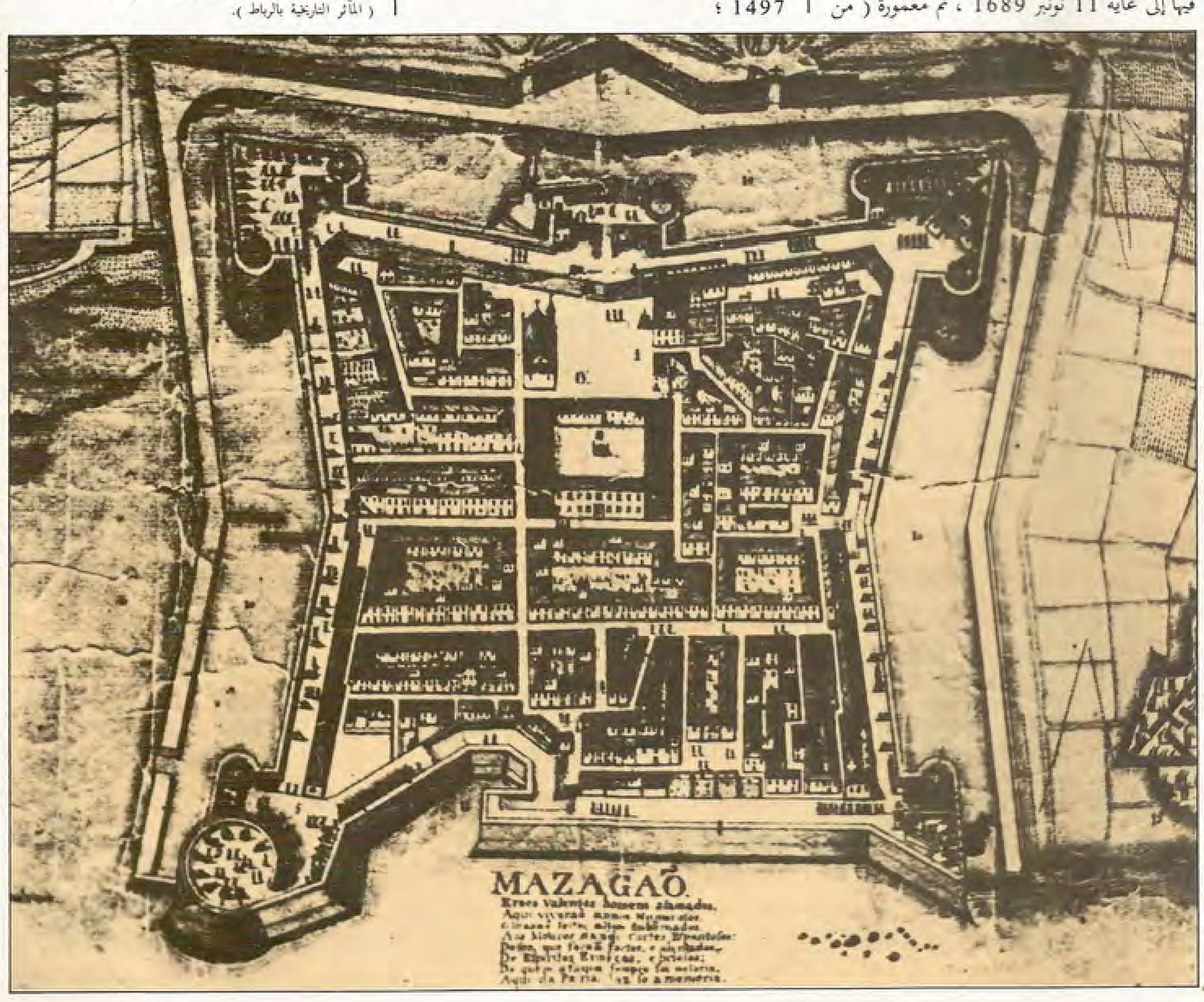
غير أن السعديين لم يستطيعوا استرجاع مدن طنجة (التي لم تسترجع سوى بعد ذلك

بكثير ، في عهد العلويين ، 5 يبراير 1684) وقلعة باديس (التي استعادها مولاي إسماعيل في فاتح يبراير 1702) والجديدة (التي استعادها سيدي محمد بن عبد الله في 11 مارس 1769) وسبتة ومليلية وصخرة بليش التي لاتزال إلى يومنا هذا خاضعة للسيطرة الاسبانية .

وفضلا عن ذلك ، احتل الاسبان في عهد السعديين العرائش (20 نونبر 1610) واستمروا فيها إلى غاية 11 نونبر 1689 ، ثم معمورة (من 6 أغسطس 1614 إلى 30 أغسطس 1681) .

وأخيرا فإن سبتة ، ومليلية ، والجزر الجعفرية ، وجزر باديس ، والحسيمة ، والبوران لم تكن سوى رواسب لتلك الحقب التي كان يسود فيها مبدأ « الحق للقوي ». وتوجد حاليا تحت الهيمنة الاسبانية مدن ومناطق يطالب بها المغرب هي :

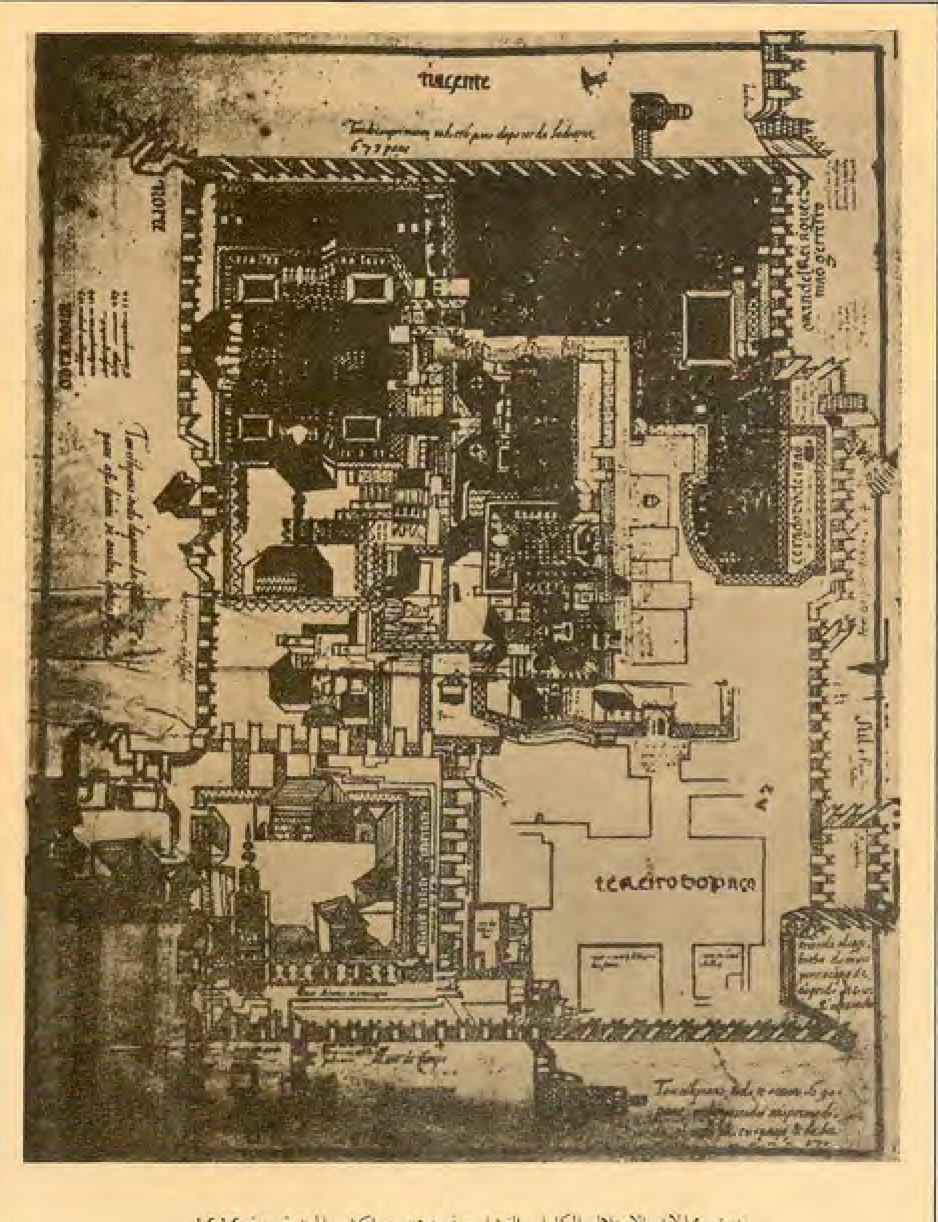
– مليلية وتم احتلالها يوم 17 شتنبر 1497 ؛
– رأس بليش ، (6 شتنبر 1564)؛
– سبتة ، (فاتح دجنبر 1640)؛
– الجزر الجعفرية (6 يناير 1848)؛
– صخرة الحسيمة (28 أغسطس 1673)؛
– ثم جزر البوران ، التي كانت قد احتلت في الثامن من نصف الشهر ومن نفس السنة .



الجديدة ، احتلها البرتغاليون يوم 4 يونيو 1514 واسترجعها السلطان العلوي محمد الثالث يوم 11 مارس 1769 . (المآثر التاريخية بالرباط).

ثقل العنصر الأجنبي

حسن الصقلي



منيت محاولات الاحتلال الكامل بالفشل منذ هزيمتي مراكش والمهدية سنة 1515
(تصميم برتغالي لقصبة السعديين بمراكش)
(هيس 1940).

ليس ثقل العنصر الأجنبي قط بالشيء الجديد في تاريخ المغرب ، ففي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان البرتغاليون والاسبان المستفيدون من ضعف الدولة المرينية قد ساهموا في تضخيم حالات الاضطراب المحلية وتصعيد خطورتها .

البرتغال محتل مهزوم

في القرن السادس عشر آلت الموانىء المغربية التي ظلت لفترة طويلة تحت احتلال جنوة والبندقية ، إلى السلطات البرتغالية التي سرعان ما اندمجت في تجارة القوافل .

ففي خضم التجزئة السياسية التي كانت تميز المغرب خلال تلك الحقبة ، تمكن البرتغاليون من مراقبة نقط توقف القوافل التجارية (أنظر : التوسع البرتغالي في المغرب) ، غير أنهم لم يتمكنوا من الذهاب إلى أبعد من ذلك . فمحاولات الاحتلال الكلي للمغرب آلت جميعها إلى الفشل منذ هزيمتي مراكش والمهدية سنة 1515 ، ثم بدأ الانسحاب البرتغالي يتم بشكل مندفع منذ حوادث سنة 1541 . وفضلا عن ذلك كان جلاء البرتغاليين - في نفس التاريخ - عن أكادير وآسفي وأزمور سببا في نزولهم إلى الصف الثالث إن لم يكن الرابع في ترتيب الدول العظمى التي كانت مهتمة ومنشغلة بالمغرب . وقد كان الاحتفاظ باحتلال السواحل المغربية يتطلب ، بالفعل ، أعدادا ضخمة من الجنود

والسلاح لم يكن لتلك المملكة الصغيرة أن توفره لنفسها . فسكان البرتغال لم يكن تعدادهم يتجاوز المليون ونصف مليون نسمة في تلك الحقبة . ولربما كان هذا هو تفسير انكباب هؤلاء على إقامة عدد من الحصون والقلاع على طول الساحل الأطلسي للبلاد . غير أن هذه الحصون لم تستطع أن تصمد أمام الهجمات السعدية وتصدها بعد أن توالت منذ سنة 1527 (استرجاع قلعة الشبيكة) إلى سنة 1589 حيث تمت استعادة أصيلة .

ولن نتعرض طويلا لأسباب انسحاب البرتغال والتي نعزوها إلى الهزائم الكثيرة التي ألحقتها به الجيوش السعدية ، وإلى تقلص كميات الذهب التي كانت تصل إلى الموانىء المغربية ، وأيضا ، وبشكل خاص ، إلى الأهمية التي كانت تتزايد والتي كان البرتغال يولونها للموانىء الواقعة على حدود بلدان الذهب ، كما يمكن لنا أن نستنتجه من الرسائل الجوابية التي بعث بها الوجهاء البرتغاليون إلى الملك يوحنا الثاني بشأن احتمال إخلاء بعض السواحل التجارية . وقد كان هؤلاء الوجهاء قد شرعوا ينظرون بنوع من التفضيل إلى المستعمرات الأمريكية والعاجية ، ولم يعودو إلى الاهتمام بموانىء الحراسة المغربية ...

ومهما كان الأمر فإن البرتغاليين كانوا يجدون أنفسهم عاجزين عن إدارة شؤون إمبراطورية في مثل كل هذا الاتساع والتنافر ، زيادة عن كون المدن التي كان يحتلها هذا البلد الصغير على امتداد الشواطىء المغربية كانت تهب باستمرار لرد هجمات الدول الأوروبية الأخرى وخصوصا منها انجلترا وفرنسا وهولندا .

اللعبة الدبلوماسية والتجارية الانجليزية

بخلاف البرتغاليين ، لم يكن الانجليز بالمحتلين للأراضي أو المدن ، وإنما كانوا قبل كل شيء تجارا يتخذون مساكنهم في الجنوب المغربي خاصة ، على مقربة من مواقع تجارة السكر . وفي تلك الحقبة ، لم تكن زراعة قصب السكر تتعدى مجرى وادي تانسيفت .

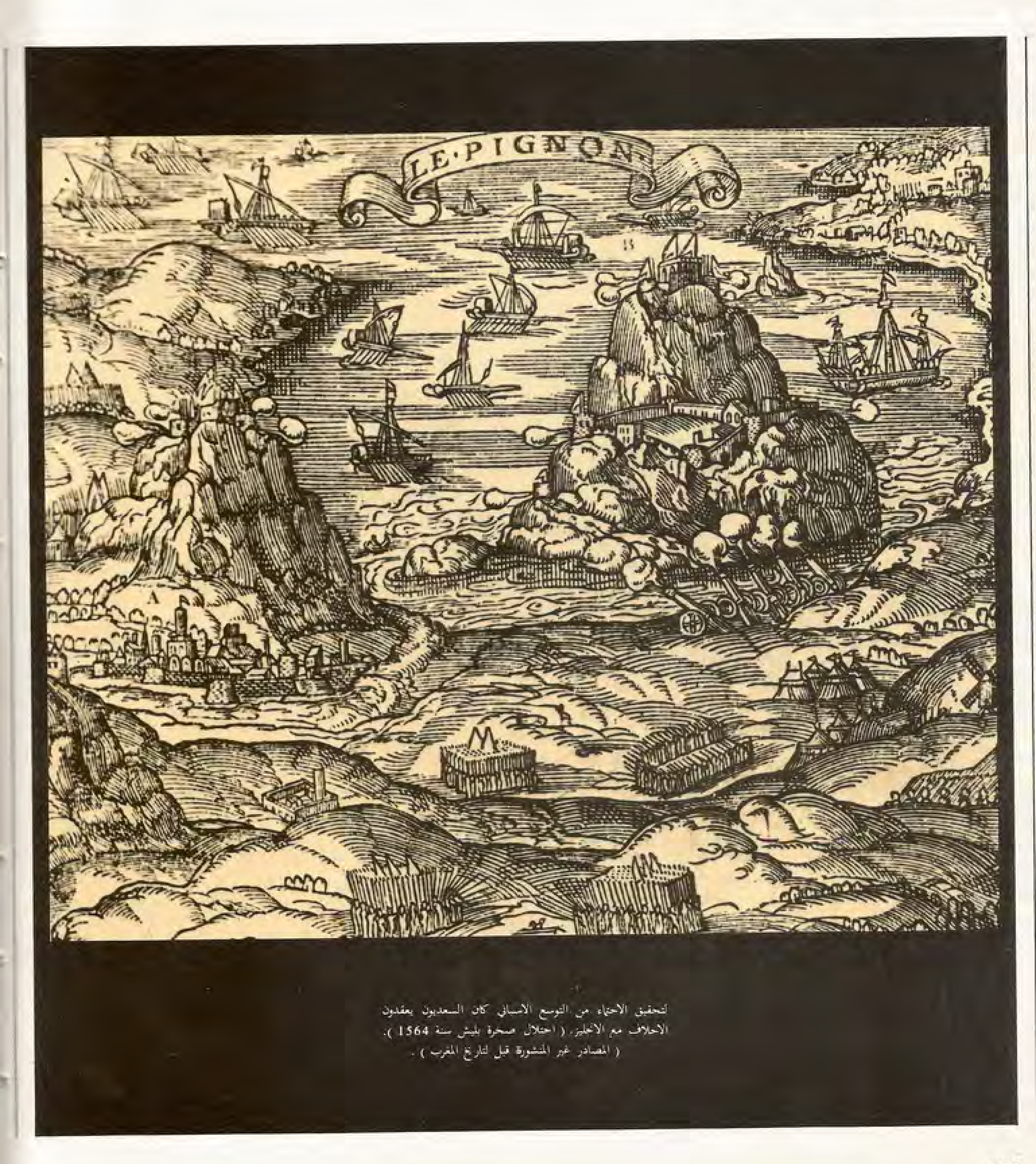
وكان البرتغاليون يسعون إلى إبعاد العملاء والمتاجرين المشوشين بالادلاء بالتوزيع الأسقفي المكتوب في تقسيم الغزوات المحتملة على إفريقيا بينهم وبين الاسبان . غير أن المفاوضات طالت سنوات (1561-1576) مما أدى بانجلترا أثناء ذلك إلى حشر أنفها هي الأخرى في هذا المضمار .



كان الانجليز يقيمون الاحلاف مع السعديين .
هنا يظهر السفير شيلّي ، الملاحظ البارع للاحداث التاريخية المغربية في عصره ، والدبلوماسي المحنّك .
(المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب) .

وبما أن الانجليز كانوا موجودين بالمغرب عند بداية القرن السادس فقد نجحوا في عقد اتفاقات مع الحكام السعديين ، وكان الانجليز يمددون باسم التجارة من أجل تلك الاتفاقات .

لقد كانت للانجليز دون ريب أهداف معينة داخل التراب المغربي . غير أن تربع المنصور الذهبي سنة 1578 على كرسي الملك دفع بهؤلاء



لتحقيق الاحتياء من التوسع الاسباني كان السعديون يعقدون الاحلاف مع الانجليز. (احتلال صخرة بليش سنة 1564).
(المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب).

ثقل العنصر الاجنبي

إلى التخفيف من مطاليهم بل إلى إعادة صياغة سياساتهم وفق منظور جغرافي - سياسي جديد .

فالمغرب ، بانتصاره سنة 1578 على البرتغال ، وبثرواته من الذهب والسكر ، أصبح ، تحت حكم أحمد المنصور ، دولة تقتضي مخاطبيها أن يعاملوها أو يقتربوا منها بمنتهى اللباقة والدبلوماسية . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت العلاقات الخارجية للمغرب أبعد ما تكون عن علاقات الدولة المنهزمة أمام الدولة المستعمرة ، بل أصبحت علاقات المشاركة الفعالة في الأحداث التي كانت تهز المنطقة ، كمشاكل الخلافة في البرتغال (دون كريستوف) ومشاكل الخصومات بين اسبانيا وانجلترا ، أو بين هذه وفرنسا ،الخ .

وقد أقامت الملكة إليزابيت ، التي كانت تحرص على ازدهار ملكها ، أكثر العلاقات ودا ومتانة مع هذا المتحكم في القوى السياسية والاقتصادية الذي لم يكن سوى المنصور نفسه . ونحن نعرف تلك المراسلات المكثفة والعديدة التي كان يتبادلها هذان العاهلان حول مختلف المواضيع ، وحول غزو اسبانيا على الخصوص .

لم يكن فيليب الثاني في الواقع ، مهددا فحسب ، بتحالف السعديين مع انجلترا ، بل أيضا بجيرانه العثمانيين الذين كانوا يفكرون بدورهم في التحالف مع السعديين لفتح بلاده ونشر الاسلام فيها . وقد لعبت انجلترا دورا كبيرا في خضم هذه البلبلة ، حيث صممت بالتعاون مع السعديين على احتلال المستعمرات الاسبانية الموجودة بالهند ، عندما أعلن فيليب الثاني عزمه النزول بجزيرة أركان وبالسواحل الصحراوية . ودفع تدمير الانجليز أسطول اسبانيا الضخم بفيليب الثاني ، ملك اسبانيا ، إلى التفكير جديا في الدفاع عن النفس . إذن ، فمن خلال هذا المنظور الخاص ينبغي التمعن في معطيات الدبلوماسية السعدية .

التقرب الفرنسي

أما فرنسا التي كانت تستحوذ عليها عدة انشغالات أوروبية (الحروب الدينية ، وحروب الخلافة ...) فقد ظلت نسبيا بعيدة عن المغرب . وأدى التوقيع في يونيه - يوليوز 1559 على اتفاق بين الغالب وأنطوان دو بوربون إلى تقارب بين البلدين .

ونتج عن هذا الاتفاق المذكور تحالف البلدين في المجالات العسكرية والتجارية .

- فعلى الصعيد العسكري ، كان كلاهما يستهدف محاصرة اسبانيا ، الشيء الذي خلق هما إضافيا لفيليب الثاني .

اتفاق موقع بين المغرب وفرنسا سنة 1559 من السلطان الغالب وأنطوان دو بوربون .
(المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب) .



كانت المراسلات كثيفة ومتعددة بين البلاطين الملكيين في كل من المغرب وانجلترا . ونرى هنا رسالة من مولاي عبد الله الغالب إلى الملكة إليزابيت .
(الاصل محفوظ بالمتحف البريطاني).

– وعلى الصعيد التجاري أتاح تنفيذ الاتفاق تسهيل مشاركة التجار الفرنسيين في الحركة التجارية بالمغرب . وعلى سبيل المثال، خول الاتفاق المغربي – الفرنسي للمندوب أوستاش تريفاش حق احتكار مزارع ومعامل السكر الملكية التي كان يبيع منتوجاتها للانجليز بأثمنة باهظة ؛ وكان ، بالمقابل ، يمون السوق المغربية بمنتوجات النسيج الممتازة .

التهديد العثماني المستمر

لم يتوان العثمانيون ، منذ استقرارهم في المناطق المجاورة ، ولم يتقاعسوا عن مناوشة الحدود المغربية . وقد حاولوا استغلال جميع الفرص التي أتيحت لهم لتحقيق الحلم الذي كان يراودهم بالاستحواذ على هذا البلد المشهور بثرائه وازدهاره . وقد كان السعديون على بينة من هذا الخطر المحدق بهم وبالبلاد حيث إنهم أخذوه بعين الاعتبار منذ اعتلاء محمد الشيخ كرسي الحكم سنة 1549 ؛ فمنذ ذلك الحين أخذ التهديد العثماني حيزا دائما في السياسة الخارجية لدولة السعديين ، ما دام معظم الأحداث التي شهدها المغرب خلال تلك الحقبة مجرد رد فعل لازدهار أو تدهور العلاقات العثمانية المغربية .

ومن جملة هذه الانعكاسات تراجع محمد الشيخ سنة 1552 عن اتخاذ مراكش عاصمة لملكه ، وقيام المفاوضات مع اسبانيي وهران ، وإبرام اتفاق بين السلطان الغالب والاسبان سنة 1546 . ويمكن أن نذكر في نفس السياق الحملات التي كانت توجه إلى السودان ، والاحلاف التي كانت تعقد مع انجلترا وفرنسا . وهذه الاحلاف كانت تكلف المنصور الذهبي غاليا ، ولم تكن في الحقيقة سوى تدخل سببه البحث عن استراتيجية لتوازن جهوي كان المغرب يمثل فيه الثقل المعاكس للقوة العثمانية . وكيفما كان المبرر ، فإن المغرب السعدي استطاع دوما حماية كيانه واستقلاله عن الأتراك العثمانيين .

وفي ختام هذا العرض حول ثقل العنصر الأجنبي في عهد الدولة السعدية يمكنا أن نستنتج أن الدولة المغربية ، ببنياتها التقليدية العتيقة ، استطاعت أن تتكيف مع معطيات ذلك القرن ، التي فرضها العنصر الأجنبي ، وأنه طرأت على المجتمع المغربي بعض التغييرات خلال القرن السادس عشر إلا أنها لم تكتمل إلّا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اللذين تصاعد فيهما التآمر الأجنبي على المغرب .

التّبغ والفيل

محمد حجي


غليونات افريقية مختلفة ، يُدخّن بها التبغ .

يرتبط ظهور التبغ وتدخينه في العالم بأعظم حادث في العصور الحديثة ، وهو اكتشاف أميركا ، كما يرتبط ظهوره في المغرب بأعظم حادث في التاريخ القومي الحديث ، وهو انتصار المغرب الساحق على البرتغاليين في معركة الملوك الثلاثة (وادي المخازن)، وانتشار النفوذ المغربي فيما وراء الصحراء من بلاد السودان .

ذلك أن كريستوف كولومب هو أول من تحدث في مذكراته الاستكشافية عن تدخين الهنود الحمر للتبغ ، ثم أكد ذلك جورج بيرسي حين وصل مع السفن الانجليزية الأولى إلى شواطىء فرجينا ، ووصف في كتابه مشاهدات أولئك البدائيين يحضرون لهم تبغا يدخن في قصبات من الطين ذات قماع من النحاس . وكان التبغ أول ما زرعه المستوطنون الأوروبيون على أرض أمريكا لاقبال الناس عليه في العالم القديم ، بل كان التبغ من أقوى أسباب تركيز الاستيطان الأوروبي في أمريكا حين أخذت السفن الانجليزية تحمل عشرات الحسناوات ليصبحن زوجات للمستوطنين مقابل 120 رطلا من التبغ عن كل واحدة .

استغل البرتغاليون – وهم أول من استوطنوا أمريكا من الأوروبيين منذ مطلع القرن السادس عشر – التبغ في مقايضاتهم مع الأفارقة السود ، وأضافوه إلى أصناف الخمور والملابس والزيوت التي كانوا يحملونها إلى مراكزهم التجارية على شواطىء إفريقيا الغربية ، تلك المراكز التي كانت تمتد من رأس نون بالجنوب المغربي إلى رأس الرجاء الصالح ، يتوسطها حصنهم الكبير



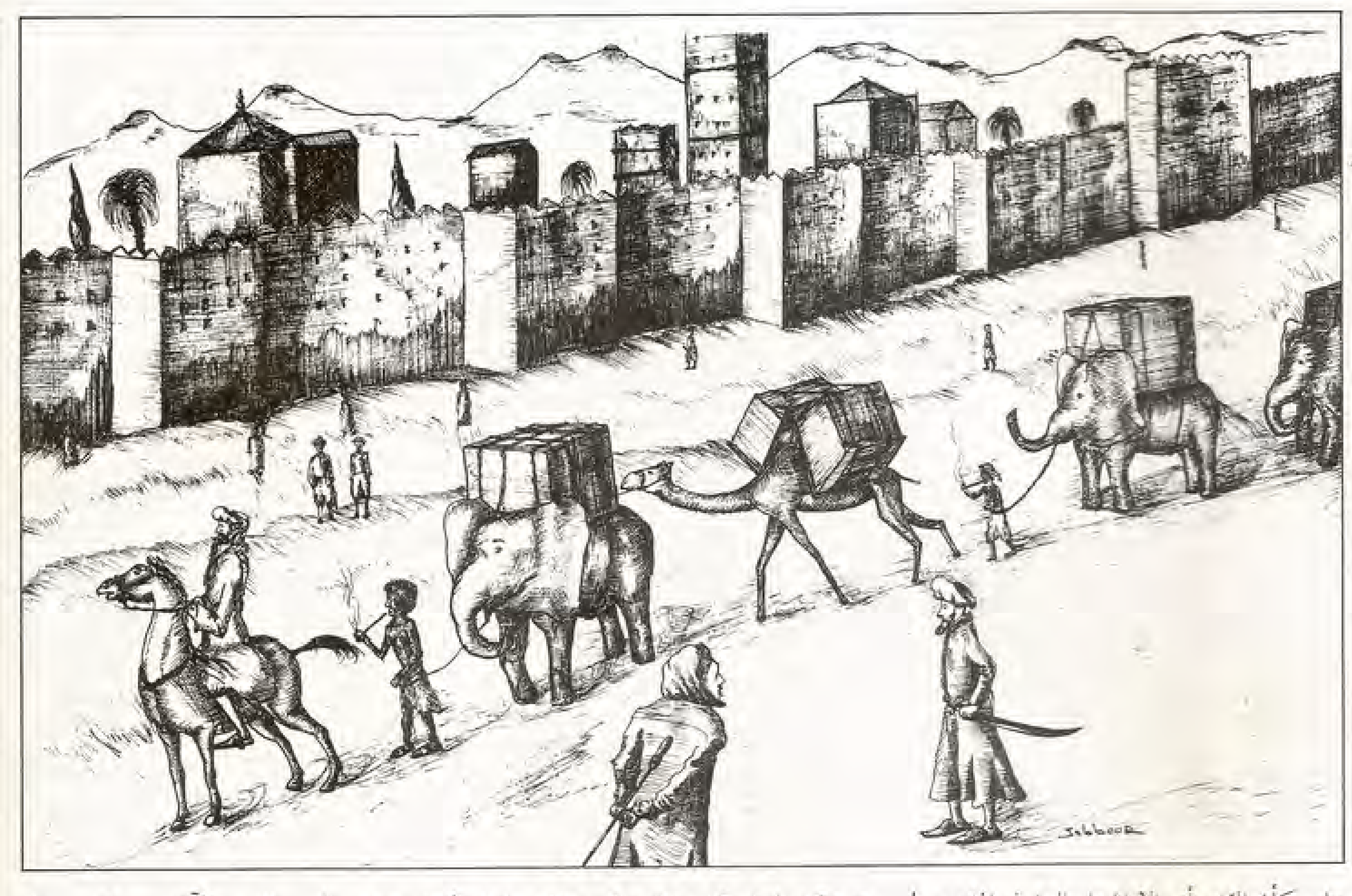
الذي شيدوه عند سيراليونا أو جبل اللبؤة بالقرب من مصب نهر النيجر . وكانت السفن البرتغالية تتوغل داخل إفريقيا عبر الأنهار، فتصل أحيانا إلى عمق 150 فرسخا أو أكثر ، لتقدم للزنوج المنتجات الأوروبية والتبغ وتأخذ بدلها الذهب والرقيق .

وإذا كنا لن نتعرض هنا إلى دور هذه التجارة البحرية في دفع المغرب إلى خوض المعركة الفاصلة ضد البرتغال ، ثم إلى فتح السودان ، فإننا نشير فقط إلى أن عادة التدخين كانت قد انتشرت في حوض النيجر قبل أن تصل إليها القوات المغربية ، وأن الفقهاء هناك ، خاصة في تمبوكتو لم يعارضوا في استعمال التبغ ، بل لم يتحرج بعضهم من تدخينه .

وقد اعتاد ولاة السودان أن يتحفوا الملك أحمد المنصور كل سنة بطُرَف مما تختص به تلك البلاد ، فأرسلوا إليه عام 1006-1598 عددا من الفيلة ، وكانت كثيرة في الأدغال المحيطة بالبحيرات العظيمة شمالي النيجر ، ساقتها إلى مراكش عبر الصحراء جماعة من السود ممن اعتادوا شرب دخان التبغ . فكان الناس أثناء الطريق يخرجون لمشاهدة الفيلة ، خاصة في بلاد سوس ودرعة ، فيرون السود يدخنون ، وربما شاركوهم في تذوق العشبة الجديدة . ثم دخلت الفيلة إلى مراكش في يوم مشهود من أيام شهر رمضان ومكثت فيها سنة كاملة كانت كافية لتعرف القوم على نشوة التدخين .

وأراد أحمد المنصور بدوره أن يتحف -كعادته- ولي عهده وخليفته بفاس محمد الشيخ المامون ، فبعث إليه بهدية عظيمة مع الفيلة وسائقيها السود ، وصحب القافلة من مراكش إلى فاس جماعة من الأعيان ، وفي مقدمتهم المفتي الأكبر الشيخ محمد القصار ، فكانت قافلة الفيلة فرجة عظيمة لا يتخلف عن مشاهدتها أحد في المدن والقرى والقبائل التي تمر

مدخنو التبغ الأوائل .



من مراكش إلى فاس كانت تنطلق مواكب حافلة من الفيلة وسائسيها المدخنين .

بها . وكأن القدر أبى إلا إشهار التبغ في المغرب كله ، من أقصى جنوبه إلى أقصى شماله ، في موكب عظيم لم يتقدم له نظير . ودخلت الفيلة إلى فاس يوم الاثنين 16 رمضان 1007 / 12 أبريل 1599 فلم يبق في المدينة كذلك أحد إلا وبرز لرؤيتها من رجال ونساء وصبية وشيوخ .

قد يتساءل البعض عن كمية التبغ التي حملها هؤلاء النيجيريون معهم إلى المغرب ، وهل كانت من الضخامة بحيث تكفيهم لنحو سنتين ؟ وتمكنهم من تلبية طلبات الجمهور الراغب في تذوق عشبتهم الغريبة ؟ الحقيقة أن جلب التبغ أو غيره مما وراء الصحراء لم يكن عسيرا في ذلك الوقت ، لانتظام القوافل بين المغرب والسودان ، وقطعها تلك المسافات الشاسعة القاحلة في أسابيع معدودات .

هكذا عرف المغاربة التبغ وانتشرت عادة تدخينه عندهم بسرعة ، وكان أكثر من تعاطوه من الرعاع السفلة في مجالس اللهو والقيان فزاد ذلك من تنفير أهل الورع من العلماء وشيوخ التصوف ، وغدوا يرون فيه بدعة سيئة تتعين محاربتها ، ومنكرا يجب تغييره . ولم تمض خمس سنوات على ظهور التبغ بالمغرب حتى أصبحت له أسواق رائجة ، وكثر بائعوه في المدن والقرى ، بالرغم على استنكار المصلحين ونصائحهم التي لم تجد آذانا صاغية .

وقد اتخذ المغرب موقفين رسميين ضد استعمال التبغ ورواجه في الأسواق :

– الأول : موقف الملك أحمد المنصور ، حين توجه إلى فاس لآخر مرة ، عام 1011–1602م ، فاستفتى في التبغ العلماء ومنهم المفتي الرسمي للدولة محمد بن قاسم القصار الذي صحب موكب الفيلة والتدخين من مراكش إلى فاس ، وولي سلا سيدي عبد الله ابن حسون ، فأفتياه بتحريم تدخين التبغ وبوجوب إتلافه . أمر حينئذ أحمد المنصور بانتزاع التبغ من باعته ، فكدس أكواما في ديوان فاس الجديد وأحرقها على رؤوس الأشهاد وتشير نصوص المؤرخين المعاصرين بكلمات « الاكوان المحروقة » و « ضياع أموال كثيرة بسبب ذلك » إلى ضخامة كمية التبغ التي دخلت إلى المغرب آنذاك وارتفاع ثمنه .

غير أن مدة اختفاء التبغ من الأسواق لم تطل ، وتجدد رواجه في غمرة الفتن التي أعقبت

مذكرات من التراث المغربي



كانت الفيلة تساق إلى مراكش عبر الصحراء على يد زنوج من مدخني التبغ.
(فيل من العاج - متحف قرطاجة) .

وفاة أحمد المنصور ، فضج المصلحون بالاستنكار من جديد ، وكان من أحسن ما كتب في حملة التنديد بالتبغ والتشهير بمتعاطيه سؤال فقهي أدبي رائع ، من إنشاء أديب فاس وفقيهها علي بن أحمد الشامي ، وجهه إلى قاضي فاس أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني ، ومفتيها المؤلف الشهير أحمد المقري ، وإلى سائر الفقهاء ، يعرض عليهم الحالة المزرية الفاشية التي آل إليها أمر التدخين ، ويستفتيهم فيما يجب عمله متسائلا :

« ...ما قولكم - رضي الله عنكم - في هذه العشبة الخبيثة الشهيرة على الألسنة بطابة ؟ - لا طابت معيشة مشتهيها ، ولا ربحت تجارة بائعها ومشتريها اختلقها الشيطان ، واتخذها من جملة الاشراك والأشطان ، وخدع بها من استثناه قوله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ». ولم تزل تلفظها البلدان ، وترفضها الأعاجم والسودان ، إلى أن ألقت بهذا المغرب عصاها ، واستقلت فيه بيد كل من نبذ الشريعة المحمدية وعصاها ...»

وهنا نجد الموقف الرسمي الثاني ضد التبغ من قاضي الجماعة بفاس . فقد أجاب عن السؤال السابق هو والمفتي أحمد المقري ، وسبعة عشرة فقيها آخر فأجمعوا كلهم على اعتبار التبغ من الخبائث التي حرمها الاسلام ، وجمعت الفتاوي التسع عشرة في كتاب بعنوان **فتاوي علماء فاس في الدخان** .

وأضفى القاضي عليها صبغة إلزامية ، فأمر الشهود بكتابة رسمين عدليين ، نص أولهما على صحة نسبة كل فتوى إلى صاحبها والتعريف به وإثبات كتابتها بخطه ، وسجل الرسم الثاني حكم قاضي فاس بتحريم التبغ هكذا :

لما أنهى إلي الفقيه الأجل ... قاضي الجماعة بالحضرة الفاسية ما تضافرت عليه أجوبة الفقهاء عرضه ، وما صدعوا به - سددهم الله - فيها من تحريم العشبة الرديئة المسؤول عنها . وسئل منه - أدام الله عزه - ما عنده في ذلك ، فاقتضى نظره السديد ورأيه الموفق الرشيد - أن حكم بتحريمها ومنعها ، وفساد







أوراق نبات التبغ الذي خلق حوله المتاعب والمشاكل .

المعاملات في شرائها وبيعها ، وإلحاقها في سائر الأحكام بغيرها من المنكرات ، وسائر المفسدات والمسكرات ، بعد أن أحضر - أعزه الله - جميع فقهاء الحضرة المشار إليهم الموصوفة أسماؤهم في الأجوبة المذكورة ، والمرفوع على خطوطهم المباركة في الرسوم يسرته ، واتفقت آراؤهم الكريمة على القول فيها بالتحريم المطلق الذي لا رخصة فيه ، حكما أنفذه وأمضاه ، وأوجب العمل بمقتضاه ...»

لكن هذا الحكم الصريح القاطع لم يجتث الداء من أصله ، لأن العامة ألفت التمرد والعناد ، في فترة الاضطرابات القاسية التي عاشتها البلاد ، فلم يمض وقت قصير حتى تفرقت جماعة الفقهاء شذر مذر ، وخرج المفتي أحمد المقري فارا بنفسه إلى الشرق ، ولقي القاضي ابن أبي النعيم مصرعه على يد الغوغاء المفسدين .

وانتقل التبغ من المغرب إلى المشرق العربي ، حمله إليه لأول مرة أحمد بن أبي محلي في رحلته الحجازية عام 1013 - 1604م . وأول ما عرض ابن أبي محلي بضاعته الشجرية - كما كان يسميها - على علماء الأزهر وطلبته ثم على سوقة القاهرة ، ومن مصر انتشر التبغ في الشام والجزيرة العربية وسائر بلاد المشرق .

إن أحمد بن أبي محلي شخصية غريبة الأطوار ، كثيرة المتناقضات ، ولد بسجلماسة وتعلم بها وبالقرويين ، ثم أخذ التصوف عن الشيخ محمد بن مبارك الزعري وأقام معه في زاويته بتساوت ثمانية عشر عاما ، كانت تعتريه خلالها أحوال روحانية يغيب فيها عن حسه ، وكان موسوسا بفكرة المهدوية ميالا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، متشددا في ذلك إلى درجة المخاصمة والمشاجرة ، وألف تسعة كتب تدور كلها حول البدع والرد على المبتدعين ، وتظهر فيها - وفي عناوينها خاصة - حدة مزاجه وشدة تحامله على المنحرفين فيتعتهم بأقبح النعوت ، ويدعوهم بالجهلة والسفلة ، ولا يرى إلا شدخ رؤوسهم بالمهراس والمدراس ، ورميهم بالمنجنيق ، وتقطيع أمعائهم بالسم الزعاف .

التبغ والفيل

كان ابن أبي محلي من أول من تقبل التبغ بقبول حسن من الفقهاء والشيوخ ، وهو يومئذ مقيم بقرى بني عباس على وادي الساورة ، فشرب الدخان وأدمن عليه ، ونشر - بزعمه - محاسنه ومنافعه في الناس ، وحمله إلى مصر كما رأينا ، وهو يريد أن يكسب تأييد فقهاء المشرق ليستظهر بهم على فقهاء المغرب الذين أصفقوا على تحريم التبغ والتنفير منه .

كتب ابن أبي محلي رسالة مطولة دعاها **الحكاية الأدبية والرسالة الطلبية مع الاشارة الشجرية** ، وبعث بها أصالة إلى شيخه سالم السنهوري إمام المالكية بمصر ، وبالتبعية إلى سائر شيوخ المذاهب الأربعة بالأزهر ، وإلى غيرهم من فقهاء بلاد شمال إفريقيا ، شارحا فيها - وهو يسأل - وجهة نظره في حلية الدخان تناولا وتجارة وزراعة ، مناقشا أدلة التحريم مستبعدا لها .

أثارت رسالة ابن أبي محلي جدالا عنيفا حول التبغ بين فقهاء مختلف المذاهب ، وكانت معظم الفتاوي لاتساير وجهة نظره فلم يحفل بها ، وإنما اهتم بفتويين طويلتين وردتا عليه بحلية التبغ أثبتهما بنصهما في كتابة **الأصليت** ، وعلق عليهما كثيرا ، ونوه بصاحبيهما ، وهما قاضي درعة أحمد بن محمد البوسعيدي ومفتي مراكش أحمد بابا السوداني ، وكانا معا من المدمنين على التدخين .

وتجلى صراع فقهاء مصر - زيادة على الفتاوي الكثيرة المتناقضة - في كتابي الشيخين المالكيين إبراهيم اللقاني مؤلف **نصيحة الاخوان** باجتناب الدخان ، فقد خصص الفصل السابع لتاريخ دخول التبغ إلى مصر على يد ابن أبي محلي ، وتحامل عليه واعتبره من المفسدين في الأرض ، ووصفه بالتدليس والتلبيس على العامة والخروج عن الجماعة والغرور والخداع ، والثاني علي الأجهوري مؤلف كتاب **غاية التبيان لحل شرب ما لا يغيب العقل من الدخان** ، رد فيه على إبراهيم اللقاني ، وأيد وجهة نظر ابن أبي محلي في حلية التبغ مؤكدا ما سبق أن حاور به في



وهكذا تسرب التبغ إلى السلوك اليومي لعدد من المواطنين.

مصر أثناء مقامه بها ، وما كتب إليه بعد ذلك . وكان الشيخ الأجهوري من المدمنين على التدخين إلى آخر حياته .

وممن شارك في معركة التبغ بالافتاء والتأليف على عهد السعديين ، فقيهان كبيران كانا على طرفي نقيض في نظرتهما إلى هذه البدعة الفاتنة ، أحدهما من السودان يستحله ويستعمله ، والآخر من قسنطينة المغرب الأوسط يستهجنه ويحرمه . العالم السوداني هو أحمد بابا التمبوكتي الذي قضى شطرا مهمًا من حياته في مراكش مدرسا ومفتيا ومؤلفا . كان كجمهرة بلدييه السودانيين مدمنا على التدخين ، سمى رسالته **اللمع في الاشارة إلى حكم طبع** ، كتبها أواسط عام 1016 هـ / 1607 م ، في قرية تمكروت من بلاد درعة ، وقال إنه اختصر القول فيها لكونه في حالة سفر – راجعا من مراكش إلى تمبوكتو – ووعد بأنه سيزيد الموضوع بسطا في كتابه **عين الاصابة في مسألة طابة** ، إلّا أننا لم نقف على هذا الكتاب الثاني إن كان أنجزه فعلا .

استهل أحمد بابا **اللمع** بمقدمة قصيرة أجمل فيها رأيه بجواز استعمال التبغ مادام غير مُرقد ولا مُفسد ، وأخبر أنه أفتى بذلك طوال مقامه بمراكش وأجاب كلا من قاضي فاس علي بن عمران ، وقاضي درعة أحمد البوسعيدي ، وغيرهما حين استفتوه في ذلك . ثم تتبع في القسم الأول عناصر الموضوع فقرة فقرة مجيبا عن كل واحدة بما يناسب قصرا أو طولا . وعلق على اختلاف آراء الفقهاء في التبغ من مُحلّ مادح ، ومُحرم ذامّ ، ومُتوقف كافّ ، بقوله : « **إنما أدى إلى ذلك عدم المعرفة مع التجاسر على الخوض فيما لا يعرف... وقدما قالوا : لو سكت من لا يعلم قلّ الخلاف** » .

أما العالم القسنطيني فهو الكريم بن محمد الفكّون . كان يرى التبغ من الخبائث المفسدات ، وينفر منه غاية التنفير . اطلع على ماكتبه فقهاء المغرب ومصر ، وما أجاب به مفتي القيروان أمير إقليمه التركي ، نُقل عنه شربه واللهج به في مواطنه وجمع الناس عليه في مسكنه . كما أطلع على جوانب آخر لمفتي مكة المكرمة الشيخ خالد الزواوي بتحريم شرب الدخان... فألف عام 1025 هـ / 1616 م كتاب **محمد السنان ، في نحور إخوان الدخان** ، سالكا في مجال التنفير منه ، ثلاثة وجوه :

– اجتناب الدخان من حيث ذاته
– تحريمه من حيث صفاته
– تحريمه من حيث عواضه من إضاعة المال ، والمنادمة ، والغيبة والنميمة ، والانصراف عن مهام الأمور إلى سفاسفها . وقد اعتمد الفكون في كتابه على تاويل عدد من الآيات والأحاديث ، ونصوص الفقه المالكي . وانتقد في الخاتمة سلوك قومه وما هم عليه من المناكر المخالفة للشريعة ، ومن بينها شرب الدخان .

وأخيرا أعلن ابن أبي محلي الثورة عند احتلال الاسبانيين للعرائش سنة 1019 هـ – 1610 م ، فاكتسح الجنوب المغربي كله ليعيش ملكا بقصر البديع في مراكش ثلاث سنين ، فكانت فرصة لظهور التبغ من جديد ورواجه وتمكنه . وخلفت تلك الزوبعة الكلامية أدبا « تبغيا » تمثل في نحو ثلاثين كتابا ورسالة ، فضلا عن عدد كثير من الفتاوي والمناظرات والأشعار .

قاضي القضاة يمنع استعمال التبغ

عندما أحاط فقهاء فاس هداهم الله قاضي قضاة هذه المدينة بفحوى الفتاوي المبينة أسفله ، والتي تقر بحظر تعاطي النبتة السيئة التي طلب منه أن يصدر حكمه بشأنها ، أقر عن اقتناع وعن إدراك تام تحريم هذه النبتة (التبغ) ومنع استعمالها وأمر بإلغائها من المعاملات في مجال التفاوض وووضعها ضمن لائحة المواد الممنوعة بمقتضى القانون ، والمضرة والمخدرة . وقد أصدر حكمه هذا بعد أن استدعى – أعانه الله – جميع فقهاء المدينة المبنية أسماؤهم الكاملة في الفتاوى المذكورة والمذيلين بتوقيعاتهم الطرة اليسرى للعقود التي تشهد بالاجماع على الحظر المطلق الثابت لهذه العشبة .

ويعتبر هذا الحكم الحامل لخاتم قاضي القضاة ساري المفعول وواجب التنفيد ابتداء من وقته .

الزاوية الدّلائية

محمد حجي

انتهت الدولة السعدية - عمليا - بموت أحمد المنصور المفاجىء عام 1012-1603 ، ولو أنها استمرت بعده في سجلات المؤرخين أكثر من نصف قرن ، ظل خلاله أبناء المنصور وأحفاده يتقاتلون على الملك في حروب أهلية متلاحقة أهلكت الحرث والنسل ، وغدا نفوذهم اسميا محدودا لايكاد يتجاوز أبواب مدينةمراكش ، بينما انتقلت السلطة الفعلية إلى أيدي شيوخ التصوف ، حتى سمى بعضهم هذه الفترة التاريخية بفترة « أمراء الزوايا » ، وفي مقدمتهم الدلائيون .

الدلاء والدلائيون

الدلاء كلمة عربية ، جمع للدلو الذي يستقى به . ولا يعرف سبب تسمية جبل الدلاء بالأطلس المتوسط في قلب بلاد زيان البربرية بهذا الاسم العربي القح ، إلا إذا ربطنا بينه وبين سهول تادلا المطل عليها ، وهي موطن قبيلة بني جابر العربية ، وافترضنا أن يكون الأصل سهول الدلاء وجبل الدلاء ، ثم زيد التاء في أول الدلاء حسب صيغة التأنيث في البربرية وقصرت همزتها فصارت « تادلا » ، إلى أن تأسست زاوية الجبل ففصح أهلها الاسم « دلاء » وسموا أنفسهم « دلائيين » . وربما قوى هذا الافتراض نطق سكان جبل الدلاء حاليا به « يدلا » على نحو ما يكتبه المؤرخ أبو القاسم الزياني ، وما هناك من تقارب لفظي بين « تادلا » و « يدلا » .

والدلائيون من قبيلة مجاط أحد فروع لمتونة الصنهاجية خدم الملوك المرابطين ، استوطن أجدادهم جبل الدلاء في أواخر القرن الهجري الثامن والرابع عشر الميلادي . وكانوا معروفين بالصلاح معظمين من قبل ملوك بني مرين الذين منحوهم ظهائر التوقير والاحترام ، والتنزيه عن الكلف المخزنية التي يطالب بها العوام .

الزاوية الدلائية القديمة

أول من تصدر للمشيخة من الدلائيين أبو بكر بن محمد بن سعيد ، بعد أن تخرج على يد أكابر شيوخ الشاذلية في عصره ، وفي مقدمتهم أبو عمر القسطلي صاحب الزاوية الشهيرة برياض العروس بمراكش . وقد أسس أبو بكر زاوية الدلاء حوالي عام 974هـ - 1566م ، ليرشد فيها المريدين ، ويطعم الفقراء والزائرين ، على غرار ما كان يفعله الشيخ القسطلي بمراكش .

واجتهد أبو بكر في تكثير العمارة من حول زاويته ، ببناء الدور والدكاكين والمساجد والمدارس وسائر المرافق الضرورية ، حتى صارت الزاوية الدلائية عبارة عن مدينة كثيرة السكان عامرة

ساحة مسجد أبي بكر بالزاوية الدلائية القديمة .





بقايا سور قصر السلطان محمد الحاج - الزاوية الدلائية الجديدة .
(صورة بعدسة الكاتب محمد حجي)

الأسواق ، يقصدها الناس من مختلف الجهات .
وكان للشيخ أبي بكر أولاد كثيرون يعتني بتعليمهم أشد الاعتناء ، ويستقدم إليهم العلماء من البادية والحاضرة حتى من فاس ، ويشرك معهم في التعليم أبناء سكان الزاوية وما حولها ، بل جاء الطلبة إلى الزاوية حتى من أقصى بلاد تادلا ، ومن مراكش وسوس والأطلس الكبير .

كان الشيخ أبو بكر الدلائي واسع الثراء ، مفرط السخاء ، ورث عن أبيه وأجداده قطعانا من النعم لاتكاد تحصى ، وأراضي شاسعة منتشرة في الجبال والحدور إلى سهول بلاد غريس بتافيلالت ؛ يقوم على الرعي والزرع مريدو الزاوية ومحبوها ، ويتطوع رجال القبائل بالمآت في في عملية الحصاد ونقل الحبوب إلى مخازن الزاوية . وذلك ما يفسر ظاهرة إطعام الطعام في الدلاء بكيفية لاتكاد تصدق : ينفق الشيخ على جميع العلماء والطلبة في زاويته - طعاما وكسوة وسكنى - ، فضلا عن المريدين والمساكين وأبناء السبيل . و « يطحن كل يوم خمسا وعشرين صحفة من القمح وعشرين تليسا » أي عشرات القناطير من الحبوب .

وكان لسوء الأحوال في المغرب على إثر وفاة أحمد المنصور تأثير كبير على تطور الأوضاع في زاوية الدلاء .

ففي الميدان الثقافي ، أخذ الناس يفرون من المدن ، المتقدة بالفتن ، إلى البادية ؛ وكانت الزاوية الدلائية من أحسن البقاع التي يلتجىء إليها الأساتذة والطلبة ، حيث يجدون الطمانينة وكرم الضيافة ، ويتفرغون للدرس والتحصيل . وقد أصبح المدرسون الأساسيون في الزاوية لهذا العهد هم أبناء الشيخ أبي بكر وأحفاده الذين يربو عددهم على عشرة ، بالاضافة إلى العلماء الطارئين من فاس وغيرها ، ومن بينهم أعلام كبار ، كأحمد المقري ، ومحمد العربي الفاسي . وتكاثر عدد الطلبة في مدارس الزاوية وهي على غرار مدارس فاس بدون زخرف ، حتى غدا يسكن في البيت الواحد طالبان فأكثر . وتكونت في المسجد الأعظم بالدلاء مكتبة غنية شبهها بعضهم بمكتبة الحكم المستنصر في الأندلس ، واحتوت على عشرة آلاف كتاب .

هكذا أصبحت الزاوية الدلائية - بحكم الظروف - المركز الثقافي الأول بالمغرب ، بعد أن تعطلت الدراسة أو كادت في فاس ومراكش وغيرها من الحواضر العلمية التقليدية ، واحتضنت الدلاء الثقافة العربية الاسلامية مدة



بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

قال العبد الفقير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحابته

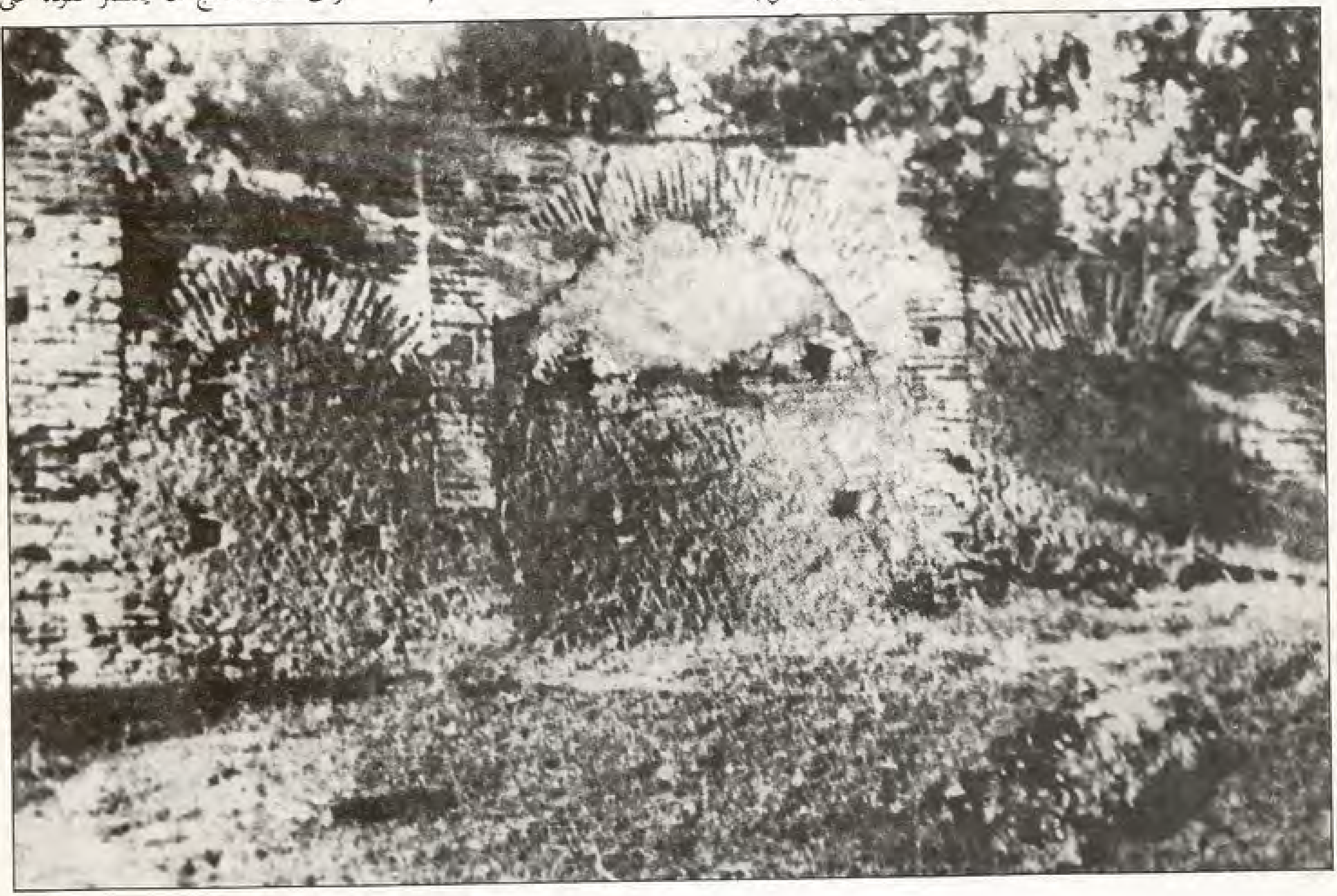
الصفحة الأولى لأحد مؤلفات مكتبة الزاوية وهي من تأليف محمد المرابط الدلائي.

تزيد عن نصف قرن، تخرج أثناءها عدد كثير من النحاة والكتاب والشعراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء، من طبقة الحسن اليوسي الذين يكونون أسس النهضة العلمية المغربيةفي العصر العلوي الأول.

— وفي الميدان السياسي، التفت قبائل زيان حول شيخ الدلاء وبنيه، وتكونت بذلك قوة محلية انحصرت مهمتها الأولى في حفظ النظام بالمنطقة وتأمين السبل. وتضخمت هذه القوة بمرور الزمن واتسعت رقعة عملها، فذهبت بعيدا عن الدلاء لتساعد المجاهد العياشي في سلا وفاس، ولتنجد أهل قرية تابوعصامت بتافيلالت، ضدا على مهاجمهم أبي حسون السملالي الذي تأمر بسوس وأراد أن يستبد بالجنوب كله ويستغل سكانه أشنع استغلال. ومع ذلك لم يعرف أي تطلع إلى الحكم من قبل شيوخ الدلاء، بل كانوا يعملون على لم الشعث بمبايعة من يتولى الملك من السعديين المتأخرين على ضعفهم وعجزهم، إلى أن آل أمر الزاوية الدلائية إلى محمد الحاج بعد وفاة أبيه العالم الصالح محمد بن أبي بكر الدلائي عام 1046هـ – 1636 وهو يومئذ في العقد الخامس من عمره، عالم أديب مشارك، وفارس مغوار متمرس على القتال والقيادة في المهمات العسكرية التي كان جيش الدلاء يقوم بها شمالي الأطلس وجنوبه.

وكأن القبائل الأطلسية أدركت طموح محمد الحاج إلى السلطة، فاشرأبت أعناقها إليه، وحملت زكواتها وأعشارها إليه، حتى امتلأت رحاب الدلاء بالوفود، وتضاعف فيها عدد الأتباع والجنود. ورأى ملك مراكش الجديد محمد الشيخ الأصغر في امتناع محمد الحاج عن مبايعته، مع تكاثر حزبه وتزايد عصبيته، نذير تهديد جديد للدولة السعدية المتداعية، فحاول — دون جدوى — رده إلى الطاعة عن طريق الكتب والسفارات، ثم بواسطة التهديد وشن الغارات، وانهزم الجيش المراكشي أخيرا وصرف السعديون نهائيا نظرهم عن حركة الدلائيين.

رأى محمد الحاج أن يقتصر نفوذه على



واجهة ضريحي الشيخين الدلائيين أبي بكر ومحمد في الزاوية الدلائية القديمة.
(كليشه حجي).

مملكة فاس – القديمة – ليترك منطقة مراكش لبقايا الشرفاء السعديين ، وما وراءها للمتآمرين من أبناء الصالحين . وكان لابد له لتحقيق هدفه من تنحية المجاهد العياشي صديق أبيه وجده وحليفه بالأمس ، فهاجمه لعلة اختلقها وألب ضده الأعراب فقضى عليه . وبذلك أصبح شمال المغرب كله من مجرى نهر أم الربيع إلى البحر المتوسط خاضعا لنفوذ الدلائيين .

الزاوية الدلائية الجديدة

ضاقت الزاوية الدلائية القديمة ببلاط محمد الحاج وحاشيته وجنده ، واستصعبت الرعية في السهول والمدن تسلق الجبال لزيارة أميرها في الأعياد وغيرها ، فرأى محمد الحاج أن يشيد عاصمة جديدة في سفح الدلاء ، وارتادها الموضع الذي توجد عليه اليوم زاوية آيت إسحاق على الطريق الرابطة بين خنيفرة وقصبة تادلا ، وابتدأ بناءها عام 1048-1638 ، وشيد لنفسه فيها قصرا فسيحا تحيط به أسوار عالية ، وأسكنها خمس قبائل من أكثر الأطلسيين عصبية وحمية ، وهي مجاط ، وآيت يمور ، وبني مطير ، وكروان ، وآيت إسحاق . وسميت المدينة الجديدة قصبة الدلاء أو مدينة أزغار ، كما دعيت زاوية محمد الحاج أو الزاوية الدلائية الجديدة .

المعركتان الدلائيتان الأوليان

قضى محمد الحاج الدلائي السنتين الأوليين في إعداد العدة وتنظيم الجيش ، وتأسيس العاصمة وترتيب القبائل ، ولم يتحرك جنده إلا في عام 1048 هـ / 1638 م ، فقام في هذه السنة



بقايا صومعة مسجد أبي بكر (الزاوية القديمة).
(الصورة بعدسة حجي).

بحملتين كبيرتين ، على ضفاف نهر وادي العبيد وفي بسائط بلاد سايس . وقد ترأس محمد الحاج بنفسه الحملة الأولى عندما بلغه خبر تحرك جيش محمد السعدي من مراكش في اتجاه الدلاء . والتقى الجمعان على ضفة وادي العبيد ببلاد اثني عشر كيلومترا من المركز الحالي لدار ولد زيدوح . وجرت معركة حامية الوطيس أسفرت عن انهزام محمد الشيخ السعدي ورجوع جيشه مفلولا إلى مراكش . وانقطع بذلك نظر السعديين نهائيا عما شمله نفوذ الدلائيين من البلاد .

وكان سبب الحملة الدلائية الثانية هو استنجاد المجاهد العياشي بمحمد الحاج ، ليساعده في القضاء على فتنة الحياينة وشراكة الذين قويت شوكتهم ، وأمسوا يغيرون على الفاسيين ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم ، ويختطفون أولادهم ونساءهم . وقد توجه وفد من علماء فاس وأعيانها إلى المجاهد العياشي بسلا ، ورجوا منهم أن يخلصهم من بلاء القبيلتين المجاورتين فأحالهم العياشي على محمد الحاج ، وبعث معهم بخطاب يشرح له الحال ويرجوه الاغاثة والنجدة . فلبى أمير الدلاء نداء الواجب ، وأرسل إلى العياشي جيشا قويا من البربر تحت إمرة أحد قواده المسمى شعشوع . ويمكننا أن ندرك مدى أهمية هذا الجيش إذا عرفنا أن المجاهد العياشي استطاع به أن يقضي نهائيا على تمرد القبيلتين .

مهاجمة المجاهد العياشي

لم تطل مدة الصفاء بين الدلائيين والعياشي بعد ذلك ، إذ كان نظر محمد الحاج متجها نحو المغرب ، بعد أن تركزت قدماه في ملوية العليا وبسائط تادلا وما والاهما من البلاد . وكان لابد له إذا أراد تحقيق مطامحه من أن يتخلص من العياشي صاحب النفوذ في الثغور . ولا نظن حادثة الأندلسيين إلا تعلة اتخذها محمد الحاج لتبرير موقفه العدائي من مجاهد سلا ، وفرصة اهتبلها للقضاء على منافسه من أجل التوسع وبسط النفوذ . وقد اتهم العياشي الأندلسيين المقيمين على الصفة اليسرى لنهر أبي رقراق بممالأة الاسبانيين على المجاهدين ، وأفتاه العلماء بجواز قتالهم ، فحاصروهم وضيق عليهم الخناق إلى أن تمكن من مدينة الرباط ، وبقيت القصبة تقاوم الحصار مدة طويلة ، إذ كانت حاميتها تتألف من المورسكيين وجنود الملك السعدي صاحب مراكش ، يشد أزره الاسبانيون من البحر .





منظر لضفتي نهر أبي رقراق :
- في الأعلى : إرساء القراصنة .
- في الأسفل : مدينة سلا .

وقد أهدر العياشي دماء الأندلسيين في الرباط والقصبة أباح أموالهم ، وفرت طائفة منهم إلى الدلاء ، فأجارهم محمد الحاج وشفع لهم عند العياشي ، فلم يقبل هذا الأخير الشفاع فيهم ، وأبى إلا أن يستأصل شأفتهم . فكان رد محمد الحاج أن زحف بجنده على منطقة نفوذ العياشي ، في أوائل عام 1050 هـ / 1640 م ، وملك مدينة مكناس ، ثم اتجه إلى فاس فاعترض العياشي طريقه ، ووقعت الحرب بين الصديقين القديمين ، واقتتل الجيشان المتحالفان إلى عهد قريب . وكان النصر في البداية حليف محمد الحاج ، فتقدم إلى فاس وحاصرها مدة ، ثم كر عليه العياشي في جموع وفيرة من رجال الغرب فانهزم الدلائيون لأول مرة ورفع الحصار عن المدينة . وعرف محمد الحاج أنه لا يستطيع القضاء على خصمه ما دام في عزة ومنعة من قومه وأنصاره قبائل الغرب ، فرأى أن يبحث عن منافسي العياشي من بين رؤساء هذه القبائل ، وفي مقدمتهم التاغي والدخيسي ، فحالفهم وجذب بواسطتهم إلى جانبه طائفة مهمة من

الأعراب . واغتنم محمد الحاج فرصة تغيب العياشي في بلاد الفحص لقتال الاسبانيين في طنجة ، فحشد جموع العرب والبربر شمال نهر سبو ، وترصد وهو على أتم أهبة وأكمل استعداد عودة خصمه من الجهاد . وفوجىء العياشي بهذا الجيش الجرار الذي اعترض طريقه ، ورأى ألّا قبل له به ، فجنح إلى السلم والمهاندة ، لكن المجاهدين الذين كانوا معه أبوا إلّا الدفاع عن أنفسهم ومواجهة خصومهم ، فوقعت المعركة الثالثة بين العياشي والدلائيين في ضواحي سوق أربعاء الغرب أواخر عام 1050 هـ / 1641 م ، وكان من الطبيعي ألّا يصمد المجاهدون الذين أنهكتهم الاغارات على الاسبانيين ، خصوصا وهم قلة أمام هذه الحشود المستريحة . وقتل فرس العياشي تحته في المعركة ، فلجأ إلى قبيلة الخلط وهو لا يعلم أنها انحرفت عنه فيمن انحرف من الأعراب ، فلم يستقر به المقام عندهم حتى اغتالوه في عين القصب التي تبعد عن مركز سوق أربعاء الغرب بنحو 20 كلم غربا ، واحتزوا رأسه وبعثوا به إلى خصومه ، وذلك في 9 محرم عام 1051 / 21 أبريل 1641 . وبموت العياشي وتفرق أنصاره خلا الجو للدلائيين ، وتساقطت في أيديهم المدن والأقاليم تباعا . فملكوا فاسا بعد حصار دام ستة شهور ، ثم استولوا على سلا وتطوان وسائر بلاد المغرب .

فاس وسلا تحت إمرة الدلائيين

واتخذ محمد الحاج من فاس وسلا مركزين مهمين لتثبيت سلطته في الشمال ، فجعل خليفته على مدن فاس (المدينة الجديدة البيضاء أو فاس الجديد ، وعدوة الأندلس ، وعدوة القرويين أو فاس القديم) القائد السوسي أبا بكر التاملي ، فبقي فيها عشر سنين ، ثم استبدل به ابنه أحمد الدلائي فابنه الآخر أحمد الدلائي ، وأمر فاس والاقليم في أثناء ذلك كله بين مد وجزر : سلم تارة وثورة أخرى . أما مدن سلا (سلا ، والرباط ، والقصبة) فجعل عليها ابنه عبد الله الدلائي الذي تلقبه المصادر الأوروبية بأمير سلا SEIGNEUR DE SALÉ . واستقر عبد الله في قصر الامارة بقصبة الأوداية ، وكون من حوله مجلسا من أعيان العدوتين ، يستشيرهم في المهمات ولا يقطع أمرا دونهم .

نجحت سياسة عبد الله ، ولو أن الوضع على ضفاف نهر أبي رقراق كان في غاية التعقيد والخطورة بسبب اختلاف عناصر السكان وتنافرهم وتباين وجهات نظرهم ، فالسلويون المحافظون كانت أفئدتهم مشربة بحب رئيسهم المجاهد العياشي الذي لقي مصرعه منذ قليل على يد الدلائيين ، والموريسكيون المهاجرون حديثا من الاندلس في الضفة الأخرى ، ولا سيما أغنياؤهم أهل هورناتشو HORNACHOS كانوا منغلقين على

رسالة من السلطة في سلا إلى هولاندا تطلب فيها من حكام هذه الدولة أن يوجهوا مراسلاتهم المقبلة باسم الأمير عبد الله الدلائي .(26 أكتوبر 1643).

أنفسهم، لم ينسجموا مع سكان المنطقة لا في العادات ولا في الأخلاق واللغة، وظنوا أن في هلاك المجاهد العياشي خصمهم اللدود فرصة لخلق كيان سياسي مستقل يمكنهم من التصرف بحرية في أسطولهم القرصني القوي الغني.

قام عبد الله الدلائي في سلا، علاوة على حكم منطقة الغرب، بمهمة وزير الشؤون الخارجية والبحرية والتجارية للإمارة الدلائية، وأصبح للدول الأوروبية ذات المصالح التجارية بالمغرب، كهولاندا وانجلترا وفرنسا، قناصل قارون بالعدوتين، يفاوضون الأمير الدلائي في الشؤون التجارية والجمركية والقرصنية وغيرها. وقد استفاد الدلائيون كثيرا من احتكاكهم بالأوروبيين واستغنى بيت مالهم بالأعشار التي فرضوها على البضائع المصدرة إلى أوروبا والمستوردة منها. وازدهرت في أيامهم المبادلات التجارية، فكان المغرب يصدر إلى الخارج الجلود والصوف والشمع ومستخرجات بعض المعادن، ويجلب في مقابل ذلك الأقمشة والأدوات المنزلية والتبغ، وخاصة الأسلحة الأوروبية الحديثة. وزار قصر الأمير الدلائي بالقصبة عدد من سفراء الدول الأوروبية لتذليل بعض الصعوبات التي لم يتمكن القناصل المقيمون من حلها، كما توجه سفراء عبد الله الدلائي إلى عواصم أوروبا، وخاصة إلى امستردام، لحل المشاكل المعقدة.

واتخذ عبد الله الدلائي، إلى جانب الأسطول القرصني، أسطولا تجاريا اشترك في تجهيزه إلى جانب الأمير الدلائي تجار العدوتين، وأخذ يقوم برحلات منتظمة إلى موانىء الحوض الغربي للبحر المتوسط، وخاصة الجزائر. ولم تنقطع السفن التجارية طوال عهد الدلائيين صادرة عن سلا أو واردة إليها، وعلى ظهرها حمولات هامة من البضائع المختلفة المربحة. وكانت هذه الحركة التجارية ومسألة تأمين السفن والتجار وتعويضهم عن الخسائر التي تصيبهم من أعمال القرصنة محور كثير من المفاوضات مع الأجانب وموضع مراسلات ومعاهدات.

نسخة من اقتراح بعث به عبد الله الدلائي إلى هولاندا وسلا.
يلاحظ توقيع الأمير السلاوي في هامش الرسالة.



السفارة المغربية في هولاندا سنة 1659. كانت البعثة مشكلة من ابراهيم دك وابراهيم معنينو ومحمد بن يلّوز . وهذه البعثة كانت موفدة من عبد الله الدلائي .

نهاية الزاوية الدلائية

لم يطل عمر الزاوية الدلائية – كمركز ديني وثقافي – أكثر من قرن واحد ، ولم تزد مدة نفوذها السياسي على 35 سنة ، لأنها في هذا الجانب الأخير – رغم ما توفر لها من قوة بشرية ومادية – كانت تحمل في كيانها عناصر اضمحلالها بقبولها اقتسام المغرب مع أمراء الزوايا الآخرين . وابتدأت الثورات الخطرة ضد الدلائيين بثورة الخضر غيلان أكبر مساعدي المجاهد العياشي ، فاستولى على مدينة القصر الكبير ، وانضمت إليه القبائل فيما بين مرتفعات الهبط وسهول سايس طوعا أو كرها ، وأخذ يغير على مدينة فاس ، ويستميل قبائل الغرب التي طالما جاهدت معه تحت لواء العياشي . وقد أدرك محمد الحاج الدلائي خطورة هذه الثورة ، فخرج للقضاء عليها في جيش جرار قوامه 80.000 رجل ، ولقي جموع الخضر غيلان بالقرب من شاطىء مولاي بوسلهام ، حيث دارت معركة طاحنة (أواخر عام 1070–1660) انكسر فيها الدلائيون رغم وفرة جموعهم ، ومرت فلولهم المهزومة ببلاد الغرب وتامسنا منبئة بسوء منقلبهم . فلم يمض وقت قصير حتى ثار سكان العدوتين والقبائل المجاورة بالأمير عبد الله الدلائي ، وحاصروه في القصبة أكثر من سنة إلى أن فر منها على ظهر سفينة انجليزية ، وبذلك امتد نفوذ الخضر غيلان على منطقة الغرب كلها .

واستغل شرفاء سجلماسة فرصة اختلال أحوال الدلاء ، فراح أميرهم محمد بن الشريف يوسع منطقة نفوذه في الجنوب ، وخرج أخوه الرشيد يروم الملك لنفسه في المغرب الشرقي ، وانتهى خلاف الأخوين الشريفين بمعركة بسيط أنكاد ، فكانت الدائرة على الأمير محمد ، واستقل الرشيد بن الشريف بحكم شرق المغرب



مناطق خاضعة للنفوذ الدلائي في منتصف القرن السابع عشر الميلادي .

وجنوبه . وقد وطد سلطته فيها قبل أن يقوم بحركة شاملة لاستعادة وحدة المغرب ، ووصل في مطلع عام 1079هـ - 1668م إلى مشارف الدلاء حيث جرت معركة « بطن الرمان » التي لم يصمد فيها الدلائيون إلا قليلا ، ثم تراجعوا مهزومين يشكون جدهم العاثر لمحمد الحاج الذي قعد به الهرم والعمى عن القتال . ومكثت جيوش الرشيد في الزاويتين الدلائيتين شهرا ونصف شهر ، لترحيل السكان ونقل الدلائيين وشيعتهم الأقربين إلى فاس ، وإعمال المعاول في الأبنية إلى أن تركتها بلاقع موحشة .

منظر عام لزاوية آيت إسحاق ، المقامة على أنقاض الزاوية الدلائية الثانية . (الصورة بعدسة محمد حجي) .

المحيط الاطلسي: مسر العياشي

محمد زنيبر



مركب سلاوي

برهن تاريخ المغرب الحديث على أن أعظم الأخطار التي كانت تهدده وترهن مصيره جاءته من جهة البحر . ومادام الحكم المركزي قويا ، فقد كان يستطيع أن يدافع عن مجموع التراب الوطني ، وبالأخص عن المناطق الساحلية ، المعرضة أكثر من غيرها للخطر والتي كانت تكتسي أهمية حيوية بالنسبة للبلاد . وماكان ذلك ليتم لولا أن الدولة تمارس سلطتها في كل الأقاليم . وابتداء من القرن الخامس عشر ، أخذت البحرية الأوروبية في النمو ، بينما كانت البحرية المغربية في حالة تدهور ، إن لم نقل في حالة انعدام . وبسبب ذلك أصبحت الشواطىء المغربية معرضة للهجمات التي كانت تقوم بها الامبريالية الأوروبية الناشئة ، وبالخصوص امبريالية الدول الايبيرية . فكل الاعتداءات التي أتت منها كانت عن طريق البحر .

وكما هو معروف استطاع المغرب تحت قيادة السعديين أن يواجه أعداءه في البر ويردهم في الغالب على أعقابهم ، لكنه ظل ، مع ذلك ، يواجه قوة أعدائه البحرية بتخوف . وكان لامناص له من أحد أمرين : إما أن يجهز نفسه بأسطول قادر على مجالدة الأعداء في البحر ، وإما أن يضع حاميات عسكرية على طول شواطئه . أمران كلاهما كان يقتضي مجهودا ماليا كان فوق طاقة خزينة الدولة المغربية ، بالاضافة إلى جهاز إداري وتقني لم يكن من الممكن إيجاده ! ولنشر ، عرضا ، إلى أن ما ندعوه اليوم التخلف يرجع بأصوله إلى ذلك العهد ، حيث كانت أوروبا تتقدم إلى الأمام وتسبق العالم الاسلامي في كل الميادين .

وعلى أي ، فقد كانت الشواطىء المغربية في حالة استنفار دائم . والحقيقة أن المغرب ذاق شيئا من الراحة في الربع الأخير من القرن السادس عشر الذي يمثل أوج الدولة السعدية مع عهد أحمد المنصور . ولكن ما أن توفي هذا العاهل الكبير حتى ظهرت الأزمة من جديد في البلاد . ومست أولا بالأسرة المالكة ، إذ أحد أولاد المنصور

ح لِلنّضال في القرن 17

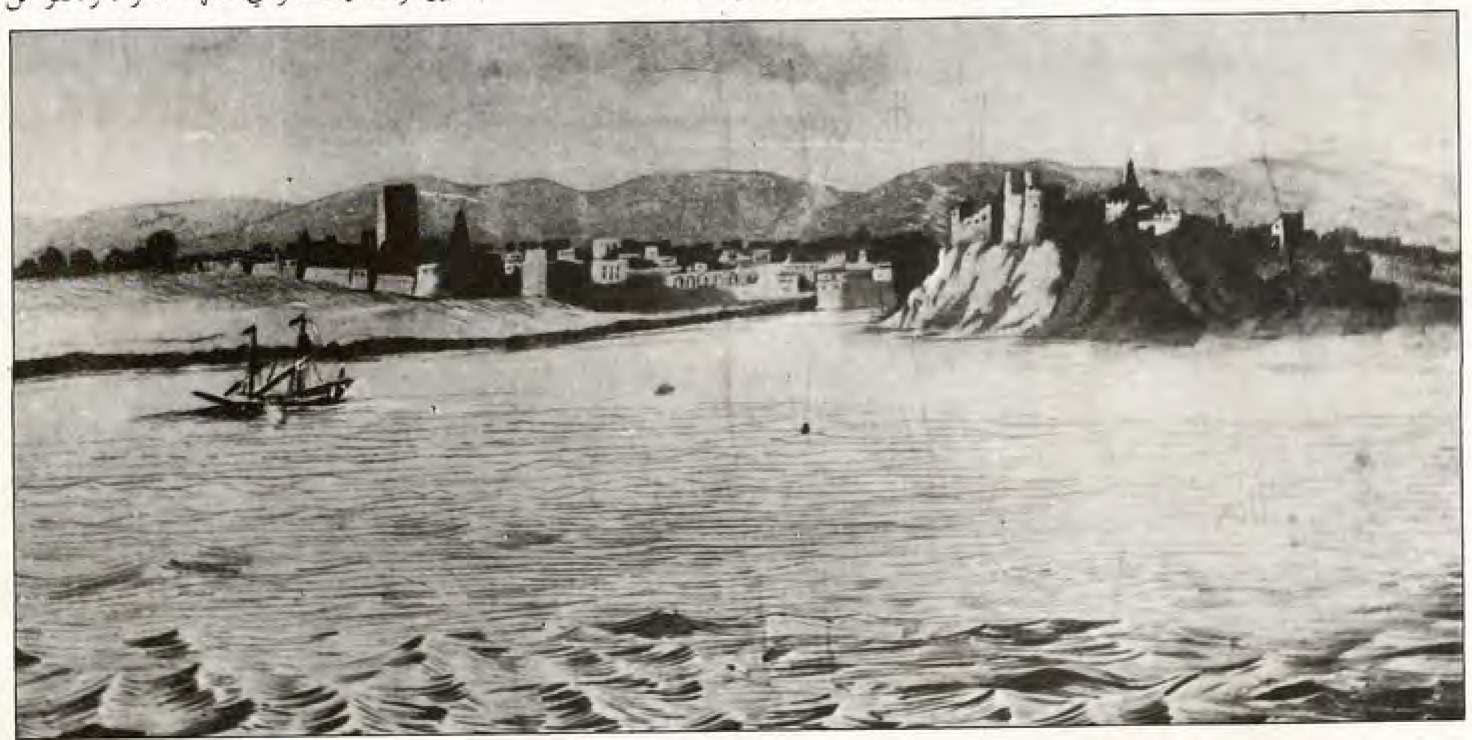
يتنازعون فيما بينهم على العرش . وكانت لها ، أيضا ، انعكاساتها على الوضعية السياسية في مجموع البلاد . وغدت عدة أقاليم خارجة عن سلطة الدولة التي انهكتها الصراعات على الملك . فكانت فرصة مواتية لبروز إمارات محلية ، كما حدث بتازروالت بسوس ، وبالزاوية الدلائية في الأطلس المتوسط ، وبتافيلالت مع حركة أبي محلي ، الخ . وفي نفس الوقت ، كان جزء كبير من المناطق الساحلية يعاني من غياب سلطة الدولة ، ويجد نفسه معرضا للخطر الأجنبي دون حماية . وهو أمر سرعان ما تحول إلى واقع .

وهكذا جاء القرن السابع عشر ليقيم أكثر من دليل على أهمية المحيط الأطلسي بالنسبة للمغرب . فمن هنالك كان ينفتح على الخارج إما في إطار مبادلات سلمية ومفيدة ، وإما في نطاق اتصالات عنيفة مع قوات معادية ، جاءت لتغير على البلاد وتبسط سيطرتها عليها . وشاهدت تلك الأماكن أيضا انطلاق المقاومة الوطنية التي مر نضالها من أطوار مد وجزر ، دون أن تنقطع بالكلية . ثم انتعشت كثيرا أثناء ذلك القرن بتأثير حدثين مهمين ، كان مسرحهما هو مصب أبي رقراق ، أي مدينة سلا التي كانت تعتز بكونها نجحت في صد المؤامرات الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية . والحدثان هما حركة المجاهد محمد العياشي من جهة وحركة القراصنة من جهة أخرى .

كانت مدينة سلا مسرحا لحدثين هامين ميّزا القرن السابع عشر للميلاد وهما :
– معركة العياشي
– والقرصنة .
(المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب) .

الهجوم الاسباني

لم يتخل الاسبان عن طمعهم في الاستيلاء على المغرب ، ولذلك كانوا يتتبعون بمنتهى الحرص تدهور الأوضاع غداة وفاة المنصور . وسنحت لهم فرصة النزاع على العرش بين أولاده ليصطادوا في مائها العكر . وتمكنوا من



مذكرات من التراث المغربي

اجتذاب ولده المامون ليتخذوا منه بيدقا في مؤامرتهم ، فوعدوه بالمساعدة في صراعه مع أخويه ، لكن بمقابل أن يتنازل لهم عن مدينة العرائش . وهكذا كان ، إذ قبل الأمير أن يحقق لهم رغبتهم عن طواعية ، فاحتلوا المدينة سنة 1610 .

وتابعوا زحفهم بالجنوب ، إذ احتلوا مرسى المعمورة ، في مصب نهر سبو (1614) . وأنزلوا بها حامية قوامها خمسمائة وألف جندي وقاموا بإنشاء حصون فيها .

فتبين أن التهديد الاسباني يتزايد يوما عن يوم . وغدت اسبانيا باحتلالها المعمورة تسيطر على ست مدن ساحلية مغربية هي : مليلية وسبتة وطنجة والعرائش والمعمورة ومازيغن. لكن وصول الاسبان إلى مصب سبو ، في تلك الآونة ، أصبح يشكل خطرا كبيرا ومباشرا على مدينة سلا التي أصبحت على قاب قوسين أو أدنى منهم ؛ وكان ، أيضا ، خطرا على سهول الغرب وعلى طرق المواصلات في محاور حيوية بين الجنوب والشمال وبين الأراضي الساحلية وفاس . بحيث إن الوضع الجديد أصبح فيه مساس بالحياة الاقتصادية ، وبحرية تنقل الناس وبطاقة البلاد الاستراتيجية في ناحية وسطى وغنية منها .

وبما أن الدولة السعدية كانت غارقة في وحل الصراع على العرش ، فقد كانت وسائلها المالية والعسكرية هزيلة ، كما كانت في شغل شاغل عن شؤون البلاد ، مما جعلها تظهر للعيان في هاته المناسبة دون مستوى الأحداث الخطيرة بكثير . وقد رأينا كيف أن المأمون أكبر الورثة للعرش أصبح عميلا للاسبان في مشاريعهم التوسعية على حساب المغرب . وأما أخوه مولاي زيدان ، الذي كان ملكا على مراكش ، فلم يقم بأي تحرك فعلي في الميدان العسكري واكتفى بأن وجه يطلب الاغاثة من اسطنبول ، وهو طلب لم يأت بنتيجة . مما أدى به ، في خاتمة المطاف ، إلى أن يقف موقف الانتظار .

ظهرت الحكومة المركزية ، إذن ، بمظهر العجز الفاضح أمام الأحداث . فلم يبق أمام المغاربة إلا أن يبحثوا في جهات أخرى عن الوسائل الفعالة للدفاع عن أنفسهم وحماية مصالحهم . ولم يكن الحل يغيب عن المغاربة : إنه يتلخص في تجنيد الشعب للنضال وحمل راية الجهاد من جديد . ولم يكن الأمر ، في الحقيقة ، بدعا . فقد كانت هنالك جماعات من المجاهدين يتحركون منذ زمان ، وبخاصة في نواحي تطوان ودكالة حول مازيغن ، المعروفة أيضا باسم البريجة . وقد ساهمت بعض الأسر في الجهاد مثل آل النقسيس ، وغيلان ، وأبي الليف الليف .

بعد الاستيلاء على مرسى المعمورة (المهدية حاليا) تابع الاسبان توغلهم نحو الجنوب . (كليشه أودول) .





لم تلبث سلا أن شهدت حركة شعبية .
سور مدينة سلا .
(كليشه أودول).

عالم يصبح مجاهدا

لكن الظرف الراهن كان يطرح ، بصورة ملحة ، المنطقة الواقعة في مصب أبي رقراق وعدوتي سلا والرباط . مما جعل جبهة للجهاد تنشأ في عين المكان مثيرة ردود فعل قوية في سلا . وحينما أصبح الخطر وشيكا على عدوتي سلا والرباط القريبتين من المعمورة بسبب أطماع الاسبانيين وتحركاتهم ، برزت وسط المأساة شخصية جديدة أتيح لها أن تلعب دورا كبيرا في مغرب النصف الأول من القرن السابع عشر : إنه سيدي محمد العياشي الذي أشرف على الجهاد الشعبي وتمكن من إيقاف زحف الاسبانيين وألحق بهم هزائم شنيعة . فمن هو ، ياترى ، العياشي ؟

انتماؤه إلى الشعب أمر يعرب عنه أصله ، إذ هو من أسرة بدوية . فقد ازداد بالغرب حوالي 1573 وهو ينتسب إلى قبيلة بني مالك من العرب الهلالية . ومن المعلوم أن سلا كانت هي المدينة بالنسبة لأهل الغرب ، أي مدينتهم التي يقصدونها في كل شؤونهم . ولذلك جاء العياشي ، وهو ما يزال فتى ، ليدرس العلم بها . وسرعان ما ظهرت نجابته في علوم الدين والفقه . وهذا ما جعل معاصريه يحلونه بلقب الفقيه ، وكذلك بنعته كل المؤرخين الذين تحدثوا عنه .

ومالت نفسه إلى التصوف . فأخذه عن شيخه عبد الله بن حسون ، أحد أولياء المدينة ، والمنعوت ب « سلطان سلا » . وكان التصوف يومئذ يحظى بإشعاع كبير ، سواء في الأوساط الشعبية أو بين أهل العلم والأدب . وهذا راجع إلى كونه استطاع أن يتغلغل في كل الأوساط المجتمعية بأسلوبه الخاص ، وأن يربط بين الحياة الروحية وحياة الناس اليومية ، ويتجاوب مع همومهم ، ويوحي بحلول لمشاكلهم ، وتأتي في مقدمتها المشاكل السياسية . فهو من هاته الناحية يختلف مع موقف الفقهاء الذين يقفون عند الفروع ويتجنبون الخوض في المشاكل الأساسية التي قد تتحكم في مصير الأمة . ومهما يكن ، فإن التصوف المغربي استطاع منذ عهد مبكر أن يضع تصورا ومنهاجا للجهاد ويقوم بتطبيقها .

ومن هاته الناحية ، وجد العياشي في

التصوف ما يستجيب لطبعه ومزاجه : الجمع بين الحياة الروحية والعمل في إطار الالتزام الهادف .

وكان ولي سلا الكبير عبد الله بن حسون هو الذي وجه العياشي في وجهة الجهاد ودفعه إليه بما كان يحظى به الشيخ من سلطة لامتناهية على المريد . ففي ذات يوم جاء وفد من دكالة من ناحية مازيغن يزور الشيخ بقصد الاستشارة وطلب المعونة في الجهاد الذي كانت تقوم به قبيلتهم ضدا على البرتغاليين . وفي نفس المناسبة قدموا له هدية هي عبارة عن جواد . وحينذاك نادى ابن حسون على العياشي وأمره بركوب الفرس وقال له : **اركب دنياك وآخرتك !**

فتقهقر العياشي متأدبا . فحلق له وحبس له الركاب بيده وقال :

« ارحل عني إلى أزمور ، وأنزل على أولاد أبي عزيز ، وجاهد في سبيل الله ! »

صدع العياشي بالأمر وذهب عند أولاد أبي عزيز بدكالة قرب مازيغن . ومكث هنالك قرابة عشر سنوات ، من 1604 إلى 1615 . وشارك في عدة معارك مع البرتغاليين . فأظهر من الشجاعة وقدم من الدلائل على معرفته بفنون القتال ما جعله يتبوأ عمليا منصب القائد الأعلى للجهاد بالمنطقة . وسرعان ما تحولت إليه أنظار المغاربة والبرتغاليين على السواء ، بسبب شهرته الصاعدة . فالأولون ينظرون إليه كبطل من أبطال الاسلام . والآخرون يرون فيه عدوا لدودا يجب أن يحسب له ألف حساب .

الانتصارات الأولى

ولما توفي قائد الاقليم ، عين السلطان زيدان السعدي ، بإشارة من حاشيته ، محمدا العياشي خلفا له . لكن ثقة السلطان بالمجاهد لم يطل أمدها . ذلك أن العياشي ما فتىء يقوم بأعمال جهادية تزيد في سمعته ومجده ، فنشأت الغيرة والحسد لدى بعض رجال الدائرة السلطانية الذين ألتقوا في الكيد له مع بعض الجواسيس الاسبانيين العاملين لدى زيدان . فأخذوا يخوفونه من العياشي ، ويقدمونه له كرجل طموح إلى الملك ، لا هم له إلا السعي للاطاحة بالدولة الحاكمة وتأسيس دولة جديدة باسمه .

وبدأت المخاوف تساور زيدان ، فوجه كتيبة من أربعمائة فارس بقيادة محمد السنوسي للقبض على العياشي وقتله . لكن السنوسي كان يعطف على العياشي سرا فبعث إليه خفية أن « انج بنفسك فانك مغدور » فخرج العياشي في الوقت المناسب من دكالة والتجأ إلى مكان آخر . وهنالك من المؤرخين من يحاول تبرئة زيدان مما نسب إليه ، ذاكرا بأن العياشي غادر دكالة باتفاق معه ، لكن الرواية الأولى تظهر أقرب إلى الحقيقة .

ومهما يكن ، فقد رجع العياشي بغتة إلى سلا ، فصادف سكانها متخوفين كثيرا من وجود الاسبانيين بجوار مدينتهم . ومما زاد في قلقهم يأسهم من قيام الحكومة المركزية ، حكومة السلطان زيدان ، بأي عمل عسكري للدفاع عنهم . وقد سبق لهم أن وجهوا وفدا إلى زيدان السعدي لاطلاعه على جلية الخبر فيما يخص الوضع الخطير الذي كانوا يوجدون فيه ، لكن الوفد رجع من مسعاه بخفي حنين .

فكانت عودة العياشي إلى سلا واقعة في الوقت المناسب . فتهافت عليه سكان المدينة يطلبون مساعدته بالرأي والعمل . فوجد نفسه بين عشية وضحاها يقوم بنفس العمل الذي كان يباشره بدكالة أي قيادة الجهاد .

وشمر عن ساعده في الحين ، وحشر كل الوسائل الممكنة في عين المكان . وطاف على بيوت المدينة فجمع منها أربعمائة بندقية . وبرغم ضآلة العدة والعتاد ، كون كتيبة صغيرة وبادر إلى مهاجمة الاسبانيين بالمعمورة ، دون ابطاء ، في 1615 . وكللت غارته بانتصار أول ، مما رفع من معنوية جنوده وسكان المدينة . وكان من نتائج تحركه الفعال أن نمت شعبيته بالمدينة وبكل المنطقة ، حتى إن الأنظار بدأت تلتفت إليه من مجموع المغرب .

وازداد زيدان حسدا ، فحاول أن يقبض عليه ووجه إلى عامله بالرباط أوامره في هذا الصدد . فثار الموريسكيون القاطنون بالمدينة حين علموا بالخبر ولم يترددوا في طرد العامل وفي الانتقاض على زيدان . كل ذلك جعل زيدان يفرض وجوده في المنطقة كرئيس للجهاد دون منازع .

وتواردت عليه المراسلات من كل جهات البلاد تطلب منه بالحاح أن يمسك مقاليد الأمور بالمغرب ويعيد بناء سلطة وطنية فعالة تملأ الفراغ الجاثم على الوطن . وكان العياشي يرفض أن يحل محل السلطان ويتجاهل وجوده ، لكنه يقبل أن يتولى قيادة الجهاد ، شريطة أن يكون ذلك حاصلا على تزكية من رؤساء القبائل العربية والبربرية والأعيان والأشراف والعلماء في الحواضر ، وأن يتعهد له جميعهم كتابة بالاعتراف برئاسته وبطاعة أوامره . وأمضوا جميعهم على وثيقة بهذا المعنى ، وهي وثيقة صادق عليها القضاة وعلماء الاسلام في منطقة كبيرة تمتد من تامسنا إلى تازة .

وتلقى العياشي ، في نفس الوقت ، التأييد والتشجيع من عدد من الزوايا الكبرى . وهكذا حصلت حركته على تزكية من أهم السلطات الدينية في البلاد ، وفي ضمنها شيوخ الطرق ، وعلماء مشهورون مثل ابن عاشر والعربي الفاسي .

اتسع نفوذه إلى أن شمل منطقة تمتد من الشمال إلى ضفاف أم الربيع وتحتضن نواحي مكناس وفاس وتازة . إلا أن قيامه بالمسؤوليات التي تحملها لم يكن يخلو من الصعوبات ، إذ لم يكن المشكل بالنسبة إليه ينحصر في مجابهة الاسبانيين ، بل كانت أمامه ، أيضا ، قضايا

اتصل العياشي بالانجليز لأجل سد الحاجة إلى السلاح لمواجهة الأسبان . ويبدو في الصورة نسخة لاتفاق أبرم بين العياشي وشارل الأول ملك انجلترا .
(المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب) .

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد بن أحمد [illegible]

كان الله له

شروط ما وقع عليه الصلح بين الشيخ الكبير الجليل الشهير [illegible]

[illegible]



رغم قلة العدة (السلاح) فقد هاجم العياشي بنجاح الجيوش الاسبانية بالمعمورة (المهدية) سنة 1615 . (كليشه أودول) .

داخلية ناشئة عن أزمة السلطة القائمة بالمغرب .

وهكذا اصطدم بعصيان بعض القبائل مثل الحياينة وشراكة ، إلخ . مما اضطره إلى تخصيص كثير من الجهد والوقت لاعادة النظام والامتثال في جهاتها . ولما تم له تذليل هاته المصاعب ، أمكنه آنذاك أن يتجه للاسبان لاجراء المعركة معهم .

ورأى أنه مفتقر إلى السلاح المناسب ، فعقد اتفاقية مع الانجليز لتقوية ذخيرته من السلاح كما وكيفا . وأمكنه آنذاك أن يقوم بهجوم كبير على المعمورة ، التي حولها الاسبانيون إلى قلعة حصينة . وحاصر المدينة سنة 1627 وضايق الأعداء إلى الحد الذي جعلهم يطلبون النجدة من بلادهم . وإذا كان لم يتمكن من احتلال المدينة عسكريا ، فإنه كبد الاسبانيين خسائر فادحة ، وحرر مئات من الأسارى المغاربة وأوحل في الرمال عددا من السفن الاسبانية وانتزع منها ثمانمائة أسير مع غنائم وفيرة ، من بينها مدافع وكميات من العتاد .

كان لهذا الانتصار فائدته إذ دفع بالاسبانيين إلى التفكير في العواقب . فقد بدأوا يدركون الصعوبات التي سيرتطمون بها ، إنهم حاولوا الامتداد في المنطقة ، سيما وهم يواجهون قوة ناشئة من الممكن أن تنمو بسرعة ، نظرا لسمعتها في أوساط الشعب وإقبال الناس عليها . كما تشجع العياشي بهذا الانتصار على مواصلة عمله . فذهب يقاتل الاسبانيين في ناحية طنجة وأصيلا ، وبالخصوص في غربية حيث كانت المعركة حامية الوطيس . وأشارت المصادر المغربية إلى رقم ثلاثة آلاف من القتلى الاسبانيين . ومهما حملنا هاته الرواية على المبالغة ، فإنها تدلُّ على أن اللقاء كان عنيفا بين العدوين .

شعبية في أوجها

كانت انطلاقة العياشي عظيمة ، لكن الطريق لم تكن أمامه معبدة إذ اصطدم ببعض المشاكل التي شغلته كثيرا وعرقلت تحركه . ونكتفي هنا بذكر اثنين منها :

1 – الخلاف مع الموريسكيين المستوطنين بالرباط الذي تحول إلى نزاع مسلح . فقد اتهمهم العياشي ، عند محاصرته المعمورة ، بخيانة الاسلام وتقديم خدماتهم لملك اسبانيا . وهو أمر لايخلو من صحة ، إذ توجد وثيقة تشهد بذلك . وطال النزاع عشر سنوات ، واستنزف جزءا من قوات العياشي ونشاطه وكان من الأسباب الكبرى في الفشل النهائي الذي منيت به حركته .

2 – نزاع آخر أقل خطورة نشب بين العياشي وأولاد النقسيس الذين كانوا ، كما ذكرنا ، يسيرون جماعة من المجاهدين بناحية تطوان .

إلا أن العياشي ، برغم تلك المصاعب ، لم يترك لليأس سبيلا إلى نفسه . بل تحمل مسؤولياته بكامل الوعي وهو يجابهها ، سواء كمنشط أو كقائد للنضال الوطني ورجل دولة في نفس الوقت . وهكذا استأنف نشاطه العسكري ضد الجيوب الأجنبية فهاجم البرتغاليين سنة 1629 بناحية طنجة تاركا في صفوفهم ما لايقل عن ستمائة من القتلى . وفي 1630 ، عرف أول هزيمة أمامهم ، قرب طنجة ، أيضا . لكنه عاد إليهم مرة أخرى بقوات طرية وقام بمناوشتهم . وبعد ذلك بسنة قام بهجوم مماثل على مدينة العرايش التي كانت بيد الاسبانيين . واجتذب هؤلاء إلى خارج المدينة ، بعد أن نصب لهم كمينا ، فكانت مقتلة كبيرة استؤصلوا فيها عن آخرهم (1631) .

وفي هاته المرحلة من جهاد هذا الرجل ، نرى العياشي وكأنه يريد أن يستقر بالشمال ليكثف المعركة من أجل طنجة والعرايش والمعمورة ، فيكون أقرب إلى المراكز التي ينطلق منها الأعداء ، سيما وقد أصبحت سلا ، على ما



كان النزاع الذي واجه فيه العياشي الحاكم الاسباني بالرباط (المستقر بالقصبة) يشكل هاجسه الأول
(قصبة الأوداية بالرباط = كليشه أودول).

يظهر ، بمنجاة من الخطر . كانت شعبية العياشي وصلت إلى أوجها ، حيث تواردت عليه رسائل الاعجاب والمساندة من جهات كثيرة من المغرب ، وبالأخص من أعيان فاس وشرفائها وعلمائها ومن شيخ الزاوية الدلائية . ونظم الأديب المعروف المكلاتي قصيدة في مدحه .

كان العياشي ، إذن ، قد بلغ آنذاك قمة مجده . فكانت حركته سببا في إثارة ردود فعل عديدة بالمغرب ، تجلت في مراسلات ومواقف وتصريحات ، صادرة عن شخصية كبيرة من عدة أماكن بالبلاد . وكل هذا يترك ، اليوم ، في نفس القارىء انطباعا قويا بوجود حركة وطنية مبكرة أو ، على الأقل ، بوجود تخوف عام على مصير الوحدة الوطنية المهددة من جهتين في نفس الوقت : الدسائس الأجنبية والشقاق في صفوف المغاربة . ولاشيء أدل على وجود هذا الشعور الوطني من بعض الفقرات التي يمكن أن نقتطفها من مراسلات العياشي . ففي رسالة وجهها لشيخ الزاوية الدلائية يؤكد له عزمه القوي على تحرير المعمورة من قبضة الاسبان فيقول :

« وقد سمعتم رضى الله عنكم خبر هذه الغزوة التي كيفها الله تعالى على المعمورة ، وامتلت أمره في رقاب الكفرة السيوف المأمورة . وبلغكم من شرحها ما لم يحتج إلى إعادة ، ولا افتقر إلى زيادة . وقد قوي الأمل في الله سبحانه أن تكون تلك الغزوة مفتاحا لفتحها ومقدمة تستلزم لعزائم الاسلام نتيجة نجحها فالمسلمون نازلون الآن بعقر دارها ، ومرسلون الصواعق على أسوارها ، حتى تغرق إن شاء الله تبارك وتعالى بكفارها ، ويأذن الله عز وجل ببوارها وتطهيرها من أدناسها وأوضارها ، وعودها إلى ملك الاسلام بعد أبوقها وفرارها . هذا الذي انعقدت عليه النية ، وانطوت عليه الحنية . لكن ، ياسيدي ، أين المساعد ، والأمر لاينهض به الواحد ؟ المسلمون جبر الله صدعهم ، وسير على مايرضيه جمعهم ، لايتفق لهم رأي ولا يثبت لهم حفظ لحمى الاسلام ولا رعى ، حتى إن افتراق كلمتهم أضر على الاسلام من اجتماع عدوه » .

نص يتضح منه مدى انشغال الأفكار آنذاك بالتوصل إلى إيجاد وحدة وطنية حقيقية لمجابهة العدو الأجنبي في الميدان . وقد اعتمد العياشي ، في البداية ، على تلقائية المغاربة في التطور للجهاد ، فكان موقفه موقف المجاهد الذي يكتفي بجمع المتطوعين حوله وبتسيير العمليات العسكرية . ولم يكن يعير التفاتا كبيرا للجانب السياسي الذي كان مطروحا بكامله في الساحة المغربية .

كان العمل العسكري يقتضي عملا



أحد أبراج أسوار سلا التي مكّنت من الصمود أمام الغزاة .
(كليشه أودول).

سياسيا موازيا يهدف إلى توحيد كلمة المغاربة وتنحية كل أسباب الغموض والالتباس التي كانت تشل الأفكار وتفتر العزائم وتبث اليأس في النفوس . ولطالما حاول كثير من المغاربة ، من بينهم زعماء وشيوخ زوايا وعلماء ، أن يقنعوا العياشي بتولي الحكم ، الذي كاد يصبح في حكم العدم مع تدهور الدولة السعدية . ولكن المجاهد كان يجيب برفض الاقتراحات التي من هذا النوع ، ويحافظ على علاقات الولاء مع السلطان السعدي ، ويكتب إليه بقصد النصيحة أو التذكير بالواجب .

فما الذي جعله ، ياترى ، يبالغ في التعفف عن تولي زمام الحكم في البلاد ، وكان في مستطاعه أن يتوصل إليه ؟ إن تجرده عن الطموح السياسي يمكن تفسيره بتربيته الصوفية ، وبصدق شعوره الوطني : فقد كان يخشى أن يزيد في تفاقم الشقاق داخل المغرب ، سيما والدولة السعدية كانت في حالة احتضار والطامعون في وراثتها كثيرون ، والأفق قاتم ينبىء بقيام صراعات عنيفة ومواجهات دامية بينهم .

في مواجهة المعترضين

تردد العياشي زمانا طويلا ، وظل متمسكا بموقف التعفف والرفض ، لكنه أدرك في الأخير أن عمله سيبقى عقيما ويذهب سدى ما لم تكن وراءه دولة منظمة وقائمة على أسس شرعية ، دولة قادرة على تجنيد الناس والموارد والحصول على كلمة مسموعة في عموم البلاد . وبدأت الفكرة تختمر في ذهنه ابتداء من الوقت الذي أعلن فيه أهل فاس تخليهم عن البيعة للدولة السعدية سنة 1632 ، وكتبوا له بهذا المعنى معبرين عن استعدادهم للاعتراف به سلطانا على البلاد .

قبل العياشي ، لكن بشروط وتحريات . فقام ، أولا ، باستفسار عام في المغرب وحصل على موافقة أهل مكناس ، وقبائل الشاوية وتطوان . ومد يده لأبي حسون السملالي بسوس ، ليتخذ منه حليفا في حربه مع الاسبان . ولكنه اصطدم بعداء الزاوية الدلائية التي لم يعد رجالها ينظرون إلى المجاهد وعمله بعين العطف والتأييد كما كان في البداية . ومن ثم ، يتجلى أن التحرك السياسي للعياشي جاء بعد فوات الأوان .

وإذن ، أصبح هنالك تخوف من كون العياشي ربما أخفق في جمع المغرب حوله ، وهذا ما حدث بالضبط . وكما أشرنا من قبل ، كانت سلطته تغطي قسما مهما من المغرب يشمل المنطقة الممتدة من أم الربيع إلى الشواطىء الشمالية في الجهة الغربية . ولكن لم يكن في مستطاعه أن يتجاوز تلك الحدود دون أن يصطدم مع قوات سياسية أخرى مهيمنة على أقاليم ذات أهمية مثل الأطلس الكبير وسوس ، الخ . والواقع أن المغرب كان موزعا آنذاك على أربعة كيانات سياسية كبيرة ، بالاضافة إلى إمارات ومشيخات محلية :
ومشيخات محلية :

1 – مراكش وناحيتها التي كانت ماتزال بيد المتأخرين من الملوك السعديين .



أحد مدافع تحصينات مدينة سلا .
(كليشه أودول).

2 – سوس حيث كانت تقوم إمارة شريف تازروالت أبي حسون السملالي .

3 – الأطلس المتوسط والشمال الشرقي حيث يمتد نفوذ الزاوية الدلائية

4 – تامسنا والشمال الغربي ، منطقة نفوذ العياشي .

قام نوع من التوازن بين تلك الكيانات ، ولكنه توازن ظل هشا للغاية ، نظرا للظرفية السياسية وللوضعية الاجتماعية في البلاد . وعزم العياشي ، في هاته المرة ، أن يضع حدا لوجود الدولة السعدية المحتضرة ، وسعى ، في هذا الصدد ، للحصول على تحالف مع الدلائيين ، من جهة ، ثم إلى تدعيم العلاقات الودية مع الدلائيين من جهة أخرى وتدعيم العلاقات الودية مع انجلترا للحصول على السلام ، إلا أنه صادف تهربا من الطرفين ، في الوقت الذي كان في أشد الحاجة إلى دعمهم ، بحيث إنه وجد نفسه في مأزق .

نهاية العياشي

مهما يكن ، فإن العياشي قرر أن لا يعتمد إلا على نفسه وعلى وسائله الخاصة ولو كانت محدودة . لكن سرعان ما تطورت الأمور في اتجاه لا يخدم قضيته . فقد أعلنت الزاوية الدلائية عن معاداتها له بصورة مكشوفة . بل إن شيخها محمدا الحاج قلب ظهر المجن وشرع في سياسة التقارب مع السعديين بمراكش .

وحاول العياشي أن يعيد شيئا من البريق لسمعته والنفوذ لسطوته ، باستئناف عمليات الجهاد . فقاد هجوما جديدا على مازيغن (الجديدة) سنة 1639 ، ونجح في اجتذاب البرتغاليين إلى كمين بخارج . وسحقهم سحقا ، إلّا أن التهديد في تلك الآونة لم يكن آتيا من جهة الأجانب بالنسبة للعياشي ، بل من جهة المغاربة . وهكذا ، وجه محمد الحاج الدلائي الذي أصبح حليفا لمحمد الشيخ الأصغر (1636 – 1654) ، وهو السلطان الذي كان قبل آخر سلاطين الدولة السعدية ، إلى العياشي يخاطبه بلهجة جديدة لا عهد لها بالمراسلات السابقة ، فيفهمه أنه أصبح المدافع عن دولة السعديين وأن عليه أن يلتزم حدوده ويحترم حقوق الدولة واختصاصاتها . ونشب جدال عنيف بين الرجلين تحول فيما بعد إلى نزاع مسلح . والواقع أن زعيم الدلائيين إنما كان يبحث عن ذريعة للهجوم العسكري على صديقه بالامس وعدوه باليوم .

وسنحت الفرصة مع قضية الموريسكيين . ذلك أن العياشي قرر أن ينتقم من هؤلاء متهما إياهم بتهمة جد خطيرة : خيانة الاسلام والوطن . وتدخل محمد الحاج يتشفع لهم لدى المجاهد . إلا أن هذا الأخير رفض الشفاعة ، فكان ذلك نذيرا بقيام سلسلة من المعارك الدامية بين الرجلين .

وجد العياشي نفسه معزولا وسط هاته الحرب القائمة بين المغاربة ، يواجه تواطؤا بين الدلائيين والسلطان السعدي ، وعدد من القبائل الثائرة عليه من قبل ، بالاضافة إلى الدسائس الأجنبية . ولم يفت ذلك في عضده ، بل واصل نضاله بشجاعة وصمود ، مؤمنا بأن الحق في



رسم للسفير جؤذر بن عبد الله الذي تحدث في كتاباته كثيرا عن العياشي ، عندما كان هذا "السفير" ممثلا للسلطان مولاي محمد الشيخ الصغير لدى البلاط سنة 1637 .

جانبه . لكن الاعداء تكاثروا عليه وتمكنوا من القضاء عليه ، عن طريق الاغتيال ، ففي سنة 1641 ، بينما كان مقيما بمعسكر له قرب القصر الكبير ، إذ أعلم بأن جماعة من الناس وفدوا عليه ليقدموا له البيعة . فلما خرج إليهم هجموا عليه وقتلوه .

والواقع أن أعداءه ، إن توصلوا إلى القضاء عليه كشخص وكجسد ، فإنهم لم يتوصلوا إلى القضاء على فكرته ، وعلى مشروعه الذي نال رسوخا أكبر في ذهن المغاربة بما قدر للعياشي من موت لا يعرفها إلّا أبطال التاريخ . بل إنهم بتواطئهم حكموا على أنفسهم بالاعدام ، أيضا . فالدولة السعدية لم تعش طويلا بعد العياشي . والدلائيون ، من جهتهم ، أضاعوا الكثير من سمعتهم في هاته المأساة ، وآلت حركتهم إلى الاخفاق التام ، على المستوى السياسي .

ولكن الشيء الكبير الذي ربحه المغرب من حركة العياشي هو تلك الانتفاضة التي وقعت في الضمير الوطني ، الذي كان قلقا من جهة الأزمة الكبيرة التي كانت تعاني منها البلاد منذ نصف قرن ، والتي تولد عنها شقاق وتمزق والتي كانت تعرض مصير البلاد لأطماع الطامعين في الخارج ، وما أكثرهم ! صحيح أن العياشي لم يكن دائما موفقا كرجل سياسي بسبب استقامته وتعففه عن استعمال وسائل المداورة والدهاء ، ولكن المثال الذي قدمه للمغاربة كان له ما بعده في الخروج السريع من تلك الأزمة الخطيرة ، وهذا ما تجلى في تطورات حاسمة نذكر منها ، على الخصوص :

– قيام دولة جديدة بالمغرب ، هي دولة العلويين التي وضعت في حسابها منذ اللحظة الأولى التصدي للوجود الأجنبي بالمغرب وتصفية عوامل الشقاق وإرجاع البلاد إلى طريق الاتحاد في إطار النظام والانضباط ؛ وتوصلت في ذلك إلى نتائج إيجابية

– تحرير الساحل الأطلسي المغربي من الاحتلال الأجنبي .

وهكذا نجد العياشي قد عمل في الاتجاه الصحيح للتاريخ الذي بين أن الحق معه ، ولكن بعد موته .

ولا بدع في ذلك ، فتلك ظاهرة من ظواهر المأساة البشرية .

مذكرات من التراث المغربي

قراصنة سلا

في القرن السابع عشر وفي مدينة سلا نشاهد شكلا جديدا من الكفاح ضد الامبريالية الأوروبية ينشأ ويترعرع في تلك الآونة وكأنه جاء ليحل محل الجهاد الكبير الذي كان يقوده العياشي . ونعني به حركة القراصنة التي كانت لها خصوصيتها وخلفيتها التاريخية التي لابد من الاطلاع عليها لادراك أهميتها ومغزاها ولعل هناك من يتعرض علينا لاحتفاظنا بكلمة قرصان وقراصنة بدل مجاهد ومجاهدين بدعوى أن الكلمة فيها تنقيص . ولكننا ، كمؤرخ ، نحتفظ بالاسم الذي عرفوا به في وثائق العصر والذي يميزهم عن غيرهم . على أن اللفظة ، إذا رجعنا إلى أصلها في اللغات الأوروبية ، لاتدل مطلقا على أي تنقيص . فنجد ، مثلا ، المعجم الفرنسي ليتري يعرف القرصان هكذا : « إنه وصف للسفن التي كانت تجهز ببلاد المغرب للهجوم على النصارى » أي ما تسميه بلغتنا العربية سفنا معدة للجهاد .

وعلى أي ، فإن حركة القرصنة كانت بالنسبة للمغرب استئنافا لنشاط بالبحر حدث توقفه منذ أزيد من قرنين . كيف حدث ذلك التوقف ؟ من المعلوم أن المغرب الكبير وقع انقسامه إلى عدة دول بعد انقراض الدولة الموحدية في القرن الثالث عشر الميلادي ، مما أدى إلى صراعات داخلية أضعفته أمام خصومه من الدول المسيحية الصاعدة التي برزت قوتها الناشئة في التفوق البحري . فاستطاعت بدافع عدائها للمسلمين أن تضع خطة محكمة للتضييق عليهم وسارت في تنفيذها قدما إلى أن توصلت إلى تحقيق مآربها . وكانت تلك الخطة تستهدف أساسا ، في إطار استراتيجية طويلة المدى ، أن تمنع البحر على دول المغرب ، في مرحلة أولى ، وأن تستولي عليها ، في مرحلة ثانية . وحاول المرينيون أن يجابهوا هذا التحدي الخطير ويؤسسوا أسطولا كبيرا ، ولكن ما أصابهم من هزائم وكوارث سرعان ما قل عزائمهم وأدى إلى غياب المغرب عن البحر . ولا نحتاج إلى الالحاح طويلا على العواقب . فهو غياب يدل على ضعف وتدهور عام ، وبالأخص من الناحية العسكرية ، مما يفتح أبواب الأطماع . وهو غياب له انعكاساته السلبية على الاقتصاد ، إذا علمنا أن بلاد المغرب كانت تعتمد كثيرا على المبادلات التجارية مع الدول الأوروبية الواقعة في شمال البحر المتوسط .

أصبح إذن من الصعب ، إن لم نقل من المستحيل ، على دول المغرب أن تزاول تجارتها في ذلك البحر بسفنها الخاصة ، وأتت الصعوبة من التواطؤ الذي حصل بين الممالك الايبيرية والمدن الايطالية التي آلت إلا أن تركز هجومها على الدول المغربية ، مبتدئة بحصار مستمر لشواطئها مع النية المبيتة في إرداف ذلك الحصار بتوجيه حملات عسكرية بحرية على موانئها . ودون أن نتتبع جميع التطورات بتفاصيلها ، لنكتف بتسجيل نتائج الخطة المدبرة . فقد استطاع البرتغال أن يحتل معظم المدن المغربية في الساحل الأطلسي ، ولم تفلت من يده إلا مدينة سلا . وكانت اسبانيا ، من جانبها ، تقوم بنشاط إرهابي على ساحل المغرب المتوسطي ، حيث استولت على مليلية وغساسة وغيرهما !!

ووجد المغرب نفسه في حالة اختناق ، سواء على المستوى السياسي وعلى المستوى الاقتصادي ، لما تطور الحصار إلى هجوم منظم . وكان البرتغال ، مثلا ، يرمي من وراء عمله العدواني ، إلى التفرد بالاستيلاء على الذهب الوارد



تصميم مرسى مدينة سلا 1671 .
(التوثيق الوطني باريس) .

من السودان وعلى الحبوب والماشية التي كانت تنتجها البلاد . وغني عن البيان أن التحولات الاقتصادية الجارية في العالم المعاصر على إثر التغيير الكبير الذي طرأ على الطرق التجارية الدولية ونتائج الاكتشافات الكبرى في نواحي الكرة الأرضية ، كان لها انعكاسات سلبية على مجموع البلاد المغربية إذ أصابت في الصميم تجارتها البحرية والبرية ، لأنها ظلت معطلة الحركة داخل حدودها بسبب الحصار المشار إليه آنفا ، فلم تستفد قط من التطورات التي أتت بكل خير وبركة على البلاد الأوروبية .

لكن متى سيتحمل المغرب وضعية كان فيها مساس بكرامته وتهديد لحياته وخنق لاقتصاده ؟ لقد بين المؤرخ شارل أندري جوليان في كتابه الأخير **المغرب في مواجهة الامبرياليات** كيف برز المغرب الحديث إلى الوجود ، فوجد أصوله ترجع إلى هذا العصر ، الذي وعى فيه الشعب المغربي بالقوات الطاغية ، قوات الدول التي بدأت تفكر في بسط سيطرتها على العالم ، فقرر أن يجابه هجوم الامبرياليات . هذا الكفاح الوطني الذي لم يصبه كلل ولا فتور هو الذي تجندت له جموع المجاهدين في كل مكان وهو الذي طبع القرون الأربعة الأخيرة من تاريخ المغرب بطابع الوحدة وجعل لها ميزات واضحة ، بحيث أن الوقائع التاريخية تتراءى لنا كخليط من الأحداث التي يكون لا معنى لها ولا ارتباط فيما بينها إذا غابت عنا تلك الميزات .

ولقد تقدم ونحن نتحدث ، مثلا ، عن ظهور الدولة السعدية أو عن نشاط المجاهد العياشي ، أن تطرقنا إلى وسائل المقاومة الشعبية واتجاهاتها المذهبية ونتائجها ، مما يغنينا عن العودة إليها بالتفصيل .

السعديون والبحر

يبقى علينا ، الآن ، أن نخصص جزءا من اهتمامنا لجهاد المغاربة بالبحار ، أو ما يسميه المؤرخون الأوروبيون بـ « حركة القرصنة » .

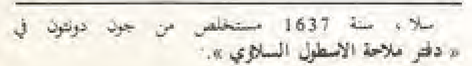


وإنه ، بالفعل ، لصراع يستأهل منا التفاتا خاصا ، سيما إذا أردنا أن نضعه في سياقة التاريخ الحقيقي ، بتخليصه من التحاملات والافكار المسبقة والتأويلات المغرضة وما يصدر عن أنانية الأوروبيين وكبريائهم .

من نتائج معركة وادي المخازن (1578) أنها مكنت المغرب من كسر السدود التي كانت تحول دون اتصاله بالخارج ، وفسحت له المجال لتنمية علاقاته التجارية مع عدد من الدول الأوروبية ، وخاصة انجلترا وفرنسا والبلاد المنخفضة . لكن لم تكن لديه ملاحة حقيقية معززة بأسطول في مستوى أساطيل الدول الأوروبية المعاصرة . فكانت السفن الأوروبية هي التي تقوم ، في غالبية الأحيان ، بنقل البضاعة التجارية ، سواء عند التصدير أو الاستيراد ، أي تقوم بالمحافظة على سير المبادلات بين الجانبين .

فهل معنى ذلك أن السعديين لم يعيروا أي التفات لتأسيس بحرية مدنية أو عسكرية ؟ سنكون غير منصفين إذا أجبنا بالسلب عن هذا التساؤل . فنحن نعرف ، حسب مصادر موثوق بها ، أنهم شرعوا ، منذ 1549 ، أي بعيد استيلائهم على الحكم ، في إعادة بناء البحرية المغربية التي لم يبق لها وجود ، بالفعل ، منذ عهد السلطان أبي الحسن المريني (1331 / 1349) . وهكذا ، أقدم محمد الشيخ على فتح ورشين أحدهما في باديس بالريف والآخر في مدينة سلا . فبنيت عدة سفن في الورشين.

ولئن أغفل المؤرخون المغاربة هذا الموضوع فلم يعيروه كبير اهتمام ، فإنه ، والحق يقال ، يعني حدثا ذا أهمية تاريخية بالنسبة للباحث الذي ينبش في ماضي المغرب . يكفي أنه رفع من معنوية الدولة المغربية . فأخذ السلطان السعدي يفكر ، مثلا ، في مشروع يهدف لنجدة مسلمي الأندلس باسبانيا ، الذين كان عددهم مايزال


سلا ، سنة 1637 مستخلص من جون دونتون في « دفتر ملاحة الاسطول السلاوي ».

كبيرا برغم ما عانوا من قساوة محاكم التفتيش وما تعرضوا له من أنواع الاضطهاد . كما أن السلطان أنه بدأ يفكر بجد في طرد البرتغاليين من المراكز التي كانوا يحتلونها بالشواطىء المغربية باستعمال قواته البحرية الناشئة إلى جانب القوات البرية .

إلا أنه اضطر للتخلي عن كل هاته المشاريع بسبب هجوم الأتراك من الجزائر على المغرب . فوجد محمد الشيخ نفسه في ضرورة لا مفر منها ، ألا وهي التحالف مع اسبانيا .

وعرف الأسطول الناشىء أياما أفضل في عهد خلفي محمد الشيخ عبد الله الغالب بالله وعبد الملك . وأما في عهد المنصور الذهبي ، فإن هذا السلطان نهج سياسته مبنية على التفاهم والتعايش السلمي مع اسبانيا وأتراك الجزائر على السواء ، ليتوجه بكل ثقله السياسي والعسكري نحو الفتوح في القارة الافريقية . فيظهر أنه أهمل بسبب ذلك الأسطول الذي تدهور تدهورا إثر وفاته وما ترتب عنها من أزمة سياسية حادة في البلاد .

وأعاد القرن السابع عشر نفس المشاكل التي عانى منها المغرب في بداية القرن السادس عشر . فتعرض ، من جهة ، لهجوم اسباني كان القصد منه استيلاء اسبانيا على مراكز جديدة في السواحل المغربية . كما انبثق فيه ، من جهة أخرى ، رد فعل وطني جريء بقيادة العياشي الذي ، وإن لم يتمكن من الحصول على نتيجة حاسمة ، توصل ، على الأقل ، إلى بث روح الجهاد والنضال الوطني .

كان الجو ، إذن ، مفعما بفكرة الصراع والحرب ، وفي سياقه نشأت حركة القرصنة بسلا . وإذا كان الموضوع لم يبحث بصورة نهائية ، فيغلب على الظن أن المورسكيين الذين طردوا مؤخرا من اسبانيا كان لهم النصيب الأوفى في تأسيسها وتنشيطها ، مدفوعين إلى ذلك بقوة إيمانهم ، وبرغبتهم الملحة في أخذ الثأر من النصارى الاسبان . ولربما كانت الانطلاقة الأولى من سلا الجديدة أي الرباط حيث التجأ الكثير



كانت ضفتا نهر أبي رقراق قد أقحمتا معا في المعركة .

من المورسكيين المهاجرين . لكنّ التطورات التالية تبرز أن ضفتي أبي رقراق كانتا داخلتين في الصراع البحري .

ولا شك أن الموقع والتشكيل الجغرافي لمصب النهر القريب من مضيق جبل طارق خول للقراصنة قاعدة جيدة تسهل عليهم الهجوم على السفن الاسبانية المارة من طريق العالم الجديد والتي كانت تسير في خط يحاذي ساحل المغرب الأطلسي إلى أن يصل إلى موريتانيا ومن هنالك ينعطف نحو جزر الأنتي . كانت العدوتان ، الرباط وسلا ، منظمتين آنذاك على نمط دويلتين ، تتمتعان باستقلال ذاتي واسع ، مما جعلهما تنغمران في نشاط القرصنة بكامل الحرية وتنافسان مدينتي الجزائر وتونس في عملهما . فكان قراصنة سلا يتوغلون بعيدا في آفاق البحار فيصلون إلى أراض مثل إيرلاندة و الأرض الجديدة (Terre-Neuve) .

ويجب أن نذكر بهذا الصدد أن الظرفية الاقتصادية بالنسبة لأوروبا كانت خاضعة لتأثير عوامل مشجعة منها تقدم الملاحة على المستويين التقني والتجاري ، والشروع في استغلال العالم الجديد ، والأخذ بمذهب « المركانتيلية » والبحث عن المعادن النفيسة . فكان من نتائج ذلك أن أصبحت حمولة تجارية مهمة تمر أمام شواطىء المغرب وهو طريق ضروري بالنسبة لها . وهكذا وجد القراصنة أمامهم ميدانا فسيحا وسهلا للقيام بعملياتهم والحصول على مردودية كبيرة . وقد دلت العمليات الحسابية على أن سنة واحدة من مداخيل الديوانة بسلا كانت ، في عهد المنصور ، تعدل بمداخيل الضرائب كلها بعموم المغرب . وأما البضائع التي كانت تحصل في الغنائم فحدث عنها ولا حرج ، إذ كانت تشمل

في جملة ما تشمل لفائف من الملف والكتان والتوابل ، وغيرها مما لا يدخل تحت الحصر . وكانت تجمع في المدينة لتبتع بثمن جيد للتجار الأوروبيين .

وكان الأسطول يضم ما لا يقل عن ستين سفينة وهو أعلى رقم . لكن الرقم المعتاد كان يتردد بين 30 و 40 وكانت الوحدات المستعملة تختلف من حيث الشكل والاسم . فهنالك أنواع مثل طرطان TARTANE وشبيك CHEBEC وكاليوت GALIOTE وفريكاط FRÉGATE وبريكانتان BRIGANTIN وكارافيل CARAVELLE، إلخ . وكل هاته السفن كانت تتميز بسرعتها وطاقتها الهجومية .

ويقول الباحث الفرنسي كواندرو في كتابه عن القراصنة :

« **الخفة ورشاقة الشكل وسهولة الاستعمال كانت هي ، إذن ، الصفات الجوهرية التي نجدها في أعلى مستوى بسفن القرصنة السلاوية** ».

أما عن أصل المراكب ، فقد كانت إما تشترى من الخارج وإما تصنع في الأوراش المحلية وإما ما يحصل عليه كغنيمة أثناء عمليات القرصنة . وعلى أي ، فلم يكن **الرياس** الساهرون على نشاط القرصنة يصادفون أي مشكل من هاته الناحية . فكانت هنالك عدد من الأوراش تعمل جادة في صنع السفن بمصب أبي رقراق وتساهم ، بصورة فعالة ودائمة ، في تجهيز الأسطول . وكان أصحاب صناعة السفن يتزودون من الخشب الجيد بكل سهولة في غابة المعمورة التي كانت آنذاك أكثر اتساعا وغنى مما هي عليه الآن .

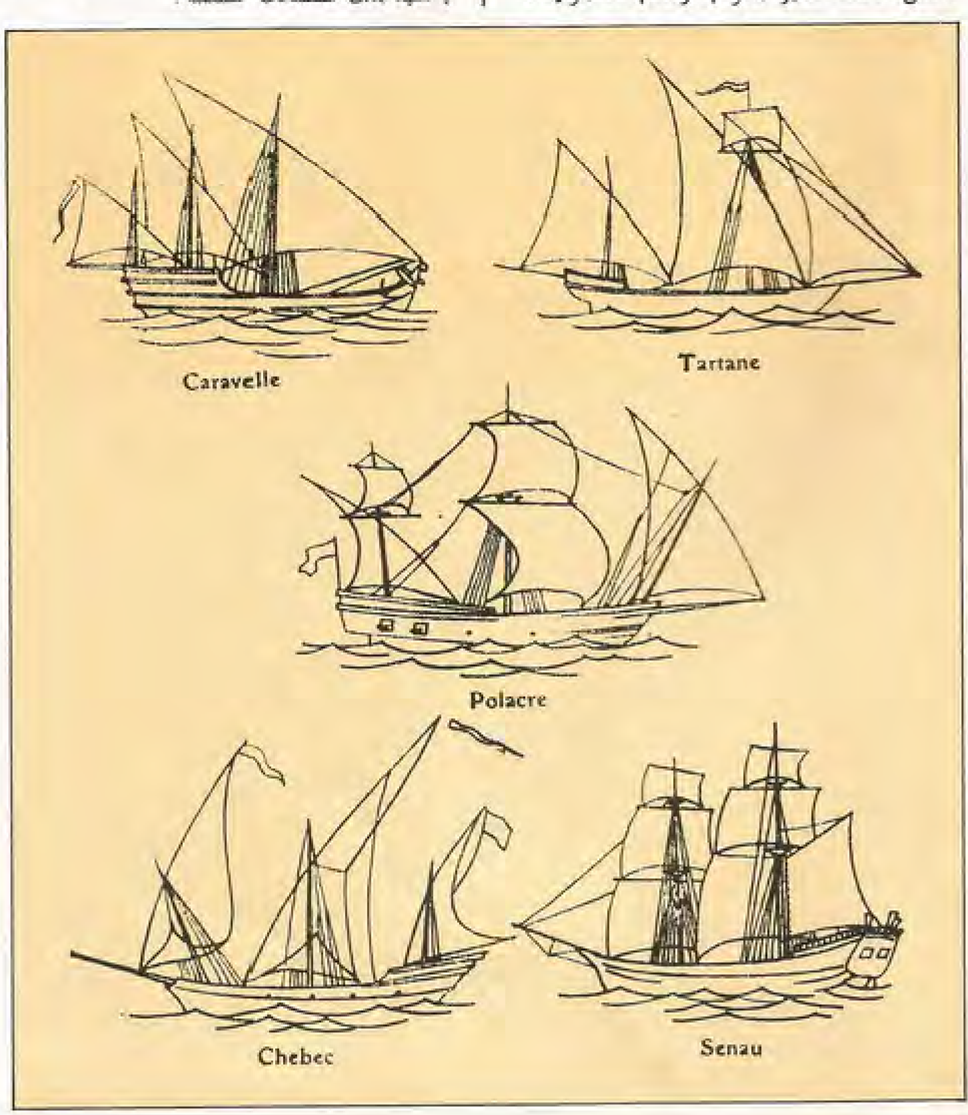
وأما البحارة ، فكانوا من أصول مختلفة . من بينهم أوروبيون ، أسروا واعتنقوا الاسلام أوتعاطفوا مع القراصنة . فنجد من بين **الرياس** أسماء أوروبيين أسلموا .

لكن العنصر الأكثر وجودا في صفوف الحركة ، كانوا هم المورسكيين . فقد توارَدوا على المغرب من قشتالة في 1609 ومن الاندلس في 1610 ومن مرسية في 1614 . وقد تفرق الوافدون من مرسية على كل الجاليات من مسلمي الأندلس المستقرين بكبريات المدن المغربية . وكان في صفوف الحركة ، أيضا ، متطوعون من أهل سلا وناحيتها ، نظرا لما تأصل في مجتمعهم ، منذ عهد الأدارسة ، من تقاليد الجهاد .

وكثيرا ما كان المجهزون لأسطول القرصنة من الهرناخيين القادمين من هرناخة وهي مدينة صغيرة تقع على بعد خمسين كيلومترا جنوب شرقي ماردة ؛ وقد عرف الهرناخيون بحيويتهم ونشاطهم وغناهم . فلما هاجروا إلى المغرب ، استقروا ، في خاتمة المطاف ، في قصبة الرباط ، المعروفة حاليا بقصبة الأوداية ، فكونوا العنصر الفعال والمسيطر بين سكان المدينة . إذ تولوا إدارتها على شكل جمهورية صغيرة ، تتمتع باستقلال واسع عن الحكم المركزي .

وقد بلغت القرصنة السلاوية أوجها أثناء النصف الأول من القرن السابع عشر . ووجد القراصنة السلاويون مساعدة من الأتراك ، ومن المغامرين الأنجليز بالمعمورة ، أي مدينة المهدية ؛ فشنوا هجومهم في البداية على السفن الاسبانية والانجليزية و غنموا جملة من وحداتها . ثم جاء

كانت الوحدات المستخدمة تختلف من حيث أحجامها وتسمياتها كما تشهد بذلك المصطلحات المستعملة .



مذكرات من التراث المغربي

الرد الاسباني باحتلال المعمورة سنة 1614 فأثار حركة العياشي كما رأينا . وصادف القراصنة خير حليف لهم في البلاد المنخفضة (هولاندة) التي قدمت لهم ، أثناء **حرب الثلاثين سنة** ، مساعدتها في حربهم على الاسبان ، وشجعتهم ، في نفس الوقت ، على مهاجمة السفن الانجليزية ، التي كانت تنافسهم على المستوى التجاري .

فإذا انتقلنا إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر وإلى القرن الثامن عشر ، نجد نشاط القرصنة يتواصل ، ولكن مع بعض الفتور ؛ والسبب يرجع إلى كونها لم تبق نشاطا حرا كما كان في البداية يشجع القائمين به بما يدر عليهم من أرباح بل أصبحت الدولة تتدخل في شأنه وتهيمن عليه وتأخذ قسطا كبيرا مما كان يتحصل من أرباحه .

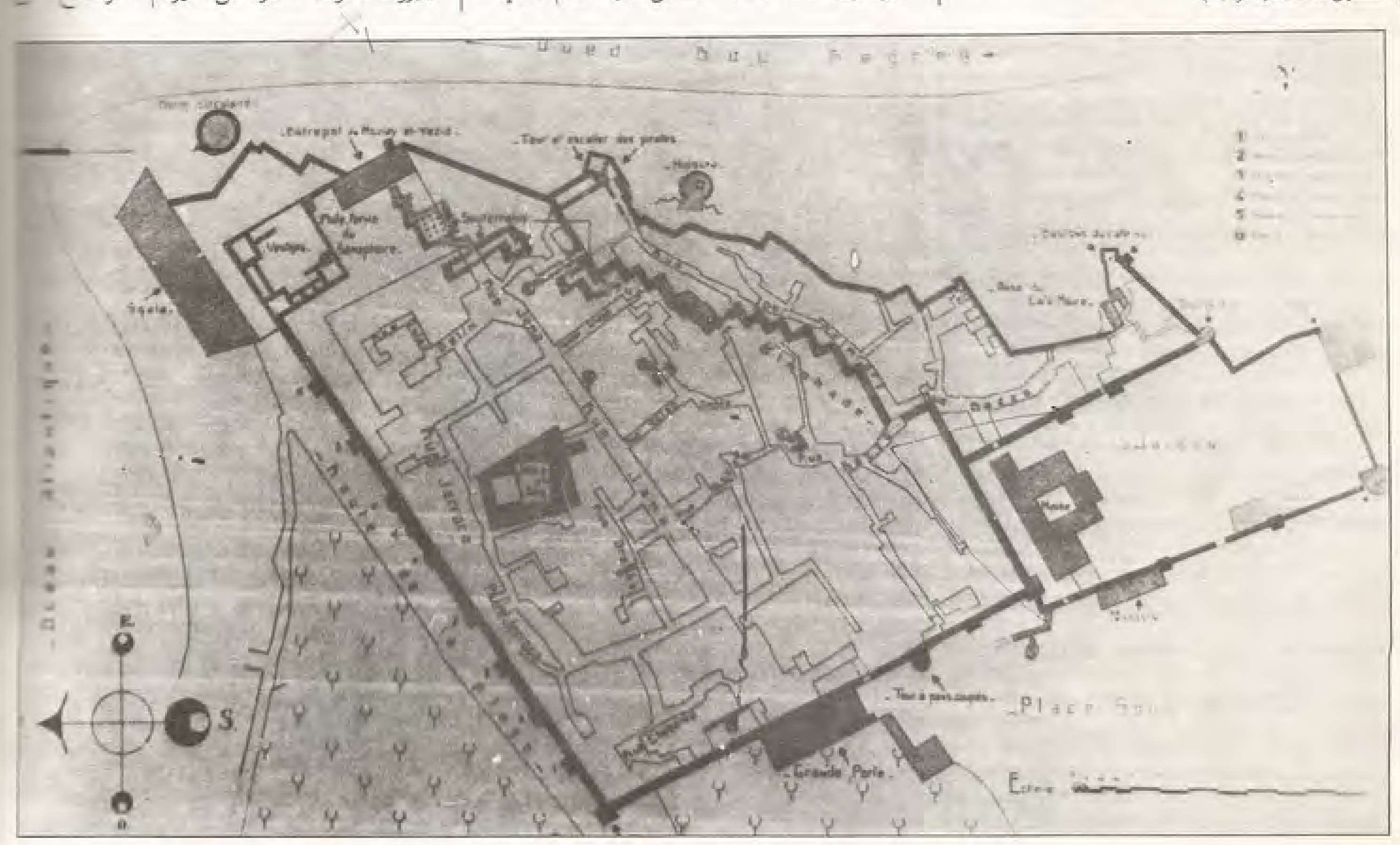
وقد اشتهر عدد من **الرياس** ومنهم **مراد رايس** ، المعروف بهجومه على مدينة في جزر الكناريـاس ، و **القايد موراطو** الذي قاد حملة جريئة إلى ايرلاندة في 1627 وأخرى إلى ايرلاندة في 1631 . وأما **عبد الله بن عائشة** ، فقد عرف بأعماله البحرية المتعددة ، كما اشتهر كسفير للسلطان المولى إسماعيل لدى لويس الرابع عشر . وهنالك رياس آخرون مشهورون مثل على الحكم ، وفنيش ، وروساي ، و معيزة ، ومحمد التاج ، وقنديل .

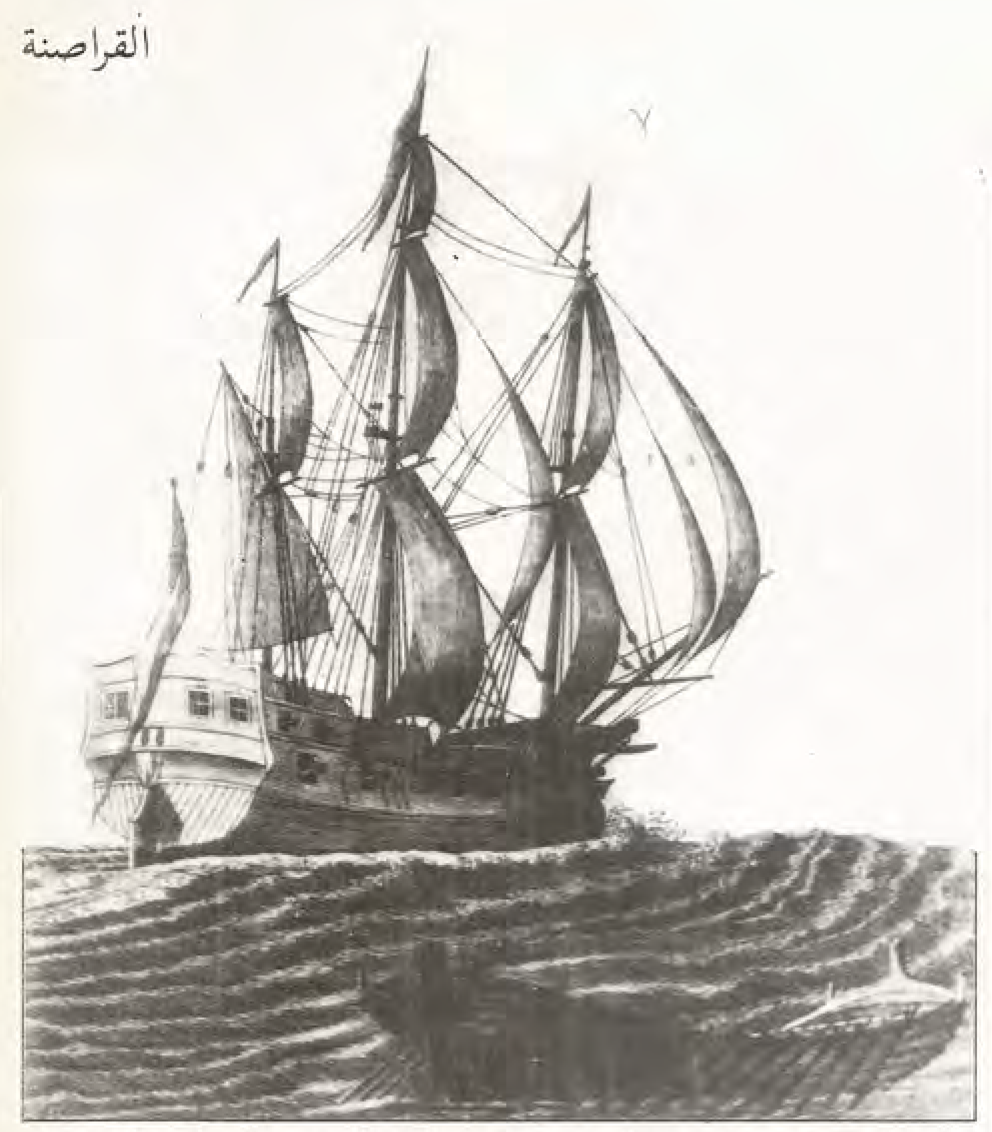
كانت السفن تتزود بمؤونة تكفيها لخمسين يوما وتخرج إلى عرض البحر في فصل الربيع ابتداء من شهر مايو فتتوزع إلى فرق من سفينين أو ثلاث سفن وتقوم بدوريات من حول شواطىء اسبانيا والبرتغال ، وربما توغلت بعيدا في البحر نحو انجلترا ، وإذا تحققت من تفوقها ، حاولت أن تقوم بإرساء مباغث، تحصل منها غنائم . فإذا أتمت عملياتها ، رجعت إلى سلا قاعدتها الأصلية .

وكانت الغنائم المترتبة عن هاته الحملات وفيرة وتتكون من بضائع مختلفة ، بالاضافة إلى الأسارى ، الذين كانوا يباعون بالمزاد أو يردون إلى ذويهم مقابل فدية . وهكذا أسر مائتان من الرقيق سنة 1636 في يوم واحد بيليموث في الوقت الذي كان فيه في سجون سلا ثلاثة آلاف من أسرى النصارى . وورد في شهادة معاصرة أن أكثر من ألف سفينة نصرانية من كل البلاد استولى عليها القراصنة فيما بين 1620 و 1630 . وأما البضائع ، فكان يعاد بيعها لتجار أوروبيين بربع ثمنها ، فكان المهربون الاوروبيين يستفيدون كثيرا من العملية .

كانت سلا رابعة المدن القرصانية ، بعد الجزائر وتونس وطرابلس ، ولكن بحارتها كانوا يثيرون الخوف أكثر من غيرهم . ولنطلع على

كان مجهزوا أسطول القراصنة من أكبر الأغنياء الاندلسيين المستقرين بالقصبة (الأوداية).





أحد المراكب الضخمة ذات الأعمدة الثلاثة أو الأربعة التي كانت تمكن من إتيان الخوارق .
(مستندات الرباط) .

شهادة ضابط هولاندي إذ قال ، سنة 1617 :

« قبل سنة لم يكن أهل سلا يملكون سفينة واحدة . وهاهم اليوم يتوفرون على أربع سفن . وسيصبحون ذوي قوة عظيمة إذا لم نحسب لهم حسابهم ».

وفي القرن الثامن عشر تحولت القرصنة ، نوعا ما ، إلى نشاط بحري تابع للدولة . وبعد انتهاء الأزمة السياسية الخطرة ، التي تلت وفاة المولى اسماعيل سنة 1727 ، عادت في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله . ذلك أنها كانت تحظى بسمعة كبيرة في أوساط الشعب . وهكذا توجه وفد من العلماء والاعيان من سلا والرباط إلى السلطان المذكور يرجونه أن يعيد للجهاد البحري سطوته القديمة ، إذ إنهم لا يعتبرونه لصوصية كما يدعى ذلك الخصوم ، بل جهادا . وأقيمت أوراش لصناعة السفن على ضفاف أبي رقراق وفي العرائش . وبلغ عدد الرياس في عهد سيدي محمد بن عبد الله ستين ، وكانوا على رأس أسطول مجهز بالمدفعية ويعمل فيه أربعة آلاف من البحارة . ومن بين الرياس ، تذكر المصادر أسماء صالح ، وعلى بيريس ، وعمر والطرابلسي ، والصابونجي ، وعواد ، ويعقوب ، وأحمد الكوار .

لكن القرصنة لم تبق لها آنذاك الخطورة والفاعلية اللتان كانتا لهما قبل ، وذلك نظرا للتقدم الذي حققته البحرية الأوروبية ، على المستويين التقني والعسكري ، بحيث كان ظهورها من جديد ذا صبغة رمزية . لا فعلية .

بعد هاته النظرة العجلى يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان من الممكن أن نعتبر حركة القرصنة كنشاط بحري طبيعي وسليم وجدير ببلد متحضر . ألم يحاول عدد من المؤرخين العرب أن ينعتوا دول المغرب باسم **الدول المتبربرة** أي المتوحشة لأنها كانت تتعاطاها ؟!

وبما أننا ركزنا دراستنا في حالة المغرب الأقصى بالذات ، فقد وضحنا في أي سياق تاريخي كان يوجد المغرب منذ القرن السادس عشر . إذ كان يواجه التوسع الاستعماري الاوروبي المندفع في غزو خطر ، ولم تكن له أي حرية اختيار الوسائل للدفاع عن النفس . والواقع أن المغرب لم يكن إلّا حالة خاصة توضح لنا الوضع العام الذي كان يجتاز منه المغرب الكبير .

لقد أشرنا من قبل كيف أنه كان معرضا لحصار بحري دائم تمارسه عليه مجموع الدول الاوروبية . فكان من الطبيعي أن تقوم دول المغرب برد الفعل ، حسب طريقتها وبالوسائل التي كانت تتوفر عليها ؛ فهي ، بهذا المعنى ، كانت تدافع عن وجودها وتحاول أن تشق لنفسها طريقا في البحر الذي هو ملك لجميع الشعوب وممر مشروع لها .

لكن أوروبا الأمبريالية كبر عليها أن تعترف لشعوب المغرب بحقهم في البحر ، فكيفت حسب هواها هاته الصفحة من التاريخ وأوحت إلى مؤرخيها بأن يكتبوها على الشكل الذي يلائم مصلحتها وأنانيتها . وهكذا لم يترددوا في نعت شعوب يدافعون عن حقوقهم ويقاومون التوسع الاجنبي بصفة **المتبربرين** BARBARESQUES ومن ثم تتضح لنا الرؤية المذهبية « الايديولوجية » ، التي تحل محل التاريخ .

ويقول المؤرخ الفرنسي ج. مونلو في كتابه **الدول المتبربرة** :

« إن لفظة متبربر حينما يفوه بها الاوروبي تثير سلسلة من الأصداء والذكريات . فالالتباس بين البربر

مذكرات من التراث المغربي

كاسم علم والبربر كنعت دال على الهمجية كان أمرا طبيعيا ، بحيث حصل على الفور . وساهمت رواسب هذا الخلط في رسم صورة عن هؤلاء المتبربرين ، تقدمهم كشعب بحري ، ولوع باللصوصية ، عدو للدين . ونظرا لما كانت تعاني بلاده من فوضى مزمنة ، فإنه لم يكن يعترف بالسلطة الا بصورة نظرية ومتباعدة ، سلطة العثماني أو الشريف ، مثلا ، وهذا الشريف لم يكن يمارس سلطته إلا في بعض الجزر الصغيرة من بلاد المخزن الواقعة في محيط بلاد السيبة ».

ليس من شأن المؤرخ أن يبرر الأحداث على المستوى الأخلاقي ، وإنما عليه أن يفسرها . وبهذا المفهوم كانت القرصنة بالنسبة للبلاد المغربية وسيلة للدفاع عن وجودها وأسلوبا لمواجهة أعداء أقوى منها كانوا يسخرون قوتهم لخنقها والضغط عليها وحرمانها من حريتها في استعمال البحر بالطرق المشروعة والعادية ومن الاتصال مع العالم الخارجي سواء عن طريق البر أو البحر . ولسنا في حاجة إلى التذكير بأن البرتغال عمل كل ما في وسعه للقضاء على تجارة المغرب القافلية التي كانت تشكل موردا اقتصاديا حيويا بالنسبة للبلاد . وعمل البرتغال في نفس الوقت على تقويض تجارة المغرب الخارجية باحتلاله معظم الموانىء المغربية الواقعة على المحيط الأطلسي . وفي وضع تاريخي من هذا النوع تصبح القرصنة ، سواء اعتبرناها جهادا أم غير ذلك ، موقفا لامناص منه ، وليس فيه ما يثير العجب .

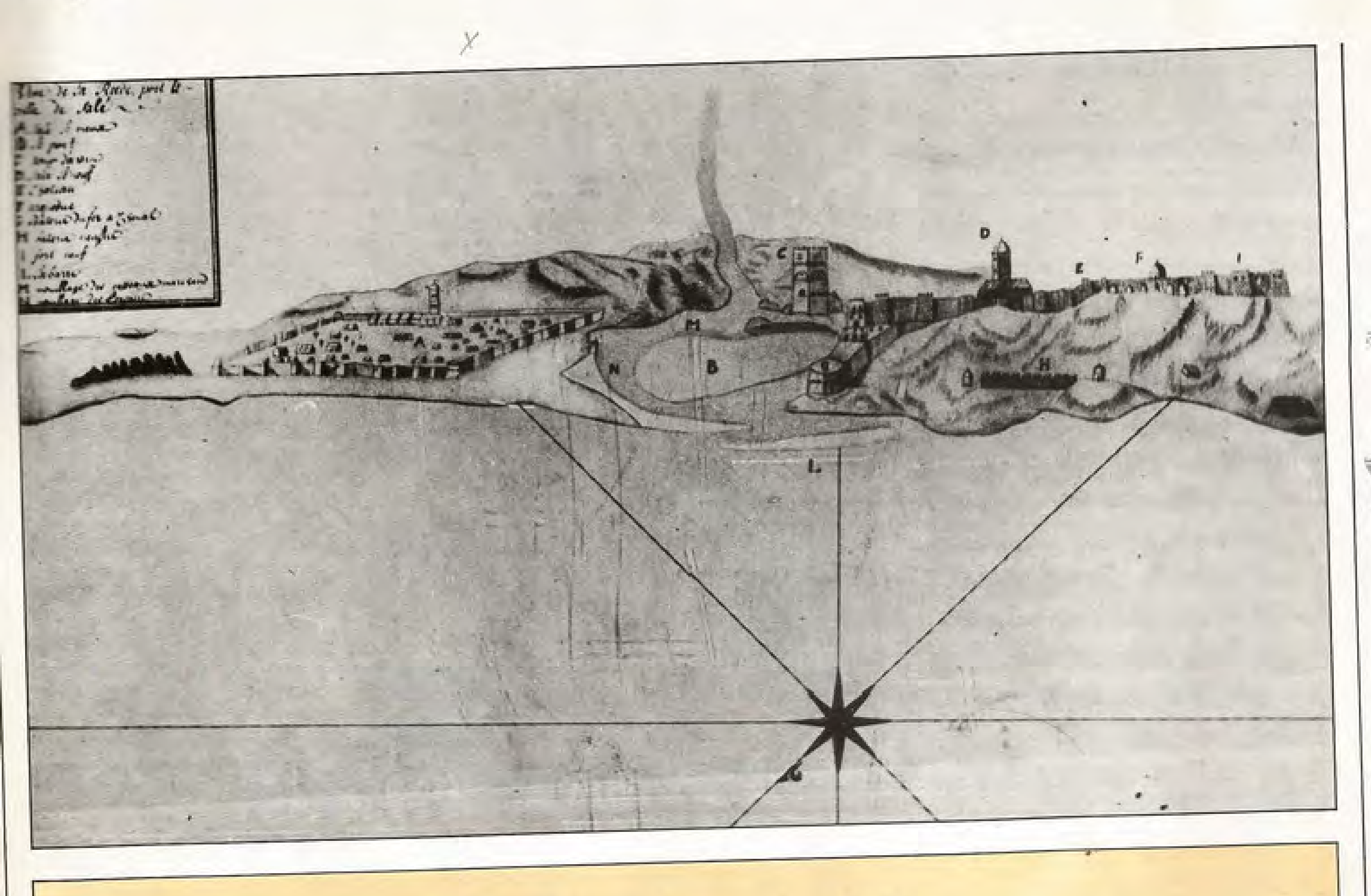
ثم ، بأي منطق يسوغ لاولئك المؤرخين الاوروبيين أن ينددوا بقرصنة المغاربة ويتناسوا القرصنة التي مارستها أوروبا ضدا على المسلمين ، أثناء العصر الوسيط وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والتي كانت قواعدها موجودة في صقلية وألمرية [illegible] ولافاليت وليفورن .وبيزا وبالما إلخ . وكيف [illegible] لهم أن يتحدثوا بإطناب عن عدد [illegible] المحتجزين في موانىء سلا والجزائر [illegible] يذكرون أي شيء عن عدد المسلمين [illegible] يحركون المجاذيف في السفن المسيحية [illegible] معرضون للضرب بالسياط ؟ وكيف [illegible] كانت تتعرض له مدن كسلا وطنجة من [illegible] مدفعي مكثف من حين لآخر . في [illegible] عمليات انتقامية ؟

إنه من السهل التنديد بالقرصنة [illegible] باسم مبادىء الاخلاق الدولية ، إذ [illegible] كظاهرة معزولة عن سياقها التاريخي [illegible]

منظر لمرسى ومدينة سلا .
(تصميم يرجع إلى القرن السابع عشر).

ولما تيقنوا من تفوقهم بدأوا في محاولة القيام بالنزول المفاجىء .
(رسم بوجي – 1680. متحف البحرية بباريس).





سلا قبيل حركة القرصنة

« ...وضواحي سلا كلها رملية إلا بعض الاراضي الزراعية التي ينبت فيها القليل من القمح ، غير أن البساتين كثيرة ، وكذلك الحقول التي تنتج كمية عظيمة من القطن . ومعظم سكان المدينة حائكون يصنعون ثيابا من القطن في غاية الرقة والجمال . وتصنع كذلك بسلا كمية وافرة من المشط تباع في جميع مدن مملكة فاس ، إذ توجد بجوار هذه المدينة غابة عامرة بأشجار البقس وغيرها من الانواع الاخرى العديدة الصالحة لهذا العمل .

يعيش الآن الناس في سلا عيشة طيبة جدا ، إذ يوجد فيها حاكم وقاض وعدد من الموظفين الاخرين أمثال موظفي الجمارك وضرائب المعاملات التجارية ، لان عددا كثيرا من التجار الجنوبيين يأتون اليها ويعقدون فيها صفقات هامة ، ويلقون من الملك عناية خاصة لان تجارتهم تحقق لهم أرباحا ضخمة . ولهؤلاء التجار مخازن سواء في فاس أو في سلا ، ويتعاونون عند شحن بضائعهم فيعمل الواحد منهم لحساب الاخر . ولقد رأيتهم في معاملاتهم مخلصين ومهذبين جدا ، ينفقون أموالا عظيمة لاكتساب صداقة الامراء ورجال الحاشية ، ولا يفعلون ذلك جشعا واستغلالا لهم ، بل ليتمكنوا من العيش اللائق في تلك البلاد الغربية .

وكان بسلا في عهد شبابي وجيه جنوي معظم بصفة خاصة يدعى مسير طوماسو دي مرينو ، وهو رجل عاقل خير حقا ، وغني جدا ، يقدره الملك ويحبه كثيرا . عاش في فاس ثلاثين سنة ، ولما وافته المنية أمر الملك بنقل جثته إلى جنوا تنفيذا لوصيته . وقد خلف هذا الرجل عددا من الاولاد كلهم أغنياء متمتعون بالحظوة عند الملك وحاشيته كافة... »

ميادين عمل القراصنة

جرت العادة أن تخرج بعض السفن القرصانية في أواخر فبراير ومارس نحو رأسي « سان فانساف » و « سانت ماري » ، وفي شهر أبريل تخرج كلها وتذهب لترسو أمام رؤوس « فينستر » و« أورتكيير » و « لاروك » في عرض البحر . وفي شهور يونيو ويوليو وغشت تقف قرب الشاطىء ، وفي شهر شتنبر ترجع إلى داخل البحر إلى آخر الشهر حيث ترجع من هاته الرحلات ، وقد أفلتت من الرياح التي تصادفها وهي تباشر عملياتها القرصانية في جزر « بايون » و « بيلدوف » و « سيساركاس » على بعد ثلاثين كيلومترا غربي « كورونيا » وإذا خرج شهر شتنبر ، ذهبت إلى عرض الكاناريا‌س حيث تنتظر السفن الذاهبة لشحن الخمور ، وأثناء الصيف تذهب مراكبهم من صنف « كاليوط » و بعض السفن لتراقب البحر من رأس « سانت ماري » إلى رأس « لاروى » .

« المصادر غير المنشورة قبل لتاريخ المغرب » .



كانت هذه الرسوم الساذجة تعمل على تعبئة الرأي العام الأوروبي وخصوصا الاغنياء لأجل التبرع بالفدية ليتم سراح الأسرى .
(تاريخ بلاد البربر وقراصنتها باريس – 1637).

كمجموعة من أفعال العنف والعدوان . لكن مهما وضعت في سياقها التاريخي الصحيح باعتبار المستويين المحلي والعالمي ، فإن نظرتنا إليها تتغير ، إذ لا نرى فيها مجرد أعمال لصوصية ونكتشف حينئذ أن لها معنى تاريخيا واضحا فهي تعبر إما عن رفض أو ثورة لشعوب على ما كانت تمارسه دول أوروبية قوية من تعسف فيما يخص حق استعمال البحر . فهاته الدول لم تأخذ بأية قاعدة عدلية أو منطقية في هذا الأمر بل إنها أخذت بمبدأ الحق للأقوى كأساس لسلوكها . ومن هاته الجهة تسببت إلى حد كبير فيما تعاني منه أقطار المغرب ، اليوم ، من تخلف وبعد أن مهدت الطريق إلى استعماره .

بنظرة تاريخية خاطفة نتمكن من إدراك أهمية البحر الحيوية بالنسبة للمغرب . إنه أساس لاستقراره ونموه الاقتصادي . وهو أمر يتجلى لنا بكل وضوح إذا نظرنا إلى التطور الذي حصل في البلاد منذ القرن السادس عشر . حيث إن أحداثا لها دلالتها تبرز أمام أعيننا . وسنقتصر على ذكر أهمها :

1 – المثال الذي تقدمه لنا إمارات أبي حسون السملالي في القرن السبع عشر ، إذ تمكن من بناء دويلة غنية ، بفضل المبادلات التجارية مع أوروبا عن طريق ميناءي أكادير وماسة ؛

2 – الدلائيون ، من جهتهم ، أخذوا بضرورة الوصول إلى المحيط الاطلسي ليتحولوا إلى دولة بكل معنى الكلمة ، الشيء الذي يفسر نزاعهم مع العياشي واستيلاءهم على مدينة سلا ، التي كانت أوسع مركز للتجارة في مغرب القرن السابع عشر ؛

3 – وبنفس الدوافع ، أيضا ، اجتهد المولى إسماعيل في تحرير شواطىء المغرب وتمكن من تحرير طنجة والعرائش والمهدية ، مما أتاح إنعاشا للتجارة البحرية التي حققت بعد ذلك نموا سريعا . وكان

تشــكرات

لقد ساهمت عدّة جهات ، بما زودتنا به من وثائق ومخطوطات وصور .
ويطيب لنا توجيه خالص الشكر إلى كل من :

- المرافق التابعة للسيد الوزير الاوّل
- وزارة الشؤون الثقافية
- الخزانة العامة بالرباط
- المركز الوطني للتوثيق
- وكالة المغرب العربي للأنباء
- خزانة الاوداية
- الخزانة العامة بتطوان

كما نحرص بالتأكيد على فعالية المساهمات التي بذلتها هذه المؤسسات والمرافق ، والتي ذللت أمامنا الكثير من الصعوبات التي تعترض عادة انجاز مثل هذا العمل الثقافي الاعلامي الهادف .

نهاية الطبع : فبراير 1985
الكتابة الفوتوغرافية : NORD ORGANISATION (LUGANO)
16 ، زنقة الجديدة - الرباط -
الطبع والتجليد :
ALTAMIRA. S.A. MADRID
الايداع القانوني : الخزانة العامة والأرشيف بالرباط
رقم : 264 / 1984
ISBN: 84-599-0503-9 (obra completa)
ISBN: 84-599-0506-3 (Volumen 3)
Depósito legal: M-8.845-1985